يوسـف القعـيد

مفاكهة الخلّان في رحلة اليابان

دار الشروق

٣ إهـــداءات

إلـــى ..

أحمد عرابى ..

صاحب النصيحة الأولى التى صنعت معجزة اليابان

وأحمد فضلى

أول مصرى وضع قدميه على أرضها

وأيضا إلى ..

ياسونارى كاوباتا

الذى قادتنى كتاباته إلى بلاده

قبل أن أسافر إليها ..

To: www.al-mostafa.com

المصافحة الأولى

. . اليابان مرة واحدة؟ من كان يتصور هذا حتى بعين الخيال؟!

عن نفسى لم أتخيل للحظة أننى سأصل إلى هذه البلاد، وأننى سأخطوا على أرضها بقدميّ.

ولكن هذا ما جرى.

وتلك هى التفاصيل.

بدأ الأمر على شكل اتصال تليفونى من محمود عبده، ولأننى لم أكن قد تشرفت بمعرفته من قبل، قال لى إنه من سفارة اليابان فى القاهرة، وبعد التعارف الأول أخبرنى أن المستر سوزوكى أحد المسئولين فى السفارة يريد أن يزورنى، فمتى وأين يكون اللقاء؟

رن الاسم فى إذنى. سوزوكى؟ إنه اسم نوع من السيارات اليابانية التى غزت مصر مرة واحدة، حوالى منتصف السبعينيات، مع الرياح الأولى للانفتاح الاقتصادى. سبقتها حملة دعاية مكثفة، قضت بضربة واحدة على أصحاب عربات الكارو الصغيرة، التى كانت تنقل البضائع والخضروات والفاكهة بين الأحياء القريبة فى المدن، وبين القرى والبنادر فى الريف المصرى. وتماما، مثل عمليات نسف الحمامات القديمة، تم التخلص من هذه العربات التى اكتشف الجميع فجأة أنها أصبحت تهدد المرور فى شوارع العاصمة وأى شوارع أخرى، وتصيبها بحالة من التصلب المرورى. وهكذا جرت عملية التبدل الاجتماعى والتغيير الذى كان من المفروض أن يتم عبر سنوات، قد تطول وقد تقصر، ومن خلال آليات مجتمعية معقدة. تتداخل فيها اعتبارات كثيرة، متوازية أو متقاطعة. أقول جرى هذا التبدل.

بضربة وحيدة اختفت عربات الكارو، وجرت تنقية هواء شوارع المدن من عبارات كانت مألوفة، مثل: «شى ياحصان. حا ياحمار. كرباج ورا متعاص خ. .» وأحيلت إلى المعاش شخصية على عوض الشعبية، التى كانت تطلق على عربجية العربات الكارو.

وحلت مكانها عربات نصف النقل الموحدة التى تحمل اسم «سوزوكى» كانت عربات صغيرة محندقة واطئة، لا يعرف الإنسان من أين لها بالقدرة على حمل ما كانت تنقله عربات الكارو.

كنت محملا بموقف عاطفى تجاه وسيلة نقل قديمة كانت جزءا من المشهد الذى رأيناه فى طفولتنا ورافق صبانا ومراهقتنا، ولكن - على الناحية الأخرى، واستجابة لاعتبارات اقتصادية بحتة - كان التخلص من الحمير - وليس الخيل - التى كانت تشد هذه العربات، وأكلها من البرسيم فى أيام الربيع، والتبن والفول فى أزمنة الجفاف مسألة صعبة.

كانت سوزوكى اسم نوع من العربات نصف النقل اعتبر مجيئها إلى بر مصر تغييرا جذريا فى شكل الحياة اليومية فى بلادى، ولكن هذه لم تكن أول مرة اكتشف أنه اسم إنسان أيضا، فقد سمعت من قبل أسماء مسئولين لا تخرج عن كونها أسماء أنواع من السيارات، وإن كان هذا السماع قد تم عبر وسائل الإعلام. هذه المرة أسمع كلمة سوزوكى باعتبارها اسما لإنسان. ها هو المستر سوزوكى يجلس أمامى فى مكتبى بدار الهلال. شاب صغير السن، وعلى الرغم من أنه يابانى فهو أميل إلى الطول، يبدو أن السلالة اليابانية فى طريقها إلى التطور، فهو أطول قليلا من اليابانيين الذين تعودنا على رؤيتهم أو التعامل معهم وإن كان الوجه هو نفسه ذلك المزيج من الملامح المغولية والكورية والصينية، ملامح شرق آسيا التى احتفظت بسماتها المتميزة على مر القرون الطويلة.

أما محمود عبده فهو وجه مصرى صميم، أكبر من سوزوكى قليلا فى السن، وجه مصوص أسمر، يبدو كما لو كان منحوتا من بازلت أسوان، وكلاهما سوزوكى ومحمود يضعان على العينين نظارات طبية. كان سوزوكى يتكلم باليابانية ومحمود عبده يترجم إلى العربية ترجمة فورية. خيل إلىّ أن فى فمه لسانان لسان عربى وآخر يابانى. قلت لنفسى وأنا أسمع ترجمته السريعة والمتلاحقة: يابخته!

قال سوزوكى، إنه يمثل مؤسسة اليابان فى القاهرة «عرفت فيما بعد أن هذه المؤسسة هى الذراع الثقافى لوزارة الخارجية اليابانية، وهى تقوم بالعمل الذى يقع فى منتصف المسافة بين الخارجية والثقافة، خاصة وأن اليابان لا توجد فيها وزارة للثقافة» قال لى سوزوكى إن هذه المؤسسة توجه دعوة كل سنة لكاتب من الكتاب المصريين، يسافر إلى اليابان ويقضى هناك أسبوعين بخلاف فترة السفر فى الذهاب والعودة، وتضع المؤسسة له برنامجا لرؤية اليابان.

ولمن لا يعرف مثل هذه المفردات من خارج الأوساط الصحفية وجماعة المثقفين، لابد من وقفة تعريفات مع كلمة دعوة، التى هى فى النهاية عقد تواطؤ بين صحفى وجهة ما. مع أن الصحافة المحترمة فى كل مكان من الدنيا تكتب بجانب ترويسة أسماء القيادات، إن هذه الصحيفة لا تقبل الدعوات من أى جهة أو مؤسسة أو فرد أو حكومة أو هيئة دولية. وتتحمل نفقات سفر وإقامة محرريها ومصوريها وكتابها، وكل ما تطلبه من أى جهة ما، هو تقديم التسهيلات لمن يمثلها من الصحفيين والمصورين والكتاب.

ولكن أصل المشكلة وجوهرها أن الصحافة المصرية لم تعرف هذا الترف إلا فى أضيق الحدود، فلا يسافر على حساب الجريدة إلا رؤساء التحرير فقط، وهكذا تربينا وتعودنا على السفر المجانى الذى يسمى سفر الدعوات، الذى كان جزءا من الصراع الدائر على أقدار صحافة مصر، وهذه الدعوات فى وجهها القبيح والمرفوض ربما كانت الوجه الآخر للمصروفات السرية لصحافة ما قبل ثورة يوليو ١٩٥٢.

ثم دخل الصراع السوفييتى الأمريكى على التواجد على أرض مصر، وبعد الاتحاد السوفييتى أصبح الصراع فرنسيا أمريكيا. هذا عن كونية الصراع. وعربيا كان البترول العربى قد تفجر حول مصر من كل جانب دون مصر وحدها، وبعد كامب ديفيد المصرية، وقبل أن نصل إلى مشارف كامب ديفيد العربية، جاء الصراع العربى المسعور على وراثة دور مصر الحضارى، وكانت الثقافة فى المقدمة.

وهكذا ضمن بعض الصحفيين، باعتبارهم جزءا من جماعة المثقفين، ذلك التدفق الهائل للدعوات إليهم من كل حدب وصوب. وأنا عن نفسى قبلت بعض هذه الدعوات ولولاها ما تمكنت من رؤية الكثير من بلاد الله الواسعة. كنت فى كل مرة أفضل ألف مرة أن أسافر على حساب مجلتى ومؤسستى، ولأن هذا لم يكن متاحًا، ولأننا جئنا إلى هذا العالم فى زمن شعاره: «إذا لم يكن ما تريد فأرد ما يكون». ولهذا أصبح توجيه الدعوات وقبولها جزءًا من مفردات الواقع الصحفى المصرى وجماعة المثقفين.

وقد رفضت من البداية أن تكون هناك علاقة بين الدعوة والكتابة عن البلد الذى أذهب إليه، وإن قررت الكتابة أكون حرا فيما أكتبه، وقد مارست هذا الحق إلى حد كبير ولولا أن ظروف اللياقة واعتبارات الدبلوماسية تقف ضد المواجهة الحقيقية، لقدمت الآن أمثلة لبلدان سافرت إليها وقضيت فيها أكثر من أسبوع، وعدت منها ولم أكتب حرفا واحدًا عنها، وبلدان أخرى دعيت إليها وكتبت عنها ما لم يُرض أحدا فيها. وكانت سفريتى لهذه الدولة أو تلك هى الأولى والأخيرة.

لكن الأمر وصل إلى مشارف المأساة الجارحة عندما بدأ البعض يتسول الدعوات، والبعض الآخر يضع خطه خمسية من أجل السفر إلى هذه الدولة أو تلك، وفى المقابل يبدو لى أن معظم الدول تتعامل مع الدعوات باعتبارها البديل للإعلان المباشر والواضح والصريح، ومع الارتفاع الشديد والجنونى فى أسعار الإعلانات، تبقى الدعوات هى الأرخص ألف مرة من الإعلان.

لقد أكدت لى تجربة ربع قرن إنه لا يوجد قرش واحد ينفق فى دعوات أو خلافه لأهداف بريئة؛ وراء كل مليم غرض وهدف، والإمكانية الوحيدة هى تقليل مساحة الخسائر بقدر الإمكان؛ أى التلامس مع اللعبة ولكن بأقل الخسائر الممكنة.

كان سؤالى الأول لمستر سوزوكى:

ـ هل الكتابة عن اليابان شرط لقبول الدعوة وتنفيذها؟

قال على الفور عبر محمود عبده:

ـ لا علاقة بين الأمرين أبدا.

عدت أسأله:

ـ وفى حالة الكتابة، هل لابد وأن تكون إيجابية؟

رد على السؤال بسؤال:

ـ ما معنى كلمة إيجابية؟!

وقبل أن أرد كان محمود عبده يشرح له باليابانية المقصود بالكلمة.

قال لى سوزوكى إنهم لا يطلبون منى أى كتابة عن اليابان وإن كتبت فأنا حر تماما فى أن أكتب ما أشاء، فهم لا يعرفون تعبير الكتابة الإيجابية أو الكتابة السلبية، ما يعرفونه فقط أن هناك كتابة جيدة وأخرى رديئة.

أفهمنى سوزوكى أنه فى ميزانية المؤسسة دعوة كل سنة لكاتب ولابد من تنفيذها خلال هذا العام، وذلك بسبب ظروف الاعتمادات المالية.

كان ذلك فى أوائل سنة ١٩٩٣، واكتشفت لحظتها أن اليابان جمعت بين المعجزة الاقتصادية المبهرة التى نسمع عنها ليلا ونهارا، وقدرا هائلا من الروتين الذى كنت أعتبره سببا فى تعويق التجربة المصرية. فى حالة عدم سفرى فى الوقت المحدد ستلغى الدعوة

لهذا العام، ويرحل اعتمادها المالى إلى السنة التالية، أو يحول إلى أى بند آخر فى الميزانية. تساءلت بينى وبين نفسى: هل يعنى هذا مرونة فى التعامل اليابانى مع البيروقراطية؟!

من حيث المبدأ قبلت الدعوة ورحبت بها، وسألت محمود عبده عن أنسب الأوقات لزيارة اليابان، فقد عرفت أنه زارها أكثر من مرة، فقال لى إن الاستعداد لتنفيذ الزيارة ووضع ترتيباتها يستغرق بعض الوقت، وبالتالى قد يكون سبتمبر مناسبا لإتمام هذه الزيارة.

كان سؤالى الأول بعد الأخذ والعطاء عن القضية التى تشغلنى منذ فترة: لماذا ينتحر أدباء اليابان؟ وقد تخلص سوزوكى من الإجابة عندما ضحك قائلا: إننى مادمت سأسافر من الأفضل لى أن أطرح السؤال هناك وأحصل على الإجابة وأخبره بها عند العودة إلى مصر مرة أخرى.

الغريب أننى اكتشفت فى نهاية اللقاء أن سوزوكى يعرف العربية، ولكنه فى اللقاءات الرسمية يفضل الكلام باليابانية عبر مترجم معه، اعتزازا منه بلغته الوطنية التى هى جزء من الانتماء الوطنى عنده، مع أننا نتشدق بلغات أخرى، وتتعوج ألسنتنا ونحن نحاول النطق بها كنوع من الفشخرة الكدابة والزيف الاجتماعى الذى نمارسه ٢٤ ساعة كاملة فى كل يوم.

لقد سافرت إلى هذا الجزء من العالم من قبل مرة واحدة واعتذرت عن السفر فى المرة الثانية، أما السفر الذى تم فقد كان إلى كوريا الشمالية حيث قضيت فيها أسبوعين ويومها أشاروا إلى بحر قريب وقالوا لى إنه بحر اليابان، وإن اليابسة التى بعد هذا البحر هى اليابان نفسها.

كان شبح اليابان يخيم على الرحلة كلها باعتبارها الدولة الرأسمالية القريبة من كوريا الشيوعية. لم تكن اليابان تذكر سوى مسبوقة بكلمة الإمبريالية اليابانية التى لا تختلف عن الاستعمار الغربى.

وعندما ذهبت إلى اليابان بعد ذلك رأيت الناس هناك تتعامل مع كوريا الشمالية كما لو كانت غير موجودة، وكل ما سمعته عن كوريا كان عن مشكلة الجالية الكورية الموجودة فى اليابان والتى تعد أكبر جالية أجنبية فى اليابان وتتسبب فى العديد من المتاعب للحكومة اليابانية.

فى بعض الأحيان كنت ألمس إعجابا بكوريا الجنوبية، التى يقولون عنها، من باب الاختصار، كوريا سيول تمييزا لها عن كوريا الشمالية التى كنت أقول عنها: كوريا بوينج يانج.

كانت رحلتى الكورية هى أطول رحلة قمت بها فى حياتى قبل سفر اليابان طبعا. وحتى بعد رحلة اليابان ذات نفسها فقد تميزت رحلة كوريا أنها أكثر رحلة مررت فيها بمحطات كثيرة ومتنوعة. فقد شملت الرحلة من القاهرة إلى بيونج يانج، بودابست، موسكو فى الذهاب والعودة. فى بودابست مكثت بضعة ساعات وقضيت فى موسكو أياما وذلك بسبب فروق مواعيد خطوط الطيران المختلفة.

ورغم أهمية كوريا ورحلتها فى ذلك الوقت بالنسبة لى، وخطورة النقلة من قلب الشرق الأوسط إلى آخر نقطة فى اليابسة شرقا، فإننى لم أكتب حرفا واحدًا عن هذه الرحلة لسبب غريب، هو أن مترجمى الخاص كان فى كل صباح يسألنى عما سأكتبه عن بلادهم بعد العودة، ومن كثرة الإلحاح قررت ألا أكتب.

وتلك مشكلة قديمة أعانى منها، فمنذ أن أمسكت بالقلم بين يدى وأنا أفقد القدرة على الكتابة ما أن يطلب منى أن أكتب، حتى لو كان ذلك بالتلميح من بعيد. وعندما عدت ومارست السفارة علىّ نوعا من الوساطة تحولت إلى إلحاح، ثم أصبحت ضغطا لكى أكتب عن بلادهم، وكل هذا جعل إصرارى على عدم الكتابة نوعا من العناد الذى لم يفهمه الآخرون.

مع أننى كنت أريد أن أكتب عن أشياء طريفة وقعت لى هناك. يقف فى مقدمتها أننى عندما سافرت إلى كوريا الشمالية بدعوة من لجنة التضامن الآسيوى الأفريقى نسيت أن أحصل على تأشيرة دخول واكتشفت بعد سفر استمر أربعة أيام فى مطار بيونج يانج أننى من الصعب أن أدخل هذه البلاد لأننى جئت إلى هنا بدون تأشيرة دخول.

تساءل الناس: وهل من المعقول أن يحدث هذا؟ نبتت فى ذهنى كلمة واحدة: فلاح، كان باقى المثل يقول: «الفلاح لما يتمدن يجيب لأهله مصيبة». لم أقل هذا لأحد لأن من سيفهمه فى هذا المكان من العالم؟!

يومها منحت التأشيرة فى المطار، ليس لأننى فلاح غشيم، ولكن لأننى كنت قادما من موسكو. وصلت إليهم عبر الاتحاد السوفيتى، فأى خسارة خسرها التقدميون فى العالم بغياب الاتحاد السوفيتى، بكل ما كان يمثله من المعانى؟!

كنت أريد أن أكتب عن مترجمى الخاص الذى عمل ملحقا صحفيا فى العديد من العواصم العربية، وكانت عنده حكايات عن الزعامات العربية من الصف الأول والثانى. ابتداء من الكبار وانتهاء بالوزراء، الذين كانوا يحصلون على هدايا خاصة من زعيم بلادهم عبارة عن نبات الجنسانا المنشط الجنسى، الذى اشتهرت به كوريا على مر التاريخ. والرجل كان عبارة عن خزانة حكايات متنقلة، لأن كلامه لم يكن عن الجنسانا وحدها ولكن كانت لديه تحابيش عن أثرها، الذى كان يتتبعه ويرسل التقارير عنه إلى حكومة بلاده.

والدعوة التى لم تتم، وجهت لى خلال وجودى فى كوريا. وقد كانت من امرأة ضخمة جدا، عريضة من أعلى ورفيعة من أسفل، يبدو أنها كانت مدعوة لحضور المؤتمر الذى كنت مدعوا له فى بيونج يانج. وكلما شاهدتها فى الفندق رحت أحدق فيها، واستيقظت مصريتى فى أعماقى، وقلت لنفسى: هرم مقلوب، وحمدت الله أن أهراماتنا معدولة. فكل ما فى حياتنا مقلوب.

ذات صباح ونحن نفطر فى مطعم الفندق، وكان الجلوس فى الإفطار يتم حسب البلدان التى جئنا منها، حتى يوضع لنا الطعام المناسب لكل منا، وكنت أجلس فى مربع الشرق الأوسط، وكانت تجلس فى مربع شمال شرق آسيا.

فوجئت بها ذات صباح تتجه نحوى وتضع يدها على كتفى، وعندما نظرت إليها مرعوبا، أشارت إلى مكان قريب من المطعم وسبقتنى إليه، ففهمت أنها تريدنى لأمر ما، سرت وراءها مطمئنا، فنحن فى دولة شمولية، ذراعها يصل إلى الأسرة فى أعماق غرف النوم ولا خوف حتى على الهواء فى الشوارع.

كان هناك شخص ما يتحرك باتجاهنا معا، وكان المكان الذى نسير إليه عبارة عن صالون ملحق بالمطعم، جَلَسَت فجلست قبالتها، والشخص الثالث جاءت جلسته بيننا، وقد اتضح لى أنه مترجم عندما بدأت المرأة تتكلم.

كان الرأس هو أضخم ما فيهما والكتفين أعرض مساحة فى جسم كل منهما. والضخامة تبدأ من أعلى وفى وجهيهما معا رأيت العين على شكل خط رفيع. ما أن يضحك أحدهما حتى تغلق العين تماما، فلا يريان إلا بعد أن يتوقف الضحك.

تساءلت: ألا يمكن الضحك مع استمرار الرؤيا؟ يبدو لى أن سلالات هذه المنطقة كلها قد خرجت من بلاد هؤلاء، فلماذا أخذوا فقط ملامح الوجوه وتخلوا عن ضخامة الهياكل

البشرية ذات الخشب الطويل والعريض؟! كانت المرأة هى رئيسة اتحاد كتاب منغوليا وهى توجه لى الدعوة لزيارة «أولان باتور» وهذا هو اسم عاصمة منغوليا، وذلك فى ذكرى الثورة عندهم، وقالت لى -عبر المترجم- إن الترتيبات يمكن القيام بها من خلال سفارة بلادهم فى القاهرة.

تساءلت فى سذاجة:

- وهل فى القاهرة سفارة لمنغوليا؟ أين تقع هذه السفارة التى لم نسمع عنها، ولا فى صفحات الحوادث اليومية.

سألها المترجم وعاد يحمل إلى إجابتها أنها لا تعرف لسبب بسيط، أنها لم تزر القاهرة، والمترجم أيضا قال لى إنه لا يعرف مكان هذه السفارة، وإن كان لم يقل إن عدم زيارة مصر هو السبب مثلها. أضافت أننى يمكننى معرفة مكان هذه السفارة بسؤال سفارة موسكو فى القاهرة «كم كان هذا العقد متماسكا، مع أنه انهار فى غمضة عين. أليست مأساة؟!».

شكرت المرأة العملاقة التى بدت لى مثل الإنسان الأول الذى نراه فى أفلام الأيام الأولى فى تاريخ البشرية. أبلغتها موافقتى على تلبية الدعوة، وسعادتى بزيارة بلادها. وقفت ومدت لى يدا مثل المطرحة التى يستخدمونها فى خبز العيش أمام الفرن فى قريتنا. هزت يدى بشدة وقالت لى عبر المترجم: نلتقى فى أولان باتور. وقلت أنا أيضا ذلك وإن كنت قد أضفت: أو فى القاهرة.

سارت المرأة التى جمعت الضخامة المهولة والطيبة التى بدت لى من تصرفاتها معى وفى ذهنى تساؤل: هل وضعت لها إدارة الفندق سريرا خاصا، فى غرفتها، له حجم أكبر من سريرى أم لا؟ وبعد الإفطار صعدت إلى غرفتى، وألقيت نظرة على السرير لمعرفة إن كان يكفى حجم هذه المرأة، وتأكدت ساعتها أن ذلك مستحيل، فهى إما أنها تنام على الأرض أو أن فى غرفتها سرير خاص.

عدت متعبا من الرحلة كانت مساحتها المكانية واتساعها الزمانى قد أرهقانى بلا حدود بصورة تفوق حتى قدرة البشر على التحمل. قدمت الدعوة هدية إلى صديقى جمال الغيطانى الذى اكتشف أن فى القاهرة سفارة لمنغوليا فى مكان قريب من ميدان الدكتور فؤاد محيى الدين فى المهندسين «وكم فى القاهرة من سفارات لم نسمع عنها من قبل؟» وأن هذه السفارة لا تملك وسيلة اتصال مع بلادها سوى عبر موسكو. حتى التليفون لابد

وأن يمر بموسكو، وأنه لا يوجد ربط مباشر بين القاهرة وأولان باتور. فكل الطرق منها وإليها لابد وأن تمر بموسكو، ولأن خطاب الدعوة كان خاصا بمناسبة محددة التاريخ وكان باسمى أنا، وكان السفير لابد وأن يعود إلى بلاده، وإمكانية العودة إلى بلاده كانت أبطأ من تاريخ الدعوة، وهكذا لم أسافر أنا ولم يتمكن جمال الغيطانى من السفر ولم يقف أحدنا أمام قبور تيمور لنك أو هولاكو أو جنكيز خان الذين دوخوا الدنيا بكل ما فيها.

وهكذا ضاعت الفرصة على رؤية منغوليا ذلك البلد الذى لو قلت اسمه أمام أى مواطن عادى لظن أننى أذكر اسم نوع غريب من الطعام أو الفاكهة التى لم تزرع من قبل فى بر مصر. وبعد ذلك بسنوات أوفد صديقى الدكتور محمد نور فرحات إلى أولان باتور باعتباره خبيرا فى الأمم المتحدة لوضع أول دستور فى منغوليا بعد التحول الذى جرى. وما أكثر ما تحدثنا عن تلك البلاد التى سافرت إليها ولكن بعين الخيال.

أعود إلى سوزوكى ومحمود عبده، فقد مضيا وتركانى بعد هذا اللقاء الأول. وفى الأيام التالية، وحتى موعد سفرى، رأيتهما أكثر من مرة، فى أخذ ورد من أجل أن تتم هذه الرحلة، ولكنى جلست أفكر فى اليابان. ماذا تعنى بالنسبة لى؟!

أول خاطر جال بذهنى كان عن المعجزة الاقتصادية التى لا شك فى أنها معجزة فعلا فى زمن يخلو من المعجزات، لنختلف فى كل أمور الدنيا، وليصل الاختلاف إلى حدود التناقض، ولكن ثمة إجماع على أن ما جرى هناك معجزة، وما من إنسان منا لم تصله ثمار ونتائج هذه المعجزة؟ من الذى يجرؤ على القول إن بيته أومكتبه أو المسافة بينهما لا توجد فيها أشياء من معجزة اليابان؟ كل أدوات المدنيَّة جاءت من هناك.

عندما نتحدث عن الراديو الذى يصلنا بالعالم، ونستمع منه إلى الإذاعات، ويكون آخر ما نسمعه قبل النوم، وأول ما نتعامل معه بعد الصحو مباشرة، هذا الراديو لابد وأن يكون من اليابان. أعرف أن اختراع الراديو قد تم فى الغرب، وأن ثورة الترانزستور عرفت طريقها إلى البشرية هناك، ولكن من الذى حولها إلى إنجاز يدخل كل بيت؟ من الذى لا يشاهد التلفزيون اليابانى والكاسيت والفاكس والتليفون وكافة أدوات المطبخ؟ حتى الأقلام التى نكتب بها والسيارات التى يستخدمها الأغنياء منا جاءت من هناك.

منذ اللحظة التى يفتح الإنسان فيها عينيه، وحتى وقت نومه، فكل ما يستخدمه جاء من هناك. أعرف أن اليابان ليست الدولة الوحيدة التى تصنع هذه الأشياء، هناك صناعات أخرى فى بلاد مغايرة، ولكن عبارة «صنع فى اليابان» المكتوبة على هذه

الصناعات أصبح بمثابة ختم الحصانة، مع أن نجيب محفوظ قال لى إنهم فى الثلاثينيات كانت كلمة يابانى تعنى أن الصناعة رديئة. أو أنها مضروبة، وكان سعرها أرخص الأسعار، ومع هذا كان الإقبال عليها فى أضيق الحدود ولم يكن اسم اليابان يشكل علامة جودة أبدا. فمن الذى منحها ختم الحصانة، من؟!

وكيف تم هذا؟!

ما تعنيه اليابان بالنسبة لى ثانيا مأساة هيروشيما ونجازاكى، وقد كان عمرى عامًا واحدًا عندما وقعت هذه المأساة. عمرها من عمرى إذن. تطورت المدينتان معى طوال هذه السنوات التى عشتها، وما أكثر الأعمال الأدبية والفنية التى شاهدتها عما جرى لهيروشيما ونجازاكى، لدرجة أن شهرة المدينتين فاقت كثيرا العاصمة طوكيو وأصبح ذكر مدينة واحدة منهما قادراً على تلخيص التجربة اليابانية.

ثم جاءت القراءات فى الأدب اليابانى، خاصة الروائى، وقد نشطت حركة ترجمته إلى العربية مؤخرا. توقفت أولا أمام يوكيو ميشيما، ثم جاء بعده ياسونارى كاوباتا ليلغى أى إعجاب بغيره، وبأى كاتب يابانى آخر سواه. مناطق الظلال فى تجربة كاوباتا ومساحات الغموض عنده تولد عندك الرغبة فى معرفة ما هو أكثر عن الواقع. كاوباتا يقول الكثير بالامتناع عن القول، وروياته مزدحمة بالصمت الجميل.

الرواية فن التفاصيل الصغيرة، وأوراقها تشكل دفتر الحياة اليومية، وهى أكبر مقو للخيال الإنسانى، وهكذا سافرت إلى اليابان قبل أن أسافر إليها، وذلك على صفحات الروايات التى قرأتها عن اليابان.

يبقى آخر ما تعنيه اليابان بالنسبة لى، فقد قيل لنا عندما تعلمنا فى المدارس أن التجربة المصرية والتجربة اليابانية قد بدأتا فى وقت واحد تقريبا، وأن اليابان استفادت من التجربة المصرية. قيل لنا إن بعثة يابانية جاءت إلى القاهرة فى زمن الخديوى إسماعيل، وإن اليابان أرسلت مبعوثا إلى أحمد عرابى فى منفاه فى سيلان لكى تسأله عما جرى، وأوصله ووصل بمصر إلى الحال الذى وصلت إليه. وإن عرابى لخص التجربة فى كلمتين فقط: إياكم والديون، وإن هذه النصيحة أنقذت اليابان من كارثة مؤكدة. فى ذلك الوقت كانت اليابان تعوم فوق بحر من المناقشات المطولة حول الديون، كانت المسألة بالتحديد، هل تعتمد اليابان على نفسها فى إقامة نهضتها؟ أم تستدين من الغرب حتى تحقق مشروعاتها التنموية الكبيرة؟

إجابة عرابى حسمت النقاش الدائر، وأنقذت اليابان من ديون الغرب. وما أدراك ما ديون الغرب؟ لقد انتهت عندنا باستعمار أخذنا وسافر إلى العصور الوسطى، واستمر فى بلادنا أكثر من سبعين عاما. كان السؤال الذى يواجهنا فى لحظات الحقيقة والتعاسة هو: لماذا تقدمت اليابان وتعثرت مصر؟ واتسعت المسافة بين التجربتين لتصل إلى ما نراه الآن؟ كنت أصبح فى بعض الأحيان مثل الخواجة عندما يفلس حاضره، فيقلب فى دفاتره القديمة لعله يجد فيها ما يمكن أن يعوضه عن فقد حاضره.

كانت الحكاية القديمة تدمى القلب، كلما سمعت عن مدى تقدم اليابان غير العادى والمذهل فى أشكال الصناعة، ونحن فيما نحن فيه. كان يزيد من الإحساس بالإحباط كوننا نحتل مكانا مركزيا على خريطة العالم وهم على شمال السما، ومع هذا فهم أمامنا ونحن أمام أنفسنا.

واليابان ليست وحدها التى تشكل معجزة، كل يوم نسمع عن النمور الآسيوية وتجربتها التى تفوق حدود المعجزات، وما يجعل لها الأولوية فى دنيا الأساطير. إن هذه النمور كانت تعد إلى وقت قريب من العالم الثالث مثلنا، ولكنها تحركت فجأة وتحولت إلى معجزة من نوع خاص وفريد.

أعتقد أن نابليون هو الذى قال: عندما تتغير آسيا لابد وأن يهتز العالم كله. علاوة على ما جرى لليابان والنمور الآسيوية، هاهى الصين تفاجئ العالم بمعجزة أخرى عندما قررت أن تبدأ بالإصلاح الاقتصادى، وتقوم بثورتها الثالثة، وتصبح إحدى القوى القادمة فى الطريق لكى تساهم فى تغيير العالم. إنها المنطقة الأهم فى عالم اليوم والاقتراب منها ورؤيتها مهمة أيضا، بنفس أهمية ما يجرى فيها.

* * *

قمت برد الزيارة لسوزوكى واكتشفت أن سفارة اليابان فى القاهرة عبارة عن مكان مؤجر فى مبنى إدارى بشارع قصر العينى، مبنى زجاجى يعلن عن الزمن الجديد فى مصر. تذكرت بذخ بعض الدول وسفاراتها التى تشغل القصور والفيلات التى تطل على النيل مباشرة، سألت مرة أخرى عن أنسب موعد للقيام بزيارة اليابان، فقيل لى إنه سبتمبر ولكنهم عادوا وطلبوا منى تأجيل هذا الموعد. وكان من المفروض أن أسافر فى أكتوبر وإن كانت ظروفى أنا هى التى حالت هذه المرة دون أن تتم الرحلة فى أكتوبر. وهكذا اتفقنا

على أن تكون الرحلة فى الأسبوع الثانى من نوفمبر ، سألونى عما أرغب فى رؤيته هناك ، وقلت إننى سأقدم برنامجا مبدئيا ، يكون قابلا لبعض التعديلات عندما أصل إلى هناك .

استجابوا لطلباتى ما عدا بعض الطلبات ، مثلا كنت قد طلبت اللقاء مع أرملة الروائى مينشيما ومع الشخص الذى ساعده على الانتحار ، ومن المعروف فى بلادهم أن الإنسان عندما يقدم على الانتحار ، لابد وأن يقف معه أخلص إنسان إليه ، ليتمم عملية الانتحار ، إن عجز الإنسان المنتحر عن فعل ذلك بنفسه .

لقد نظروا باستغراب إلى الطلبين اللذين كانا جزءا من المشهد المصرى الذى كان - ومايزال - مشغولا بالجرى وراء كل ما هو مثير وغريب ، وهو الجو الذى عدانا به الغرب . ويبدو أن الجانب الشرقى فى الروح اليابانية كان أكثر وضوحا وقدرة على الصمود ، لم يردوا على بالسلب أو الإيجاب ، وقالوا إن هذا الطلب متروك لطوكيو وإن كان الكل يشك فى إمكانية تحقيقه .

طلب آخر اعتذروا عن إمكانية تحقيقه ، وكان لقاء المخرج العالمى اليابانى الأصل كيراساوا . قالوا إنه مشغول خارج طوكيو ، ومن الصعب تحديد موعد معه ، وإنه لا يفضل الكلام لأجهزة الإعلام ولكنه يعمل فقط . أما زيارة بلده ومتحف كاوباتا فقد رحبوا بها . وإن كانوا قد رفضوا لقاء أرملته وقالوا لى إنها الآن إنسانة عادية تعيش حياتها ولا علاقة لها بهذا الموضوع . كان وضع البرنامج مناصفة . هناك أمور وضعت فى البرنامج لأن الجانب اليابانى يريدنى أن أراها ، وأماكن وأشخاص أضيفت بناء على طلبى أنا .

كان آخر ما قمت به هو أننى تسلمت برنامج الإقامة فى اليابان حسب المكان والزمان محسوبين بالساعة وبشكل شديد التنظيم ودقيق ، أسماء الفنادق التى سأقيم فيها والمدن التى سأذهب إليها والأشخاص الذين سأقابلهم . وبالنسبة لكل فندق كان هناك ثبت بعناوين الفنادق وأرقام التليفونات والفاكس والتلكس دون سهو أو خطأ ، أو ترك أى أمر من الأمور للصدفة .

دعانى الملحق الصحفى اليابانى فى القاهرة إلى غذاء فى أحد مطاعم القاهرة . اتفقنا على أن أذهب إلى السفارة اليابانية الكائنة فى العمارة الزجاجية فى شارع قصر العينى أولاً حيث ألتقى بالسفير اليابانى والوزير المفوض ثم ننطلق إلى الغذاء بعد ذلك .

كان السفير قد سافر فجأة ، وعندما قابلت الوزير المفوض الذى كان يعرف العربية مثلى تماما ، كانت أمامه إحدى رواياتى بالعربية وبعد زيارة مجاملة قصيرة اتجهنا إلى المطعم . فى

أثناء نزولى من السفارة، كنت أتصور بعين الخيال، أن سيارات اليابان الحديثة ستكون فى انتظارى، لكن المفاجأة أن السيارة كانت مرسيدس بيضاء اللون وألجمت المفاجأة لسانى.

تصورت بعد مفاجأة السيارة، أن المطعم الذى سنتجه إليه لابد وأن يكون يابانيا، ولكن عندما ذهبت وجدت نفسى فى مطعم مصرى فى حى المهندسين. كانوا قد حددوا قبل الغذاء الوقت الذى سيستغرقه، وإن كنت قد جلست على طريقة المصريين والكلام يشرق بنا ويغرب.

ولكنى فوجئت فى أثناء الجلسة، وقرب انتهاء الوقت المحدد للغذاء، بأن الرجل بدأ ينظر فى ساعته، وعندما فعلت مثله اكتشفت أن الوقت يقترب من موعد الانتهاء، سألت نفسى: هل يوجد بداخله كمبيوتر؟ هل هو مبرمج بهذه الصورة القاسية؟ سألت نفسى عن مساحة الفوضى الجميلة والسبهللة المحببة فى أعماق هذا الإنسان. أين هى بالتحديد؟! قلت: من المؤكد أنه لا مكان لمثل هذه الأشياء أبدا.

سألت نفسى من جديد: وأين توجد منابع الإبداع فى هذه الشخصية. أليس نبع الإبداع هو نفسه نبع الجنون؟ قلت لنفسى: لأترك الإجابة إلى حين وصولى إلى هناك، فالواقع أصدق أنباء من الكتب.

* * *

يبقى السؤال فى نهاية هذه المقدمة التى طالت أكثر من اللازم: لماذا هذا الكتاب عن رحلتى اليابانية؟!

إنها المرة الثانية التى أجلس فيها إلى المكتب لكى أكتب كتابا عن رحلة.

كان الكتاب الأول هو: «الكتاب الأحمر: رحلاتى فى خريف الحلم السوفييتى» وكان عن عدد من الرحلات التى قمت بها إلى بلاد السوفييت. تمت كلها فى الأيام الأخيرة من التجربة السوفييتية، التى كانت حلم قطاع مهم من أبناء جيلى.

أما اليابان، الرحلة التى تحولت إلى كتاب خرج من التأثير الهائل الذى تركته هذه البلاد فى أعماقى، فقد سافرت إليها تحكمنى فكرة أساسية تقول إن النهضة المصرية واليابانية قد بدأتا فى فترتين متقاربتين؛ كان عندنا محمد على باشا مؤسس مصر الحديثة، وكان عندهم الإمبراطور مييجى بانى اليابان الحديثة، فلماذا تعثرت مصر وتقدمت اليابان؟ وأين نحن منهم الآن؟

أعرف أن السؤال قديم لا جديد فيه، سبق وأن طرح إبان نهضة مصر الثانية فى العصر الحديث التى قادها جمال عبدالناصر. ولكن الجديد هذه المرة هو طرح السؤال على الواقع ومحاولة استخلاص الإجابة عليه من المشاهدات الحية وليس من بطون الكتب.

إن الإحساس بالصدمة هو القاسم المشترك بين الرحيل إلى بلاد السوفييت فى ساعة اشتراكيتها الخامسة والعشرين، ورحلتى إلى اليابان. وهكذا كان كتابى الأحمر عن البلاد التى أعطت اللون الأحمر بعدا سياسيا وصدرته إلى الدنيا كلها؛ وعندما وقف على أبواب القبول فى أماكن كثيرة من عالم اليوم، بدأ السوفييت يزيلون هذا اللون من حياتهم. ومن نبع الصدمة الحادة خرج هذا الكتاب، من السؤال الحارق الذى لم يترك لى سوى الأرق والقلق والإحساس باللاجدوى فى كل لحظة قضيتها فى اليابان. وبدلا من العثور على الإجابة، عدت بيقين أن مشاكلهم ناتجة عن التقدم المذهل واللامحدود. وأن همومنا هى ابنة التخلف الذى من كثرة تعايشنا معه، وتآلفنا مع مفرداته لم نعد ننظر إليه على أنه تخلف.

يبدو لى أن الإنسان كائن آفة عمره الأساسية هى القدرة على التكيف والتعود والتآلف حتى مع التخلف.

وهكذا كان هذا الكتاب الخارج من رحم الصدمة، وأملى الوحيد أن يحدث للقارئ نفس هذه الصدمة، وفى هذه الحالة فقط، أكون قد حققت بعض ما أهدف إليه.

يوسف القعيد

القاهرة - مدينة نصر - ١٩٩٥

ـ واحـد ـ

ستة شهور من الاستعداد للزحف الطويل

. . استغرق الاستعداد للرحلة نصف عام، وفى هذه الشهور الستة جمعت كل ما صدر عن اليابان باللغة العربية، وإن كنت قد قررت البدء بالتجربة، بالتعامل المباشر مع الواقع اليابانى أولاً، خاصة وأن عناوين الكتب كلها تتحدث عن المعجزة اليابانية والتقدم اليابانى. خفت إن بدأت بقراءة هذه الكتب، قد تحولنى ـ قبل السفر إلى اليابان ـ إلى إنسان ذى بعد واحد، مبهور ومنجذب ومعجب، لا يملك سوى تقديم مقاليد ذهنه إلى التجربة، قبل أن يعطى نفسه فرصة التعامل معها.

نحيت الكتب جانبا. قلت فلتكن المعايشة وطرح الأسئلة على الواقع، ومحاولة الحصول على الإجابات من الناس والأشياء أولا، ثم تأتى القراءة بعد ذلك. وهكذا لم يبق لى سوى البحث عن القراءات التى يمكن أن تمتص الوقت الزائد فى الرحلة وليست القراءات السابقة عن اليابان على رحلة اليابان نفسها.

خاصة عندما عرفت أن الوقت الذى سأقضيه محبوسا فى الطائرة بين السماء والأرض، يصل إلى يوم وليلة فى الذهاب ومثلها فى العودة. وكذلك الوقت الذى قد يفيض عن حاجتى فى اليابان، وأنا لا أعرف الكثير عن إيقاع الحياة هناك، وعن البرنامج المعد لزيارتى، ومن الممكن أن أجد نفسى حبيس الفندق وقتا طويلا، وفى هذه الحالة يصبح الكتاب الجيد احتياطى أمان لى لمواجهة أى طارئ مجهول.

والكتب بالنسبة لى نوعان: كتب ما أن أفتح الصفحة الأولى منها حتى أنسى نفسى ولا أعود أتذكر أين أنا، إنها تلك الكتب التى تسرقنا من أوقاتنا ومن مفردات حياتنا اليومية وتشدنا حتى من أكثر همومنا تعقيدا. وهذه الكتب لابد وأن تكون مكتوبة بشكل جميل وعذب، تعيد للعين متعة القراءة. فضلا عن أن هذه الكتابة تصل إلينا من خلال أشكال

فنية أحبها وأسعد بقراءتها، وفى المقدمة تقف دائما الروايات المدهشة التى تنطلق منها إلى الحياة ونحن أكثر معرفة بها وإدراكا لقوانينها الداخلية وإلماما بشوارعها الخلفية.

وقد يتصور البعض أن حبى الأول هو كتابة الرواية، ولكن الغريب - وهذا ما أقوله لأول مرة الآن - أننى أحب قراءة الرواية قبل حبى لكتابتها. لا توجد متعة فى العالم تساوى أن أجد نفسى فى مواجهة نص روائى جميل وجيد وعذب.

ولكن السفر له قوانينه الأخرى، إنه حالة استثنائية تفرض ظروفا قد تكون خارجة عن المألوف، وبسبب حالة التوتر فى السفر أصطحب معى كتبا تريح الوجدان وفى المقدمة منها كتب المذكرات الشخصية والسير الذاتية وأدب الرحلات والاعترافات والرسائل الإنسانية، تلك الكتابات التى تقع على تخوم المنطقة التى هى آخر الواقع وأول الأسطورة ومقدمات الشعر والغناء والشجن الجميل.

أخذت معى مذكرات الدكتور ثروت عكاشة التى لم أكن قد قرأتها من قبل، كنت ما إن اقترب منها حتى أؤجلها لوقت قادم قد أكون أكثر احتياجا لقراءتها فيه. وهكذا تعاملت معها مثل الإنسان الذى يجد نفسه أمام عمل متأكد أنه سيسعد بقراءته بلا حدود فيؤجله لأزمنة صعبة قادمة وأيام مكفهرة لا يعرف متى تصل، وهكذا اجتمع لدى طبعتان من هذا الكتاب المهم.

حملته معى وقرأته فى رحلة الذهاب وأيامى الأولى فى طوكيو، فى الأوقات التى أخلو فيها إلى نفسى فى حجرتى، ولأننى سعدت بقراءة الكتاب الذى يقدم تجربة العمل الثقافى فى زمن عبدالناصر الذى يهاجمه الآن كل من هب ودب، فقد قررت أن أشكر الكتاب وأعبر عن امتنانى لصاحبه بطريقة عملية، يوم أن ذهبت إلى جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية. قدمت الكتاب هدية منى إلى قسم دراسات الأدب العربى والحضارة العربية، وقد سعدوا به جدا وشكرونى، ونفس الشىء فعلته مع كافة الكتب التى رافقتنى فى هذه الرحلة.

كانت معى مذكرات إنجى أفلاطون التى نشرتها دار سعاد الصباح فى ومضة عملها القصيرة والسريعة فى القاهرة، وصاحبة الكتاب إنجى أفلاطون من اللآتى تعرفت عليهن عن قرب، كانت إنجى صادقة فيما كتبته لدرجة أننى شعرت طوال قراءتى لمذكراتها كما لو كانت تتحدث إلى بنفسها وبلغتها التى تقف عند آخر مشارف العربية وأول مقدمات الفرنسية.

وحملت معى مذكرات الشاعر أحمد فؤاد نجم المكتوبة بعامية سلسة وعذبة مثل الماء الصافى وقد سعدوا بها فى جامعة طوكيو بدون حدود .

* * *

كتبى التى أحملها معى فى الغربة تقوم بدور التعارف ، أقدمها لمن أحبهم وكأننى بذلك أقـدم روحى لهم بـدلا من الكارت البـورجـوازى المطبـوع على ورق أبيض لامع الملمس . إنها جواز سفرى الحقيقى وبطاقتى الشخصية الوحيدة التى تعكس ما بداخلى ، وأنا أعتبر أن أقصى درجة من درجات الصداقة الإنسانية أن أقدم كتابا من كتبى إلى صديق .

والناس بالنسبة لى نوعان : نوع قرأ ما كتبته وهؤلاء أشعر عندما أتواجد معهم أن قلبى يستريح فوق مساحة من الزبد الناعم . ونوع ثان لا يعرف أصلا أننى كاتب أو يعرف ولم يقرأ لى ، وهؤلاء تصبح العلاقة الإنسانية معهم خَشنة من البداية وحتى تصل إلى نهايتها ، أشعر أن التعامل مع هؤلاء الناس هو عبارة عن مسلسل طويل من سوء التفاهم الذى قد يوصل إلى الكارثة .

إن أزمتى الحقيقية فى هذا العالم أن ما أكتبه لم يقرأ جيدا حتى الآن ، وهذا الشعور يتأكد لدى يوما بعد يوم ، وأقصى ما أحلم به أن يسكن هذا العالم بشر قرءوا ما كتبت ؛ فعندما أكتب تكون الكتابة بهدف التواصل مع الآخرين ؛ تبادل النجوى والتحدث معًا بحرية أكبر قدرًا من الحرية الممكنة والمستحيلة أيضا ، وأسعد لحظة فى عمرى عندما أقابل إنسانا ـ أعرفه أو لا أعرفه ـ ويكون هذا الإنسان قد قرأ لى شيئا ما . لحظتها أقف أمامه ولدى إحساس الفلاح الكامن بداخلى أن زرعة عمرى قد أثمرت وأينعت وحان قطافها ، أشعر لحظتها أن البذور كانت جيدة وأن التربة كانت خصبة وأننى أيضا تعبت وعرقت فى ريها ورعايتها والسهر عليها .

هل نفتح معا باب الشجن؟ ونتوقف أمام الصفحة الأولى فى ملف الأحزان؟ ذات يوم هاجمنى ناقد يعيش فى عاصمة الثلج والضباب ، يحضر إلى مصر كل صيف ، على طريقة بقرة حاحا ؛ من أجل أن يحلب آخر قطرة فى ضرع مصر . هل تعرفون ماذا كتب عنى فى هجومه؟ قال إننى لا أمشى إلا ومعى كتبى أوزعها على الناس كنوع من العلاقات العامة . طبعا لم يقل إن من يحمل كتبه أفضل من الذى يقدم كروت التوصية وخطابات النصب على الناس والهدايا الثمينة التى هى جوهر العلاقات العامة التى يتحدث عنها .

ما علينـــا

ها أنذا الآن استعد لرحلة اليابان وليس معى من زاد وزواد وأوراق اعتماد أقدم بها نفسى هناك سوى كتبى، وهل فى حياتى ما هو أهم منها؟ الأيام السابقة على السفر إلى اليابان لم تخل من مفاجآت ذات طابع يابانى، فقد فوجئت بالأخ محمود عبده يحضر لى أوراقًا كثيرة مكتوبة باليابانية ويطلب منى التوقيع عليها، كانت هذه الأوراق عبارة عن وثيقة تأمين شامل على حياتى خلال فترة بقائى فى اليابان، ضد الحوادث والوفاة والمرض والحريق والسرقة، كان المبلغ الذى حررت به الوثيقة يصل إلى حوالى ٢ مليون ين، وأرجو ألا يتصور أحد أن المبلغ كبير، فالعدد فى الليمون فقط. فبعد سفرى إلى هناك، اكتشفت أن القوة الشرائية للين تصل إلى ما قيمته حوالى عشرة قروش مصرية.

قال لى محمود عبده عندما وجد الدهشة على وجهى ضخمة وغير عادية، إننى لو مرضت وأنا فى اليابان لا قدر الله. وهذا احتمال وارد جدا، ألست بشرًا؟ أين سأذهب؟ وأين أعالج؟

قلت على الفور وبشكل بديهى انطلاقا من تجربتنا المصرية:

ـ بسيطة إن مرضت سأذهب إلى أى مستشفى حكومى.

رفع أصبعه محذرا قال لى:

ـ النشاط الحكومى فى اليابان شديد المحدودية، والعلاج هناك غال وهذا التأمين يضمن العلاج.

سألته:

ـ وإن مرت الرحلة دون مشاكل من أى نوع؟!

قال لى:

ـ تلك هى فلسفة التأمين، قد لا تحتاجه طوال فترة وجودك، ولكن الاستغناء عنه لا يقلل من أهميته.

بدا لى اليابانيون وكأنهم جميعا مثل رجال المخابرات المحترفين الذين تظهرهم المسلسلات والأفلام وكأنهم سوبر بشر لا ينسون أى شىء ولا يتركون أى قضية للصدفة أبدا، ويخططون لمائة سنة قادمة، وان كنت قد سعدت بهذه الطريقة فى التعامل مع الدنيا، فإن الفوضى المصرية اللذيذة تجعل الإنسان يفاجأ أكثر مائة مرة بأمور كثيرة، قد تكون

مزعجة بعض الشيء ولكن التغلب عليها والخروج منها هو الذى يعطى الحياة المصرية طعمها.

كان المتوقع أن تسبب لى الوثيقة حالة من الإحساس بالأمان، ومع هذا فعلى الرغم من الثقافة والقراءات إلا أننى إنسان قدرى. وفى أحيان كثيرة أوشك ألا أبذل مجهودا لتفادى ما يمكن أن يقع أو يجرى. وما يحدث لى أتقبله بفلسفة خرجت بها من الضهرية تقول: قضا أخف من قضا، وأدعو كل ليلة قبل النوم: اللهم لا نسألك رد القضاء ولكن اللطف فيه.

دعك من التشدق بالكلام الكبير الذى تقرؤه فى الكتب ونردده فى بعض الأحيان فالطبع غلاب. إنه يغلب القدرة على التطبع والإنسان الذى تكونت نظرته إلى الحياة ابتداء من النصف الثانى من الأربعينيات وفى قريتى الضهرية، الذى هو أنا، تبقى الثوابت فى شخصيته أقوى من أى ثقافة أخرى يتم اكتسابها بعد ذلك.

طبعا لم أقل لمحمود عبده إننا نعيش فى مصر فى ظروف بالغة التعقيد، ومع هذا فإن الموقف من التأمين، الذى نقبل عليه فى أضيق الحدود، مع أنه من ثوابت الحياة الجديدة. فالتأمين على الحياة - مثلا - ننظر إليه على أنه نوع من الادخار، ولولا انتشار سرقة السيارات فى الفترة الأخيرة بصورة تكاد تقترب من الوباء، ما قمت بالتأمين على سيارتى، أما باقى ما يملكه الإنسان وهو أقل من القليل فلا أفكر - حتى مجرد التفكير - فى حكاية التأمين هذه.

* * *

وهكذا تسلمت منهم تذكرة السفر (القاهرة، طوكيو، القاهرة). بدرجة رجال الأعمال، وهى درجة مستحدثة أكثر رفاهية من الدرجة السياحية العادية. وأقل من الدرجة الأولى. طبعا لم يكن لهذه الدرجة وجود قبل أن تظهر فئة رجال الأعمال وتحفر لها مكانا فى حياتنا، مع أننى شخصيا، مثلما أنظر إلى أى دبلوماسى على أنه نصف جاسوس. فأنا أتعامل مع كل من يقدمون أنفسهم باعتبارهم رجال أعمال على أن كل منهم مشروع نصاب.

وفى معظم الأحيان كانت تصدق توقعاتى وأحيانا كنت أتفلسف وأقول إننا لم نمر بمراحل التطور الاجتماعى بصورة طبيعية، ولكن المراحل قفزت فوق بعضها، واختصرنا البعض الآخر، وهكذا نجد أنفسنا أمام نماذج بشرية شوهاء فى بعض المجالات.

قبل حجز التذكرة سألونى فى السفارة اليابانية فى القاهرة عن الطريقة التى أفضل السفر بها، قالوا لى إن هناك أكثر من سكة للسفر، يمكننى السفر عن طريق إحدى العواصم الأوروبية، روما أو لندن أو باريس، وفى هذه الحالة استخدم شركة الطيران اليابانى مباشرة من العاصمة الأوروبية إلى طوكيو، أما من القاهرة إلى العاصمة الأوروبية فلى الحرية فى استخدام أى شركة طيران أحب.

الاحتمال الثانى أن آخذ شركة طيران سنغافورة، وسأقضى ليلة فى سنغافورة فى الذهاب والعودة، من كان يكلمنى قال لى إنه يفضل هذه الطريقة لأنه ينزل فى مطار دبى الدولى ترانزيت وهناك يمكنه شراء الأدوات الكهربائية التى يحب إحضارها إلى القاهرة.

كنت أعرف أن دبى لا تصنع أدوات كهربائية، وكنت أدرك أيضا وبنفس القدر أن هذا اليابانى لا يفضل استخدام أى شىء سوى الصناعة اليابانية كنوع من الاعتزاز بصناعة بلده الوطنية. فهل هذا الكلام رسالة لى من المفروض أن أستوعبها؟ قلت لنفسى، ولماذا الظنون والتخمينات والأخذ والعطاء. سألته: أى الأشياء يشترى؟ ولماذا من دبى؟ ولماذا ليست من طوكيو؟ قال لى إنه يشترى أدوات كهربائية من صنع اليابان، ولكن من السوق الحرة فى مطار دبى لأنها تكون فى العادة أرخص حتى من السوق الحرة فى مطار طوكيو.

استوعبت الرسالة وسكت.

* * *

عدنا للحديث عن طرق السفر سألتهم:

ـ ومصر للطيران؟!

قالوا لى إنها الشركة الوحيدة التى تطير طائراتها مباشرة من القاهرة إلى طوكيو تنزل فقط ترانزيت ساعة واحدة فى بانجكوك وأخرى فى مانيللا. ولكننا لا نغير الطائرة.

ورغم الإغراءات التى قيلت لى بشأن طيران اليابان، ففضلا عن أنه طيران الدولة الداعية ومن حقها حتى أن تصل إلى الاحتكار فى السفر، فقد قيل لى إنه أقل الرحلات وقتا من القاهرة إلى طوكيو وأن فارق الطيران يصل إلى الساعات العشر. فضلا عن أن كل مقعد له فيديو وتلفزيون خاص به. وقد أنشطت هذه المعلومة خيالى، وإن كان قد قدر لى رؤيتها على الطبيعة بل والتعامل معها مباشرة بعد ذلك فى رحلة لاحقة على طيران الخليج.

أما عن مزايا سنغافورة فهى إلى جانب الراحة التى تصل إلى حدود الدلع فيكفى ترانزيت دبى ومبيت ليلة فى عاصمة سنغافورة. مصر للطيران كانت الشركة الوحيدة التى لم يقل لى أحد عنها أى شىء سوى أن رحلتها مباشرة، لا يقطعها سوى النزول مرتين كل مرة لا تتعدى الساعة. وقد اخترت شركة بلادى على الفور وكانت لدى أسبابى.

أولها خوفى الدائم من احتمال ضياع حقائب السفر، وخاصة فى عملية تبديل المطارات أكثر من مرة، وهذا الخوف جزء من طبيعتى فى أثناء السفر، فأنا لا أحب تغيير عاداتى، وأنظر إلى فكرة السفر نفسها على أنها تمثل نوعا من التعامل مع المجهول الذى لا يعلمه سوى الله سبحانه وتعالى.

إننى أنظر إلى نفسى الآن بقدر من العجب والدهشة كما لو كنت أنظر إلى شخص آخر سواى؛ فبطل رواية أيام الجفاف وهى من رواياتى المبكرة جدا هو خلف الله البرتاوى خلف الله، يصاب بالجنون لمجرد أنه عين مدرسًا فى البحيرة وهو فى الأساس من أبناء المنصورة، فما بالك بركوب الهواء والطيران على ارتفاع أكثر من عشرين ألف قدم؟! إنها حكاية ولا فى حواديت ألف ليلة وليلة.

ما من سفرية إلا وفضلت عدم النزول فى محطات على الطريق، فأنا أومن فى حياتى أن الطريق المستقيم هو أقصر مسافة بين أى نقطتين، ورغم ندرة الحوادث التى وقعت لى خارج بلادى، بعيدا عن تربة الوطن وترابه، إلا أننى ما إن أبدأ رحلة السفر حتى يخيل لى أننى لابد وأن تقع لى حادثة ما وفى الأغلب ستكون حادثة نشل.

كانت الرحلة طويلة؛ يوم كامل وليلة بطولها، ومن الأفضل أن تكون الطائرة قطعة من بلادى من حيث الجو العام والمعاملة والطعام والإحساس بالأمان. هل هناك ما هو أحلى من بساطة المصرى وسهولته فى التعامل وبعده عن الشكليات؟ فما بالك وإن كان هذا المصرى سيظل معك حتى آخر قطعة من اليابسة فى هذا العالم؟

إن كان هذا المصرى مضيفة فى طائرة بين السماء والأرض. إن هذا يقلل من الإحساس بعبء السفر النفسى الذى يعانى منه الإنسان. يضاف إلى هذا اعتبار آخر. ما أن بدأ صراع شركات الطيران على الركاب مما يذكرنى بموقف التاكسى فى أحمد حلمى فى أيام الركود وهى كل أيام الأسبوع ما عدا الخميس والجمعة والإجازات والأعياد والمناسبات العامة. ما أن حدث هذا حتى تخندقت فى تفضيل شركة بلادى، فهى جزء من حلم القطاع العام المصرى، صمام الأمان فى نصف القرن الأخير للمجتمع المصرى كله.

ما من مرة تكون هناك فرصة للمقارنة حتى أقول بدون تفكير: شركة بلادى، إنهم أهلى وعزوتى وناسى.

* * *

مثلما يقولون فى لعبات الحظ.. ملك أم كتابة؟ ويقرءون البخت على هذا الأساس. ما أن تبدأ طقوس سفرية لى حتى يكون السؤال هو: المطار القديم أم المطار الجديد؟ لدينا مطارين وهذا يسبب حيرة دائمة. بعض شركات الطيران تسهل الأمر عليك بأن تطبع تكتا على تذكرة الطيران تحدد فيه أى المطارين سيكون سفرك منه.

هذه المرة عندما سألت عن أى المطارين جاء الرد على شكل سؤال: من خلال أى الشركات سيكون السفر؟ وما أن قلت إنها شركة بلادى، حتى قيل لى إنه المطار القديم فكل رحلاتها منه، أما الجديد فقد خصص للشركات الأجنبية خاصة الذاهبة إلى أوروبا وأمريكا. قلت فى نفسى: منه لله الخديوى إسماعيل؛ منذ أن زرع فى نخاع الشخصية المصرية أن أقصى أحلام زمانه هى أن يجعل مصر قطعة من أوروبا، ويُسكن تلافيف الذهن المصرى أن الغرب سيأتى لنا ومعه كل تقدم ورخاء وسعادة وعلم، أما رياح الشرق فلن تحمل لنا سوى التخلف. نحن نعرف ماذا جرى لإسماعيل، وما فعله حلم إسماعيل به وبنا وبالمنطقة كلها وبقرننا العشرين وقرنه التاسع عشر، ونقدم له الانتقادات الكثيرة، ولكن حلمه مازال أبديا فى أعمق أعماق الشخصية المصرية وربما العربية أيضا.

* * *

كان سفرى يوم الثلاثاء التاسع من نوفمبر سنة ١٩٩٣، وكان موعد الطائرة هو الحادية عشرة صباحا، وهو موعد جميل لا يغير الكثير من إيقاع الحياة اليومية للإنسان. على أن حكايتى مع السفر تبدأ فى الأيام السابقة على السفر نفسه، وأنا أحسد الذين يقررون السفر، ويسافرون فى نفس اللحظة، كأنهم قرروا بدلا من العودة إلى منازلهم فى الموعد المحدد أن يجلسوا على المقهى أو يذهبو إلى السينما مثلا. وحسدى يصل إلى منتهاه للزملاء الذين يحتفظون فى مكاتبهم بنسخة أخرى من حقائب سفرهم حتى يسافروا فى غمضة عين، وكل ما يقومون به هو مجرد إبلاغ البيت بالتليفون أنهم بدلا من العودة إلى أسرهم سيسافرون. هذا كل ما هنالك.

بالنسبة لى يبدو الأمر شديد الاختلاف. السفر عندى هو عملية اقتلاع كاملة من جذورى، وما إن يتحدد موعده حتى يصبح تاريخا له ما قبله وما بعده، كثير من الأمور

تؤجل. أخرج من الدائرة اليومية كمن يخرج بعيدا عن قوانين الجاذبية الأرضية ويسبح فى الفراغ العذب الذى يحيط به من كل جانب.

وهكذا أفقد قدرتى على النوم فى مواعيده، وتقل رغبتى فى تناول الطعام، وحتى عند الاقتراب منه يصبح له طعم آخر غير الذى تعودته من قبل، وألف فى الشوارع والميادين والحوارى وكأننى ألقى عليها نظرة وداع، أتمعن فى المرئيات وبداخلى همس يقول: «ياعالم» وأصرف الوقت فى شراء أشياء غريبة، أشتريها فى كل سفرية. ماكينة حلاقة غير التى فى البيت، فرشة أسنان، معجون أسنان، معجون حلاقة، أمواس للحلاقة، أدوية للإسهال والإمساك ونزلات البرد والصداع والتوتر. أدخل الصيدلية وأبدأ فى الشراء كما لو كنت فى محل بقالة. أنظر وأطلب، فيلف لى الصيدلى ما قلت عليه والحساب يجمع فى النهاية. أقوم بهذا رغم معرفتى أن الحكاية وما فيها لا تخرج عن كونها مجرد تعبير عن القلق الشديد الذى أشعر به لا أكثر ولا أقل.

أما ليلة السفر فهى أقرب إلى ليلة التنفيذ بالنسبة للمحكوم عليهم بالإعدام. مع أننى حر طليق، ولا أرتدى العفريتة الحمراء التى تميز من سيعدم عن غيره من السجناء وتعدهم نفسيا لهذه اللحظة، وأتمنى فى كل لحظة تمر أن يكون هناك أى طارئ يعطلنى عن السفر فى أى لحظة، وأتخيل هذه الأمور الطارئة ويصل الخيال فى بعض الأحيان إلى أمور كبيرة للغاية ومسائل كونية؛ مع أن سفرى من الأمور القليلة الأهمية، ولكنها تماحيك. موقفى من السفر أننى قد لا أحبه، ولكنه فى بعض الأحيان يأتى كنوع من الإنقاذ، يخرج الإنسان من ورطات روحه، التى تكون قد وصلت إلى طريق مسدود.

يوم الاثنين السابق على سفرى مباشرة ذهبت إلى عملى، مع أننى كان يمكننى عدم الذهاب، لم يكن هناك عمل محدد، ولكنى ذهبت كنوع من الغرق فى بحار العمل. بقيت فى عملى حتى ما بعد ظهر الاثنين. هذه ليست سفرتى الأولى، ولكنها سفرة من نوع خاص، طويلة وبعيدة وغير عادية، إلى آخر بقعة فى اليابسة فى الناحية الأخرى من العالم، لا توجد بعدها أرض أخرى. ثمة أساطير لا حدود لها عن السفر إلى هناك، ولم يكن أمامى سوى العمل حتى آخر لحظة ممكنة، فالعمل وخاصة الصحفى يمتص قدرا كبيرا من التوتر ويأخذنى بعيدا عن أفكارى.

مساء الاثنين وصلت إلى بيتى متعبا بعد رحلة طويلة استغرقت من المكتب فى دار الهلال بالسيدة زينب حتى البيت فى مدينة نصر ساعات طويلة، أعرف أنها ليلة النوم

المتقطع، ثمة فارق ضخم بين أن تكون متعبا وأنت تمارس حياتك العادية، وبين تسول لحظة من النوم، وأنت مشغول بأكثر من أمر من أمور الحياة اليومية.

فى السابعة والنصف صباحًا من يوم الثلاثاء، يوم السفر كنت أستعد للنزول من البيت، من الصعب القول إننى نمت، ثمة تخاطيف تشبه النوم، ولكن بدون نوم حقيقى، أغفو وأصحو، أصحو وأغفو. فى السابعة والنصف، أوصلت رباب ابنتى إلى مدرستها القريبة من المنزل، واشتريت جرائد الصباح، وجلست على مقهى قريب من مكتبى الخاص فى الحى السابع بمدينة نصر.

كانت صحف هذا الصباح تقول:

٣٤ مليار جنيه استثمارات الخطة المقبلة منها ٥٦٪ للقطاعين الخاص والتعاونى. الجنزورى نائب رئيس الوزراء ووزير التخطيط يعلن الملامح الرئيسية لخطة ٩٤/ ٩٥. توفير ٤٥ ألف فرصة عمل ودعم خدمات التعليم والصحة. ٥٠٪ معدل مستهدف لنمو الناتج المحلى الإجمالى. انطلاق الإنتاج لزيادة الصادرات وتحسين عجز الميزانية التجارى. صرف مقدمات توريد القطن فورا والمتأخرات خلال أيام. مجلس الوزراء برئاسة عاطف صدقى يستعرض نتائج زيارة الرئيس لواشنطن وباريس ودمشق. خطاب سياسى هام لمبارك بعد غد. جلسة لمجلسى الشعب والشورى لانتخاب الرئيس والوكيلين. رسالة من مبارك للأسد يسلمها الباز. محادثات فلسطينية إسرائيلية بالقاهرة للتغلب على عقبات طابا.

مشاهدة التلفزيون ترفع نسبة الكولستيرول فى الدم.

- لجنة البيئة بالمفاوضات المتعددة تعقد فى القاهرة الاثنين.

- بعثة من صندوق النقد الدولى تصل إلى القاهرة آخر نوفمبر.

- مجلس الأمن يؤجل التصويت على زيادة العقوبات ضد ليبيا إلى الخميس بدلا من أمس. وزير الداخلية حسن الألفى يجتمع بمستثمرى المدن الصناعية. شبكة لاسلكية لربط المصانع بمديريات الأمن. تكثيف الوجود الأمنى بالمناطق الصناعية الجديدة. غضب فى بريطانيا ضد الديلى ميرر بسبب صورة مثيرة للأميرة ديانا.

وفى التليفزيون كان من المفروض أن يعرض، فى المساء الذى لن أحضره فى مصر حيث سأكون فى الجو، فيلم الزوجة ١٣ فى القناة الأولى، وفى القناة الثانية يعرض باليه

كسارة البندق، وبرنامج أضواء على الأحداث فى القناة الأولى يقدم أضواء على المباحثات الفلسطينية الإسرائيلية، يتحدث فيها رئيس الوفد الفلسطينى، الدكتور نبيل شعث، والدكتور علىّ الدين هلال رئيس مركز الدراسات السياسية بجامعة القاهرة، ويقدم الحوار أحمد سمير وتخرجه سعاد عبدالحى.

وفى إذاعة القرآن الكريم، الإسلام فى كل مكان؛ حلقة عن الإسلام فى جزر القمر. وحديث الشيخ الشعراوى فى العاشرة مساء وخواطره الإيمانية حول تفسير الآيتين ٥٢، ٥٣ من سورة الأحزاب. وفى السينما: أحمد زكى: الباشا، وسلفستر ستالونى فى حافة الهاوية، ومن الأفلام الأخرى: الزمن الصعب: فاروق الفيشاوى ـ معالى زايد ـ عبدالعزيز مخيون ـ إخراج: محمد حسيب. امرأة تدفع الثمن: فريد شوقى ـ محمود يس ـ فاتن فريد ـ منى السعيد ـ إخراج: حسن إبراهيم، وعادل إمام مازال زعيما فى شارع الهرم نص: فاروق صبرى وإخراج: شريف عرفة، وأمامه مسرحية: تتجوزينى يا عسل بطولة: محمود الجندى ـ وهالة فاخر ـ ووائل نور، النص: لإبراهيم الموجى والإخراج لجلال الشرقاوى.

وفى ملهى باريزيانا فى الهرم: لوسى وأحمد عدوية ومصطفى قمر. ومن المقالات: يكتب الدكتور طارق الغزالى حرب أخصائى جراحة العظام فى جدة مستجيبًا لدعوة اللواء رءوف المناوى مدير عام العلاقات العامة بوزارة الداخلية بالمشاركة الشعبية بالرأى والعمل لتطوير عمل الشرطة. والتى لمس فيها عقلية متفتحة ورغبة وطنية صادقة فى الإصلاح، ويحيى اتجاه الوزارة هذه الأيام تحت قيادة اللواء حسن الألفى لاستعادة مكانتها ومكانها بين أفراد الشعب حصنا للأمن. وفى هذا اليوم كان من المتوقع أن يسود البلاد طقس معتدل شمالا، حارا على جنوب البلاد أثناء النهار، ويكون لطيفا ليلا على جميع الأنحاء، وفى القاهرة كانت العظمى ٢٨ والصغرى ١٩.

وفى مؤتمر أدباء الأقاليم بالعريش. العشوائية تحكم الجلسات والأدباء ينشغلون عن تكريمهم بالجلوس على المقاهى، وفتحى غانم ـ رئيس المؤتمر ـ يقول: ضرورة التوعية الثقافية الجادة بعد فتح الحدود الشرقية.

ـ فوز أمين معلوف بجائزة جونكور الأدبية الفرنسية.

ـ والذكرى السادسة لرحيل عبدالرحمن الشرقاوى تحييها العائلة بمدافنها بتلاوة القرآن الكريم.

والدكتور مصطفى الفقى مدير المعهد الدبلوماسى يتحدث مساء اليوم فى النادى الثقافى، فى معهد البحوث والدراسات العربية بجامعة القاهرة، حول تجديد الفكر القومى العربى ويقدم الندوة الدكتور أحمد يوسف أحمد مدير المعهد.

ـ وفريد شوقى اكتشف فقد جواز سفره عند وصوله إلى مطار القاهرة الدولى قادما من بيروت، وأعلن أنه سيستخرج جوازاً آخر لأنه سيسافر إلى بيروت مساء نفس اليوم حيث يقدم هناك مسرحية شارع محمد على.

ومن حوادث هذا اليوم العجيبة ووقائعه الغريبة التى أحرص على متابعتها عندما أكون فى مصر، الإعدام شنقا لنجار قتل عمته وسرق مجوهراتها. إزالة ٩ طوابق من عمارة مخالفة فى المعادى. حبس وكيل وزارة فى الضرائب استغل وظيفته فى تحقيق ثروة قدرها ٣ مليون جنيه. ناظر مدرسة بسوهاج يقتل عاملا لتطاوله على مدرسة. البحث عن مجهول يوزع كروت التوصية باسم وكيل مرور القاهرة لتسهيل مهمة حامليها. مصرع ٩ وإصابة ٧ فى انقلاب جرار زراعى بشربين.

ومن الكتب التى أعلنت عن صدورها صحف هذا الصباح: رحلة إلى العالم الآخر تأليف: هبة حسين كامل. علم الدين رواية على باشا مبارك، تقديم: عبدالبديع عبدالله ـ موقف الصحافة المصرية من الصهيونية: سهام نصار. قدر من العشق: عفاف السيد، د. عمر عبدالكافى اغتيال داعية: عماد ناصف. المسيح فى الإنجيل بشر: ممدوح جاد. حتى تكون خطيبا للشيخ عبدالحميد كشك. كتاب الساعة: الإخوان المسلمون بين عهدين.

ومن الإعلانات المبوبة: دكتور مستعد لتدريس جميع مواد الابتدائى خاصة الإنجليزية والعلوم. الاتصال تليفون ٣٥٣٢٨٨١، مفاجأة: بـ٣ جنيه يوميا. دش بنجامين (لا يقول الإعلان إنه إسرائيلى الصنع) الثمن: ٢٦٠٠ جنيها فقط.

ـ الحظ اليوم، بالنسبة لى طبعا: دع الأمور فى طريقها الطبيعى هذا أفضل. وفى مثل هذا اليوم سنة ١٩٣٧: وفاة جيمس رامز ما كدونالد رئيس الوزراء العمالى فى بريطانيا.

ـ سنة ١٩٥٢: وفاة حاييم وايزامان أول رئيس لإسرائيل.

ـ سنة ١٩٧٠: وفاة شارل ديجول الرئيس الفرنسى الأسبق.

وفى صفحة وفيات هذا اليوم: فاروق حسنى وزير الثقافة يتقدم بخالص العزاء إلى الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم بكر رئيس هيئة الآثار السابق فى وفاة المرحومة كريمته الآنسة/ لبنى إبراهيم بكر. . تغمد الله الفقيدة برحمته.

عند سفرى إلى بلاد الله البعيدة، أحرص على أن آخذ معى كل الصحف والمجلات الصادرة صباح اليوم؛ لأن المصريين والعرب الذين يسكنون فى هذه البلاد أول ما يسألون عنه فى العادة هو الصحف والمجلات، ولأنه لدى يقين أن كل مكان فى العالم لابد وأن يكون فيه مصريون وعرب؛ لهذا أجمع أكبر قدر من الصحف، أحملها معى إلى حيث أسافر، وكلما بعد المكان الذى أسافر إليه، ازداد حرصى على اقتناء أكبر عدد من الصحف والمجلات.

أحد مزايا بيتى الذى يقع فى أقصى شرق المنطقة السادسة وشمال الحى الثامن من مدينة نصر، قربه الشديد من المطار وهذا القرب مفيد فى السفر، ولكنه متعب ومهلك لأننى أعيش صعود وهبوط الطائرات كما لو كنت أسكن فى المطار نفسه.

من قبل كنت أقرأ قصائد الشعر عن الذين يسكنون فى الموانى البحرية؛ فالميناء البحرى لأنه أفقى يعطى الإحساس بالانطلاق والحرية التامة. الميناء البحرى ينبت للإنسان جناحين على الفور، ومنظر الماء الذى بلا شاطئ آخر، يعطى الانطباع بالانعتاق من أسر المكان، ولكن المطار أول ما تراه فيه هو الأسلاك الشائكة، أما منظره العام فلا يوحى بالحرية إلا لحظة انطلاق الطائرة وهى تشق قلب السماء صعودا إلى أعلى.

أتحرك من منزلى قبل موعد وصولى إلى المطار بربع الساعة فقط لا تفصلنى عن المطار إشارة مرور واحدة توحد ربها. من قبل كنت أصل مبكرا جدا إلى المطار تحسبا لأى مشاكل فى الطريق.

أما الآن فحدث ولا حرج. مدير المطار صديقى اللواء محمد تعلب. أعرفه منذ أن كان مدير مكتب اللواء حسن أبو باشا عندما كان وزيرا للداخلية. واللواء تعلب مثقف حقيقى متنكر وراء وظيفة ضابط شرطة، مع أنه من المستحيل أن يعيطك الانطباع لحظة واحدة أنه ضابط شرطة. وجوده على رأس المطار جعلنى أصل فى الساعة الخامسة والعشرون، «فصديقى يحكم هناك».

من الطبيعى أن أمر على اللواء تعلب من باب السلام والتحية فالسفر والعودة يخلوان

من المشاكل القديمة . بالصدفة وجدت اللواء تعلب عائدا لتوه من رحلة إلى شرق أسيا واليابان جزء منها . وعلى أنغام السيمفونية الثالثة لبيتهوفن . قال لى اللواء تعلب عبارة ترقى إلى مستوى القانون العام :

ـ هناك هم على العكس منا تماما . إنهم ناجحون كمجموع . ولكنهم فاشلون تماما كأفراد . على حين أننا ناجحون على المستوى الفردى . فاشلون كمجموع . قال لى هذه الملحوظة طالبا منى التحقق من دقتها فى التوصيف لواقع الشخصية اليابانية . كما رآها هو فى رحلته أو جولته التى اشتملت علاوة على اليابان دولا أخرى فى المنطقة .

ـ اثنـــان ـ

يوم وليلة فى سماء الله العالية

السفر متعة، تغيير المكان يولد الدهشة، ولكن يقلل منها تعقيدات المطارات، وإجراءاتها، والعاملون فيها الذين يتعاملون مع كل مسافر على اعتبار أنه مهرب إلى أن يثبت العكس، ومواعيد الطائرات عندما تكون معاكسة أو تهدم البرنامج اليومى الذى يستريح له الإنسان ويألفه وينفر من تغييره، ويعتبر أن هذا التغيير عدوان على برنامج حياته اليومى، مع أن السفر فى حد ذاته عدوان على كل ما يسبقه، تبديل يعتدى على كل الثوابت السابقة عليه.

السفر جميل، ولكن المشكلة ـ مرة أخرى ـ فى إجراءات المطارات. لابد وأن السفر فى زمن ابن بطوطة وابن جبير كان أسهل وأعذب. لم أقرأ فى أدب الرحلات المكتوب فى ذلك الزمان الجميل كلمة واحدة عن الجوازات والجمارك وتأشيرات الدخول إلى الدول، وتأشيرات الخروج منها.

أعتقد أن كل هذه الأمور لم يكن لها وجود فى أيام السفر الخضراء التى مضت ولن تعود أبدا. يضاف إلى تعقيدات المطارات الراهنة التى تختلف من دولة إلى أخرى، خطف الطائرات والإرهاب الذى يتجول على قدميه فى كل أنحاء عالم اليوم.

الآن كل الأمور تسير إلى التعقيدات التى لا نهاية لها. ما إن تدخل إلى المطار وحتى تخرج منه سواء فى السفر أو العودة. يفترض الجميع فيك أنك إرهابى، تحمل أسلحة ومتفجرات وأموالاً ومخدرات، وهكذا يمر الإنسان أمام الأشعة ويقف تحت كاشفات الأسلحة، والأجهزة التى تشير إلى المفرقعات، ويا ويل من تصفر هذه الأجهزة عندما يقف أمامها.

ساعتان يمضيان هكذا، بين وقت وآخر، صوت ميكروفون يستدعى أناس أتوقع أن

سفرهم لابد وأن يلغى . . فى المنطقة الحرة، آخر جزء من الوطن وأول خطوة إلى أرض العالم، خليط عجيب من الناس، مصريون وعرب وأجانب، أغنياء وفقراء، صالات عادية ومكان لرجال الأعمال، وصالة لكبار الزوار، لا أعرف لماذا يقال الزوار؟ لماذا لا يقال كبار المسافرين، وهكذا أحضر البشر معهم إلى هنا فروقهم، لا أقول الطبيعية فقط، ولكن التى هى من صنعهم. بشر هنا وبشر هناك وبشر فى كل مكان من العالم دبت عليه أقدام إنسان.

لابد من الذهاب إلى المطار قبل ساعتين من إقلاع الطائرة، لا أعرف ما الحكمة فى هذا، ولكنى ألتزم به. إحساس الإنسان بالوقت يختلف تماما، ما إن يبدأ عملية السفر بمجرد أن يتحول من إنسان مستقر إلى شخص تطلق عليه كلمة واحدة: مسافر. وتتلخص وجوده ورقة اسمها: جواز السفر.

ما أن تبدأ حالة السفر حتى تأخذ محطات النهار ومكونات الليل دلالات أخرى، فالصباح لم يعد صباحًا، والظهر ليس ظهراً، وحركة الشمس اليومية التى تحدد ملامح يومنا لا يصبح لها وجود، يضاف إلى هذا أن فارق التوقيت بين دولة وأخرى يجعل الإنسان يتسكع بين أوقات لم يخترها لنفسه، ولكن فرضت عليه.

من صوت ميكروفون المطار تصل الطائرات من كل مكان فى الدنيا، وتقلع إلى أقرب وأبعد أماكن فى العالم، أماكن لم يسمع الإنسان عنها من قبل. يعطيك صوت الميكروفون الرخيم، وعملية ترديد صداه التى لا تنتهى، الانطباع بأن المثل الذى سمعته فى قريتى البعيدة صحيح تماما. والمثل يقول: إن الدنيا بقدر ما هى واسعة فهى ضيقة وصغيرة. يقولون إنها مثل كف اليد. طبعا هذه الطائرات لا تطير فوق كف يدى، ولكنه تعبير دقيق عن حال عالمنا الذى يجمع بين السعة بلا حدود والضيق الشديد. عالم واسع بقدر ما هو ضيق، ومترامى الأطراف بقدر ما هو محدود.

فى هذا الوقت أبدأ فى التخمين. أى المسافرين سيكون رفيق رحلتى؟ أبحث فى ملامح الوجوه. أنا ذاهب إلى شرق آسيا، وهذه المنطقة من العالم تميز أبناءها ملامح شديدة التحدد. كل الغزاه الذين وصلوا إلى هذا المكان لم يغيروا الملامح. أتى الغزاة وذهبوا وبقيت الملامح كما هى، أو ربما كانت معظم الغزوات محلية قامت بها دول من المنطقة إلى دول أخرى.

تاريخ اليابان يقول إن بعثات من البرتغال وصلت إليها، وإن بعض المبشرين بالدين

المسيحى وصلوا إلى هناك، ولكن يبدو أن الإحساس الحاد بالعزلة أقام حاجزا من المستحيل عبوره بين أبناء البلد والغرباء الذين تمكنوا من الوصول إليها، إن وجود مسافة ضخمة فى الوعى لدى أبناء هذا الجزء من العالم، والإحساس بالانتماء، وتلك العزلة الطويلة التى فرضت عليهم سنوات مستمرة وربما قرونا ضمنت لهم نقاء ملامحهم. ولم تتحول وجوههم، فى الوطن الواحد، إلى كرنفال عجيب، فيه من كل بستان زهرة.

وهل من المعقول أن يكون كل المسافرين إلى شرق آسيا من أبناء المنطقة فقط؟ لابد وأن هناك مسافرين مثلى، من كل مكان من العالم. معى فى نفس هذه الرحلة، من الصعب إحصاء رفقاء الرحلة الآن. كل المطلوب هو قليل من الصبر، وسأعرف زملائى فى رحلة اليوم الراهن والليلة القادمة بعد قليل.

ما أن نصل إلى المرحلة قبل الأخيرة فى الصالة التى تجمع المسافرين فى كل رحلة معا. حتى أكون معهم، ونتعرف بعضنا على بعض، وإن كان جو هذا المطار ضد التعارف. فكرة السفر نفسها والأخطار المتوقعة تعلى من قيمه الفردية فى أعماق كل مسافر. ويا ويله من يضطر إلى السفر بمفرده مثلى. نظرت حولى ورددت شطرة من بيت من الشعر لأحمد عبدالمعطى حجازى تقول: «كل هذا الزحام.. لا أحد». وأنا فعلا أبدأ رحلتى الطويلة بحاله اللا أحد. ورغم أننى أحب العزلة وأفضل البعاد عن الناس - خاصة فى الفترة الأخيرة - ولكن السفر الذى أنا مقدم عليه الآن حكاية أخرى.

أخيراً.. أخيراً.. خرجت من بوابة المطار فعلا إلى الأتوبيس الذى يقلنى حتى مكان الطائرة. هذا أفضل من مشوار الأنبوبة التى تبدأ من قلب المطار حتى باب الطائرة، فى بعض المطارات المتقدمة والتى استفادت من منجزات العلم الحديث. ليس لأننى لا أحب المشى فالمشى هوايتى الوحيدة؛ خاصة وأننى لا أحب اللعب، ولكن لأن الأنبوبة تعطى الانطباع، بممرات السجون، مكان تمشى فيه سقفه يكاد أن يخبط فى رأسك، لا براح فيه، ممشى لا يسمح سوى لإنسان واحد بالمشى فيه، وبسبب ضيقه الشديد؛ فإن الإحساس بالامتداد إلى الأمام والخلف يكون مضاعفا عادة.

ربما كانت هذه الطائرة من أضخم الطائرات التى سافرت بها حتى الآن. لقد كان محمود تيمور موفقا عندما وصف الطائرة وطيرانها من قبل بعبارته البليغة: «أبو الهول يطير». من قبل سافرت فى طائرات «خف الريشة» صغيرة ومحندقة. كنت أتخيلها فى سماء الله العالية كما لو كانت مثل ورقة فى مهب الريح، وكنت أقول إن

الركاب والبضائع الكثيرة ومحاولات غش الوزن فى عفش الركاب هى التى تعطى الطائرة قدرا من الثبات المطلوب فى مواجهة الزوابع والأعاصير والمطبات الجوية. وكلما زاد غش الركاب لمن يزن البضائع فى المطار كان يزداد اطمئنانى إلى أن الأخطار ستكون أقل بإذن الله.

هذا فعلا أبو الهول أراه جاثما على الأرض يبتلع فى جوفه ما كان معنا من الحقائب والعفش، يبدو وهو يلتهم كل ما نملكه أسفل بطنه كما لو كان تنينا ضخما تركه التاريخ الأول للإنسان ومضى شاهدا على زمن لم يعد له وجود. ما من مرة أضع فيها قدمى على أول درجة فى سلم الطائرة أى طائرة حتى أتذكر انطوان دى سانت أكزوبرى الروائي الفرنسى الذى دوَّن للبشرية تجربة الطيران الأولى بلغة تتفوق حتى على الشعر نفسه: «قرأت بعد العودة من اليابان أنه عاش فى مصر فترة من الوقت، ورحت أتخيل الأماكن التى عاش فيها هذا الإنسان الذى جاء إلى العالم لكى يحلق لا ليمشى على الأرض، مثل باقى البشر الآخرين».

كتاباته عن الطيران الأول فيها عذوبة ورقة وسلاسة وجمال. حتى الكلمات تحلق وتطير، تبتعد عن الأرض مسافة تجعلها تعطى ظهرها لهموم البشر والأرض ومن عليها. أعود لهذا الذى جعل من التحليق أدبا رفيعا وأسأل نفسى: ألم يكتب عن عباس بن فرناس؟ لابد وأن تجربة ابن فرناس لفتت نظره؛ فهو الرائد الأول، ولولا ما قام به وقدم حياته فداء له، فى رحلة لم يكن أحد يجرؤ حتى على التفكير فيها. ما كنا نحن نطير اليوم من مكان إلى آخر ونختصر المسافات ونحقق واحدة من أهم معجزات قرننا العشرين.

لو كنت مكان أكزوبرى لتوجت تجربة الطيران هذه بكتابة عمل عن عباس بن فرناس؛ لأن أكزوبرى الذى طار بالطائرة فى المحاولات البكر الأولى، هو أقدرنا جميعا على رؤية الدنيا من خلال عباس بن فرناس وتقديم تجربته أو قل إعادة خلقها من جديد، وحمايتها من الفناء أو النسيان الذى يهدد كل تجربة إنسانية مرت بنا من قبل.

عباس بن فرناس شهيد الطيران رقم واحد. وانطوان دى سانت أكزوبرى أول صاحب قلم يطير ومدون التجربة بإنسانية نادرة. أليس من الغريب أن مطارات الدنيا وطائرات العالم لا تحاول أن تخلد ذكرى أيا منهما حتى فى إطلاق اسميهما أو اسم أيا منهما ولو حتى على مدرج من مدرجات المطارات، أو صالون فى طائرة، أو حتى على رحلة من الرحلات؟!

كل شركة طيران لها مجلة يغلب عليها الطابع الدعائى والسياحى، وعلى الهامش بعض الكتابات التى لم أجد من بينها أبدا كتابات عن عباس بن فرناس؛ فخرنا الخاص والدليل الحى على أنه خرج من صفحات تاريخنا عباقرة كان لديهم الخيال والجرأة والابتكار والإبداع وسبقوا الدنيا كلها، أو عن أكزوبرى الذى حوَّل الحياة فوق السحاب إلى تجربة إنسانية نادرة لا يمل الإنسان قراءتها فقط، ولكن القدرة على الاستمتاع بها، تظل وتبقى، دائما وأبدا.

وضعت قدمى على الدرجة الأولى على السلم الأول الذى يفضى إلى الطائرة التى ستقلنى من القاهرة إلى طوكيو، من شمال إفريقيا إلى أبعد نقطة فى آسيا. ويبدولى - على البعد - أننى مسافر هذه المرة، إلى كون آخر، وعالم مغاير، ودنيا أخرى تماما.

* * *

ما إن أبدأ طقوس السفر وأقوم بمفردات التحليق من فوق الأرض، وحتى أحط عليها من جديد بعد العودة إلى أرض الوطن، حتى أحرص على أمرين؛ جواز سفرى وتذكرة الطائرة، لا يفارقان عينى أبدا، وكلما مر بعض الوقت؛ حتى أتأكد من جديد من وجودهما. قبل النزول من البيت وبعد النزول منه فأنا أسكن فى الدور السادس والمنزل بدون مصعد؛ لذلك فالنزول يعد رحلة فى حد ذاته. أقول لنفسى كل صباح: «رياضة» قبل ركوب السيارة، وفى الطريق القصير من البيت إلى المطار أتأكد من وجودهما، وعلى باب المطار أفعل نفس الشىء، بل إن طريقة الاحتفاظ بهما والاطمئنان عليهما تتحددان حسب ملابسى، فى أثناء السفر، إن كان السفر شتويا، وهذا يجعلنى أرتدى بدلة كاملة «بدون قميص أو ربطة عنق» وهذا يسهل لى حفظهما فى جيب الجاكيت. وإن كان السفر صيفا؛ فيا حفيظ من القلق.

البدلة الصيِّفية لا توجد بها جيوب لحفظ الجواز والتذكرة، وهذا معناه أن أحتفظ بهما فى حقيبة اليد، ولابد أن يكون فيها جيب خاص بهما يمكن إغلاقه بصورة جيدة، وعند أى مرة أريد فيها التأكد من وجودهما فيه معى، لابد من التوقف وفتح الحقيبة بعد وضعها على الأرض فى مكان مرتفع، والتأكد من وجودهما، ثم إعادتهما إلى مكانهما. وهكذا، عذاب ما بعده عذاب، يتكرر طول الرحلة لدرجة أنه يخيَّل إلى أن من يرانى من بعيد، لابد وأن يذهب ذهنه إلى أننى ربما كنت مهربا، وأن فى هذه الحقيبة إما مبلغًا كبيراً جدا من المال، أو مادة مهربة مثل المخدرات سابقا والهيروين حاليا، ولم لا يتصور أننى

أحمل معى عدة كيلو جرامات من البلوتنيوم؟ حيث الإرهاب القادم وهو الإرهاب النووى؟

كنت أقول لنفسى: الصيت ولا الغنى.

هذا ما يحدث لى مع جواز السفر والتذكرة وأنا على أرض الوطن. أما خارجه فحدث ولا حرج. ما أن أصل إلى البلد المسافر إليه، حتى أتأكد أولا من وجود سفارة لمصر فيها، وأن فى هذه السفارة قنصل، وأن من حقه إصدار جوازات سفر؛ فيشك من يسمع تساؤلاتى أننى جئت هاربا بدون وثيقة سفر؛ ويسألنى إن كانت لدى أى مشاكل فى هذه الناحية أم لا؛ وأفزع من السؤال، وفى بعض الأحيان أخرج جواز سفرى لكى أريه إياه بنفسه خوفا من أن تذهب به الظنون إلى أى مذهب كان.

لا أتحرك فى الغربة إلا وبيمينى جوازى وبشمالى تذكرة سفرى، وأول ما أقوم به فى بلاد الغربة هو حجز رحلة العودة خشية من أى مفاجآت فى الحجز، أو عدم وجود مقاعد خالية. أما الجواز والتذكرة فهما لا يفارقانى أبدا، وأطمئن إلى وجودهما فى أى لحظة. وأحلم بالليل أنهما فقدا، وأننى ذهبت إلى السفارة المصرية من أجل استخراج الجواز، وقد قيل لى بعد الترحيب بى إنه لا توجد جوازات جديدة فى السفارة وإنهم أرسلوا إلى القاهرة يطلبون دفعة جديدة ولم تصل بعد، والآن ليس أمامى سوى حلين: إما أن أبقى فى انتظار وصول الجوازات الجديدة، أو أن أعود إلى القاهرة بدون جواز سفر، وهناك لابد من حجزى فى مطار القاهرة الدولى وإجراء تحقيق معى قبل دخول مصر.

وأصحوا من النوم مفزوعا، وقد فاتنى أن أسأل: وكيف سأخرج من البلد الذى أنا فيه بدون جواز سفر، وأضىء النور فى غرفتى وأنا أتمتم «اللهم اجعله خيرا» ولا يهدأ لى بال قبل التأكد من وجود الجواز معى فى نفس المكان الذى وضعته فيه قبل النوم. فى بعض الدول العربية الشقيقة، كانت الفنادق أو الجهات الداعية لنا تحتجز جوازات السفر وتذاكر العودة عندها. وفى السفريات الأولى كنت أكافح من أجل استعادة الجواز والتذكرة كتعبير عن رفض فكرة الكفيل حتى ولو كان فندقا. إلا أننى بعد بروز مخاوف فقد الجواز، كنت أتمهل فى طلبه، وأتجاهل أنه موجود، وأرجو استقبال الفندق فى بعض الأحيان أخذ التذكرة معه. المشكلة أنهم كانوا لا يقدمون لى إيصالا به.

عندما أراجع نفسى فى مسألة وسوسة الجواز، أكتشف أننى على حق؛ فإن كان الجواز

بضعة أوراق، إلا أنها الدليل الوحيد على أننى هنا، وأننى بداخل هذه الدولة أو تلك، ولا دليل على أننى هنا سوى هذه الأوراق والختم الموجود على أحد صفحاتها.

الحمد لله لم يحدث لى حتى الآن أن فقد منى جوازى فى أى دولة من الدول التى ذهبت إليها «أخاف أن أحسد نفسى بذلك القول». وإن كانت ظلال قصص كافكا وحكايات إدجار ألان بو تطاردنى فى الغربة، وهذه المطاردة تدور حول فقد الجواز أو التذكرة، أو فقدهما معا وياويلى إن حدث هذا لى. طبعا الجواز اكتسب أكثر من دلالة فى أبعد رحلة لى عن مصر. إنها اليابان، وهل هناك أبعد منها على الأرض. شرقا اليابان وغربا أمريكا، وأنا مع ريح الشرق، فالحمد لله أن الباب الغربى مغلق فى وجهى بالضبة والمفتاح.

عندما اتصلت بالسفارة المصرية فى طوكيو من القاهرة قبل سفرى أسأل وأستفسر وأطمئن، فكرت أن أسأل الذى رد على عن حكاية استخراج الجوازات، ولكنى تنبهت فى اللحظة نفسها إلى أن السؤال ستكون له أكثر من دلالة سيئة بالنسبة لموقفهم منى، فأمسكت عن السؤال. مشكلتى مع جواز السفر هى كبر حجمه، أشاهد جوازات مواطنين من دول أخرى فيعجبنى حجمها الصغير، بحيث يمكن حفظها فى أى جيب مهما كانت مساحته.

طمأننى على جواز السفر وتذكرة الطائرة فى رحلة اليابان أن الملابس التى حملتها معى كانت شتوية، رغم أننى تركت القاهرة فى الخريف، ولكن الجو هناك - كما قيل لى - كان شتويا. والملابس الشتوية فيها جيوب تتسع لكل شىء وإن كنت قد تحركت من القاهرة فى ملابس صيفية فسألبس هناك ملابس شتوية.

* * *

«بسم الله الرحمن الرحيم»

﴿ سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ ﴿١٣﴾ وَإِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا لَمُنقَلِبُونَ ﴾

«صدق الله العظيم»

كانت هذه الآية الكريمة هى أول ما وقعت عليه العين فى الطائرة، فى أثناء صعودى إلى درجة رجال الأعمال، وهى عبارة عن مكان فوق الدرجة الأولى مباشرة، ويصعد الإنسان إليها على سلم صغير، نصف دائرى، ليجد نفسه فى مكان أقرب إلى السندرة أو

فوق الفرن فى ليالى الشتاء فى القرية المصرية، عندما كنا نبحث عن التدفئة بأى ثمن، هروبا من البرد الذى كان يهجم علينا من براح الغيطان ومن اتساع الأفق اللامحدود.

كان المفروض أن تتحرك الطائرة فى الحادية عشرة والنصف صباحًا، وقد تحركت فى نفس الموعد المحدد لها، بدون أى تأخير ولو لدقيقة واحدة، وقد اعتبرت أن هذا فأل خير، بل وأفضل استهلال لرحلة بهذا الطول. سمعتهم لحظة تحرك الطائرة يقولون إن الساعة الآن فى طوكيو، هى السادسة والنصف بعد ظهر هذا اليوم الثلاثاء وأن فارق التوقيت عبارة عن سبع ساعات بالزائد.

كان العدد معقولا فى الطائرة وإن كانت الغالبية العظمى من الركاب من الأجانب وليسوا من المصريين، والعدد القليل جدا كان مصريا. أما الأشقاء العرب فلم يكن منهم أحد معنا. لماذا يحضر الشقيق العربى إلى القاهرة للسفر منها إلى طوكيو، إلا لو كان من أبناء شمال إفريقيا، حيث المغرب العربى؟ وفى هذه الحالة فإن السفر عن طريق بعض العواصم الأوروبية ربما كان أفضل له ألف مرة. كانت هناك فتاة صغيرة شكلها أوروبى، قالت لى إنها ستنزل فى بانجكوك، من أجل أن تكمل رحلتها إلى أستراليا، وإن تلك هى الطريقة الوحيدة للسفر من القاهرة إلى سيدنى حيث لا يوجد خط مباشر بين العاصمتين.

الآن ساعتى مضبوطة على توقيت القاهرة ولكنى كنت أفكر فى الوقت الراهن فى طوكيو فى هذه اللحظة، وهذا يخلق لى حالة غريبة من التحرر من الزمان ومن قيود التواجد فى مكان معين. أليست فلسفة الطيران نفسها قائمة على فكرة قهر الجاذبية الأرضية والتخلص منها بل وإلغائها تماما؟ لقد تركت مكانا على الكرة الأرضية اسمه القاهرة فى مكان ما من شمال شرق القارة الأفريقية، وأنا الآن فى طريقى إلى مكان آخر اسمه طوكيو فى مكان ما فى جنوب جزيرة اليابان. أما الزمان فهو مجرد افتراض ذهنى أكثر من أى من اعتبار آخر، فكل العواصم التى سنمر عليها الآن سيكون لكل منها توقيت يختلف عن الأخرى تماما.

بعد إقلاع الطائرة واستوائها فى الجو واستدارة القاهرة تحتنا حول نفسها دورة كاملة. وبعد أن أصبح نهر النيل مجرد خط يلمع، لا يميزه سوى اللمعان البراق والأبراج مثل علب الكبريت والسيارات نقط صغيرة تتحرك ببطء ولكن تبقى الحقيقة التى لا مفر منها؛ الصحراء التى تهجم على المدينة من كل جانب؛ لأن الرئة الخضراء المتصلة بها تتآكل وتوشك أن تصبح ذكرى. نطير فوق مصر، أتحسر، لو أن هذه البلاد مفروشة بسندس أخضر لتغير كل شىء. وآه من كلمة لو هذه.

الطائرة الآن فى الجو. فردت إدارة الطائرة أمامنا شاشة بيضاء صغيرة، تصورت فى البداية أنهم سيعرضون علينا بعض الأفلام السينمائية كنوع من قتل الوقت أو بدقة لغوية كنوع من محاولة قتل جبل الوقت الذى يجثم على الصدر والنفس والإحساس منذ الإقلاع من القاهرة وحتى النزول فى طوكيو.

بعد عرض الفيلم التقليدى عن النجاة فى حالة وقوع حادث مفاجئ للطائرة، وهو العرض الذى نشاهده بدون أى اهتمام وأحيانا بلا مبالاة، وعن نفسى لا أفهم من هذا العرض أى شىء، وأدرك بصورة فطرية أنه إن وقع حادث لنا - لا قدر الله - لن ينفع الإنسان آية معلومات عن النجاة أو خلافه.

بعد هذا العرض المكرر والممل، بدأت الشاشة تعرض خريطة للمكان الذى تعبر الطائرة فوقه، وكان هذا أسعد ما فى الرحلة؛ فقد تركت الكتاب الذى كان فى يدى وتابعت خط سير الطائرة، وهكذا تصرفت كما لو كنت قد قطعت المسافة بين القاهرة وطوكيو على قدمى، وكما لو كنت رحالة من الزمن القديم. الطائرة جديدة، هكذا قال لى جارى، ولذلك فهى تجرى بسرعة ألف كيلومتر فى الساعة، ويبدو أن جارى لم ينظر إلى الخريطة التى أمامنا. كان مكتوبا فيها، أن سرعة الطائرة من ٩٦٠ كيلومترا فى الساعة إلى ٩٩٠. عموما الرجل لم يخطئ فى الحساب كثيراً فالأرقام متقاربة. المسافة من القاهرة إلى طوكيو ١٣ ألف كيلومتر والطائرة تحلق على ارتفاع ٣٧ ألف قدم (ياهول هذه الأرقام) وسنصل إلى أول محطة فى الرحلة بعد ٧٥٠٠ كيلومتر - أى أكثر من نصف الرحلة بقليل - وهى بانجكوك عاصمة تايلاند.

نزلت الطائرة بعد الإقلاع من مطار القاهرة الدولى باتجاه الصعيد، وخرجت منه إلى الصحراء الشرقية وعبرت البحر الأحمر كل هذا فى وقت محدود للغاية.

عبرنا الوادى إلى الصحراء، ومنها إلى البحر الأحمر، كان هناك مجسم صغير للطائرة، لونه أخضر، يتحرك على خط السير الموضح على الخريطة، وكل مكان وكل مدينة نعبر فوقها يكتب اسمها واضحا على الخريطة. عندما حلقت الطائرة فوق صعيد مصر كنت أعرف - بالتقريب - الأماكن والبلدان التى كنا نطير فوقها. ولكن بعد عبور الصحراء الشرقية، والاقتراب من البحر الأحمر، تذكرت أننى لم أضع قدمى على أى جزء منها. ربما كانت السويس أو فايد آخر جزء ذهبت إليه هنا. هالنى الوضع، هل من المعقول أن أكون فى طريقى إلى اليابان وأنا لم أذهب إلى البحر الأحمر؟ أى سخرية تلك؟

إن السائحة الشابة المسافرة إلى أستراليا كانت هنا فى البحر الأحمر، وأنا ابن البلد لم أذهب إليه. فى الستينيات الجميلة كنت أسمع عن برنامج سياحى اسمه «اعرف بلدك» كان يتم تنظيم رحلات إلى أماكن فى مصر لمن يريد الذهاب، كانت التكلفة تحسب بالقروش، والبرنامج كان مردوده أهم ألف مرة من لهاثنا وراء السائح الأجنبى أو فشخرة المصريين الذين يسافرون من أجل قضاء الصيف فى أوروبا.

من الصعب القول إن برنامج «اعرف بلدك» كان سياحة فقط. الوصف الدقيق له، أنه كان درسا فى الانتماء لمصر وعملية إمداد لعروق الوطن حتى حبه قلب كل مصرى. كانت مدرسة من مدارس الوطنية المصرية. ولكن المشكلة بالنسبة لى أنه عندما كان هذا البرنامج الوطنى منفذا كنت صغيرا فى السن. كان مستقبلى مايزال أمامى. أما الآن فإن مستقبلى ورائى. قلت لنفسى وقتها إن الزمان أمامى ممتد ويمكن القيام بهذه الرحلات فى فترة لاحقة من العمر، ولم أكن أعرف أن الذى نهب منا ليس ثروة مصر فقط، ولكن أعمارنا بالدرجة الأولى.

وهكذا عندما أصبحت فى موقف يؤهلنى للقيام بهذه الرحلات من أجل معرفة مصر، كان البرنامج قد ألغى، لأن الانفتاح كان قد جاء، والتهم بداخله كل الأخضر والجميل فى حياة المصريين، بما فى ذلك معنى كلمة وطن. كنت سعيدا بالرحلة، ولذلك حاولت الخروج من حالة الحزن الطارئ، بسبب عدم زيارة أجزاء مهمة من الوطن. حاولت ذلك بسرعة حتى لا يعود الهم القديم فيمسك بحبه القلب، ولا أعرف كيف ولا متى أخرج منه. وضعت نفسى فى حالة توقع لكل ماهو جديد، وإن كان لابد من الاعتراف أن العبور فوق البحر الأحمر، واكتشاف هذه الحقيقة التى ربما يحاول الإنسان نسيانها، أشعرنى بحالة من الخجل.

عموما إن الإحساس بالخجل شعور صحى. المصريون هم أكثر الشعوب احتياجا له الآن. آه لو كان عندنا نوع من الإحساس بالخجل القومى العام، لما وصلنا إلى ما وصلنا إليه أبدا. الوضع بالنسبة لى أفضل هذه المرة. كم من مرة عبرت هذه الأجواء ولم أنتبه إلى هذه الحقيقة؛ معرفة أننى مقصر فى أمر مهم، لأن هذا يعنى البدء الفورى والعمل من أجل مواجهة هذا التقصير.

صحراء المملكة العربية السعودية. جئت هنا من قبل مرة واحدة ووحيدة، مرة واحدة تكفى. كنت مدعوا من مهرجان الجنادرية للثقافة والتراث الذى يقيمه الحرس الوطنى. زرت الرياض، وجدة المدينة المدهشة، والمدينة المنورة ومكة المكرمة حيث عبق القداسة فى

كل مكان يذهب إليه الإنسان. اتجهنا إلى الكويت. رحت أتذكر ملامح العاصمة عندما جئت إلى هنا بدعوة من الصديق الدكتور محمد غانم الرميحى فى الاحتفال بمرور ٢٥ سنة على صدور مجلة العربى. والعربى بالنسبة للكويت مثل الأهرام بالنسبة لمصر. . إنها واحدة من ملامح البلد. البحرين لم أزرها. وإن كنت قد عبرت فوقها طائرا مرات ثلاث. رأيتها من الجو فى الليل وفى النهار، ووقت الشروق ووقت الأصيل والغروب، والبحرين من الجو تبدو شديدة الوضوح.

قطر، والقطريون من أطيب أهل الخليج. جئت إلى هنا ثلاث مرات. ألقيت محاضرتين فى نادى الجسرة بدعوة من الصديق يوسف درويش الذى حوّل النادى إلى منارة من منارات الخليج كله. عند آخر نقطة فى أرض قطر كان آخر مكان ذهبت إليه ابتداء من حبة الرمل الأولى وحتى حبة الرمل الأخيرة فى شبه جزيرة العرب. «سافرت بعد رحلة اليابان إلى الإمارات العربية المتحدة زرتها مدعوا من الصديق العزيز القاص الإماراتى محمد المر رئيس ندوة الثقافة والعلوم فى دبى. لإلقاء محاضرة، والمحاضرة تحولت إلى زيارة شملت دبى والشارقة وأبو ظبى عاصمة الاتحاد».

هنا أرض بكر. لم يقترب منها الإنسان. من حسن حظى أن وقت السفر هو النهار؛ ولذلك أرى الأجواء بشكل واضح. . وأنظر إلى الخريطة فأعرف أين أنا بالتحديد.

سلطنة عمان. بلد الأساطير العربية، بلاد السندباد الذى قام بسبع رحلات عجيبة ومدهشة. لم تكن فى زمنه طائرات أوسيارات، ولكن السندباد لم يذهب إلى اليابان.

«وقد قدر لى بعد رحلة اليابان زيارة سلطنة عمان مرتين، الأولى بدعوة من الرجل المثقف الذى أصبحت صديقا له: عبدالعزيز بن محمد الرواس وزير إعلام السلطنة. والثانية بدعوة من سيف بن شاهل المسكرى رئيس النادى الثقافى وذلك للمشاركة فى أعمال ورشة عن كتابة القصة القصيرة مع كاتبات وكتاب السلطنة». وأنا فى الطريق إلى بلاد لم يذهب إليها رحالة عربى من قبل. ابن بطوطة أشهر رحالة عربى ذهب إلى الصين فقط. طلب منه حاكم الهند عندما كان يعمل فى معيته أن يقوم بهذه الرحلة.

ها هو بحر العرب الذى يسمى الآن المحيط الهندى. حيث مياه الأساطير والحكايات الأحلام المستحيلة، نحن الآن فى الطريق إلى الهند. والطريق إلى الهند عنوان رواية جميلة لفورستر. عبرنا شبه الجزيرة الهندية بالعرض، وطوال فترة العبور كنت أتذكر ما كتبه وول ديورانت عن الهند فى موسوعته الخالدة: قصة الحضارة. هذه أرض شهدت

حضارة قديمه، منها أتت البذور الأولى لألف ليلة وليلة. الأثر المدهش والذى لا تعرف الحضارة العربية إلا به، رغم جو بغداد العباسى وأنفاس الروح المصرية الأصيلة فى الليالى، تظل البنية الأساسية واللبنة الأولى من هنا، من الهند، بلد تتشابه ظروفه مع مصر؛ الزحام والتكدس والسكان الذين يسدون عين الشمس، ومع هذا ثمة إنجازات واضحة.

كان معى على الطائرة الدكتور فؤاد بلبع، مسافرا إلى تايلاند فى مهمة خاصة بإحدى منظمات الأمم المتحدة. جلسنا معًا. قطعنا الوقت فى التعارف والثرثرة. نعرف أسماء بعض من بعيد، ولكنها المرة الأولى التى أراه فيها وجها لوجه، وعائلة بلبع من أغنياء محافظة البحيرة، الذى أعد أنا من فقرائها، وإن كانوا جميعا قد تركوا البحيرة إلى القاهرة.

بعد الهند بنجلاديش، الدولة التى شهدت ميلادها وأنا فى الدنيا. سنها أصغر من سنى. ثم المياه مرة أخرى. حتى هذا الوقت كنا نتجه شرقا. نطير فى عين الشمس فى النصف الأول من اليوم. وتصبح الشمس فى ظهورنا، عندما يأتى النصف الثانى من النهار، ولكن ها هو الطريق يصبح على شكل منحنى، وتدور الطائرة نصف دورة وتتجه نحو الشمال. يخيل إلى من الآن أننا نصعد إلى أعلى، وفى آخر نقطة من الصعود توجد طوكيو حيث نهاية الرحلة عند الاستدارة باتجاه الشمال. كنا قد ابتعدنا عن جزر إندونيسيا والطريق إلى أستراليا.

* * *

كانت ساعة يدى مازالت على توقيت القاهرة، وعندما وصلنا إلى بانجكوك، كانت الساعة فيها هى الواحدة. تسع ساعات قضيتها من القاهرة حتى هنا. هكذا يقولون مع أن حسابات الساعات تقول إن هناك حوالى ثلاثة عشر ساعة مضت منذ طيرانى من مصر. محطة النزول الأولى والوقت ليل. قال مذيع الطائرة الداخلى إن الوقت فى بانجكوك الآن هو الواحدة ولم يقل ظهراً أو بعد منتصف الليل. كان من الواضح أن الزمان خارج الطائرة هو الليل. والمطار هيئة أمم متحدة كاملة متكاملة. أبحث بعينىّ عن طائرات بلادى وشركات الطيران العربية الشقيقة، قبل القراءة أبدأ بالتطلع للأعلام المرسومة فوق كل طائرة إن وجدت. العلم هنا هو الوطن. درجة الحرارة فى الخارج هى ٢٩ درجة مئوية مع ارتفاع نسبة الرطوبة. عدد كبير من الركاب الذين كانوا معنا نزلوا فى بانجكوك.

طاقم الطائرة تركها ونزل. قائد الطائرة قال لى ونحن فى الطريق إلى مطار بانجكوك: إن الرحلة كانت سهلة بسبب اتجاه الريح المواتى لنا. ولو كانت الرحلة بالعكس لتغير الموقف. من قبل كنت أتصور أن الرياح مسألة مهمة بالنسبة للبواخر فقط، خاصة الشراعية منها، عندما كنت أشاهد فى قريتى الضهرية الشراع الأبيض فى مراكب النيل الذى يحضن بلدنا، وعندما يبدأ الشراع الأبيض بالامتلاء بالهواء يتحرك ببطء فى اتجاه الأفق. فى الضهرية الأفق موجود فى كل ناحية.

هاهى الريح تلعب دورها فى تحرك الطائرة التى كنت أتصور أن الأساس فى تحركها هو المحرك. كان الربان يتعامل مع المكان والأشياء والناس بدرجة عالية من الألفة، بدا لى وكأنه ذاهب إلى قرية مصرية صغيرة يعرف كل من فيها. وقال لى القائد أو الربان، إن مطار بانجكوك كان منذ ١٣ سنة عبارة عن مبنى قديم رث. كانت هناك ترعتين واحدة فى الشمال والأخرى فى الجنوب، وبينهما طريق معبد وخلال هذه السنوات الـ ١٣ تغير كل ما فى هذه البلاد بصورة مذهلة. يبدو أن مشروعات الناس هنا هى من أجل الغد والمستقبل والزمنى الآتى، فى حين أن كل أحلامنا للماضى، حتى عندما نتكلم عن المستقبل فى بلادنا نقول: ذكريات المستقبل كما لو كان ماضيا.

فى مطار بانجكوك الواسع والبديع والجميل بدون حدود حيث الفتيات يقفن على الجانبين، يقدمن لك الزهور مع ابتسامة نادرة بصرف النظر عمن أنت. مع دعوة لقضاء وقت عذب فى بلادهم. الغريب للغريب ونسة، ولغة المصرى تصبح هى الوطن فى بلاد الغربة. فى أثناء تجوالى فى مطار بانجكوك، تعرفت على شابين مصريين أحدهما من المحلة الكبرى ذاهب إلى اليابان بحثا عن عمل، خريج جامعى ولم يجد عملا فى مصر، مهندس بدون عمل، رغم مرور سنوات على تخرجه، وهو ذاهب إلى ابن عمه الذى يعمل فى طوكيو حتى يجد له عملا معه. لعل وعسى.

ذهلت، هل من المعقول أن يقطع هذا الشاب تلك المسافة الرهيبة وكل ما معه رقم تليفون فى قلب طوكيو لقريبه، خاصة وأنه قال لى إن صلة قريبه بهم مقطوعة منذ سنوات، وإنه لم يتصل بهذا القريب، أو ابن العم من المحلة الكبرى قبل أن يقرر السفر؛ لأن المياه فى اليد قد نشفت؛ يقصد أنه لم يكن معه أجر الاتصال التليفونى. ماذا فعلت البلاد بأهلها؟ هل أصبحت القطة لا تأكل سوى أبنائها؟ إلى أين ستصل البلاد بسبب البطالة؟ هل يدرك أحد فى مصر ماذا فعلت هذه الكلمة بشبابنا؟ نظرت إلى الشاب. كان

To: www.al-mostafa.com

وجهه هادئا، لا يعكس أى انفعالات فى أعماقه أبدا، مع أننى شعرت بحالة من القلق الرهيب، لمجرد أننى استمعت لحكايته وسفره الغريب هذا.

وعدت أسأله من جديد إن كان يعرف أحدا غير ابن عمه فى طوكيو. قال: لا. عدت ألح عليه إن كان قد اتصل بالسفارة المصرية هناك. ضحك وقال لى إنه لم يعين بعد رئيسا لوزراء مصر حتى يكون فى مستطاعه أن يفعل هذا. تساءل هو بدوره: إن كان لم يتصل بابن عمه. هل يتصل بالسفارة المصرية فى طوكيو؟! اتهمنى بأن بالى رايق. عندما سألته إن كان الرقم الذى معه قد تغير.

قال لى إن كل ما فعله أنه رمى حموله على الله وقرر السفر؛ لأنه لم يكن فى البلد أى شىء يجعله يفكر - مجرد التفكير - فى السفر من عدمه. لم يكن أمامه سوى طريق وحيد لا ثانى له؛ ليخرج من أزمته. لم تكن أمامه فرصة للاختيار بين احتمالين، لم يكن أمامه سوى السفر وآمال السفر. هل يتصور أحد أن يذهب شاب مصرى إلى اليابان بحثا عن عمل؟ أقصى ما سمعناه من قبل نصيحة أن نطلب العلم ولو فى الصين. فما بالك بالبحث عن عمل ولو فى طوكيو؟!

سألته كيف حصل على تأشيرة دخول إلى اليابان؟ قال لى إنه لم يبلغهم فى السفارة أنه ذاهب إلى طوكيو بحثا عن عمل؛ خاف ألا يمنحوه التأشيرة، ولكنه قال لهم إنه مسافر من أجل الدراسة. فكرت فى الاستمرار فى النقاش معه الذى كان أقرب إلى الاستجواب منه إلى الثرثرة. لابد وأن السفر إلى اليابان من أجل الدراسة يتطلب أوراقا وشهادات، وقبول من معهد أو كلية فى اليابان، وتحويل مبلغ من المال لابد وأنه مبلغ محترم، كفيل بحل أزمته فى مصر. هل قال لهم إنه رجل أعمال ذاهب إلى طوكيو من أجل عقد الصفقات؟ من المؤكد أنه كذب علىَّ عندما قال لى إنه طلب التأشيرة باعتباره سيدرس فى اليابان، ومن حقه أن يمارس بعض الأكاذيب الصغيرة البيضاء، ومن منا لا يكذب على الآخرين وعلى نفسه أحيانا؟

الشاب الآخر كان محاميا. هكذا قال لنا. يعمل بين السعودية والفلبين من أجل تسفير العمالة الفلبينية إلى هناك. مقره الدائم فى الرياض، وإقاماته العابرة تكون هنا فى مانيلا. وهذه المرة جاء من القاهرة إلى مانيلا مباشرة، حيث إنه كان فى إجازة، وسيعود إلى السعودية. أوشكت أن أسأله، ولماذا لا يحضر عمالة من مصر؟ الذين بدون عمل فى مصر أكثر من الهم على القلب. الشاب الأول كان يشكل سؤالا فى حد ذاته، ولكنى

كنت أعرف سلفا إجابته على سؤالى . والمقارنات اللانهائية بين العمالة الآسيوية والعمالة المصرية؛ الأولى أرخص والثانية أقل كفاءة، الأولى فى حالها، والثانية تسعى للمشاكل سعيًا. بلعت سؤالى فى فمى ولم أنطق به. الأمر وصل إلى ما هو أخطر من هذا، هل يعرف الشاب المسافر إلى طوكيو بحثا عن عمل قد لا يجده، أن العمالة الآسيوية قد ظهرت فى مصر نفسها؟!

عند العودة إلى الطائرة، بعد انتهاء وقت الترانزيت وقع لنا حادث طريف وعابر، ومع هذا كان يمكن أن يغير من أمر الرحلة كلها. عند الوصول إلى المطار من باب الترانزيت. كان من المفروض أن ندخل إلى صالة الترانزيت لكى نخرج منها إلى باب آخر يوصل إلى الطائرة مباشرة. أنا لم آخذ بالى بسبب سيرى مع ربان الطائرة عند الخروج، من المفروض أنه غير ذاهب إلى الترانزيت. كان داخلا إلى قلب بانجكوك، فقد انتهى عمله بوصولنا من القاهرة إلى هنا. وبعد أن ودعت ربان الطائرة. لم أشأ أن أسأل أحدًا إلى أين يجب على الذهاب، وتبخر السؤال فى ذهنى بعد تعرفى على المحامى الشاب، لأننى كما فهمت من كلامه أنه يمر فى هذا الطريق مرة كل شهر، وبالتالى فهو يعرف كل خفايا المطار.

اكتشفنا أننا دخلنا السوق الحرة بدلا من قاعة الترانزيت، ولابد من فتح باب مغلق لنا حتى نلحق بالطائرة. ركبنى توتر العالم كله، وفى اللحظات التى مرت، حتى أتى من فتح لنا الباب الفاصل بيننا وبين الطائرة، كان موعد إقلاعها قد مر ورحت أتخيل الحال عندما تتركنا الطائرة وتقلع. لابد من البقاء هنا أسبوعا حتى تحضر الطائرة التالية.

رحت أتصور السيناريو البديل، شعرت من جديد بخجل قومى عام عندما سأبدو أمام اليابانيين غير قادر على تحمل مسئولية نفسى. عندما وصلنا إلى مكان الطائرة اكتشفنا أن المسئولين عنها عندما أدركوا عدم وجود ثلاثة من الركاب انتظروا بعض الوقت. وهكذا جاء الحل السحري الذي لا يمكن أن يفكر فيه سوى المصريين. كنت تعسا وسعيدا فى نفس اللحظة، فإن كانت المشكلة مصرية فالحل مصرى أيضا.

«صباح الخير الكابتن إسماعيل سرى قائد الطائرة من بانجكوك إلى مانيلا يحييكم. من المتوقع أن تستغرق الرحلة ثلاث ساعات». الصوت مصرى ونغمات الأحرف عذبة وجميلة تقول رقم الرحلة والطائرة التى نستقلها وهى بوينج ٧٤٧. هذه أقصر محطة فى السفر الطويل، وإن كنا قد نزلنا من الطائرة إلى المطار فى بانجكوك فلن ننزل إلى مطار مانيلا. سنبقى فى الطائرة التى من المتوقع أن تبقى ٤٥ دقيقة فقط على أرض المطار.

الوقت فى القاهرة الآن هو الثانية عشرة والنصف مساءً، وإن كان التوقيت فى مانيلا هو السادسة والنصف، ولا تسألنى عن أى قاعدة لفوارق التوقيت بين عاصمة وأخرى؛ لقد حاولت أن أحسب هذه الفوارق حتى تعب ذهنى تماما، وانصرفت عن المحاولة، لأننى لم أصل إلى أى نتيجة بالمرة. درجة الحرارة خارج الطائرة هى ٢٧ درجة تحت الصفر.

وكان الوصول إلى مانيلا مفاجأة حقيقية؛ لأن الوقت الذى استغرقته الرحلة من القاهرة إلى بانجكوك ثلاثة أضعاف الرحلة من بانجكوك إلى مانيلا. بعد نزول الطائرة إلى أرض المطار طلبوا منا البقاء فى المقاعد، وإن كان قد نزل بعض الركاب وصعد بعضهم الآخر، خلال هذا الوقت الذى بقيناه فى مانيلا وهو ساعة إلا ربعا.

سمعت على المقعد الذى كان خلفى فى درجة رجال الأعمال حواراً مصريا بين اثنين. قال أحدهما للآخر: إنه خارج هذا المطار مباشرة بنات فلبينيات يقفن على شكل طوابير طويلة من المطار وحتى المدينة. ما أن تختار البنت أو أن تقوم هى باختيارك لو كان عندك أى إحساس بالخجل، حتى تجد الأماكن متوفرة والأسعار. سعر البنت وسعر المكان وسعر الوسطاء، محددة من قبل الدولة، والكشف الدورى على البنات يتم بمعرفة أطباء وزارة الصحة.

سأله الذى كان يستمع إليه: لابد وأن البنات يقفن فى المساء ووقت الغروب، ولا نعرف إن كان هذا هو وقت الوقوف أم لا؟ والذى كان يحكى، قال للسائل: إن البنات يقفن كل أوقات الليل والنهار، والبنت التى تعثر على زبون لها لا يبقى مكانها خاليا تتقدم فتاة أخرى مكانها، وهكذا يبدو الطابور مستمرا ليلا ونهاراً، من أجل استقبال القادمين إلى الفلبين.

كانت الفلبين بالنسبة لى هى بلاد المسلمين المغتربين بين الفقر والدكتاتورية. البؤس والنهب المنظم. الفقر والجهل والمرض. المثلث الذى قامت ثورات التحرر الوطنى فى الخمسينيات من أجل القضاء عليه. بؤس بلا حدود، ولكن على الطريقة الآسيوية. ورجال الغرب لا يتركون أهل أى بلاد فى حالهم؛ مهما وصل البؤس بهم، يحاول الرجل الغربى الاستفادة مرتين؛ الأولى من بؤس البائسين، والثانية من نهب اللصوص. كان الرجل الذى يجلس خلفى مستمرا فى حكايته. تلك القصة التى لا تصدر إلا عن خيال شعبى، فهو وحده القادر على صنع هذه المعجزات.

ـ ثـلاثـة ـ

لابد من طوكيو وإن طال السفر

من المتوقع أن تستغرق المسافة من مطار مانيلا حتى طوكيو ثلاث ساعات وأربعين دقيقة بالتحديد، والكابتن أحمد عاشور يتمنى لكم رحلة ممتعة معه . هذا ثالث طاقم يتولى قيادة الطائرة منذ بدء الرحلة من القاهرة. الوصلة الأخيرة فى الرحلة الطويلة ونحن فى الجو، وقبل الوصول إلى مشارف اليابان. قدموا لى ورقة بيانات كان فيها سؤال عن الأمراض التى أعانى منها، وفى بند الإجابة بيان بعدد كبير من الأمراض، ومطلوب منى الإجابة على هذا السؤال بعلامة صح أو النفى.

وقد عجبت من هذا البند فى الأوراق، ولم أفهم الغرض منه، وسألت نفسى: هل السؤال بديل للحجر الصحى؟ وهل فى حالة الإجابة بنعم، أن يتم اتخاذ إجراء ضد المسافر الصريح والشريف والشجاع؟ من منا بدون مرض؟ بل من منا بدون مجموعة من الأمراض؟ كل واحد منا عبارة عن حزمة من البؤس والأحزان والأمراض، وهل من المعقول والمقبول منع مسافر من دخول اليابان بعد هذا السفر الطويل؟ ألم يكن من الأفضل إثارة هذا السؤال قبل منح المسافر التأشيرة فى القاهرة؟ ويخرجنى من هذه التأملات صوت المذيعة الداخلية فى الطائرة:

ـ نحن نقترب من مطار ناريتا الدولى فى طوكيو. الساعة الآن هى اثنتى عشر وتسع دقائق بالتوقيت المحلى، ودرجة الحرارة هى الخامسة فوق الصفر «يا أهلا بمعارك البرد» مع رجاء تسليم السماعات التى استعملت خلال الرحلة، طبعا لم تقل المذيعة إن على المسافرين إلى عواصم أخرى الاتجاه إلى الترانزيت. لا عواصم أخرى بعد طوكيو، هنا نهاية العالم. الماء ثم الماء، والناحية الأخرى من العالم أمريكا. ختمت كلامها بالعبارة التقليدية إن مصر للطيران تتمنى لنا رحلات أخرى معها.

نظرت فى ساعتى ـ كانت الساعة هى الخامسة صباحا فى القاهرة الآن ـ صباح اليوم

نظرت فى ساعتى - كانت الساعة هى الخامسة صباحا فى القاهرة الآن - صباح اليوم التالى لسفرى (يوم الأربعاء). لقد تركت القاهرة وكان اليوم هو الثلاثاء فأى وهم هو التوقيت الذى يتحدثون عنه؟!

نحن الآن فوق مطار ناريتا الدولى، والمدينة التى نحلق فوقها هى طوكيو. قلت لنفسى لابد من طوكيو وإن طال السفر. والسفر كان طويلا بالفعل. أقترب من النافذة. النظرة الأولى. المصافحة البكر. ها هى طوكيو التى شددت الرحال إليها من الأمس. ومع هذا أنا أسعد حظا من الذين حضروا إلى هنا بالبواخر. كانت الرحلة تستغرق أكثر من شهر.

والذين سيأتون إلى هذه البلاد من بعدى بسنوات، ربما جاءوا فى ساعات معدودة. إنه التطور الطبيعى. النظرة الأولى، المصافحة البكر. بدوت أمام نفسى مثل كرستوفر كولمبس لحظة وصوله إلى أمريكا، هل هو الذى وصل أولا، أم أن العرب هم الذين سبقوه؟ أنا سعيد بلحظة الوصول إلى طوكيو ولا أريد إفساد مشاعر هذه اللحظة بتلك القضايا الكونية المعقدة. رغم الطائرة والرفاهية والشاى والقهوة والطعام والمضيفات الجميلات، كل المضيفات جميلات. هذا هو تصورنا المسبق عنهن، ولذلك لابد وأن يبدين جميلات فى أعيننا. ورغم فرحة الوصول التى تشبه الميلاد الثانى للإنسان إلا أننى متعب ومنهك. وقلبى يكاد أن يقفز من صدرى من شدة الفرح.

كان الوقت خارج الطائرة نهاراً، ولكنه نهار رمادى. أول ما عرفته عن هذه البلاد كان عبارة بلاد الشمس المشرقة، وعندما علمت بعد ذلك أن الشمس تشرق هنا أولا، حسدت سكان هذه البلاد بسبب بكارة أشعة الشمس التى تصل إلى هنا دون أن تكون قد جرحتها عين. إن هذا من الأمور النادرة. لم أشاهد الشمس، مع أننى توقعت أن أول ما سأراه فى اليابان سيكون أشعة الشمس الذهبية التى تطلى الأشياء بطلاء من الذهب لونه بديع، افتقدته منذ رحيلى عن قريتى الضهرية ذات صباح أحد أيام شهر ديسمبر سنة ١٩٦٥ وحتى الآن.

مدينة هائلة ندور فوقها. نصف المشهد يصل ما بين السماء والأرض، ونصفه الآخر بحر، ونحن ندور فوق المدينة. تلك الدورة التى تتغير فيها زاوية الرؤيا، وتميل الأرض ومن عليها وتعتدل.

مكتوب لى أن آتى إلى هنا، وأن أعيش فى هذه المدينة، أنام وأصحو، آكل وأشرب، أتحدث وأستمع، أحلق ذقنى وأستحم، سيحدث هذا لى فى طوكيو ومدن يابانية أخرى، لم يكن فى الحسبان أبدا الوصول إليها وإلقاء نظرة عليها. قلت لنفسى: المكتوب على الجبين لابد وأن تراه العين.

مطار ناريتا حالة من النظافة والعناية التى لا حدود لهما. كل ما أراه أمامى لونه رمادى. ما أكثر المطارات التى وصلت إليها، بعد سفر بعضه مرهق والآخر مريح. فى بعض المطارات تعلن الدولة والنظام عن نفسيهما منذ اللحظة الأولى، وفى بعضها يكون حضور الرئيس القائد المحبوب والبطل المغوار هو الأساس، وثمة مطارات أخرى صممت من أجل اعتبارات الأمن والأمان. من المفروض أن تقوم بالدور الذى كانت تقوم به الحصون والقلاع فى العصور الوسطى. تصد الجيوش الحديثة وتمنع الجواسيس من التسلل إلى البلاد.

ورغم أن الإنسان اليابانى ضئيل الحجم، والمفروض أن يتناسب المبنى مع هذا المعنى؛ إلا أن المطار كان ضخما وعملاقا بصورة تلفت النظر. وإن كانت هذا الضخامة تكاد أن تتوارى وراء إحساس بالبساطة والأناقة. كل ما تراه بسيط وأنيق معا، مع أن أبناء العالم الثالث يفهمون أحيانا أن البساطة ربما كانت ضد الأناقة.

هنا أدركت أن البساطة هى الطريق الطبيعى إلى الأناقة التى تخرج من رحم التحضر وليس من فكر محدثى النعمة، ورغم أن المعجزة اليابانية عمرها قصير. إلا أنه يبدو أن الحضارة القديمة فى هذه البلاد قد أعطت للمعجزة عمقا موغلا فى القدم والبعاد. مطار ناريتا عنوان على حضارة قائمة على فكرة العمران والتقدم الذى يستند إلى القدرة على الاستفادة من العلم وتسخيره لتنظيم كل أمور الحياة اليومية.

حالة من الصمت والتلاشى والهدوء القاتل. كان عدد الذين نزلوا من الطائرة قليلا، لا يتناسب مع ضخامة حجمها. قلت لنفسى، إن من يصمد حتى آخر الرحلة المضنية من قلب العالم إلى آخر نقطة فى شرقه، بطل على نحو ما. نظرت إلى العدد القليل من الركاب وتذكرت أننى علمت من الملحق الصحفى اليابانى فى القاهرة أن السفارة تمنح حوالى عشرين تأشيرة سفر كل يوم للمصريين المسافرين إلى اليابان.

وقد نظرت إلى الرقم على أنه ضئيل للغاية، ولا يتناسب مع حجم التعامل بين مصر واليابان، ولا درجة تواجدها فى الشارع والبيت والمكتب المصرى؛ لأنه بحسبة بسيطة فإن كل الذين يزورون اليابان من المصريين حوالى ستة آلاف مصرى فقط فى السنة كلها. والرقم أيضا محدود، بل شديد المحدودية.

نظرت إلى الواصلين معى. التعب الذى يصل إلى حد الذبول هو العنوان الذى يمكن قراءته على وجوه الواصلين. الملابس مهملة، بل ومكرمشة. والشعر منكوش والذقون

لم تحلق بعد. كان هذا حال المجموع إلا محترفى السفر طبعا، وهم قلة من بين عدد الواصلين القليل أصلا. نزل واحد منهم على سنجة عشرة وكأنه خارج لتوه من غرفة نومه وحمامه الخاصين، مع أنه كان معنا فى قلب الطائرة. قلت لنفسى: حتى السفر يحتاج إلى مواهب.

اقترب منى الشاب المصرى الذى جاء بحثا عن عمل، مرة أخرى ولن تكون الأخيرة، لن أملّ من طرح السؤال، ولكن هذه المرة على نفسى: هل يتصور أحد هذه القدرة على المغامرة؟ يسافر كل هذه المسافة وهو لا يملك سوى رقم تليفون من المحتمل أن يكون قد تم تغييره، أو أن يكون قريبه صاحب هذا الرقم قد هاجر من طوكيو، أو هرب منها لأى سبب من الأسباب. أليس من المحتمل أن يكون سكن هذا القريب مفروشا؟ وأن يكون قد طرد منه لأى سبب؟ والأسباب على «قفا من يشيل». كنت قلقا وهو مطمئن، متوترا وهو هادئ، مع أننى تنتظرنى مندوبة من مؤسسة اليابان. وأعتقد أن هناك مندوبًا من السفارة المصرية فى طوكيو.

وكنت من كثرة القلق والتوتر قد اتصلت وأنا فى القاهرة مع المستشار ناجى الغطريفى المستشار الصحفى لوزير الخارجية، وأخبرته أننى مسافر إلى اليابان، وقد أبلغنى أنه سيرسل برقية إلى السفارة المصرية فى طوكيو فورا من أجل القيام بعمل اللازم عند الوصول وخلال الإقامة والمغادرة، وكان اتصالى بالمستشار ناجى الغطريفى تعبيرا عن حالة الرعب التى تجتاح أعماق الإنسان تهيبا من هذه الرحلة.

وقفت فى طابور الجوازات، ولكنى وقبل أن يتحرك الطابور الذى كان صغيرا، فوجئت بالأستاذ لويس حبيب الملحق الصحفى فى السفارة المصرية فى اليابان «عرفته بعد أن قدم لى نفسه» يحضر إلى ويأخذ منى أوراقى. ويتقدم إلى شباك خاص، لأنه لم يكن يقف أمامه أحد من المسافرين. كان يعلق على صدره العلامة الدبلوماسية، وهى علامة حمراء، ولها قدر هائل من الاحترام فى بلد أهم سماته النظام الدقيق والصارم.

حاول أن يأتى معنا الشاب المصرى الباحث عن العمل فى الغربة، وما أدراك ما الغربة التى نحن فيها الآن. المصرى للمصرى عزوة وأهل ووطن، ولكن ذلك كان صعبا لأن وقوفى فى هذا المكان لم يتم صدفة. كانت هناك ترتيبات محددة قام بها لويس حبيب قبل حضوره إلى المطار. نزلنا، ونحن وقوف فوق سلم متحرك إلى مساحة واسعة مفروض أن نقف فيها فى انتظار الحقيبة الكبيرة التى أضع فيها كل ما يخصنى، فالتى فى يدى كانت

حقيبة صغيرة، فيها أمور من الصعب الاستغناء عنها، الجواز والتذكرة والكتب التى أقرؤها، والراديو الصغير والكاميرا، وبداخلها حقيبة أصغر فيها الدواء الذى يقترب من صيدلية صغيرة متنقلة معى.

منذ أن مرضت بمرض السكر وحقيبة الدواء هذه لا تفارقنى فى أى مكان، مع أننى كنت أسخر من قبل من هؤلاء الذين لا يتحركون إلا والدواء معهم. كأن الدواء هو الوقود الذى يحركهم مثل السيارات تماما. جئت من القاهرة بالملابس الصيفية فقط، ولذلك وضعت جواز سفرى وتذكرة الطائرة فى حقيبة اليد التى لا تفارق يدى أبدا مهما كانت الأسباب. كان من المستحيل علىَّ تغيير ملابسى قبل هبوط الطائرة، مع أن أحد محترفى السفر دخل الحمام ونحن على مشارف طوكيو ببدلة صيفية، وخرج منه بعد دقائق بأخرى شتوية لدرجة أنه كان من الصعب التعرف عليه، والبدلة الشتوية كانت معلقة فى دولاب خلف أحد الأبواب الأمامية فى الطائرة، ويبدو أنه سلمها للمضيفة عند صعوده للطائرة فى القاهرة.

ومن أجل التغلب على هذه المشكلة كانت فى حقيبة يدى فانلة صوف وبلوفر صوف، يمكن إضافتها للبدلة الصيفى بسهولة. قلت لنفسى إن المسافة من المطار إلى الفندق سأقضيها فى السيارة. وبعدها يفرجها الكريم. إن مشكلتى مع السفر تتلخص فى أننى إنسان بيتى لا أستطيع أن أمارس إنسانيتى سوى فى بيتى فقط.

خلال انتظارنا لحقائب السفر كان ثمة أكثر من شخص يتحركون وسطنا، وبيد كل منهم كلب ضخم. من المؤكد أنه كلب بوليسى. كان الرجل يقترب منا والكلب يتشمم الواقفين، وما أن تصل حقيبة على السير الكهربائى لا يتسلمها صاحبها قبل أن يتشممها الكلب، وهذه الأمور تتم بصورة طبيعية وبدون أى افتعال، ودون أن تشعر أن شم الكلب لنا ثم للحقيبة هو جواز مرورنا الأخير إلى اليابان.

هذا زمان التقاليع فى المطارات؛ ففى مطار هيثرو بلندن رشونا بالمبيدات قبل النزول من الطائرة وكأننا قادمون من بلاد الأمراض والأوبئة، وها نحن فى مطار ناريتا بطوكيو يتشممنا كلب قبل أن يسمح لنا بدخول العاصمة، عرفت أن الكلب مدرب على اكتشاف ثلاثة أمور: المتفجرات وما يدور حولها أو يستخدم فى صنعها. والأسلحة والمخدرات بجميع أنواعها.

لم أر حكاية الكلاب البوليسية سوى هنا، وحتى فى أعتى المطارات أمنيا لم أشاهد

الكلاب أبدا. جاءت الحقيبة بسرعة. إن دقة العمل هنا تبدو مثل الساعة اليابانية الصغيرة جدا والدقيقة فى عملها بدون حدود. عند المرور على موظف الجمارك لم يقترب منا عندما عرف صفتى الصحفية، وهى لها شنة ورنة فى اليابان، وكذلك طبيعة الدعوة الموجهة لى.

قام موظف الجمارك بتفتيش حقيبة الشاب المصرى الذى كان يتحرك بالقرب منا، والذى لم يتأخر عنا كثيرا، رغم أنه كان بمفرده ولم يكن أحد فى انتظاره. كان التفتيش بدقة متناهية. كان الشاب يحمل معه لقريبه الذى يعيش فى اليابان علبة حلاوة طحينية «ياسلام على هيافة المصريين». فتح الموظف العلبة وفوجئ بما فيها. يبدو أنها المرة الأولى التى يرى فيها الحلاوة الطحينية بأم عينيه. سأل عن هذا الشىء الذى يبدو أنه لم يتشرف بمعرفته من قبل مع أنهم نبهوا علينا أنه ممنوع منعا باتا الدخول إلى اليابان بأى أطعمة مهما كانت الأسباب. وقد سمح بدخولها فى النهاية لعدم وجود مثلها فى اليابان، مما يبرر كونها هدية قادمة من القاهرة.

عرفت فى أثناء عملية التفتيش أنه حدث ذات مرة، أن قريبا من أقرباء الدرجة الأولى لإمبراطور اليابان، كان له صديق مصرى، وقد أرسل له هذا الصديق قفص مانجو مصرية مع هدايا أخرى، وقد قامت الجمارك فى مطار طوكيو بإرسال الهدايا إلى صاحبها إلا المانجو. حجزتها وصودرت، لأنهم تعاملوا معها باعتبارها طعاما والقانون يحرم دخول الطعام إلى البلاد حتى لو كان لقريب الإمبراطور، وحتى لو كان هذا القريب من الدرجة الأولى. استمعت إلى القصة بحذر. قلت ربما كانت جزءا من فولكلور الشعوب التى تحاول أن تسبغ على حكامها أكبر قدر من العدالة، كنوع من تأمين نفسها ضد ظلمهم عندما يحين وقت الظلم ويأتى زمانه.

يبدو أن علبة الحلاوة الطحينية قد دفعت موظف الجمارك إلى أن يعيد تفتيش الشاب تفتيشا ذاتيا ودقيقا. وقد أوشكنا أن نموت أنا ولويس حبيب فى جلودنا فى هذه اللحظة خشية أن يكون مع الأخ المصرى الذى لا أعرفه أى ممنوعات، خاصة وأن المصريين يفعلون بأنفسهم فى الغربة وببلادهم الأعاجيب، وذلك من باب الشطارة والفهلوة، ولكن الله سلم.

كان معى خطاب موجه إلى إدارة المطار، حصلت عليه من السفارة اليابانية فى القاهرة، يحدد المكان الذى سأجد فيه مندوبة مؤسسة اليابان، والخطاب يطلب من

المسئولين فى المطار توصيلى إلى هذا المكان. ومع هذا اتصلت من جانبى بسفارة مصر فى طوكيو ووزارة الخارجية المصرية فى القاهرة؛ خشية أن أتوه عن رؤية مندوبة مؤسسة اليابان فى المطار، وربما لا تحضر أو أن تحضر متأخرة مثلما يحدث فى مصر فى معظم الأحيان، رغم أن الوزير المفوض اليابانى فى القاهرة قال لى إن الخطأ غير مسموح به فى بلادنا مهما كان الخطأ صغيرا أو تافها، فهو جريمة فى حق اليابان.

قبل أن نصل إلى المكان الذى كان عبارة عن ركن صغير كانت هى تبحث عنا. اسمها كريمة موروكا. وموروكا اسم عائلة أمها واسمها المصرى: كريمة على السمنى، ووالدها جاء إلى اليابان من مصر وعاش فيها حوالى عشرين عاما، وأنجبها هى وأخت لها، اسمها إيمان، واسمها هنا نامه لأن إيمان من الصعب العثور على نطق يابانى له.

الأب مصرى والأم يابانية، وقد تعلمَت فى مصر وتخرجت فى العام الماضى فى كلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة القاهرة، وكان تعليمها قبل الثانوى هنا فى اليابان «طبعا فالتعليم الجامعى فى مصر ببلاش يابلاش» ثم جاءت لتعمل هنا، وقررت أن تكون يابانية. تعمل مترجمة مستقلة؛ أى مترجمة ولكنها لا تعمل فى أى مؤسسة. هى نفسها المؤسسة، وعندها فى البيت التليفون والفاكس وكل مستلزمات العمل، وتتفق على أى عمل يطلب منها، وتحدد شروطها غير أنها تكتب عقدا وتسجله فى الشهر العقارى. هكذا تسير الحياة بطريقة آلية تماما.

فيها من المصريات خفة الظل وسرعة البديهة فقط، ولكن فيها من أهل اليابان الباقى كله؛ المحافظة على المواعيد بدقة تصل إلى حد الصرامة، التجهم والموضوعية وانعدام المشاعر والعواطف والأحاسيس الإنسانية، والمحافظة على مسافة بينها وبين الدنيا كلها. وهذه المسافة أطول من أن تحتملها ظروف الحياة.

قالت لى إن والدها يعيش فى قرية مصرية هى «سنديون» لم تقل لى إن معناها معبد الشمس باللغة الهيروغيلفية القديمة. «سند» تعنى معبد و«يون» هى الشمس. ألا تشكل الشمس المشرقة رابطة بيننا وبين اليابان التى يقال عنها بلاد الشمس المشرقة؟! وسنديون قرية مصرية على الطريق الزراعى مصر إسكندرية، وأكدت لى أن لوالدها شقة فى عمارات أغاخان فى حى شبرا؛ حتى يكون فى أقرب مكان إلى قريته. وعندما ينوى السفر إليها فإن ذلك لا يستغرق أكثر من نصف الساعة.

أما أمها فهى تعمل فى السفارة اليابانية فى القاهرة، وقبل حضورى وبعد أن عرفت

أنها ستكون مترجمتى، سألت محمود عبده عن رقم تليفون كريمة فى طوكيو من باب الاطمئنان، وحتى أصل إلى طوكيو وأنا مسلح بأكثر من سلاح. فقال لى إنه لا يعرفه، وعندما طلبت منه أن يحضره لى من أمها، لم يبد أى حماس لذلك، وقال لى إننى سأعرفه عندما أسافر إلى طوكيو.

هذا ولّد عندى حالة من حب الاستطلاع، فقررت أن أطلبه من أمها، فاتصلت بها تليفونيا فى السفارة اليابانية فى القاهرة، وبعد التحيات والسلام والذى منه «كانت تتحدث بالعربية مثل أهلها تماما». سألتها إن كانت تريد أى شىء من ابنتها فى طوكيو. قالت: شكرا. فعرضت إن كانت تريد إرسال أى شىء إليها هناك، فأنا أستعد للسفر إلى طوكيو، وستكون كريمة مترجمتى خلال وجودى هناك. فعاودت الشكر الحيادى مرة أخرى.

تقدمت خطوة أخرى، وطلبت منها رقم تليفون كريمة فى طوكيو، فقالت إنه لا يوجد معها الآن «على مين ياعمر؟» إن الأم التى تحتاج إلى كتابة تليفون منزل ابنتها من الصعب أن تكون أما. إنه الرقم الوحيد الذى يكون مطبوعا على حبة القلب. يبدو أن هذا التحفظ جزء من الشخصية اليابانية، فعلى الرغم من أن فى كريمة سمار البنت المصرية، إلا أنها بدأت تصب فى قالب المرأة اليابانية، ساعدها على ذلك حرصها على طقوس الأدب اليابانى فى طريقة التعامل. لقد بدأت ملامح المرأة اليابانية تغزوها، ولولا معرفتى بنشأتها المصرية لتصورت أنها يابانية من النظرة الأولى.

سلمت على الأخ المصرى الباحث عن العمل، وودعته وقلبى معه. خشيت أن أدعوه للركوب فى السيارة معى، أن يكون ذلك ضد التعليمات التى مع كريمة، ولم أطلب من لويس حبيب اصطحابه معه فى سيارة السفارة. بدا لى ذلك موقفا مصريا غير قابل للتنفيذ هنا.

كان هناك مترو أنفاق، يبدأ من تحت المطار، ويصل إلى قلب طوكيو، وثمن التذكرة ثلاثة آلاف ين. أما التاكسى فهو يتكلف عشرة أضعاف هذا المبلغ. صدق من قال: إن ارتفاع الأسعار اختراع يابانى. استأذنت من الأخ لويس حبيب، بعد أن شكرته على الحضور إلى المطار، وركبت مع كريمة موروكا متجها إلى طوكيو، وبقى لويس فى انتظار البريد الدبلوماسى الذى يعرف عادة باسم الحقيبة الدبلوماسية التى جاءت مع الطائرة من القاهرة. المسافة من المطار وحتى قلب المدينة هى ٩٠ كيلومترا؛ أى تقترب من المسافة من

القاهرة إلى طنطا. أى صدفة سفر تلك؟! «شيء لله ياسيد يابدوى». وقد استغرقت هذه المسافة حوالى الساعة بسبب الزحام، زحام المرور فى هذا الوقت من النهار.

فى الفندق وضعت حقائبى وعرفت رقم غرفتى، وصعدت إليها بعد وادع كريمة، التى قالت لى إنها ستحضر لى فى التاسعة والنصف من صباح الغد. وما أن وجدت نفسى فى الغرفة حتى رحت فى نوم عميق على الفور. تبخر الإحساس بالغربة، وانتهت متاعب تغير زمان ومكان وظروف النوم، ولم أتمكن من المحافظة على عادتى القديمة عند النزول فى أى مدينة ما، فيكون أول ما أقوم به هو التجول فى المنطقة المحيطة بالفندق كنوع من التعارف الأول مع المدينة. عندما قمت بوضع الحقيبة على أرض الغرفة، حط على دفعة واحدة وبدون مقدمات تعب من الصعب وصفه، ودون أن أدرى إن كنت قد نمت بملابسى أو خلعتها وقد رحت فى النوم دون متاعب الدخول فى رواق النوم اللذيذ.

وعندما جاء النوم الأول فى اليابان، كان نوما بدون أحلام.

وكان النوم نفسه إيذانا برفع الستار عن يومى الأول فى هذه البلاد..

ـ أربعـــة ـ

طوكيو لأول مرة.. زحام منظم ووفرة

آخر اليوم الأول

الأربعاء ١٠ من نوفمبر ١٩٩٣.

صحوت من نومي في الساعة السابعة مساء بتوقيت طوكيو، وإن كانت ساعتي ماتزال مضبوطة على توقيت مصر. كانت ساعتي هي الثانية عشرة ظهراً. بعد الصحو استغرقت قليلا في التفكير في أحوال مصر في مثل هذا الوقت من النهار.

منزلنا في مدينة نصر. رباب في المدرسة التجريبية الألمانية الموحدة. أحمد في الأكاديمية العربية للنقل البحري في أبو قير بالإسكندرية. دار الهلال ومكتبي. شوارع القاهرة المليئة بالصخب العذب والمثقلة بالفوضى الجميلة. مقاهي مصر التي تمتلئ بالناس في أي وقت من أوقات النهار. يشربون الشاي ويدخنون الشيشة، ويلعبون الطاولة والدومينو والكوتشينة خاصة في مقاهي الأحياء الشعبية. العاطلون عن العمل يحتلون النواصي والأرصفة. هل صحيح أن ٤٠٪ من أهل بلدي بدون عمل؟ وأنهم جميعا في عمر الشباب؟ زمن العمل والعطاء والأحلام الرومانسية والرغبة في تغيير العالم إلى الأحسن؟ ما الذي أوصلنا إلى هذا النفق المظلم؟ وهل هناك أمل في الخروج منه؟ وكيف يتم هذا؟ وبأقل الخسائر الممكنة؟

دعوت الله أن تمر هذه الأيام على خير، ليس بالنسبة لي هنا، ولكن لبلادي البعيدة؛ لأن العودة لن تكون من الأمور السهلة، فضلا عن الوقت الذي تستغرقه الرحلة. بدأت أستعد لدخول الحمام. أعرف أن هذا وقت متأخر من النهار، ولكنه بالنسبة لي الآن، في هذا المكان هو الصباح؛ لأن هذا أول وقت لي في مكان يخصني وحدي بعيدا عن الجحيم الذي هو عيون الآخرين.

منذ أن تركت بيتنا أمس الثلاثاء وأنا فى العراء بعيداً عن دفء مكان يخصنى . كانت الغرفة التى حصلت عليها فى الفندق ضيقة . رغم أن المترجمة قالت لى صباح اليوم إن الفندق سيقدم لى هدية عبارة عن غرفة واسعة بالأجر العادى . وإن هذه الهدية لن تشكل قاعدة طوال أيام الرحلة ، ولكن فى اليومين الأولين فقط . من اعتاد على براح الأماكن واتساع المسافات وبعد الأفق مثلى ، وهو ما تعودته فى الريف المصرى ، وحاولت الحفاظ عليه بقدر الإمكان بعد الإقامة - التى لم أكن أحبها - فى القاهرة . أقول من تعود على البراح ، لابد وأن تصدمه حالة الجوع إلى المكان التى تميز الكثير من سلوكيات الإنسان اليابانى .

إن التوفير عندما يبدأ فى الأموال يصبح من الأمور المرغوبة ، أحسد دائما من يحافظون عليه . أما القدرة على التوفير فى المكان والزمان ، فتلك مسألة تصل إلى حدود العبقرية الغائبة فى حياتنا . إننا نبعثرهما بدون رحمة . لا نعرف أن هناك توفيرا فيهما أيضا . ويبدو أن التوفير فى المكان علاوة على الإحساس الحاد بالزمان هما من أول مفردات الشخصية اليابانية ، هل نظر أحدكم إلى الوقت باعتباره ثروة؟ وهل رأى العبث بالمكان على أنه تبديد وهدر لطاقات هائلة؟ تلك أمور لم تخطر على بالنا من قبل .

فكرت فى النزول من الفندق إلى الشارع ، لا أحب البقاء طويلا فى الفنادق . أشعر أن ذلك قد يؤدى إلى تعليب الإنسان وتحويله إلى كائن فندقى . عندما أضع قدمى فى الشارع تكون المصافحة الثانية مع طوكيو . وكانت المصافحة الأولى قد تمت وأنا فى الطريق من المطار إلى المدينة ، وإن كان هناك أكثر من فارق ؛ المصافحة الأولى كانت وأنا فى الطريق إلى طوكيو ، وهاأنذا فى قلبها . كان اليوم فى أوله ، وأنا الآن فى آخر نفس اليوم ، وهذا معناه أننى قضيت سحابة النهار نائمًا . لابد وأن التعب كان هائلا وعظيمًا . وتعب لا يقاوم سوى بالنوم ؛ لأنه من الصعب علىّ النوم نهاراً ، وهذا من عاداتى الأساسية . إن مجرد الإحساس أن النهار طالع ، وأن نوره يفرش المكان ، وأن الناس تدب على الأرض ، كل هذا يجعل القدرة على النوم صعبة إن لم تكن مستحيلة بالنسبة لى .

ومع هذا فقد استهلكت يومى الأول فى هذه البلاد نائما ، وأنا أحب بيت الشعر الذى قاله عمر الخيام . .

فما أطال النوم عمرا ولا قصّر فى الأعمار طول السهر

ولكن حبى لهذا البيت شىء ، والتعب الذى كنت أعانى منه أمر آخر . فماذا يفعل

الإنسان مع جسمه الذى يخذله وربما يخونه فى بعض الأحيان؟ ماذا يفعل الإنسان أكثر من الاستسلام لرغبات هذا الجسم؟!

بعد الصحو من النوم، ندمت كثيرا على هذه الساعات التى ضاعت. كان لابد وأن أحمل معى بعض الحبوب التى كنا نتناولها سرا فى الأيام السابقة على الامتحانات، حتى لا ننام أسابيع بأكملها كنوع من شراء وقت إضافى يساعدنا على مواجهة الامتحان غير مبالين باحتمالات الإدمان.

طوكيو لثانى مرة.

وقت الغروب، وكان اللقاء الأول معها فى وقت الضحى، فأى مسافة بين المدينة التى أمامى، والمدينة التى حلمت بها وأنا فى الطريق إليها، خاصة وأن هذا الطريق كان طويلا؟

كنت أتوقع لحظة وصولى إلى طوكيو أن تكون فيها عاصفة ثلجية تترك آثارها على الشوارع والأشجار والبيوت والناس والسيارات. عاصفة أشد قسوة من عواصف موسكو الثلجية. الثلج بحد ذاته رمز للطهارة والنقاء ومجرد النظر إليه يعطى الإنسان الانطباع بالتطهر الداخلى. هذا ما قد يحدثه الثلج الذى يصنعه الإنسان؛ فما بالك بثلج صنعته الطبيعة، لا أول له ولا آخر؟ قلت لنفسى لن أتمكن من النظر حولى، سيكون الجو مكفهرا والأشجار - إن وجدت - عارية من الأوراق وكل ما تقع عليه العين سيكون مغطى بطبقة من الثلج.

لكن المشهد كان هادئا، بقايا شمس، كانت هنا شمس، أطلال شمس، وسماء نصف صافية وهواء منعش.. هل وصلت قدرتهم العلمية فى هذه البلاد إلى تنقية الهواء السابح فى الكون؟ من حسن حظى أن وصولى إلى طوكيو كان فى قلب النهار. فى ذلك الوقت النهارى الذى لا نعرف ماذا نفعل فيه إن لم يكن الإنسان مشغولا فى عمله. إن وصولى نهارا حوّل الرؤيا إلى مهرجان.

وإن كان الدخول إلى المدن ليلا يشعرنى أن المدينة تمنحنى نفسها فى هدوء الليل، وتخف أنفاس ظلامه. أليس هو وقت الوصال والنجوى والهمس؟! الدخول إلى المدن ليلا يعطينى إحساس الفاتحين بكل ما فيه من سعادة.

وصلتك ياطوكيو نهاراً. وكنت قد غادرت قاهرتى نهارا. والمنظر الذى آراه عند المغادرة - مغادرة القاهرة - شاهدته ألف مرة ومرة. أليست مدينة الألف مأذنة والألف

عام؟! أليست مدينة الأهرامات والنيل والصحارى حولها من كل جانب؟! ولكن عندما بدأت طوكيو فى الاستدارة ونحن نلف فوقها قبل الهبوط. كانت الرؤيا فيها البكارة وطعم ودهشة الأشياء عندما يراها الإنسان لأول مرة فى حياته. وعندما وقفت خارج المطار قلت لنفسى سأبدأ الآن فى تذوق المرئيات وشربها وتذوقها بدلا من مجرد النظر إليها. تصورت «بعين الخيال» أننى سأجد خارج المطار تمثالا لبوذا يصل الأرض بالسماء، أو معرضا فيه صنف من كل ما تصنعه اليابان، إما مجد الماضى أو معجزة الحاضر. لم أجد لا هذا ولا ذاك. صمت عميق كأنه يهبط علينا من سماء الله السابعة. هدوء كأننا نتحرك فى خيمة عازلة للأصوات من حولنا.

اللون الرمادى يلف المكان كله، والأشجار رصاصية اللون، لها حضور كثيف على جانبى الطريق. من قراءاتى عن طبيعة المكان هنا وحجم الجزيرة وعدد سكانها ومدى ضخامة النشاط الهائل الذى يمارس فيها. تصورت أن الطريق من المطار إلى المدينة سيكون فى ضيق حارة مسدودة. كان طريق المطار فسيحا، رحبا، واسعًا، والعناية به فائقة والسيارات كثيرة ومتنوعة، وإن كانت تتحرك بدون صوت. بدا لى الأمر كما لو كان مشهداً ترى صورته ولكن بدون صوت. طريق المطار هو مدخل أى مدينة، وطبيعته والفلسفة التى تقف وراء إنشائه تعكس جوهر هذه المدينة أو تلك. صور الزعيم الأوحد إن غطت الطريق؛ فهى تنبهك إلى شمولية النظام، وكثرة التماثيل القديمة تقول لك كان هنا حضارة قديمة.

الطريق معرض للإعلانات عن كل ما تنتجه اليابان. الإعلانات باليابانية والإنجليزية. ولأن فن الإعلان يعتمد على الرسم قبل الكتابة، فلست فى حاجة إلى القراءة أصلا. وهذه السلع التى تقف على الطريق بانتظارك هى نفسها التى تركتها فى بيتك ومكتبك والشارع الذى تسكنه والمدينة التى تعيش فيها.

إنها كل تلك الأشياء التى تجعل الحياة ممكنة وسهلة ومكتوب عليها، فى مكان خلفى وبأصغر حجم ممكن تلك العبارة السحرية «صنع فى اليابان».

ما أبعد المسافة بين اللقاء الأول واللقاء الثانى مع طوكيو.

الآن أسير على قدمى. وقت الغروب. ينزل الليل بهدوء من السماء. ويطلع من الأماكن القريبة من الأرض. تقاومه الأنوار والأضواء التى لا تختلف كثيرا عن مدن أخرى، سوى فى هذا الزحام المنظم الذى يملأ الشوارع، وكل هذه الوفرة التى تحاصر

الإنسان بالأشياء فى كل مكان تقع العين عليه. كنت بمفردى، وأنا أستعذب كثيراً أوقات الوحدة هذه، حيث أكون على راحتى بعيدا عن الآخرين، الذين يفرض علينا وجودهم أن نرتدى الأقنعة، وأن نلون وجوهنا بأصابع وألوان قد تكون غريبة. أنا فى الشارع ومع ذلك أعتبر أنى فى حالة من حالات الوحدة؛ لأننى لن أجد هنا أى شخص يمكن أن يتعرف علىّ، وإن حدث هذا ستكون واحدة من أهم معجزات عمرى.

من الآن وحتى الغد سيكون التسكع فى حى جنزا - بالتحديد فى شارعها الرئيسى - متعتى الوحيدة، وبعد ذلك سأعود إلى هذا التسكع اللذيذ فى الأوقات التى يمكننى أن أخطفها بين موعد وآخر. توقفت أمام نوع معين من الإعلانات يفرض نفسه على ما سواه، كان مكونا من أربعة أحرف فقط: «يويو» وقد سألت عن حكاية هذا الإعلان، فعرفت أنه عن نوع من المراحيض جديد، مع كل مستلزمات دورات المياه. قال لى من سألته: إن هذه الإعلانات التى تصل إلى حدود الطوفان حديثة العهد. ويبدو أنه بسبب ضيق الشقق غير العادى، حيث إن متوسط مساحة الشقة خمسين مترا، وهذه الشقة لأسرة كاملة، وإن كان هذا الوضع كان مقبولا من قبل، فإنه بعد مجىء الثروة، ووصول سنوات المعجزة الاقتصادية اليابانية، كان من الصعب توسيع الشقق كما أن استبدال الشقق يتم وفق آليات معقدة، وحركة البناء الجديدة تعتمد على بناء شقق صغيرة أيضا.

لذلك جاءت ثورة «تخلّص من حمامك القديم». «انسفه وابن غيره». إن توسيع الحمام الضيق القديم حتى وإن تم على حساب مساحة الشقة نفسها، يقوم بدور مهم فى حياة الناس. إن راحة الحمام تقدم الآن باعتبارها بديلا لراحة الشقة كلها. هل هذا وهم من الأوهام؟! ربما، ولكن دورة المياة كانت تسمى فى قريتى: بيت الراحة، أى المكان الذى يرتاح فيه الإنسان، وهذا نفسه ما يجرى فى اليابان الآن.

قمت بالمرور حول الفندق، وهى عادة أقوم بها كنوع من مصافحة أولى مع أى مدينة أنزل بها. مررت حوله من كل جانب أكثر من مرة. أمشّى قدمى؛ لأن عدم الحركة هو «بروفة» موت ونحن مازلنا على قيد الحياة. الفندق اسمه: «دايها تشى جنزا أوتيل» وجنزا اسم الحى الذى يقع فيه الفندق. قالت لى كريمة صباحًا: إن هذا الحى يعد أغنى حى فى العالم، وأول شىء أعطاه لى موظف الاستقبال الفندقى، كان خريطة للحى وعلامة حمراء على المكان الذى يوجد فيه الفندق، وأسماء الشوارع التى تؤدى إليه وتتفرع منه، وبيان بالمطاعم والمقاهى ودور المسارح والسينما والصيدليات القريبة خاصة الصيدليات التى تعمل ليلا.

والخرائط تلعب دوراً مهما وأساسيا فى حياة اليابانى، ما من تاكسى تركبه إلا وتجد مع السائق خريطة لطوكيو، ثم عدد من الخرائط الفرعية للأحياء. اكتشفت ساعتها أننا نستخدم هذه الخرائط فى أضيق الحدود الممكنة، ولست أدرى السبب فى هذا. هل هو حروبنا، حروب الثلاثين سنة مع العدو الإسرائيلى الصهيونى؟ والتى مازالت احتمالاتها قائمة حتى الآن؟ هل هو عجز وفشل عن التعامل مع منجزات العلم والخرائط واحدة منها؟ ربما. نحن نعتمد على الذاكرة فى وصف أى طريق؛ لذلك غالبا ما يأتى الوصف بعيدا عن الواقع بنسبة أو أخرى.

خلف الفندق، شاهدت فى هذا الوقت الليلى سيارة مرسيدس وأنوارها مضاءة والموتور دائر والباب مفتوح، وأمام باب السيارة مباشرة، وعلى الرصيف المقابل حقيبة سامسونايت شبه مفتوحة. مشروع جريمة جديدة قدر لى أن أشهدها على الطبيعة، لم يكن هناك أحد، ولم تكن ثمة أبواب قريبة من المشهد. أقرب مكان يمكن أن يحضر منه إنسان، هو باب الفندق الذى خرجت منه فى الناحية الأخرى، خلف الفندق حيث كنت أقف، لم يكن هناك سوى رصيف لا يمشى عليه أحد، ومطلع سلم يعبر الشارع إلى الناحية الأخرى.

وقفت مكانى أرقب نهاية ما لهذا المشهد الغريب. أسمع كثيرا عن أن أعنف الجرائم إنما تتم هنا فى اليابان، وعلاوة على العنف هناك استخدام غريب فيها للعلم بكل ما وصل إليه. لفت الموقف نظرى. مشيت ثم توقفت. قلت لنفسى، ربما كان الأمر كله تمرين اختبار لأمانتى قامت به بلدية طوكيو.

تشغلنى هذه الأجزاء المبتورة والناقصة من قصص الواقع الحى، فى أى مكان من العالم أذهب إليه. عدت أكثر من مرة لأجد نفس المشهد كما هو، خجلت بعد هذا أن أحكى الأمر لأحد طالبا تفسيره، لأننى حتى لحظة انتهائى من الدوران حول الفندق كانت الحقيبة كما هى والسيارة موتورها دائر وأنوارها مضاءة، ولا أحد ولا شىء أكثر من هذا. كانت المنطقة خالية من الناس، والذين مروا من هنا، وكان عددهم قليلا جدا، لم يلفت المشهد نظرهم ومروا عليه وكأنه من الأمور العادية.

تجولت فى الشوارع القريبة جدا من الفندق وتلك التى تعرفت عليها فى الخريطة؛ خوفا من أن أتوه فى ليلتى الأولى. لفت نظرى ارتفاع الأسعار والتنوع الفريد للمحلات القريبة من الفندق. عدت إلى الفندق. سألت عن المطعم، فأشاروا إليه. كان بابه مواجها للاستقبال مباشرة. فى المطعم اكتشفت أن دعوات اليابانيين مختلفة عن الدنيا كلها.

سألت نفسي كيف فاتهم أن يقولوا لي هذا؟ فرحت. هذه أول مرة ينسون فيها شيئا بسيطا. مقارنة بما يجرى لنا فى مصر، يقولون لنا إن الإنسان سمى هكذا من النسيان. إنه من الأمور الطبيعية.

هذه الثغرة أكدت لى بشرية الذين وجهوا لى الدعوة، وعلىّ الآن إنزالهم من سماء السوبرمان إلى أرض البشر العاديين، وأزالت بضربة واحدة هالة القداسة عنهم وحمدت الله على هذا النسيان وربما الإهمال، مع أننى فى وقفتى فى مدخل الفندق تذكرت أن محمود عبده كان قد قال لى فى القاهرة إننى سأحصل على مبلغ من المال من أجل نفقات الرحلة، ولكنى تصورت أن هذا المبلغ لن يدخل فيه الطعام والشراب، علاوة على أن أى حديث عن الطعام يبدو من الأمور المخجلة بالنسبة للإنسان. كان من المفروض أن تقول لى كريمة هذا قبل أن تتركنى وتذهب إلى بيتها. كانت معى من المطار إلى الفندق ومع هذا لم أحصل منها على تليفون بيتها.

كان لابد من التصرف بسرعة، وغداً الصباح رباح، أعرف رأسى من رجلى، وأتعرف عن قرب على القواعد التى ستحكم هذه الرحلة من الألف إلى الياء، لأن نصف الشهر الذي سأقضيه هنا فترة ليست قصيرة طبعا.

أصل المشكلة أنه لم يكن معى ين واحد يوحد ربه، فضلا عن أن الين لا يكفى حتى لتنفس نسمة هواء. عندما قلت إنه لا توجد معى أى نقود يابانية، أشاروا إلى الاستقبال. منه يمكننى تغيير العملة التى معى بكل سهولة. أليس الين هو المنافس الوحيد فى كل بلاد العالم للدولار؟ ويوشك أن يهزمه فى بعض الأحيان؟

قالوا إنه يوجد سوق واحد للعملة فى اليابان، وهذا معناه عدم وجود سوق لاقتصاد الظل فى هذه البلاد، وهو التعبير الأكثر رقيا لوصف السوق السوداء. توجهت إلى الاستقبال وغيرت عشرين دولاراً بأكثر من ألفى ين يابانى، وتصورت أن هذا المبلغ سيكفى للعشاء وزيادة، فرقم الينات «جمع ين» كبير وصل إلى الصفر الثالث.

عدت إلى المطعم، سألت عن أنواع الطعام الموجودة عندهم، سألت بالتحديد عن وجود لحم الخنزير فى الطعام الذى يقدمونه. بعض المطاعم تعلق لافتة تقول فيها إن الطعام خال من لحم الخنزير، أو إن الطعام فيه لحم الخنزير، حتى تعفى الإنسان من توجيه مثل هذه الأسئلة. بل إن بعض المطاعم تعلق لافتة تقول فيها إن اللحم والدجاج مذبوحين حسب الشريعة الإسلامية. فهمت من الإجابات أن كل اللحوم يدخل فيها لحم الخنزير.

لاحظت أن موقف الناس الموجودين فى الفندق من اليابانيين من معرفة اللغة الإنجليزية مثل موقف السوڤييت من تعلم أى لغة أجنبية فى زمن صعود الدولة السوڤييتية الكبرى، كانت معرفة لغة أجنبية تصل إلى حد الخيانة الوطنية العظمى فى بعض الأحيان. ربما كان السبب فى ذلك حالة الاستغناء عن العالم بكل ما فيه. يضاف إلى ذلك فى حالة اليابان، التعالى على العالم، وأعتقد أن هذا من حقهم بعد أن أنجزوا ما أنجزوه.

طلبت سمكا. قلت إن السمك هو الأمان الفعلى، وفى المطاعم لهم طريقة فريدة فى التعامل مع الزبون، يحضرون له دفترا فيه رسومات، رسمها فنان أوصورها مصور للأكلات المختلفة. تقلب الصفحات، وأمامك صورة الطبق بكل ما فيه، وفى العادة فإن الوجبة لا تزيد عن طبق واحد، ومكتوب بجوار الطبق مكوناته والثمن المطلوب مقابله. عندما جاء طلب السمك نظرت إلى الطبق وأدركت حجم الفارق بين حياتنا وحياتهم. سمكة واحدة صغيرة أقرب إلى البساريا التى تباع فى أسواق السمك فى الأرياف، وطبعا السمكة التى كانت فى ا لطبق لم أعرف لها نوعًا ولم أرها من قبل، وبجوارها فى الطبق قليل، وكلمة قليل تعنى بدقة تامة ما أريد أن أقوله، قليل من البطاطس المسلوقة والمهروسة، ثم ثلاث قطع من الجزر، وثلاث قطع من الخيار، والقطعة فى حجم التعريفة المخروم، الذى لم يعد له وجود، والذى كان يزن به تجار الحشيش القرش الحشيش فى زمان المخدرات القديمة.

وكان من يبحث عن هذا النوع من القروش فى قريتنا يقولون عنه إنه من تجار الصنف، وإن هذا القرش عدة الشغل بالنسبة له. كان فى الطبق شىء غريب، عبارة عن حبات صفراء، قبل أن أتذوقها تصورت أنها حبات ذرة وإن كانت لم تنضج بعد، ولكنى بعد أن تذوقتها - والجوع كافر - كان طعمها مستساغا وطيبًا.

قواعد طبيب السكر المعالج لى - الدكتور عبدالرحمن نور الدين رئيس تحرير مجلة طبيبك الخاص، والحاصل على الدكتوراه فى الغدد - هذه القواعد تمنعنى من تناول البطاطس والحبات الشبيهة بالذرة، ولكن للضرورة أحكام. سأتناول البطاطس والحبوب التى أشك أنها ذرة. كانت البطاطس خالية من الزيت أو الدهون، وهذا ما جعل تناولها فيه قدر من الأمان، خاصة وأن السمكة عندما اقتربت منها أدركت أنها مطبوخة بحالتها وشكلها الطبيعى، ويبدو أن تنظيف السمك لا يتم بنفس الطريقة التى نقوم بها فى بيوتنا.

ليته أحضر الطبق كله من البطاطس المهروسة التى نسميها فى مصر، البطاطس

البوريه، والحبوب التى لم أعرف اسمها. وليتنى قادر على إعادة السمكة الوحيدة التى لم أقترب منها، لإحساسى الحاد بالزفارة وعدم نظافتها. وأنا أتناول هذا الطعام القليل أدركت كمية الفاقد على موائدنا. رأيت بعين الخيال صفائح الزبالة أمام شققنا وفيها من الطعام ما يسد عين الشمس. إننا لسنا فقراء، ولكننا فقط سفهاء. هل يتصور أحد منظر مائدة الطعام أمامى فى فندق من أفخم فنادق طوكيو ويقارنها بأى مائدة طعام مصرية، فى فندق أو مطعم أو بيت؟ نحن نأكل بالألوان الطبيعية ولا يخلو سنتى متر واحد من المنضدة من أصناف الطعام عليه. ثم هل نتصور شكل المائدة بعد تناول الطعام حيث تتناول صفيحة الزبالة الطعام معنا مناصفة ثم نتكلم كثيرا عن فقر مصر؟

صعدت إلى غرفتى فى الفندق، كانت المرة الثانية التى أدخلها فيها. اكتشفت أنه يوجد بجوار السرير إعلان عن فتاة المساج تحت رسم لامرأة جميلة تقوم بعمل مساج لرجل نصفه الأعلى عار، والغطاء يغطى نصفه الأسفل فقط، ومكتوب رقم تليفون تطلبه فتحضر لك الفتاة، والدقيقة الواحدة تتكلف ٤٥ ين، والحد الأدنى هو مائة دقيقة أى أن المائة دقيقة تتكلف حوالى ٤٥ دولاراً.

ثمة إعلان آخر عن فتيات الجيشا. كنت أريد الذهاب إلى هناك. ما أكثر ما قرأت عن هذه التجربة المثيرة، ولكن المشكلة كانت ارتفاع المبلغ المطلوب، فالذهاب من الفندق إلى هناك بالتاكسى، وقضاء ليلة كاملة بكل مشتملاتها - الطعام والشراب والفرجة والذى منه - يتكلف حوالى خمسة آلاف دولار. ولكى تدرك ضخامة المبلغ يجب أن تعرف أن تكاليف رحلتى التى صرفت لى من مؤسسة اليابان وهى نصف المليون ين تساوى فقط خمسة آلاف دولار. أما إن أردت الذهاب إلى حيث فتيات الجيشا عليك أن تدير رقما تليفونيا لكى تجد السيارة أمام الفندق.

لاحظت على المجلات الجنسية اليابانية أن صورة كل فتاة مكتوب بجوارها وفى مكان بارز رقم تليفونها، وأنسب أوقات الاتصال بها، وفى كل فندق مندوبون لمثل هذه الفتيات، والاتصال بهن وإحضارهن إلى الفندق ليس من الأمور المنافية للآداب والخارجة عليها.

ـ خمســة ـ

إن كنت فى اليابان فتصرف كأهل اليابان

اليوم الثانى.

الخميس ١١ من نوفمبر ١٩٩٣.

كان أول بند فى برنامج يومى الثانى فى اليابان هو الذهاب إلى مؤسسة اليابان، وأنا طبعى الأصيل يفرض علىّ الصحو مبكرا جدا فى حوالى السادسة صباحًا. مهما كان الوقت الذى نمت فيه، وقد نمت هذه العادة عندى وتأصلت وأصبحت طبيعة ثانية لى، خلال سنوات التجنيد فى القوات المسلحة التسعة. من سنة ١٩٦٥ وحتى سنة ١٩٧٤. لدرجة أنه يمكن القول إن بداخلى منبه يدق فى السادسة صباحًا من كل يوم دون الحاجة إلى ضبطه.

بعد تسريحى من الخدمة العسكرية، واستقرارى فى القاهرة وعملى فى الصحافة، حاولت الحفاظ على هذه العادة الجميلة؛ لأن الوقت من السادسة صباحًا حتى العاشرة، وقت مسروق من المشاكل والهموم والخناقات والوشايات التى يضج بها الوسط الثقافى والواقع الصحفى. قمت من نومى فى نفس موعدى؛ كان هناك صداع فى الرأس وألم فى العظام، لأن هذا ليس وقت الصحو من النوم العادى. الجهاز العصبى للإنسان منا يحتاج إلى وقت حتى يتعود على أى نظام جديد. السادسة صباحًا فى طوكيو تعنى أن الوقت هو الحادية عشرة مساء فى القاهرة من اليوم الذى مازال أمسًا هناك، إنه نفس اليوم الذى مايزال يتسكع فى القاهرة قبل أن يلوح لها بمناديل الوداع.

إن هذا معناه أننى حرمتِ من نوم الليلة كلها.

نزلت إلى الاستقبال، وهذه المرة كنت قد تعلمت من عشاء الليلة السابقة: الإنسان هو الحيوان الوحيد الذى له تاريخ - كما يقول أستاذنا وحبيبنا أحمد بهاء الدين شفاه الله وعافاه -

ذهبت إلى المطعم. سألت وعرفت أسعار الإفطار. اكتشفت أن هناك نوعان من الإفطار؛ أحدهما عبارة عن بوفيه مفتوح، والآخر من خلال طلبات خاصة محددة، وحتى أريح رأسى من حكاية الطلبات قررت أن أخوض تجربة البوفيه المفتوح.

كان المبلغ المطلوب هو ألفى ين يابانى. حولت المبلغ المطلوب فى الاستقبال من الدولارات التى معى، وكنت قد سافرت بها من القاهرة، وفى أثناء إلقائى نظرة على البوفيه المفتوح والتجول بين العدد القليل جدا من النزلاء الذين ضحوا بالمبلغ المطلوب، وفضلوا حرية البوفيه المفتوح بدلا من الإفطار اليابانى المحدد. فى المطعم كان العدد القليل من اليابانيين، ومعظم الحاضرين - كما تقول سحنهم وملامح وجوههم - من الأجانب. وقع نظرى على شخص تصورت أنه مصرى. كان فى ملامحه وطريقة تصرفه شىء مصرى من الصعب وصفه بالكلمات. عرفت مصريته - أو خمنتها إن شئت الدقة - مع أنه لم ينطق بكلمة واحدة؛ ذلك أن اللسان العربى فى الغربة قد يكون هو الوطن.

وقفت أنظر إليه على مسافة، شغلنى النظر إليه عن تفاصيل البوفيه وتقدير ما يمكن أن يتناوله الإنسان. وبعيدا عن أن الغربة تولد عند الإنسان حالة من الجوع لكل ما يمت إلى الوطن بصلة، فأنا تشغلنى دائما قراءة الوجوه. وجوه خلق الله فى أى مكان من العالم. وبدلا من أن تطول حيرتى، فكرت أن أسأله، أشرت إليه بيدى، وفى اللحظة نفسها التى كان السؤال ينطلق فيها من فمى، كان هو أيضا يشير إلى، وكان السؤال الذى نطقنا به معا هو: حضرتك مصرى؟!

بسرعة شديدة تم التعارف، هل الغربة هى السبب فى هذا؟! ربما. كان هذا المصرى الذى أصبح مفاجأة الصباح الأول فى طوكيو وكيل وزارة الكهرباء فى مصر، وهو موجود فى اليابان كرئيس لوفد وبعثة من العاملين فى الوزارة يتدربون على معدات كهربائية اشترتها مصر من اليابان مؤخرًا. كان وكيل الوزارة يتعامل مع شركة توشيبا، وكانت البعثة المصاحبة له تتدرب لديها، وكان يحضر إليه فى التاسعة صباحًا من كل يوم، أحد موظفى العلاقات العامة فى الشركة، وهو يقدم نفسه إليك باعتبار أن اسم الشركة أهم من اسمه هو شخصيا، والكارت الذى قدمه لى كان أبرز ما فيه هو اسم الشركة.

وبدلا من الحديث عن نفسه وأسرته وأحلامه ورغباته المؤجلة فى زيارة مصر، كان لا يتكلم سوى عن الشركة فقط، كأنها أسرته وأهله وناسه وأمله الوحيد فى هذه الحياة.

ولما كنت أبحث عن نوع نادر من الحجارة، طلبه منى زميل من دار الهلال لكى يشغل

به الريموت كنترول فى تليفزيون بيته ولم يجده هو فى مصر، ولم أتمكن من العثور عليه فى المحلات القريبة من الفندق، وهذا الحجر النادر والغريب من صنع نفس الشركة التى يمثلها بكل فخار كأنها هى الوطن اليابانى كله.

وما أن شرحت له المشكلة حتى وعدنى ببحثها عند ذهابه إلى الشركة، وفى اليوم التالى قال لى إنه أبلغ جهات الاختصاص بهذا الموضوع من خلال مذكرة وهم سيردون عليه، روتين لم أكن أتصور وجوده فى هذه البلاد التى حققت معجزة القرن العشرين، ولكن المفاجأة تمثلت فى حضوره إلىّ ذات صباح ومعه الحجر المطلوب، وورقة من أوراق الشركة، على أن أوقع باستلامه فيها؛ وذلك باعتبار أن هذا الحجر هدية من العلاقات العامة فى الشركة، وكنت أتصور بعد جفاف التعامل اليومى من جانب اليابانيين أننى سأدفع ثمن هذا الحجر.

بعد أيام جاء وقت عودة وكيل وزارة الكهرباء والوفد المرافق له إلى مصر، وكانت مفاجأة العودة بالنسبة لى، عندما اتصل بى ذات صباح لكى يسلمنى العهدة، والعهدة كانت عبارة عن أغذية أخذها هو والبعثة المرافقة معهم من مصر وتبقت منها أشياء. والعهدة - وإن شئت الدقة بقاياها - التى أرسلوها إلى غرفتى كانت عبارة عن شاى وبن وسكر وأنواع من الجبن الأبيض والرومى والبسطرمة وملح وفلفل أسود وبهارات وعلب سلمون وسردين وتونه وليمون بنزهير وخبز مصنوع فى مصر.

ولكن يبدو أنهم نسوا أن يقدموا لى الأدوات التى يمكن استخدامها من أجل التعامل مع هذه الأشياء، سكينة وفتاحة والأطباق وخلافه. لم أكن فى حاجة إلى براد شاى لأن كل غرفة فى أى فندق نزلت به فيها سخان كهربائى وغلاية وشاى أخضر يابانى وأكواب. أما كنكة القهوة فلم يكن لها وجود.

كانت هدية جميلة، ولكنى وللأسف الشديد لم أتمكن من الاستفادة من وجودها؛ لأننى «أغرق فى شبر ميه» فى شئون المطبخ. وإن تمكنت من عمل كوب شاى أكون كمن بنى السد العالى، ثم إننى طوال وجودى فى اليابان كنت أغير هذا الفندق بذاك، وحرام أن يستهلك الإنسان وقته فى زيارة لهذه البلاد فى أمور إعداد الطعام. نظرت إلى الهدية الثمينة وشعرت ساعتها أنها تذكرنى بزوادة المصرى عندما كان يسافر فى الترحيله ويأخذ معه كل ما يحتاجه، كنوع من الاكتفاء الذاتى.

أيضا كان هناك معنى دينى وراء اصطحاب كل هذا الأكل من مصر إلى اليابان؛ ليس لأن وكيل الوزارة لا تفارق يده المسبحة فى كل وقت وأى وقت؛ ولكن لتخوفه من عدم التأكد من خلو الطعام الذى يقدمه الفندق من لحم الخنزير الذى يحرمه الإسلام.

لم يكن سفرهم إلى القاهرة مباشرة، سافروا أولاً إلى بانجكوك من أجل قضاء أسبوع فيها للسياحة ومن أجل الشراء أيضا، قال لى وكيل الوزارة إن فارق الأسعار بين طوكيو وبانجكوك يمكن أن يغطى نفقات الإقامة طوال هذا الأسبوع. ينزلون من الطائرة، ويركبون طائرة نفس الموعد بعد أسبوع.

حضرت كريمة إلى الفندق فى نفس موعدها تماما ـ التاسعة والنصف ـ كل إنسان هنا بداخله منبه تم تركيبه فى مكان ما بداخله، وهذا المنبه هو الذى يحركه فى الوقت المناسب بدون أى تقديم أو تأخير. ما أن رأيت كريمة حتى حكيت لها قصة الطعام والفندق، وما جرى لى بالأمس، قالت لى إن نظام الضيافة فى اليابان مختلف عن أى مكان آخر فى العالم. سأتسلم اليوم شيكًا من مؤسسة اليابان وأصرفه من البنك وأنفق منه طوال الرحلة، الحجز فى الفنادق يبقى مجرد حجز فقط، أما الحساب فعلى أن أدفعه.

والمبلغ الذى سيصرف لى سيكفى وزيادة؛ لأنه تقرر بناء على دراسات عملية أجريت فى أرض الواقع، راعت فى اعتبارها أجور الفنادق المحجوز لى فيها، وأسعار الطعام والشراب وخلافه. ركبنا تاكسيا من أمام الفندق. التاكسى متوفر ومنظم ويعمل بالعداد الذى يلتزم به الجميع، وليس مثل عدادات تاكسيات القاهرة، التى تبدو كما لو كانت قطعة ديكور، وعجلة القيادة على اليمين وليست ناحية الشمال، سألت نفسى: كيف فاتنى ملاحظة ذلك فى الأمس، مع أننا ركبنا من المطار إلى الفندق سيارة سوداء ملاكى فاخرة؟!

تساءلت عن حكمة عجلة القيادة التى فى اليمين، مع أن الإنجليز لم يحتلوا اليابان أبدا. حكاية عجلة القيادة التى فى اليمين تجدها ـ علاوة على بلاد الإنجليز ـ فى قبرص والهند. لقد احتل الإنجليز مصر، ومع هذا فإن عجلة القيادة فى الناحية الشمال. قيل لى إنه لا توجد أى قاعدة، قوانين المرور لا تمنع السيارات التى توجد عجلة قيادتها فى شمالها بدلا من اليمين. وإننى سأشاهد فى الرحلة النوعين معا.

ولأن الشىء بالشىء يذكر، وسيارة اليوم العادية ذكرتنى بسيارة الأمس الفاخرة؛

سألت كريمة عن سيارة الأمس الفاخرة لأنه لابد من وجود حكمة يابانية من وراء ذلك. قالت لى كريمة إن سيارة الأمس كانت من أجل الانتقال من المطار إلى الفندق وهى أيضا سيارة مؤجرة، ولكنها خاصة بمثل هذه المشاوير وسأستقلها مرة أخرى وأخيرة فى الطريق إلى المطار عند انتهاء الرحلة.

قالت لى إن أمور النقل هذه وحجز الفنادق وترتيب البرنامج والزيارات التى سأقوم بها، والقطارات التى سأستخدمها، كل هذا تنفذه شركة من الشركات المتخصصة فى مثل هذا العمل، اتفقت معها مؤسسة اليابان من قبل. التاكسى منظم من داخله، ويبدو على سائق التاكسى وكأن السيارة هى بيته. سجائره، منفضة السجائر، مكان مخصص للكوب الذى يشرب منه، سواء كان المشروب ساخنا أو باردا، وفى الأغلب الأعم فإن المشروب بارد، وهو عبارة عن بيرة خالية من الكحول؛ لأن السائق لابد وأن يكون فى منتهى اليقظة.

كان التاكسى يقف فى طابور أمام الفندق. ما أن تحرك الذى قبله، حتى أتى هذا التاكسى لنا. شاب كان يقف أمام الفندق هو الذى أحضره لنا حسب الدور، وطبعا لم يحصل الشاب منا على بقشيش أو غيره. ركبنا - أنا وكريمة - على الكنبه الخلفية للتاكسى.

وما أن قالت له كريمة على المكان الذى ننوى الذهاب إليه، حتى أخرج خريطتين من درج أمامه، واحدة لمدينة طوكيو كلها، وأخرى للحى الذى نوجد فيه، وحرك إصبعه على الخريطة بعد أن عدل النظارة على عينيه حتى أدرك أين يوجد المكان الذى ننوى الذهاب إليه. كان موعدنا فى مؤسسة اليابان فى العاشرة صباحًا. وكان البرنامج قد تم وضعه على أن نتحرك من الفندق فى التاسعة والنصف، ونصل إلى مؤسسة اليابان فى العاشرة إلا عشر دقائق، التى يستغرق الصعود إليها حيث توجد المؤسسة نفس هذه الدقائق العشرة. هذه أول مرة أرى فيها شوارع طوكيو نهاراً. اليوم هو الخميس، نهاية الأسبوع فى بلادنا، وقلب الأسبوع فى هذه الديار، والشوارع خالية من المارة وحركة المرور منظمة بدون حدود.

يومى الثانى فى شوارع طوكيو. كنا نركب سيارة تاكسى كما سبق وقلت. أكدت لى كريمة إن ذلك أفضل ألف مرة وأكثر سهولة من تخصيص سيارة لى من قبل الجهة الداعية، فضلا عن أنه لا توجد سيارات لدى هذه الجهة أصلا.

تذكرت البذخ العربى والسيارات التى تملأ العواصم العربية ـ ومنها القاهرة ـ وعلى كل منها لافتة صغيرة تقول: «وفود» وهى سيارات من أحدث الموديلات وأكثرها فخامة وأغلاها سعرًا. كنت أفضل لو أننى قضيت مشوارى الأول فى طوكيو على قدمى، مهما كانت المسافة؛ فبطء السير على القدمين يجعلك ترى على مهلك، فالعينين بالنسبة لمسافر ينزل إلى المدينة التى يزورها لأول مرة يصبحان كاميرا تحاول أن تسجل كل ما تراه.

لم أعرض اقتراحى على كريمة، وإن كان الشعب البريطانى يطلق على رئيسة وزرائه السابقة مارجريت تاتشر المرأة الحديدية، فأنا أقول عن كريمة «الفتاة الحديدية» التى جاءت إلى فى الفندق مسلحة بالدقة التامة فى المواعيد، وهى قد حسبت دقائق اليوم على اعتبار أن المشوار بالسيارة من الفندق وحتى مؤسسة اليابان يستغرق ثلث الساعة. فكيف أعرض عليها السير على الأقدام؟ ربما يتطلب ذلك موافقة من جهات عليا لا أعرفها. خرجنا من مناطق الهدوء إلى منطقة مليئة بالصخب. نظرت إلى الأرصفة والناس التى تمشى عليها، وطوفان الإعلانات التى تحاصرك أينما كنت. مجتمع الوفرة. مجتمع الزحام. هذا ما شاهدته أمامى، ولكنه أيضا وبنفس القدر المجتمع المنظم بل أقول ـ لكى أكون دقيقا ـ المجتمع المنضبط.

وصلنا إلى المبنى، ومؤسسة اليابان لا تشغل مبنى مستقلا، ولكنها عبارة عن دورين فى عمارة عادية، وهذا استخدام اقتصادى للمتاح من الإمكانيات، فنحن فى مصر نخصص مبنى لكل مؤسسة، وهذا يولد حالة من البعثرة فى الإمكانيات واستخداماتها. كانوا يعرفون أننا سنحضر ولكن من الصعب القول أنهم كانوا فى انتظارنا، فالكل يقوم بالعمل المطلوب منه وفق آلية لا يرى الإنسان سوى نتائجها فقط، أما من وضعها ورسمها وخطط لها وحدد لكل دوره، فلا نراه أبدًا. قابلتنا الآنسة شميزو بالنيابة عن مدير قسم تبادل الشخصيات ـ وهو ما يعرف عندنا بمدير العلاقات العامة ـ الذى كان فى ذلك الوقت خارج طوكيو فى مهمة خاصة بالعمل.

سعدت بأن تتولى آنسة صغيرة ودقيقة الحجم مثل شميزو إدارة العمل وقيادته لمجرد أن المدير خارج طوكيو. هذا لا يحدث فى بلادنا أبدا، كل رجل أول فى أى مكان يعلن الحرب على كل من يمكن أن يكون الرجل الثانى له. يسلبه أى اختصاصات، يحوله إلى شرّابة خرج، وإن تغيب الرجل الأول عن العمل، لابد وأن يدير هذا العمل من أى مكان هو موجود فيه حتى لو كان على سطح القمر نفسه.

وإن تعذر أن يدير العمل من المكان الذى يوجد فيه، إذن فليتوقف دولاب العمل، ليأخذ العمل إجازة من العمل لحين حضوره. ولا يجرؤ أحد على أن يفكر - مجرد التفكير - فى القيام بدوره، وإن تجرأ أحد لديه خيال وفعل ذلك، ياويله من الرجل الأول عند عودته. إن الحكايات عندى مثل الهم على القلب، مع أن الرجل الثانى لا دور له فى العادة سوى فضلات ما يمكن أن يتركه له الرجل الأول، إن ترك أى شىء حتى الفضلات.

أليس غريبا أننى أستخدم تعبير الرجل الأول، والرجل الثانى، مع أن الجالسة أمامى آنسة؟ المشكلة أننى أنتمى إلى حضارة صنعها الرجال. نحن نفكر فى أنفسنا كرجال فقط. بدلا من تناول الأمر باعتبارنا بشرا. حاولت أن أختلس نظرة إلى مكاتب الإدارة. هل كلها نساء أم يوجد فيها رجال؟ الغريب أن الإدارة كانت مليئة بالرجال والنساء معًا، ومع هذا هاهى آنسة صغيرة فى السن هى التى تتولى تصريف الأمور. جرى اللقاء فى صالون صغير مفتوح على صف طويل من المكاتب. عادت نظراتى تتسلل خلسة، نظرت إلى مكتب الآنسة شميزو الذى كان مقابلا للصالون، والصالون تعبير مجازى من عندياتى، فهو عبارة عن ركن صغير فيه كنبه وكرسيان ومنضدة. حتى بدون جدران تفصله عن باقى المكان.

مكتب الآنسة شميزو يفصله عن باقى المكاتب قطوع لا يصل إلى السقف، وفى هذه المساحة مكتب صغير، وكرسى ودولاب واحد فقط، ليست هناك مساحة حتى لوضع كرسى أمام المكتب. يبدو أن المكتب هنا للعمل فقط وليس من أجل استقبال الضيوف. عدت إلى مصر. وهل ابتعدت عنها لحظة واحدة، حتى أعود إليها؟ قارنت بين هذا الذى أمامى، وبين مثيله فى مصر. سألت نفسى: متى يحدث هذا عندنا؟ فالذى يجرى كل يوم تقريبا أنك وأنت جالس فى مكتبك تمارس عملك بصورة عادية، تفاجىء بشخص يدخل عليك، بدون موعد سابق، ويسحب كرسيا ويجلس عليه، هكذا بدون مناسبة أو حتى موضوع للزيارة.

وعندما يحضر عامل البوفيه يطلب شاى ثم قهوة، ويسألك إن كانت معك سيجارة لكى يحبس بها مع الشاى، وإن قلت له إنك لا تدخن يطلب منك استعارة سيجارة من أقرب زميل لك يدخن، وكلمة الاستعارة تضليل لغوى، فالشىء المستعار يعاد مرة أخرى، مع أن السيجارة لا يبقى منها سوى عقبها فى منفضة الدخان، وقد تطول هذه

الزيارة الميمونة وتستمر حتى آخر موعد العمل، مع أنها يمكن القول عنها إنها زيارة غير مبررة.

كانت الآنسة شميزو تضع على عينيها نظارة مثل كل نظارات اليابانيين، لا تكاد تراها، وكأنها غير موجودة أصلاً، وفى يدها دوسيه عندما قلبت أوراقه أمامها رأيت صورتى الملونة الحديثة ملصقة على صفحات كنت قد دونتها عن نفسى فى مصر. رحبت بى، وجاءت شابة وسألتنى ماذا أريد أن أشرب شايا أم قهوة، وقلت شاى. فالقهوة التركى لا وجود لها فى هذه البلاد. يبدو أن الأتراك لم يصل أى أثر منهم إلى هذه البلدان. قلت أشرب شايا، ولكن بعد إحضاره اكتشفت أنه شاى أخضر والشاى اليابانى هنا أخضر، ولو أردت الشاى الأحمر لابد من التنويه والإشارة لذلك عند الطلب.

فى البداية لم أستسغ طعم الشاى الأخضر، وكنت أطلب الشاى الأحمر فى كل مكان أذهب إليه، ولكنى ومع مرور الوقت اكتشفت أن الشاى الأخضر رغم طعمه الغريب على تذوقى، إلا أن له فوائد بالنسبة للمعدة وأنه يساعد على الهضم. سألتنى الآنسة شميزو، إن كانت هناك أى تعديلات أرغب فى إدخالها على البرنامج المحدد ـ منذ أن كنت فى القاهرة ـ بالاتفاق معى، قلت لها إننى لم أتلق ردا بخصوص طلب مقابلة المخرج اليابانى الشهير كيراساوا، قالت على الفور، وكأن الرد كان جاهزا على لسانها، إننى يمكننى مقابلة إمبراطور اليابان شخصيا ولكن كيراساوا.. لا، إن ذلك مستحيل.

ـ وما وجه الاستحالة؟!

ـ إنه فنان كبير، ولكل فنان نزواته، ثم إنه يعمل فى فنه فقط، أما هذه المقابلات الصحفية فقد يرى أنه لا جدوى منها إطلاقا.

سألت عن أسرة الروائى اليابانى كاوباتا، أو الروائى ميشيما وقد استغربت السؤال من الأساس، وعندما استغربْت من استغرابها بدأت تشرح لى، قالت إن أسرة الكاتب المشهور ليست من الشخصيات العامة، وبالتالى لا يتكلم أفرادها للصحافة. من حقهم الرفض، ثم إن هذا لم يحدث من قبل، ومع هذا قالت إنها ستحاول، وأضافت بعد فترة صمت محسوبة: مجرد محاولة دون أى التزام من جانبها، فقد تنجح المحاولة وقد تفشل، واليابانيون عموما حريصون على هذه الدقة فى التعبير، وكلامهم يخلو من أى طرطشة عاطفية.

طبعا لم أشأ أن أسأل عن الشخص الذى ساعد ميشيما على الانتحار، لأنه ما دامت الأسرة مرفوض أن أقابلها، فما بالك بمن ساعد الرجل على الانتحار؟ إنه فى نظرى نصف قاتل له. كان فى الدوسيه الذى فتحته الآنسة شميزو شيك، بعد انتهاء الكلام أخرجت الشيك ووضعته فى مظروف أخضر جميل، وأحضرت إيصالا وقعت عليه باستلام الشيك، كان هذا الشيك يخول لى أن أصرف من البنك مبلغا وقدره، نصف مليون ين يابانى، هى تكاليف رحلتى، ومنها سأدفع أجور الفنادق وثمن الطعام والشراب والغسيل والمكوى وكل ما أحتاجه فى أيام الرحلة.

كان الشيك مكتوبا باسمى، ومن المفروض أن نذهب بعد انتهاء اللقاءات هنا إلى البنك الذى أصرفه منه، وكريمة معى طبعا، وهذا الإجراء كان من المستحيل أن يتم قبل هذا، ويبدو أن هناك حكمة من وراء هذا التصرف بتلك الطريقة ذاتها. ذهبنا بعد هذا إلى مكتب كوسابا. إنه نائب مدير مؤسسة اليابان، أما مديرها فهو شخصية عامة كبيرة لا يحضر هنا عادة، ووجوده يعد وجودا شرفيا ورمزيا بالدرجة الأولى.

جلسنا فى مكتبه الواسع، رحب بى وكانت فى يده أوراق يقرأ فيها. سألنى أولا عن رواياتى التى جرى تحويلها إلى السينما. قلت إنها ثلاث وذكرتها له. كان ينظر إلى الورق الذى أمامه ويسأل، سألنى عن مجلة «المصور» ما عمرها؟ ما تخصصها؟ هل هى شهرية أو أسبوعية؟ ما هى اهتماماتها؟ كم من النسخ تطبع؟ وكم توزع؟ ونسبة الاشتراكات والتوزيع العادى؟ وما مجال توزيعها؟ هل هو مصر فقط؟ أم العالم العربى؟ وهل تدخل إلى كل الدول العربية، أم أن هناك بعض الدول العربية تمنعها من الدخول؟!

عند الحديث عن حرب الأيام الستة. ما أن قلت يونيو حتى سألنى: ما يونيو هذا؟ نحن نسميها حرب الأيام الستة. تحدث عن السلام الذى بدأ يعم المنطقة، مع الحرص على التعبير عن تفاؤله الشخصى بذلك، وأبلغنى أننى مدعو على العشاء، ولكن فى اليوم الأخير لى فى هذه الرحلة.

تحدث عن مهام مؤسسة اليابان التى يعمل نائبا لمديرها. إنها تقوم بالتعريف باليابان فى العالم الخارجى وتقديم جميع تفاصيل التجربة اليابانية فى كل أنحاء العالم. وإنها تعرّف اليابانيين فى الداخل على العالم وما فيه الآن. وإنها تساهم فى نشر الثقافة اليابانية فى كل مكان من الدنيا خارج اليابان.

قدم لى نائب المدير هدية عبارة عن تقالة ورق. قال لى إننى بواسطتها يمكننى الاحتفاظ بأوراقى كما هى دون أن تطيرها الرياح أو تغير مكانها، وطبعا الأوراق هى أهم ما فى حياتى كلها. هكذا قال وهو يتضاحك. كان ما قاله صحيحا، ورغم صغر حجم تقالة الورق، إلا أنها كانت ملفوفة أكثر من لفة واحدة، وبهذا بدت أكبر من حجمها الحقيقى، وكانت تقالة الورق آية من آيات الصناعة اليابانية وتحفة بكل معانى الكلمة.

فى أثناء نزولنا من المؤسسة كان المطر غزيرا بصورة رهيبة، مع أن الجو كان صحواً عندما حضرنا. لم يكن معى شمسية، فقامت كريمة باستعارة شمسية من المؤسسة لى، على أن أعيدها ثانية فى نهاية الرحلة وقبل العودة إلى مصر.

ـ ســتة ـ

وهكذا أصبحت نصف مليونير في غمضة عين

كان أول مشوار علينا القيام به هو الذهاب إلى البنك من أجل صرف نصف المليون ين. عرضت على كريمة عرضا نابعا من الطريقة المصرية فى التعامل، أن أوقع لها على الشيك، وأن تصرفه هى بعد ذلك؛ حتى لا نعطل أنفسنا ـ أنا وهى ـ فى هذا الإجراء.

قالت لى إن الشيك لا يمكن أن يصرف سوى لى أنا، وليس من حقى توكيل شخص آخر للقيام بصرفه. ذهبنا إلى البنك، على الباب الخارجى تسلم شخص الشيك منا، وكان يفعل هذا مع جميع الداخلين. دخلنا إلى صالة منظمة ومرتبة فيها كرسى له مسند توجد عليه المجلات والجرائد، ومن شكلها يبدو أنها جرائد اليوم ومجلات الأسبوع.

من يجلس يمد يده بطريقة آلية لكى يتصفح ما يشاء، والصالة محاطة من جوانبها الأربع بنباتات ظل وزهور كثيرة، والهدوء القريب من الصمت التام هو أهم ما فى المكان كله. كانت هناك شاشة تظهر عليها كتابة حمراء، وما أن تبدو الكتابة للعين حتى يتحرك الشخص المقصود إلى شباك. عندما جاء دورى ظهر اسمى على الشاشة ورقم الشيك الخاص بى، والشباك الذى من المفروض أن أقف أمامه، هكذا أبلغتنى كريمة. ذهبت إلى الشباك ومعى كريمة طبعا. فى الشباك كان توجد فتاة أبرز ما فيها ابتسامتها الذهبية.

قدمت الفتاة لى نفس الشيك الذى يخصنى ومعه قلم لكى أوقع عليه. وقعت على الشيك وأخذته منى، ثم قدمت لى بعد قليل المبلغ فى سلة جميلة من الخوص وبجواره مظروف أزرق لكى أضع فيه المبلغ بعد أن أقوم بعده. كانت الأوراق جديدة تماما، بشوكها كما نقول فى مصر. أول مرة يتم تداولها فيها، ولا أعرف هل هى صدفة أم أن هذا مقصود، ورغم ضخامة المبلغ وتصورى ـ ونحن فى الطريق إلى البنك ـ أننى ربما كنت فى حاجة إلى حقيبة من أجل حمله فيها. كان المبلغ من فئة الورقة بعشرة آلاف ين، وبعض

الأوراق القليلة من فئة الألف ين، ثم أوراق من فئة المائة ين، قمت بعد المبلغ كما تفرض الأصول عليّ وانصرفنا.

لم يستغرق صرف الشيك أي وقت يذكر، ولم يطلبوا منى تحقيق الشخصية، ولم تحصل فتاة الشباك منى على ثمن التمغة التى توضع على الشيك. كان الناس يتحركون فى البنك بطريقة آلية ولم أسمع طول وجودى فى البنك أى صوت أو خناقة أو مشاحنة ولم يحاول أحد أن يتعدى دوره، أو أن يدخل من الباب بدلا من الوقوف أمام الشباك. كنت فى حيرة من أمرى، هل هذا هو البنك العادى لهؤلاء الناس. أم أن الأمر تم هكذا أمامى، كضيف جاء من أجل الكتابة عن اليابان؟ أم أن هذا سوبر بنك؟! لم أتعامل سوى مع الرجل الواقف أمام الباب الداخلى للصالة وفتاة الشباك. أما رجل الأمن الواقف أمام البنك من الخارج مسلحًا، فقد بدا لى وكأنه لم يرنى عند الدخول، ويبدو أن هذا إحساس خادع لى؛ ذلك أن الأمن الحقيقى هو الذى لا نشعر به. أما الذى يقول لك منذ اللحظة الأولى إننى أمن، بهذا الظهور الفج، يعد هذا أكبر فشل له.

سألت كريمة إن كان هذا هو المتبع فى كل البنوك؟ قالت لى وربما كانت بعض البنوك الأخرى أسهل من هذا البنك الذى كنا فيه. أكدت لى أن حجم تعامل الإنسان اليابانى مع البنك يبدو أكثر اتساعا من تعامل أى انسان آخر، وهنا لابد من سهولة وسلاسة الإجراءات.

يخيل إلى أن مجرد ملكيتى للشيك أعطتنى الحق فى صرفه فورا دون الدخول فى سراديب إثبات الشخصية وتحقيقها. وأن توقيعى باستلام المبلغ كان يكفى. طبعا لم يكن عندهم توقيع لى من قبل حتى تتم مضاهاة التوقيعين، ولكن الأمر المؤكد أن البنك الذى أتردد عليه شهريا فى القاهرة لا يتم التعامل معه بنفس هذا القدر من السهولة والبساطة. لقد كان صرف المبلغ متعة فى حد ذاته، ويبدو أن هذا هو السبب فى الإصرار على أن أصرف المبلغ بنفسى.

عرب هنا .. وعرب هناك

بقى أمامى آخر ما فى برنامج هذا اليوم، زيارة مستشار وزارة الخارجية اليابانية للشئون الثقافية. ذهبنا إلى مبنى وزارة الخارجية اليابانية، مبنى عادى. جرى تصميمه لكى يؤدى وظيفته دون أن يعلن عن نفسه، أو عن أبهة الحكم، لدرجة أنه يمكننا أن نجد مبانى أخرى

لوزارات خارجية فى دول أكثر فقرا من اليابان، ولكنها ـ أى المبانى ـ أكثر فخامة من هذا المبنى العادى.

ومسئول الشئون الثقافية فى وزارة الخارجية اليابانية مكتبه صغير، ولكن له سكرتيرة فى مكتب أصغر، ترك مكتبه وجاء ليجلس فى صالون صغير ملحق بمكتبه، والسكرتيرة نفسها هى التى سألتنا عن أى المشروبات نشرب، الشاى أم القهوة. طلبت هذه المرة الشاى الأحمر، ونوهت باحمراره بطريقة يمكن فهمها بسهولة، والسكرتيرة نفسها هى التى أعدت الشاى وقدمته لنا. وطبعا قبل السؤال عما نشربه، وبعد السؤال، وعند تقديم الشاى، كانت هناك تلك الانحناءات اليابنية الشهيرة التى من الصعب على من كان مثلى غريبا أن يصفها بدقة، والتى تعكس ثقافة الأدب الشديد فى التعامل مع الآخرين، وأيضا ثقافة الخجل من كل غريب حتى لو أدى هذا الخجل لوجود مسافة بينك وبينه. فهمت من الجو العام أن هذه الزيارة هى زيارة مجاملة أكثر من أى اعتبار آخر، وبالتالى فإن ما سيتم فيها سيكون أقرب إلى الثرثرة. قال لى إنه كان سفيرا لليابان فى إسرائيل فى أثناء أزمة الخليج. تساءلت بينى وبين نفسى، أى أزمات الخليج تقصد ياسيدى ما بين كل أزمة وأزمة أزمة أخرى؟ لا داعى لأن تحرك ديدان الجرح الغائر فى أعمق مكان من الروح.

يتحدث عن إسرائيل بقدر من الحياد القاتل، ما له هو وما نحن فيه، وما علاقته بميراث العداوة، وأنهار الدماء التى سالت هناك فى أرض الوطن العربى «هذا ما أحب أن أقوله ولا أستريح لتعبير الشرق الأوسط». ما له والدماء التى يمكن أن تسيل فى المستقبل القريب والبعيد؟

قال لى إنه زار مصر أكثر من مرة فى الفترة التى قضاها سفيرا لبلاده فى تل أبيب. كانت مصر من أقرب البلدان إليه، والتسهيلات التى تقدم لمن يزورها من إسرائيل كثيرة (لم أشأ أن أسأله عن هذه التسهيلات حتى لا أفسد جو اللقاء) ـ أكمل ـ إن ذلك فضلا عن الحضارة المصرية الجميلة والتى كان يهمه أن يتعرف عليها بدقة ووجها لوجه. رحب بى فى اليابان، وقال لى إن تبادل الزيارات هو الأكثر أهمية فى معرفة كل طرف بالآخر، سألته عن موقف اليابان من القضية الفلسطينية؛ وذلك باعتبار أنه سفير سابق فى الدولة التى اغتصبت الحق الفلسطينى والأرض والعرض والوطن. قال لى إن اليابان لا تعامل منظمة التحرير الفلسطينية كدولة ومع هذا فإن للمنظمة بعثة دبلوماسية فى طوكيو. وإسرائيل لا دخل لها فى هذا أبدا.

سألته عن الموقف من أمريكا، قال لى كلمتين فقط: الندية الكاملة، شرح ذلك قائلا:

ـ عندما يتطلب الأمر ـ من وجهة نظر مصالحنا ـ الموافقة نقول : نعم ، وعندما يكون مطلوب الرفض نقول : لا ، وعندما يتطلب الفهم . نقول : تعالوا لنتباحث .

سألته :

ـ ولكنهم فى أمريكا يتحدثون عن الهيمنة على اليابان عسكريا على الأقل .

رد علىَّ :

ـ الهيمنة تعبير لا نفهم معناه ، بدليل هذه المشاكل الاقتصادية بيننا وبين أمريكا .

ـ والشرق الأوسط بالنسبة لكم ؟ !

ـ كان الشرق الأوسط بالنسبة لنا هو البترول فقط ، ثم السوق الكبير لمنتجاتنا ـ ولا أقول السوق الرئيسى . بعد ذلك . ولكن الآن هناك رغبة فى الفهم المتبادل ، أن نفهم أهل الشرق الأوسط وأن يفهمونا .

ـ والعسكرية اليابانية ؟ !

ـ لقد ذقنا مرارة الحروب ، ودمرت هيروشيما ونجازاكى فى الحرب العالمية الثانية ، وأعتقد أن فى برنامجك زيارة لهيروشيما ، وفى هذه الحرب دكت طوكيو عن آخرها ، لذلك هناك قرار شديد الوضوح ألا تخرج قواتنا من الأراضى اليابانية أبداً ، ونحن نحترم الدستور الذى يمنع خروج القوات اليابانية من بلادنا مهما كانت الأسباب ، واحترام الدستور هو الضمان الأساسى حتى لا يتكرر ما جرى لنا من قبل مرة أخرى .

- سبعة -

اليابان يمكن أن تقول لا

تأملات اليوم الثانى

سافرت من القاهرة إلى اليابان وفيها حرب تضاف إلى ثنائيات الحياة العامة المصرية «أوشين أم كارولين؟» وكانت هذه الحرب قد اندلعت بعد قرار التليفزيون المصرى بإيقاف مسلسل «الجرىء والجميلات» وعرض المسلسل اليابانى «أوشين»، وعلى طريقة حزب الأهلى وحزب الزمالك تحول المصريون بقدرة قادر - على الأقل على صفحات الصحف التى تحاول إلهاء الجماهير بقضايا جانبية - إلى حزب أوشين وحزب كارولين.

كل من قابلنى وأنا استعد للسفر كان يقول لى بألفة وحميمية: «سلم لى على أوشين». وأوشين كان أول عمل درامى يابانى يعرض فى مصر. وبقدر ما كان الجرىء والجميلات عملا يقدم العلاقات غير العادية والانهيار الأخلاقى فى الواقع الأمريكى؛ فإن أوشين قصة كفاح تمجد العمل والكفاح والعرق. لكن الأمر فى القاهرة ظل محصورا بين مسلسلين تليفزيونيين ولم يصل إلى المقارنة إلا بعد: أمريكا أم اليابان؟ وفى طريقى إلى اليابان لم أكن أتصور أن هذا الجدل يشكل الجدل الرئيسى فى اليابان، وإن كان يطرح بشكل مغاير - وعلى نحو شديد الاختلاف.

فى الشارع يقولون: اليابان أم أمريكا؟ ولكن الصفوة المثقفة تطرح الأمر بصورة مغايرة تقول: اليابان أولا، واليابان أخيرا، واليابان يمكن أن تقول لا لأمريكا، ولابد وأن تفعل هذا اليوم قبل الغد.

على أن الشأن اليابانى الأمريكى أكثر تعقيدا من هذا التبسيط الشديد.

وفى أحد ميادين طوكيو عمارة عليها إعلان كبير لكاميرات كوداك الأمريكية، أو التى كانت أمريكية فى الأصل والنشأة، ولكن هذا الإعلان يبدو محاصراً من الجهات الأربع بإعلانات عن كاميرات من صناعة اليابان، ومن الواضح أن مزاياها تتفوق كثيرا على ما يمكن أن يكون من مزايا الكاميرا القادمة من الغرب، تحاول غزو اليابان التى أصبحت معقلا لصناعة الكاميرات فى عالم اليوم.

وفى شارع رئيسى يتفرع من هذا الميدان كانت ثمة مظاهرة ضخمة متجهة إلى قصر البرلمان اليابانى، والمظاهرة تنظمها رابطة زراع الأرز فى اليابان، والأرز سلعة عاطفية فى هذه البلاد أو فلتقل سلعة وطنية، الموقف النفسى منها مثل الموقف من القطن فى مصر فى الأربعينيات.

والاعتماد اليابانى على الأرز فى الطعام يماثل الخبز والفول المصريين عند عامة الشعب، ومن الأمورالمثيرة للدهشة والعجب أننى عرفت أن اليابان لم تستورد أرزا فى تاريخها كله وأنها تكتفى منه تماما. فى هذا العام فقط - ١٩٩٣ - حدث تقصير فى محصول الأرز وبرزت على السطح قضية هل يستوردون الأرز؟ ومن أى الدول؟ أمريكا منذ سنوات تلعب مع اليابان محاولة إدخال الأرز الأمريكى إليها وكذلك التفاح، بخصوص التفاح الأمريكى، فقدتم رفضه بسبب أمراض الفطريات.

أما الأرز ففى اليابان موقف مبدئى برفضه، وعندما أطل الأمريكان برءوسهم وأرزهم، كانت لهم شروطهم التى قدموها على الطريقة الأمريكية المعتادة. أولا: هم لا يقدمون الأرز لسنة واحدة فقط، ولكن بصفة مستمرة. وثانيا: أنهم يبيعونه بأسعار تقل كثيرا عن أسعار الأرز اليابانى. وهنا انفجرت المشكلة التى وصلت إلى حد المظاهرات اليومية، وكان قرار الحكومة الأخير فتح باب الاستيراد للأرز ولكن من دول آسيوية قريبة من اليابان وفى المقدمة تايلاند «ملحوظة: سألت إن كان مطروحا استيراد الأرز من مصر، فلم أجد سوى الدهشة والاستغراب والاستنكار وعدم التصديق، وكان مسئول زراعى مصرى قد زف إلى المصريين بشرى أننا سنصدر الأرز المصرى إلى اليابان بعد أن وصلت سمعته - الأرز وليس المسئول طبعا - إلى هناك».

وهكذا دخل الأرز على الخط الأمريكى اليابانى الساخن لكى يزيده سخونة.

وفى قلب طوكيو دار سينما تقف الجماهير أمامها طوابير بالساعات لأنها تعرض آخر ما خرج من هوليود من أفلام عن اليابان والشخصية اليابانية، والفيلم اسمه: الأصدقاء.

وفى اليابان يعتبرون أن الإعلام الأمريكى هو المسئول عن إبراز عيوب الشخصية اليابانية على مستوى العالم. مع التركيز على هذه العيوب بطريقة التربص المسبق والبعد عن الموضوعية فى التناول.

بل إن الفيلم الأخير للمخرج اليابانى الكبير أكيو كيراساوا تحول إلى مشكلة بين طوكيو وهوليود. فميزانية الفيلم تصل إلى ٦ مليون دولار؛ ولهذا أحجمت الاستديوهات اليابانية عن تمويله، وهكذا دخلت على الخط لثانى مرة شركات الإنتاج الأمريكية العملاقة من أجل تمويل هذا الفيلم مما يقابل بعدم رضا اليابانيين عن هذه الخطوة.

على الناحية الأخرى اتجهت الشركات اليابانية لشراء كبرى شركات الإنتاج السينمائى فى هوليود، وقد وصل الرقم المدفوع فى شركة بارامونت إلى ستة مليارات من الدولارات، ورغم أن المشترى شركات يابانية قطاع خاص إلا أن الهدف الأخير من الشراء كان يابانيا صرفًا: ألا وهو تحييد الإنتاج السينمائى الأمريكى فى موقفه من الشخصية اليابانية. وصولا إلى أن يكون هذا النتاج فى خدمة هذه الشخصية فى النهاية، وهكذا أصبحت نسبة ٦٠٪ من شركات السينما الأمريكية يابانية الآن والبقية فى الطريق.

وإن كان من الصعب القول إن المواجهات الأمريكية اليابانية هى الأساس على طول الخط. فعندما زرت مدينة هيروشيما وتجولت فى متحفها لمدة ساعة استمع خلالها إلى شرح باللغة العربية عما جرى لهذه المدينة. عندما ضربها الأمريكان فى نهاية الحرب العالمية الثانية بالقنبلة الذرية.

وقد لاحظت أمرين، الأول: أنه لا يوجد أى ذكر للدور العسكرى اليابانى خلال هذه الحرب الطويلة، ومع من تحالفت اليابان وضد من؟ والثانى: أن كل الكلام المؤثر عن ضرب هيروشيما وحجم الدمار الشامل لم يكن فيه أى ذكر لمن قام بتوجيه هذه الضربة. إن الأثر الناتج عنها موجود ولكن الذى قام بها يبدو أنه شبح لا ذكر له. لدرجة أنهم يقولون الطيار والطائرة بعد حذف كلمة الأمريكيين بعدها.

وفى سنة ١٩٨٩ قامت السفينة الحربية الأمريكية «ذى تاورز» بإطلاق النيران فى خليج طوكيو، فهو ميناء تجارى مزدحم، وقد ذكر التليفزيون الأمريكى وقتها أن الشعب الأمريكى كان سيثور غضبا لو حدث ذلك فى بلاده.

ولكن وقتها طلبت وزارة الخارجية اليابانية من أجهزة الإعلام اليابانية أن تخفى النبأ حتى إشعار آخر. وكانت تلك من المرات القليلة التى تطلب السلطات فيها من الصحف

التى لا تملكها ولا تملك حتى الإشراف عليها عدم نشر خبر مع عدم وجود رقابة لأن ما جرى من الأمريكان إنما تم على أرض يابانية ذات سيادة وفى منطقة محظور فيها إطلاق النار نظرا لحقيقة أنها قناة بحرية حيوية وما جرى هو انتهاك واضح لحقوق السيادة اليابانية.

بل إن مثقفا يابانيا قال: إن ما جرى يماثل أن يقوم مسئول يابانى بإطلاق النيران عند مفترق جنزا. وجنزا هو الشارع الرئيسى فى مدينة طوكيو، وهو أهم وأغلى وأفخم شوارع طوكيو، ويبدو دائما مزدحما بالناس.

ومن المعروف أن اليابان فيها قاعدة عسكرية أمريكية. ولكن المفكر اليابانى المعروف المستر إيشيهارا يقول عن وضع هذه القاعدة:

- يمكن أن يقول الأمريكيون إنهم هنا لحماية اليابان بموجب معاهدة الأمن الأمريكية اليابانية. ولكن يبدو لى فى بعض الأحيان أن الأمريكيين يتصرفون كالكلاب المسعورة أكثر من تصرفهم مثل كلاب الحراسة. والفارق ضخم بين كلب الحراسة والكلب المسعور.

ويكمـــل:

- يجب على الشعب اليابانى أن يعرف أنه فى الأساس يحمى المصالح الأمريكية مع بدء الحقبة الجديدة فى العلاقات الدولية وهو شىء يبدو أن الأمريكيين يحسونه بشكل أسرع، وهذا هو واقع العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية واليابان اليوم، إن الحقبة التى قادها البيض تصل إلى نهايتها، والتاريخ دخل طورا جديدا، ومؤسس هذه الحقبة الجديدة هو اليابان.

ومن يتجول فى شوارع طوكيو لابد وأن يرى محاولات الغزو الأمريكى بنفس مفرداتها التى عاصرناها فى بر مصر، ولكن منذ عشرين عاما مضت بالتمام والكمال. الزى اليابانى التقليدى والذى كان جزءا من الشخصية اليابانية على مر العصور، والذى ترتديه النساء ويسمى الكيمونو تراجع ولكن لحساب الجينز الذى ينتشر بسرعة مخيفة بين الأجيال الجديدة من الفتيات والشبان. وسلسلة المحلات الأمريكية تملأ شوارع طوكيو والمدن الأخرى. صحيح أن اليابان تحاول إنشاء سلاسل محلات مثلها، ولكن الإقبال على القادم من الغرب يصل إلى حد الهوس إن لم يكن هو الهوس فعلا.

وعلى الرغم من أن جميع الخامات يابانية، ولا يبقى سوى طريقة الصناعة والتقديم، فإن هذه الأطعمة تخاصم المطعم اليابانى على طول الخط. إلا أن المطاعم الغربية القادمة من الناحية الأخرى من العالم لا تكفى حالة هوس الإقبال عليها، والشبان يجلسون على الأرصفة؛ إما فى انتظار الدور أو لكى يتناولوا ما حصلوا عليه من طعام. لا أدرى إن كانت الأسعار قد لعبت دوراً فى هذا الإقبال أم لا؟ فالوجبة السريعة التى تحصل عليها فى مطعم يابانى من مطاعم الشباب الجديدة يصل ثمنها إلى الألفى ين، ولكن نفس الوجبة تقريبا من مطاعم أمريكا تنزل إلى نصف هذا الرقم. وهذه المطاعم لا تقدم طعاما بريئا، ولكنها تقدم مع الأطعمة وقبلها وبعدها طريقة فى الحياة مختلفة ومغايرة لكل طرق الحياة اليومية فى اليابان. وطوكيو ليست موسكو ولم تكن مثل بكين؛ بل إنها مدينة تسابق الغرب فى نمط الحياة اليومية، ومع هذا فإن التعامل الشبابى مع هذه الأشياء أعاد إلى الذهن ما جرى فى موسكو فى السنوات الأولى لحكم جورباتشوف.

وفى ميدان الثقافة بدأ هذا الاتجاه يؤتى ثماره الأولى، فقد حكى لى الروائى اليابانى ياسوهيروتاكى دتش أن إقبال القراء انصرف عن قراءة الأدب الجاد إلى أشكال أخرى من الكتابة مثل النص التوثيقى والتسجيلى. بعيدا عن الإبداع الأدبى، وبالتالى فإن عددا من الكتاب الجدد انصرفوا عن الكتابة الأدبية الجيدة إلى مثل هذه الكتابات التى تكتب من أجل التسلية فقط. دون أن يكون هناك هدف أبعد من الترفيه.

ولكى ندرك ما فى هذا الكلام من دلالة يجب أن نعرف أن كتاب التسلية يطبع منه الملايين من النسخ، فى حين أن كتاب الأدب لا يتعدى المئات فقط، ولا يستثنى من هذا سوى الكتاب الكلاسيكيين الكبار، وحتى هؤلاء لا تقرؤهم الأجيال الجديدة. أتوقف أمام تقرير «اليابان يمكنها أن تقول لا» والذى قرأته بالعربية بفضل وعى الدكتور ممدوح البلتاجى عندما كان رئيسا لهيئة الاستعلامات، وأيضا بفضل اختيار الدكتور أنور عبدالملك الذى أشرف على تحرير هذا الكتاب بالعربية، وعلى السلسلة التى نشرته وهى بعنوان «أفكار العالم الجديد» ولا يعرف الإنسان مصير هذه السلسلة المهمة بعد أن ترك الدكتور ممدوح البلتاجى هيئة الاستعلامات.

وبالمناسبة فإن أنور عبدالملك وسمير أمين من الكتاب الأجانب الذين تباع كتبهم على الأرصفة فى اليابان فى طبعات شعبية؛ لأن الأول يركز على نظرية ريح الشرق والثانى يولى اهتمامه لفكرة العالم الثالث والنمو الاقتصادى القادم من شرق آسيا. يقول هذا التقرير، حول جدل الموقف الأمريكى من اليابان، والموقف اليابانى من أمريكا:

ـ الأمريكيون لا يثقون فى اليابان، ويبدو أنهم يعتقدون أنه حتى الروس أكثر تقدما من اليابانيين. فى الحرب العالمية الثانية قصف الأمريكيون أهدافا مدنية فى ألمانيا، ولكنهم لم يستخدموا القنبلة الذرية إلا ضد اليابان، علاوة على أن النظام التعليمى الأمريكى لا يقوم بتعليم الأطفال قيمة الثقافات الأخرى.

ويتطرق التقرير إلى المقارنة بين الاقتصاد فى واشنطن وطوكيو:

ـ إن اقتصاد دورة الربح التى تعتمد على الدقائق العشر لا يتيح للشركات استثمار أموالها فى التطوير طويل الأجل. إن الاقتصاد الأمريكى سيتحول إلى اقتصاد رمزى، فأمريكا هى الأمة الوحيدة من البلدان الصناعية المتقدمة التى لا توجد فيها وزارة للصناعة تكون مسئولة عن السياسة الصناعية، وبدلا من ذلك فإن وزارتى التجارة والنقل هما المشرفتان على الصناعة.

ولذلك فإن اليابان تعتبر دولة متقدمة بخمس سنوات على الأقل على الولايات المتحدة الأمريكية فى هذا المجال.

الأمريكيون يكنزون الثروة عن طريق ألعاب مالية من خلال تحريك المال ببساطة إلى الأمام وإلى الخلف، إنها عمليات نقل الأموال بالكمبيوتر أو القمر الصناعى أو حتى بالتليفون. إن الأمريكيين يصنعون الثروة اليوم بتداول النقود وتحويلها من مكان إلى آخر بدلا من ابتكار سلع لها بعض القيمة الفعلية. إن أمريكا تفكر لعشر دقائق قادمة، فى حين أن اليابان تفكر لعشر سنوات فى مقابل هذه الدقائق العشر.

قبل سفرى إلى اليابان سمعت وقرأت ضمن اتهامات الأمريكان لليابانيين، أن اليابانى منفذ جيد ولكنه غير مبدع، ينقل أفكار الآخرين وينفذها وينتجها ويوزعها على نطاق العالم من خلال حملات للدعاية والإعلان غير عادية.

ويضربون مثلا على هذه الحكاية بما جرى فى موضوع الترانزستور، يقولون إن أمريكا هو الذى اخترعه سنة ١٩٥٣، ولكن على الجانب الآخر فإن اليابانيين لا ينفون هذه الحقيقة، بل ويكملون الجانب اليابانى من الحكاية نفسها. يقولون إن المستر أكيو موريتا صاحب ورئيس شركة سونى قد أخذ هذا الاختراع الأمريكى وصنع منه الأعاجيب. بل يمكن القول إنه أحدث به ثورة متكاملة بعد ذلك. وإن كانت البشرية قبل هذه الثورة كانت تقول: راديو واحد لكل أسرة، فإن اليابان قد اقنعت البشرية بأكثر من راديو واحد لكل فرد؛ وذلك بعد التنوع الفريد لاستعمالات الراديو. وهكذا لم يبق الاختراع أصما. وفى

طوكيو يتساءلون: ماذا فعل الأمريكان باختراع الترانزستور عندما توصلوا إليه منذ أربعين سنة بالضبط؟!

فى اليابان تحول الاختراع إلى ثورة فى الإنتاج الذى أصبح سلعة وصلت إلى كل فرد فى العالم. وفى اليابان يؤكدون أن من يتحدثون عن الصراع اليابانى الأمريكى أفراد لا يستخدمون سوى الأدوات اليابانية. فى المنزل كل أدوات المطبخ من اليابان، وفى النادى جميع مستلزمات الرياضة من طوكيو، وبين المنزل والملعب فإن السيارة يابانية، وإن نزل إلى البحر فإن أفضل القوارب وأكثرها أمانا صنعت فى اليابان.

أما فى المكتب فحدث ولا حرج، ابتداء من التليفون وصولا إلى الفاكس، مرورا بجميع أنواع الأقلام، قال لى مثقف من هذه البلاد: إن النصف الثانى من القرن العشرين وما تلاه من أزمنة وما سيتلوه هو اختراع يابانى من الألف إلى الياء.

فى دنيا السياسة نسأل: أين ظلال هذا الصراع أو الحرب أو فلنقل التنافس؟ وذلك باعتبار أن السياسة انعكاس لكل هذا وتعبير عنه فى النهاية. المفاجأة الأولى، أنه فى دنيا السياسة والمواقف السياسية لا يوجد أى تناقض أو حتى تباين بين الدولتين وأن هناك حالة من التطابق التام. بل أكد لى أكثر من شخص سألته أن ثمة زواجا لا يقبل الطلاق بين البلدين. وإن كان فى كل زواج فى هذا العالم طرف قوى، فإن الطرف الأقوى فى هذه الحالة هو اليابان.

لكن ظلال هذا الزواج كثيرة. سمعت أن اليابان تقوم بشراء كميات كبيرة من اليورانيوم المخصب، وأن التى تقوم بذلك شركات كبيرة، وأن هذا يتم بمساعدة فرنسا والتنسيق التام معها، وفرنسا أيضا من الدول الأوروبية التى تناوئ السياسة الأمريكية.

وسمعت أن هذا اليورانيوم يعد من أجل استخدامات فى أبحاث ودراسات الطاقة البديلة ومن أجل الصناعات المتقدمة، وكان من الصعب طوال فترة وجودى فى اليابان أن أصل إلى اليقين حول هذه القصة الشائكة والصعبة والمعقدة.

ثمة تقرير يجرى تداوله سرا فى طوكيو منسوب إلى لجنة العلوم فى وزارة الدفاع الأمريكية، والتقرير مكتوب عن الهندسة الوراثية الإلكترونية يقول التقرير:

- إذا تركنا اليابان تسير على ما هى عليه، فسيكون من المستحيل احتلال مركز الصدارة مرة أخرى. وأصل المشكلة وجوهرها أن الدفاع فى أمريكا، والدفاع عبر أمريكا أصبح

يعتمد على مصادر الإمداد من الخارج. وهذا أمر غير مقبول من قبل الأمريكان. حتى من رجل الشارع العادى. والمقصود بمصادر الإمداد من الخارج ليس سوى اليابان، ذلك أن أنظمة المعدات الإلكترونية اليابانية التى يتم نقلها إلى أمريكا يمكن أيضا وبنفس السهولة أن تنقل إلى موسكو. وأنظمة المعدات الإلكترونية تعتبر حيوية للغاية من أجل الحفاظ على التفوق العسكرى.

والهستيريا الأمريكية ناتجة من أن هذه التكنولوجيا العسكرية المحورية لا توجد فى واشنطن، وأيضا لا توجد فى أى دولة أوروبية. والمصيبة أنها توجد فى دولة آسيوية هى اليابان.

يقول المستر شيناروا إيشهارا ـ وهو وزير سابق ـ ومفكر يابانى معروف فى هذا المجال:

ـ مع تحول العالم إلى عالم أصغر، ومع المزيد من الاستقرار للأمور فى العالم فسوف يستمر التطور ومن أجل امتلاك المدخل المطلوب «المشاركة فى السوق» فإن الإمكانية الأكثر أهمية تكمن فى تكنولوجيا الخطوط الطولية وتعتبر اليابان وألمانيا الغربية هما الأكثر تقدما فى هذا المجال من البحوث والتطوير، وتعتبر القاعدة النظرية التكنولوجية اليابانية أكثر تفوقا.

مؤخراً تنبأ هنرى كسينجر بأن اليابان قد تصبح قوة عسكرية عظمى، والمستر إيشهارا يعلق على ذلك بقوله:

ـ إن هذا لا يتمثل فى خطوة غبية من اليابان لامتلاك صواريخ قاذفة عابرة للقارات وتجديد السفينة الحربية القديمة ياماتو. ولكنه يشير إلى خطر مفاده أنه بغض النظر عن المدى الذى وصلت إليه الولايات المتحدة أو الاتحاد السوفييتى «روسيا بعد ذلك» فى مجال الفضاء، وتجهيز نفسيهما بمنصات أسلحة فضائية، فإن المبادرة العسكرية للتحكم فى كل ذلك سوف تعتمد على تكنولوجيا يابانية، والسؤال الآن هو: ما إذا كان لدى اليابان سياسيون يفهمون بدقة التاريخ الذى يقوم عليه واقعنا الحالى.

يبقى ما يخصنا نحن فى هذا السياق.

فى زمان سابق كنا نقول إن العالم ثنائى القيادة، وبعد انهيار الاتحاد السوفييتى السابق بدأنا نقول إنه عالم أحادى القيادة، وإن أمريكا انفردت بالدنيا كلها قيادة وصياغة، ولكن أين اليابان فى موقفنا من العالم اليوم؟ لم يكن العالم من قبل ثنائيا فقط، وهو الآن ليس أحاديًا فحسب، وهناك فى أبعد مكان منا توجد اليابان التى قالت بالأمس للقيادة الثنائية:

لا . وتقول اليوم للقيادة الأحادية ألف لا . ونحن لا نضعها فى اعتبارنا ولا نحاول أن ندخلها فى جملة مفيدة سواء كانت هذه الجملة اسمية أو فعلية .

أليست مأساة؟ ! علينا أن ندرك قبل فوات الأوان أنه ليست الشمس وحدها هى التى تشرق من ناحية الشرق ، ولكن فجر الزمن القادم يطل علينا ولكن من هناك أيضا ، فهل ندرك هذا؟ وهل نعرف أو نتذكر أن مصطفى كامل قال مثل هذا الكلام ، ولكن فى سنوات هذا القرن الأولى قبل أن يحدث ما حدث . وأيضا دون أن يستمع إليه أحد .

رسالة من أوشين

أعود إلى حكاية أوشين مع مصر ؛ فهى تتطلب وقفه من نوع خاص ؛ فعندما سافرت إلى اليابان كانت هذه البلاد تعرف فى مصر بأوشين أكثر من النهضة الصناعية الكبرى ، ولكنى بعد وصولى إلى طوكيو اكتشفت أن قلة شديدة هى التى مازالت تتذكر المسلسل لأنه سبق وعرض سنة ١٩٨٣ ، أى قبل عشر سنوات من وصولى .

وقد جرى عرضه فى سوريا قبل ثلاث سنوات ، ولكن المسئولين فى مؤسسة اليابان ـ وهى الذراع الثقافى لوزارة الخارجية اليابانية ـ هم الذين قاموا بإرسال أوشين إلى مصر . إن قيادات المؤسسة كانوا فى حالة دهشة من حجم رد الفعل المصرى إزاء عرض المسلسل فى مصر ؛ لدرجة أنه قدم تفاصيل الحياة اليومية فى اليابان أكثر من أى محاولة أخرى سابقة فى هذا المجال .

تاريخ أوشين يقول إن المسلسل عرض فى اليابان لأول مرة فى الفترة من إبريل ١٩٨٣ إلى مارس ١٩٨٤ فى أيام السبت ، الأحد ، والاثنين من كل أسبوع وذلك فى الثامنة والربع حتى الثامنة والنصف من كل صباح ، وهذه نقطة مطلوب دراستها منا ؛ لأن الدراما لا تقدم عندنا إلا فى المساء والسهرة .

ألم نفكر فى تغيير الموعد إلى الصباح الذى لا تقدم فيه سوى المسلسلات المعادة ، والتى تبدو من الوهلة الأولى كما لو كانت «طبخة بايتة» . وحتى عندنا فإن المسلسل لايقدم فى الصباح ولكن وقت الضحى . بعد عرض المسلسل تحولت أوشين إلى شخصية قائده تجسد الكثير من المعانى والقيم لدرجة أنها أصبحت فى النهاية شخصية وطنية .

القصة كانت مهمة بالنسبة للشعب اليابانى ؛ لأنها تركز على موضوعات تهمه ، مثل

علاقة الأم بالأطفال والأهل والعلاقات الزوجية تحت سقف العائلة وقيمة العائلة فى المجتمع اليابانى القديم تساوى قيمة الوطن نفسه؛ ولأن اليابان بلد التجريب الأولى فى العالم؛ فكما جربوا عرض أوشين فى الصباح جربوا أيضا عرضها وقت الظهر، وقاموا بعمل دراسات على الإقبال على العرضين، وثبت من الدراسة أن معدل الإقبال على المسلسل صباحا وصل إلى ٦٣٪ فى حين أن معدل الإقبال عليه ظهرا هبط إلى ٢٠٪ فقط.

النجاح المحلى المذهل حمل أصداء أوشين إلى الخارج، وجعل البلدان الأخرى تبحث عنه، وصل الأمر بثقافات أخرى غير يابانية أنها بدأت عملية طرح الأسئلة حول الموضوع الذى يقدمه المسلسل، والذى أصبح بمثابة رسالة من الثقافة اليابانية إلى ثقافات العالم الأخرى.

فى سنغافورة عرضت أوشين أيام الاثنين والأربعاء والجمعة ابتداء من سبتمبر ١٩٨٤، وما جرى فى اليابان حدث فى سنغافورة أيضا، إن لم يكن التأييد الشعبى أكثر.

وأوشين الحقيقية بطلة هذا العمل الذى لم يكن خياليا ولدت فى قرية جبلية مائية، على مكان مرتفع بالقرب من نهر موجومى سنة ١٩٠١. كانت عائلتها من المزارعين الذين لا يملكون مساحة كبيرة من الأرض، ولذلك استأجروا أرضا زراعية. كانت الأسرة مكونة من تسعة أفراد بها ستة أطفال منهم طفلة وحيدة عاجزة. وفى السنة السابعة عشرة من عمرها، وبالرغم من رغبة أوشين القوية فى الذهاب إلى المدرسة، إلا أن أهلها أرسلوها لكى تعمل مربية أطفال. كان يومها يبدأ فى الخامسة صباحا، ويستمر إلى أن يأتى الليل.

كانت تقوم بكل شىء: الطبخ، التنظيف، الغسيل، إلى جانب واجبها الأساسى كمربية أطفال، وفى نهاية السنة الأولى تسلمت عائلتها كمية من الأرز مقابل هذا العمل. قبلت أوشين العمل ومتاعبه، ولكن سوء الفهم جعل الحياة فى تقديرها غير محتملة، ولذلك قررت الهروب، وأسلمت نفسها لانجراف ثلجى من فوق الجبل، وكان معها فى نفس الانجراف شاب يابانى هو شنساكو، لقد كان هاربا من الجيش اليابانى، وقضت أوشين الشتاء بثلوجه وأمطاره معه فى بيته الجبلى. بعد الشتاء وفى الربيع عملت عامين موظفة تحت التمرين فى كاياجى عند تاجر أرز كبير، وقد عوملت هذه المرة أفضل من المرة السابقة، وقد أثبتت استحقاقها أن تكون طفلة استثنائية وعوملت كأحد أفراد العائلة، عائلة تاجر الأرز الكبير.

وهكذا قضت أوشين سبع سنوات سعيدة فى كاياجى قبل أن تترك العمل، وعند

عودتها إلى بيت الأهل وجدت أن الأمور مازالت سيئة كما تركتها قبل سنوات. طلب منها والدها أن تعمل بالقرب منهم فى محل لبيع الخمور، ولكن وفاة أختها التى كانت تحبها تحول دون تنفيذ هذا الأمر من الأب.

ثم تبدأ أوشين فى الاستعداد للسفر إلى طوكيو لكى تحقق حلم عمرها وتعمل مصففة شعر فى العاصمة اليابانية، لقد وصلت أوشين إلى طوكيو وعمرها ١٨ سنة، وكانت تعد نفسها لاحتمالات المستقبل الذى ينتظرها.

عند تقديم أوشين فى المسلسل الشهير كان لابد من البحث عن ثلاث ممثلات لتقديم مراحل حياتها المختلفة. كان المطلوب طفلة تجسد سنوات الطفولة، ومراهقة لمرحلة الشباب، وعجوز لكى تمثل الشيخوخة الأخيرة. ولأن المسلسل مضى عليه أكثر من عشر سنوات، وكما ماتت أوشين الأصلية فإن الفنانة التى قامت بهذا الدور قد توفيت أيضا، والممثلة التى قدمت شبابها أصبحت كبيرة. أما الطفلة فهى تخطو إلى عتبات الشباب الجميل. وعندما كان يقول لى الناس فى مصر «السلام أمانة لأوشين» كنت أحتار لمن أقدمه. هل لأوشين الشابة التى أصبحت عجوزا، أم الطفلة التى أصبحت شابة؟!

ـ ثمانيـة ـ

أسرع قطار فى العالم

اليوم الثالث.

الجمعة ١٢ نوفمبر ١٩٩٣.

كان موعدى مع كريمة فى الثامنة والنصف صباحًا فى بهو الفندق، وكان من المفروض أن أعد حقيبتى من أجل تركها فى أمانات الفندق حتى لا أستمر فى حجز الغرفة خلال سفرى خارج طوكيو.

كنت على سفر صباح اليوم، وهو السفر الأول لى فى داخل اليابان. جميل ألا يقضى الإنسان أيامه كلها هنا فى العاصمة، والأجمل أننى لا أبقى فى الفندق سوى أوقات النوم فقط. حتى لا أتحول إلى كائن فندقى. دفعت حساب ليلتين قضيتهما فى الفندق. وكان حوالى اثنان وأربعين ألف ين، وقد اكتشفت أنه حتى الفيديو الذى شغلته ليلة الأمس عليه أجر لابد من دفعه، بلعت المقلب ولم أسأل كيف عرفوا أننى قمت بتشغيل الفيديو وأنا فى الغرفة. إنهم هنا يعرفون حتى الأفكار التى تدور فى رأس الانسان وهو فى غرفته.

عندما عدت إلى الفندق اكتشفت وجود ورقة فوق جهاز التليفزيون فيها أسعار تشغيل محطات الفيديو المركزية فى الفندق، كانت أغلاها محطة تعرض أفلاما جنسية على مدى الأربع والعشرين ساعة. إذن ليس خطأ الفندق، فقد قام بالمطلوب منه وعلى أكمل وجه. العيب عيبى أننى لم أقرأ جيدا كل ما هو مكتوب فى الغرفة، والغريب أعمى حتى لو كان مبصراً. وضعت الحقيبة الكبيرة فى الأمانات بالفندق، والأمانات عبارة عن مكتب فى أول الاستقبال يقف فيه موظف كبير ومعه عدد من الصبية والفتيات الذين يبدون كما لو كانوا طلابا فى المدارس، وعندما تسلموا الحقيبة منى أعطونى إيصالا بها. وأبلغونى أننى

سأدفع مائة ين فى اليوم الواحد نظير حفظ الحقيبة كأمانة، وهو مبلغ صغير جدا ولا يذكر إذا قورن بأجر الغرفة.

تذكرت السفه فى الدعوات العربية، عندما كنا نحجز غرفة فى العاصمة عندما نسافر إلى أى إقليم فى الدولة، ونحتفظ بالغرفة فى فندق العاصمة لمجرد وضع حقيبة فيها، والغرفة التى تحجز لنا فى الإقليم الذى نسافر إليه بالطائرة طبعا محجوزة لمجرد قضاء ساعة فيها وغسل الوجه. أى سفه وتبذير هذا؟! وأى قدرة على الاقتصاد والتوفير هنا؟ لا. الحقيقة تدفعنى إلى القول: إن كل ما يتم إنفاقه هنا، لا ينفق إلا فى الوجه السليم له.

سار بنا التاكسى من الفندق إلى محطة السكة الحديد المركزية لطوكيو. سألت كريمة: ولماذا لا نسافر بالطائرة؟! قالت لى: إن السفر الداخلى فى اليابان يتم معظمة بالقطار؛ لأن الخروج من أى مدينة إلى المطار، والدخول إلى المدينة الأخرى يستغرق ساعتين على الأكثر. «كل شيء هنا محسوب بدقة، لا يوجد أى أمر متروك للصدفة أبدا» أكملت كريمة. كذلك فإن القطارات هى مفخرة المعجزة اليابانية من حيث السرعة، قالت كريمة بفخر يابانى غريب:

ـ فى هذا العام سيتم تسيير أسرع قطار فى العالم. سيقطع حوالى سبعمائة كيلومتر فى الساعة، وهكذا يصبح أول أسرع قطار فى العالم يابانى.

حسدتها على هذا الاعتزاز اليابانى الذى يشبه الموقف فى ألمانيا عند صعود هتلر، أو موقف اليهود عندما يقولون إنهم شعب الله المختار. خيط رفيع يفصل بين الاعتزاز المشروع والتعصب الذى يعد خروجا على أى أمر مشروع، كان مع كريمة تذكرة قطار لى وتذكرة قطار لها، ومعها تذكرتين أخريين، عبارة عن فارق سرعة لى ولها، وكل تذكرة فى حجم تذكرة الطائرة، وهى موضوعة داخل مغلف جميل وأنيق.

تذكرتى فارق السرعة لأن القطار الذى سنركبه هو أسرع قطار فى العالم الآن. فهو يمشى بسرعة ثلاثمائة كيلومتر فى الساعة. أما القطار الجديد، والذى ستكون سرعته قريبة من سرعة الطائرة، فهو لن يسير على الأرض، ولكن على وسادة تفصله عن الأرض حوالى ٣ سنتيمتر وحركته ستكون بالمغناطيس. قالت كريمة إنهم يجربون قطارا بدون سائق يعمل بالكمبيوتر والريموت كنترول فى الحركة والتوقف.

قالت كريمة: إن هذا القطار سيكون واحداً من أعاجيب الدنيا الأساسية. أعاجيب الدنيا الجديدة وليست القديمة.

كـان لابد وأن أتذكـر هنا أننا فى مـصـر كنا من أوائل دول العـالم التى أدخلت السكة الحديد فى القرن الماضى. كـانوا يقـولون لنا ونحن جلوس على مقـاعد الدراسة إننا ثالث دولة فى العـالم تعـرف القطار. وبالتراكم والاستفادة من الخبرة كان لابد وأن نكون الآن قبل اليابان فى هذا المجال. من المؤكـد أنهم عرفوا القطار بعدنا، ولكن المقارنة تصيب لون النهار بحالة رمادية محزنة وتجعل الإنسان يشعر بالرغبة فى البكاء.

إن السؤال الذى طرحته اليابان كلها علىَّ هو: لماذا تقدموا هم بينما تعثرنا نحن؟ لماذا سافروا إلى الأمام فى حين أننا مازلنا محلك سر، إن لم نكن قد رجعنا إلى الوراء فى معظم مرافق الحياة والسكك الحديد خير دليل على هذا. كانت محطة سكك حديد طوكيو ضخمة، والمبنى من بعيد عـملاق بكل معنى الكلمة، وفوق المبنى وفى أعلى مكان منه حرفى «جى آر» مكتوبان بطريقة ملفتة للنظر. كل القطارات التى رأيتها عليها نفس الحروف.

بدا لى هذين الحرفين وكأنهما الحرفان الأولان من جملة سكك حديد اليابان، ولكن من كثرة تكرارهما على كل شىء تصورت أنهما يرمزان إلى قوة ما حاضرة وغائبة، ترى كل ما يجرى، وتشرف على آليات العمل، وتحمى هذه المؤسسة من أى عطب يمكن أن يلحق بها. سألت كريمة عن الحرفين، قالت لى كريمة إن السكك الحديد فى اليابان تمتلكها شركتان قطاع خاص، وحرف «الآر» رمز أحدهما، وهو الحرف الأول من اسم صاحب الشركة الرئيسية الذى يعد الآن من أغنى الأغنياء فى اليابان أما حرف الجى فهو الحرف الأول من اسم اليابان نفسها.

تعجبت! فى تصورى أن إدارة السكك الحديدية هى من صميم سيادة الدولة، علاوة على أنها تشكل ركنا أساسيا من أركان أمنها القومى. السكك الحديدية ليست مجرد مرفق ينقل الركاب وبعض البضائع من مدينة إلى أخرى، ولكنها من صميم الأمان الحقيقى للوطن. قالت لى كريمة إن جميع هذه الأمور وضعت فى الاعتبار عند الإقدام على تجربة خصخصة السكك الحديد، لا أكره كلمة فى كل قواميس الدنيا مثل كلمة خصخصة هذه التى لا أعرف من أى نبع خرجت. أينما كنت ستجد الخصخصة أمامك ووراءك أيضا، حتى هنا فى اليابان يبيعون ما تملكه الدولة وما نسميه نحن القطاع العام، وهل حكومة اليابان فقيرة حتى تبيع ما تملكه؟ أم أن البيع جزء من النظام العالمى الجديد؟ لقد وصل الأمر إلى السكك الحديدية، وكان ذهنى مثل خلية النحل يطن بآلاف الأسئلة ولم تكن كريمة راغبة فى الخوض فى هذا الأمر لأنه يتصل بأمور البلاد،

ولكنى قلت لأؤجل أسئلتى حتى انتهى من التجربة أولا. كان مظروف التذكرة مدون عليه اسمى ورقم الرحلة ورقم المكان الذى سنقف فيه على الرصيف حيث يكون الباب الذى سندخل منه القطار أمامنا.

تذكرت محطات القطار فى موسكو، كانت المحطة عبارة عن قصر من قصور روسيا القيصرية، أخذتنى المحطة ورحلت قرنا من الزمان. كل مفردات المكان تقول لك كانت هنا حضارة تعود إلى زمان سحيق. موغل فى القدم ولم يخرجنى من عبق التاريخ سوى القطار السوفييتى الحديث.

هنا المحطة سوق، مؤسسة اقتصادية كاملة. المحطة أولا عبارة عن مبنى من أكثر من دور، فى المكان الذى تختم فيه التذكرة مكتبات تبيع الجرائد والمجلات والكتب. واليابانى ما أن يختم تذكرته حتى يتوجه إلى المكتبة لكى يشترى إما مجلة أو جريدة أو كتاب يقرؤه خلال الرحلة. وما أن يجلس فى مقعده ويتحرك القطار حتى يدفن نفسه فى الصفحات التى أمامه وعند نهاية الرحلة يترك المجلة أو الجريدة أو الكتاب على الكرسى الذى كان يجلس عليه وينزل. فى كل رحلة كانت كريمة تشترى مجلة رياضية مصورة تنتهى منها خلال الرحلة. والانتهاء منها يعنى قراءتها من الصفحة الأولى وحتى الصفحة الأخيرة. كما لو كانت تذاكر درسا مقررا عليها فى الدراسة.

القراءة هنا تتم بمنهج عملى حتى لو كانت فى أوقات الفراغ، وفى المحطة محلات من كل نوع وصنف، كل ما يحتاجه المسافر من أجل سفريته، واليابانى يستعد للسفر كما لو كان مقبلا على احتفال من نوع خاص، يشترى بعد الكتب السندوتشات والمشروبات والفواكه والحلويات من أجل تناولها فى القطار مع أن القطار فيه خدمة مثل الطائرة.

وفى هذه البلدان عبقرية من نوع خاص اسمها التغليف؛ لأنك تشترى الكمية التى تناسبك دون زيادة أو نقصان وهى مغلفة بشكل جيد، وبعد تناول الطعام فإن العلبة تتحول تلقائيا إلى مكان تضع فيه المخلفات، وكأن شيئا لم يكن. حتى السندوتشات تبدو مغلفة بصورة شديدة الأناقة، لا يوجد مكان واحد يصنع لك البائع فيه الساندوتش بشكل يدوى وأنت واقف تتفرج عليه وتطلب منه أن يزيد من الملح أو يقلل من الشطة لأنك تعانى من مرض البواسير.

كل شيء معبأ بطريقة نظيفة وجيدة ومرتبة وتدفعك إلى المزيد من الشراء، واليابانيون رغم أن بلادهم من أرض الديانات القديمة التى يدعو بعضها إلى الزهد والتقشف. إلا

أنهم شعب مقبل على الحياة. ربما بسبب الثورة الاقتصادية، أو سيادة النمط الأمريكى فى كل أمور حياتهم.

كان مكتوبا على تذكرة القطار - كما قلت - رقم الرصيف الذى سنقف عليه. والجزء المخصص لنا من هذا الرصيف. وممنوع منعا باتا أن تقف على جزء مخصص لغيرك، وقد أدركت أن هذا له حكمة؛ لأن الباب المخصص لك للدخول منه يفتح أمامك مباشرة، فلا تضطر للجرى على الرصيف حتى تصل إلى الباب الذى تدخل منه إلى القطار.

كان من المفروض أن نقف على رصيف رقم «٣» وعلى قطعة رقم «١٤» من الرصيف وهى التى ستتوقف أمامها عربة القطار رقم واحد، حيث يوجد حجزنا. جاء القطار فى موعده بالدقيقة والثانية وفوق كل رصيف ساعة كبيرة معلقة، تعمل وليست معطلة مثل كل ساعات الميادين العامة فى بلادنا.

ويبدو أن الفارق الأساسى بيننا وبينهم، حتى لا أوجع دماغى بكل هذه المقارنات. وحتى لا تتحول الرحلة إلى رحلة المقارنات العجيبة، أننا فى مصر والوطن العربى نعيش نهاية مرحلة فيها كركرة النهايات، الأمة كلها تتقهقر إلى الوراء دون أن يكون ثمة أمل فى حائط تركن ظهرها إليه فى النهاية. وأنهم فى اليابان يعيشون فى زمن نهوض جماعى، وهذا الزمن يأخذ الجميع وينهض ويتقدم إلى الأمام.

ركبنا، كان لكل عربة من عربات القطار بابان، باب للركاب وباب للمعوقين. طبعا لم يكن هناك باب للحريم، كما تبادر إلى ذهنى فى البداية، وقلت هاهو أمر يتشابه فيه الواقع المصرى مع الواقع اليابانى.

فى العربة دورة مياه خاصة بالمعوقين، ومكان تتوقف عرباتهم فيه بعيدا عن أنظار باقى الركاب. التى لا تسيل منها فى مثل هذه الحالات سوى الشفقة الكاذبة.

كان ثمة شاب معوق يتحرك بعربة معوقين، كان معه والده. دفع عربته حتى أوقفها فى مكانها المخصص لها وتركه ونزل، دون أن يوصى عليه الجميع بكلمات متوسلة باكية. كما نفعل هنا فى مصر، لابد وأن هناك من سيعتنى به. قلت لنفسى إما أن الرفاهية وصلت هنا إلى ما بعد أى تصور لنا، أو أن المعاقين عددهم كبير ولذلك يقومون بهذه الاستعدادات الكبيرة من أجلهم.

جلس الجميع فى مقاعدهم، لم يكن هناك راكب واحد واقف، ولم يركب القطار

شخص واحد ليست فى يده تذكرة، بل لم يدخل المحطة أساسا من لا يحمل تذكرة. مر الكمسارى، حيث رأى التذاكر وعلّم فيها، طبعا لم أره يضبط راكبا واحداً بدون تذكرة، الذى تقول عنه أدبيات السكة الحديد فى بلادنا راكب «مزوغ» أو راكب «كاتت»، ربما ضبط ركابا آخرين فى أماكن لم أرها. وأى نظام لابد من وجود القادر على خرقه والخروج عليه مهما كان إحكامه وأى شعب لا مفر من وجود المحتاجين فيه.

وقد عجبت من وجود هذا الكمسارى الذى يعد من بقايا نظام آخر لا يعتمد على هذه الآلية فى العمل. لابد من اختراع ما يتأكد أن كل راكب معه تذكرة دون طلبها منه، ما داموا قد حققوا كل هذا التقدم. وإن كان التقدم قد عكس أمامى نوعا من الآلية القاتلة لروح الإنسان. ثم مرت علينا فتاه تدفع عربة أمامها، عرضت علينا شايا مثلجا، ولم أتقبل فكرة شرب شاى مثلج، شديد الحلاوة كما قالت لى البائعة عبر المترجمة، وقد شربت قهوة بالطريقة اليابانية، أى ليست قهوة تركية لها وجه، وكانت بدون طعم تقريبا وقد أحدثت لى حالة من المغص.

عزمت على كريمة أن أدعوها لكى تشرب شايا مثلجا أو قهوة من التى لم تعجبنى؛ لأنها قد تعجبها هى، فقالت لى إنها لا تشرب أى مشروبات ولا تأكل أى أطعمة بين الوجبات، وقالت إن اليابانيين يفعلون هذا، لأنهم قوم عمليون. مع أن الذين حولنا كانوا يأكلون جميعا ما اشتروه من المحطة. وعموما فإن كريمة كانت حريصة على إبراز الوجه اليابانى فى تصرفاتها، حتى عندما قلت لها أنت معجبة باليابان بلا حدود. رفضت تعبير الإعجاب، لأن الغريب فقط هو الذى يعجب، أما هى فإنها فخورة ومعتزة باليابان أكثر من كونها معجبة.

بعد حوالى ساعتين ونصف كنا قد وصلنا إلى أوزاكا، وقطعنا أكثر من سبعمائة كيلومتر فيها، أى مسافة قريبة من المسافة من القاهرة إلى أسوان، والقطار عندنا يقطعها فى يوم وليلة، وأسرع قطار يجرى على سكتنا الحديدية يستغرق نهاراً بأكمله فى مثل هذه المسافة.

لاحظت خلال السفر، وقد جاء جلوسى بجوار النافذة وقد اعتبرت أن هذا مقصود حتى أرى البلاد جيداً. أقول لاحظت الطبيعة الجبلية للأرض فى اليابان، فالقطار يخرج من نفق فى قلب جبل لكى يدخل نفقًا آخر. والطريق العادى كان عبارة عن طريق معلق على كبارى بين جبل وآخر؛ أى أن مجرد شق السكك الحديدية وتعبيد الطرق وإقامة

الكبارى فى هذه الأماكن الصعبة هو عبارة عن عملية قهر وتحد للطبيعة القاسية، شديدة القسوة، كانت الجبال وعرة وتنحدر بصورة مفاجئة، ليست مثل الجبال السهلة والسلسة التى نشاهدها فى بلادنا، تلك التى نسميها من باب التجاوز جبالا.

بين الجبل والآخر، كانت الحياة ممتدة تعبر عن نفسها بنفس قوة الجبال. القرى صغيرة، والبيوت فيها صغيرة، وفى كل قرية مهما كان حجمها، كنت أشاهد فنادق شديدة الصغر، وأمام كل بيت أكثر من سيارة أهم ما فيها سيارة نصف نقل. يبدو أن الجوع للمكان هو الذى صنع سلوك الشخصية اليابانية هنا وأعطاه مذاقه المتفرد. كانت الحقول مقسمة بشكل بديع، وفى قلب الحقل لابد من طريق مسفلت والسيارة «النصف نقل» تصل إلى أى مكان فى الحقول.

فى القرى التى زرتها بعد ذلك كانت الإشارات الضوئية، التى لا نجدها عندنا سوى فى الميادين الرئيسية من المدن الكبرى وفى الأحياء التى تعانى من زحام السيارات الشديد، هذه الإشارات وجدتها حتى بين حقل وآخر. لفت نظرى فى القرى والمدن الصغيرة التى مررت عليها ندرة وجود الدِّش فوق البيوت، وقد تعجبت من ذلك؛ لأن هذه البلاد هى وطن الدش، فكيف يتراجع وجوده فيها بهذه الصورة؟!

تذكرت منظر بيوت مدينة نصر حيث أسكن، فقد احتل أسطح بيوتها الدش بصورة مهولة. أكثر من دش واحد فى العمارة الواحدة. يبدو أن الشعار عند القادرين فى بلادنا هو دش لكل أسرة، وفى القريب العاجل سيكون الشعار دش لكل مواطن، ويبدو لى أيضا أن الناس يعملون بالإنتاج، أما الذين لا ينتجون فلا يبقى لهم سوى الاستهلاك الذى يفرغون فيه طاقاتهم كلها، ونحن قد اخترنا أن نكون مستهلكين «وماحدش أحسن من حد».

وعلى ذكر الدش فقد عرفت أن اليابان تجرب جهاز تلفزيون يكون الدش والإريال بداخله، وهكذا سيتم الاستغناء بضربة واحدة عن هذه الدشات التى تحولت فى بلادنا إلى عملية إعلان عن هوية وطبقة وقدرة مالية. إن الذين يبالغون فى الإعلان عن الدش فى بلادنا الفقيرة، إنما يعلنون عن قدراتهم الاقتصادية، وأيضا عن مكانهم فى سلم الطبقات، أكثر من كونهم يحتاجون هذا الدش؛ لأن من عنده دش لا يوجد عنده وقت ومن ليس عنده دش فإن الوقت يفيض عن حاجته. إنها قوانين مجتمع الاستهلاك الرهيب.

أكثر ما شاهدته كان السيارات فى حياة الناس هنا، قال لى منصور أبو العزم، مدير

مكتب جريدة الأهرام فى طوكيو : إن أى سيارة بعد اثنى عشر شهراً من الاستخدام تباع بنصف الثمن الذى بيعت به وهى جديدة، وبعد الاثنى عشر شهرا الثانية ينزل الثمن إلى الربع، وبعد ذلك لا يعادل ثمنها ثمن حذاء، وبعد خمس سنوات من سنة الإنتاج لا يكون مسموحا بسيرها فى الشارع ولا ترخص أصلا، ومصيرها هو الإلقاء فى مقابر السيارات.

وقد ذهبت إلى واحدة من مقابر السيارات فى إحدى القرى الصغيرة، وكانت أقدم سيارة فى المقبرة بحالة أفضل من أحسن سيارة تجرى فى شوارع القاهرة، فقلت: لله فى خلقه شئون. ورغم ارتفاع دخل المواطن اليابانى، والغنى غير العادى الذى يتجول على العجل فى الشوارع، فالسيارات الفاخرة التى نسمع عنها ونراها فى إعلانات المجلات ليست موجودة فى اليابان بنفس كثرة وجودها فى مصر.

النسبة الكاسحة من السيارات هى التى صنعت فى اليابان، أما سيارات الغرب الفاخرة التى نراها فى الأفلام الأمريكية فدرجة انتشارها فى الشوارع لا تتناسب مع الدخول وحجم الثراوت فى اليابان من ناحية ولا تقارن بمثيلاتها فى شوارع القاهرة من ناحية أخرى. هذا مع العلم أن الاقتصاد اليابانى حر ويمضى حسب آليات السوق ولا توجد أى جهة توجهه وتدخل الدول فيه معدوم أى أن الأمر تلقائى.

كانت الحقول التى مررنا بها صغيرة ومحندقة، تبدو مثل الحقول التى يرسمها الأطفال على الأرض؛ من أجل أن يلعبوا فيها لعبة الزراعة والحصاد، ومعظم الزراعات فى الحقول التى مررت عليها عبارة عن زراعات داخل الصوبات. أى زراعات صناعية وهذه كلمات تعود مفرداتها إلى العالم القديم، أقولها على مشارف الدنيا الجديدة.

وقد عرفت من الدكتور عبدالمنعم تليمة، الذى أنا فى الطريق إليه الآن، حيث يعيش فى أوزاكا، أن مساحة اليابان تماثل خمس مساحة دولة مثل ليبيا، وأنها ثلث مساحة مصر. وأن اليابان كلها من حيث المساحة تماثل مساحة شبة جزيرة سيناء. تعجبت غاية العجب من هذه المعجزة اليابانية التى تصر على إبهارى فى كل لحظة تمر، كل هذا يجرى فى مكان ضيق. كم نبدد نحن من المكان، هذا بعد تبديد الزمان؟ من منا يتصور أن الزمان ثروة؟ ومن منا يفكر فى المكان باعتباره ثروة أيضا؟ ولهذا تركنا مصر كلها صحراء مترامية الأطراف، وإن جاء لها سائح واحد أقمنا الدنيا وأقعدناها، واعتبرنا أن ذلك من الأعياد.

مع أن أمننا القومى يتطلب منا ويفرض علينا أن نزرع سيناء بالناس، قبل زراعتها

بالأشجار والأناناس والكانتالوب؛ فالخطر لا يأتى لمصر إلا من حدودها الشرقية على مر التاريخ المصرى كله. خلال الرحلة ذهبت إلى دورة المياه فى القطار أكثر من مرة، وهى عادة لازمتنى منذ مجيء مرض السكر لى، أكثر من كونها ضرورة. وجدت دورات للرجال، والأخرى مشتركة ليست للنساء فقط، فهذا الفصل العنصرى لا يوجد هنا رغم الخضوع التقليدى للمرأة اليابانية تجاه الرجل اليابانى والذى يعد من ثوابت نظرتنا إلى الشخصية اليابانية. كانت هناك مبولة، وأخرى للتبرز ولكن على الطريقة اليابانية القديمة وهى أقرب إلى دورة مياه من الريف المصرى التى كنا نسميها بيت الراحة، ودورة مياه إفرنجية، ودورة من أجل المعوقين.

أهم ما لفت نظرى فى دورات المياه كلها، كان حالة النظافة الشديدة والعناية الفائقة. على الرغم من عدم وجود شخص يقوم بذلك «عندنا شخص مخصص لهذا العمل، مع عدم نظافتها التى تصل إلى الرغبة فى التقيؤ كلما دخل الإنسان أى دورة مياه عامة. مهما كان المكان الذى توجد فيه». وكل ما فى دورة المياه يتم بصورة آلية، ما أن تنتهى من التبول حتى تنزل المياه للتنظيف بصورة آلية. إن نظافة دورة المياه هى دليل حى على نظافة المكان كله، والنظافة لا علاقة لها بالإمكانيات، ففى ريف مصر يجتمع الضدان. الفقر الشديد والنظافة غير العادية. والنظافة رغبة أكثر من كونها قدرة، وعندما أدخل أى بيت أو مؤسسة فإن دورة المياه هى الدليل الأكبر على مدى تمسك الذين يعيشون هنا بقواعد النظافة التى هى أول ما يجعلنا نحب الحياة فى هذا المكان أو ذاك.

خارج طوكيو - وقد لاحظت ذلك فى أثناء رحلة القطار - من الصعب أن تقع عيناك على لافتة بأى لغة غير اليابانية، كلها مكتوبة باليابانية. وإن كان الوضع عكس ذلك فى طوكيو التى أجد أن إعلاناتها تمثل كرنفالا لكل لغات العالم الأخرى ولكن بجوار اليابانية التى تعد الأساس. إن اللغة عند اليابانيين ليست وسيلة تفاهم، إنها وطن. ولاحظت فى الطرق خاصة التى تصعد إلى الجبال، أو النازلة منها - وتلك غير هذه - أن الطرق المتعرجة - خاصة عند المنعطفات الحادة - أقول لاحظت وجود مرايا كبيرة يمكن أن يرى منها السائق السيارة القادمة ويتفاداها.

والمرايا تلعب دورا مهما فى حفظ المرور، لدرجة أننى لم أشاهد حادث مرور إلا بعد مضى أسبوع على وجودى فى هذه البلاد، والمرايا وسيلة لا تكلف كهرباء ولا إشارات ولا تتطلب عسكرى مرور.

عبدالمنعم تليمة

وكنت قبل السفر إلى اليابان، وأنا مازلت فى القاهرة، قد اتصلت بالدكتور عبدالمنعم تليمة، الناقد الأدبى المعروف، حيث يعيش منذ سنوات فى مدينة أوزاكا، ويعمل أستاذا للأدب العربى فى جامعتها.

حسبت فارق التوقيت بين القاهرة وأوزاكا بكل دقة خوفا من أن أوقظه من نومه، فعدم حساب فارق التوقيت أوقعنى من قبل فى مشاكل لا حصر لها، وعندما كنت أسمع رنين التليفون فى الناحية الأخرى من العالم، كنت أحاول أن أتخيل المكان الذى يسمع فيه هذا الرنين.

أتانى صوته مرحبا كعادته، لم تمتص الغربة ألفته ودفئه وإنسانيته. بقى كما هو، وكان المرحوم الدكتور عبدالمحسن طه بدر قد قال لى إنه رفض السفر إلى أوزاكا فى اللحظة الأخيرة، وفضل البقاء فى مصر رغم دقة حالته المالية وهشاشة وضعه الاقتصادى، ولكنه نظر ساعتها إلى قبوله لفكرة السفر كما لو كانت تخليا عن دوره فى مصر، وأنا عن نفسى أحب هذه الفكرة لحد الهوس.

رحب بى عبدالمنعم تليمة بتلقائية وحبور. سألته عن أى الطلبات يمكن أن أتقدم بها إلى الإخوة اليابانيين قبل سفرى وأحرص عليها. باعتباره الآن - أى عبدالمنعم - يعد خبيرا يابانيا. قال لى على الفور - وكأن الكلام كان يقف على طرف لسانه - إننى من المفروض أن أزور مدينة أوزاكا، حيث يعيش هو، وفيها الجامعة وقسم اللغة العربية الذى يعمل فيه.

وفى طوكيو لابد من زيارة جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية، ففيها يدرس الأدب العربى بصورة سوف تذهلنى. وزودنى بأسماء عدد من الدكاترة والأساتذة الذين يدرسون تاريخ مصر والمنطقة العربية واللغة العربية ولهجاتها. تواعدنا على اللقاء فى أوزاكا، سألته إن كان يحتاج ما أحضره له معى من مصر، خاصة الكتب والمجلات الجديدة، قال لى لا تتعب نفسك، فكل المطبوعات التى تصدر فى الوطن العربى تصل إلينا. خاصة وأن جامعة أوزاكا مشتركة فيها.

كذلك هناك اشتراكات فى أكثر من جريدة يومية مصرية وعربية، وبعض المجلات التى تصدر فى الوطن العربى خاصة التى لها اهتمام بالثقافة والفكر والأدب. كان من حسن

حظى أننى سافرت إلى اليابان وعبدالمنعم تليمة مازال هناك. كان فى سنته الأخيرة التى قرر بعدها أن يعود نهائيا إلى مصر بعد هذه الغربة الاختيارية التى فرضها على نفسه فى هذه البلاد البعيدة.

كارت لكل مواطن

أعود إلى رحلتى من طوكيو إلى أوزاكا، وكريمة تقول ونحن على مشارف أوزاكا إن هذا القطارالذى نستقله يطلقون عليه اسم «الرصاصة» أو «الطلقة»؛ لأنه يسير بسرعة طلقة الرصاص.

وصلنا إلى أوزاكا، نزلنا فى محطة القطار، كان من المفروض أن يكون السائق فى انتظارنا، وهو السائق الذى تم الاتفاق معه بمعرفة الشركة التى تولت التنسيق للرحلة، والتعليمات المكتوبة التى كانت مع كريمة تنص على أن هذا السائق سيقف فى موقف السيارات الكائن خلف محطة السكة الحديد. ذلك أن مدخل أى محطة عبارة عن مساحة من البهجة والخضرة والتماثيل واللوحات. كأنك داخل إلى أضخم وأهم وأفخم قصر فى البلاد كلها، وأن السائق سيقف رافعا لافتة على ورق أبيض ومكتوب عليها «مؤسسة اليابان» باليابانية والإنجليزية، وتلك هى وسيلة التعارف.

التعليمات تقول إن هذه السيارة ستكون من ماركة تويوتا وأن لونها أسود، كانت كل السيارات الواقفة سوداء اللون وجميعها من صنع اليابان، وأشكالها متقاربة. ولكن لم يكن هناك السائق الذى يرفع اللافتة المتفق عليها، كان هناك سائقون يرفعون لافتات أخرى، مكتوبًا عليها عبارات غير اسم مؤسسة اليابان التى تستضيفنى. قلت لكريمة. لابد وأن السائقين هنا يعرفون بعضهم البعض، ويمكن أن نسأل أى سائق عن سائقنا، ومن المؤكد أنه يعرف أخباره، ربما كانت هذه السيارات كلها تتبع مؤسسة واحدة. وعلى فكرة المؤسسات فى اليابان ـ مثل الشركات تماما ـ أهم من الأفراد وأسماء العائلات. إنها الكيان الحقيقى الذى ينتمى إليه الذين يعملون فى هذه المؤسسة، وهى مصدر فخرهم الرئيسى والبلد كلها عبارة عن مجموعة من المؤسسات.

رفضت كريمة أن تأخذ باقتراحى. قالت إن الأوامر هى الأوامر، وإن السائق لابد وأن يكون موجودا. وأنها ستعطيه دقيقة واحدة انتظار من الآن وإلا ستتصرف فورا. تصورت

أن ما تقوله كريمة لا يعدو أن يكون نوعا من المبالغة، وتصورت لحظتها أن الانضباط الياباني والدقة والتنظيم هي أمور موجودة في العاصمة فقط. وأنه خارج طوكيو من الممكن أن يحدث أي شيء وكل شيء. هذا التفكير الشمولي يعود إلى أننا نعيش في وطن تلخصه العاصمة، بل إن القاهرة اسمها عند العامة مصر، وكأن المدينة هي البلد بكل ما فيها.

لم يكن ما قالته كريمة نوعا من التهويش أو الاستعراض أو محاولة التباهي بنوع من النظام لا وجود له في أرض الواقع سوى في اليابان، ما أن انتهت من كلامها حتى بدأت تنظر في ساعة يدها - لابد وأنها يابانية الصنع - وما أن أكمل عقرب الثواني دورته الكاملة حتى ذهبت إلى تليفون عمومي قريب. وهذه التليفونات موجودة في كل مكان من اليابان. في الشوارع والميادين وعلى النواصي وفي الحارات ومحطات السكك الحديد والمطارات، وليس المهم كثرتها، ولكن الأكثر أهمية أنها تعمل ربما أفضل من التليفونات التي فوق المكاتب أو في البيوت.

ومن هذا التليفون يمكنك أن تتصل بأي مكان في العالم. المهم أن يكون معك الكارت الممغنط، وهذا الكارت عجيبة أخرى، وهو كارت تشتريه وبقدر ثمنه الذي تدفعه يمكنك الاتصال، وكلما أجريت مكالمة داخلية أو مع مدينة أخرى أو خارجية. حتى يخصم بشكل آلي من الكارت قيمة هذه المكالمة وعندما تنتهي المكالمات يكون عليك شراء كارت آخر سواه.

إن محفظة الياباني لا توجد فيها نقود، وإن وجدت فهي أقل من القليل، ولكن المحفظة عبارة عن مجموعة من الكروت، لها استخدامات مختلفة ومتعددة، وكل أمور الحياة تسيرها هذه الكروت السحرية العجيبة، ابتداء من دخول النادي إلى صرف الأموال من البنوك إلى العلاج في المستشفى كله بالكروت، كروت ممغنطة ضد التزوير وضد استخدام الغير لها.

أخرجت كريمة كارتها، وهنا يمكن القول إن شعار كارت لكل مواطن دقيق ولكن حسب قدرته المالية وليس حسب احتياجاته. وضعت كريمة الكارت في التليفون، واتصلت بمؤسسة اليابان في طوكيو وأخبرتهم بالنبأ الخطير، السائق تأخر دقيقتين حتى الآن عن موعده، قالوا لها إنهم سيقومون بعمل اللازم فورا.

اتصلت مؤسسة اليابان بالشركة التي أجّرت التاكسي، والشركة اتصلت بدورها بالمكتب التابع لها في أوزاكا، والمكتب اتصل بالتاكسي، وكل تاكسي فيه تليفون. ولا

تتعجب من هذا ولن أضع علامة استفهام وتعجب فى آخر الجملة لأننى مررت بهذا على الطبيعة، ولو حكاه لى أحد ما صدقت ولو حلف لى على المياه تصير ثلجًا.

اتضح من هذه الاتصالات التى لم تستغرق دقائق، أن التاكسى واقف فى مكانه قبل وصول القطار بدقائق. وكل الخطأ الذى وقع فيه السائق إنه بدلا من أن يرفع اللافتة فى يده، وضعها فوق تابلوه السيارة، وتحت زجاجها مباشرة.

قلت لها أزمة تفوت ولا حد يموت. حاولت أن أتضاحك ولكن كريمة كانت غاضبة، كأن جزءا من الكون قد اهتز، وقالت لى إن تحقيقا سيجرى لتحديد المسئول عن الخطأ فى وضع اللافتة على التابلوه بدلا من رفعها بيديه إلى مكان بارز ومعروف.

لن أصدع رأسك وأحكى لك عن ملايين الملايين من حالات الإهمال القاتل التى نتعرض لها فى بلادنا. إهمال من النوع القاتل، ولا نعرف من الذى فعله فى كل مرة، فهذا كلام لم يعد له مبرر أبدا. كان ما يزال أمامنا نصف ساعة قبل أن نتحرك لموعدنا مع رئيس جامعة أوزاكا. عدنا إلى المحطة بعد أن وضعنا حقائبنا فى شنطة السيارة. جلسنا على بوفيه المحطة أو قل مطعم المحطة الفاخر.

عندما كنا نجلس على البوفيه، كان الركاب الحاضرون إلى أوزاكا والمسافرون منها، يقومون بعملية الشراء لكل ما يطلبونه من المحطة بطوابقها المتعددة، ومحلاتها الكثيرة. كانت المحطة سوقا كاملة. فى هذا اختصار للجهد الإنسانى، فالإنسان يحضر إلى المحطة من أجل أن يسافر. ثم يذهب إلى السوق بعد ذلك للتسوق، فما المانع من أن يقوم بالمهمتين فى وقت واحد؟ ومكان واحد؟ هل هناك توفير للوقت أكثر من هذا؟

فى محطاتنا - ولابد وأن أجرى هذه المقارنة دون إرادة منى بل ربما كان هذا غصبا عنى - لا نجد سوى الذين يمسحون الأحذية وباعة الجرائد والذين يسرحون بالسميط والجبنة الرومى وباعة اللب والسودانى، وإن كان هناك بوفيه فى محطات عواصم المحافظات، فإن وجدت فيه قهوة علاوة على الشاى، فلابد وأنك رأيت ليلة القدر.

جامعة بدون أبواب ولا أسوار

ركبنا التاكسى واتجهنا إلى جامعة أوزاكا مباشرة بدلا من الذهاب إلى الفندق، أولا لأن الحجز مؤكد، وثانيا لأن الحقائب الصغيرة التى معنا يمكن الاحتفاظ بها فى شنطة السيارة.

وأوزاكا هى المدينة الثانية فى اليابان، مثل الإسكندرية إن قورنت بالقاهرة، وهى أيضا ميناء ضخم، وإن كانت هى المدينة الأولى تجاريا وصناعيا يعيش فيها حوالى سبعة ملايين نسمة، ويقولون إنها العاصمة المالية لليابان فى حين أن طوكيو هى العاصمة السياسية.

ثمة فروق بين طوكيو وأوزاكا. المساحات هنا أكثر اتساعا من طوكيو. شعرت بذلك من شكل الشوارع والأماكن، ومن استقبال الفندق الذى نزلت فيه فى أوزاكا، وردهاته والغرفة التى سكنت فيها كانت أوسع ألف مرة من غرفة فندق طوكيو. وكان الفندق اسمه «رويال هوتيل». والأسعار هنا بصفة عامة أرخص من طوكيو، ولأوزاكا صحف تصدر فيها، وكل مدينة لها صحفها المحلية التى تصدر فيها وكذلك الراديو الخاص بها، والتليفزيون الذى يرسل مواده لها، والصحف هنا أقل من طوكيو كثيراً.

وفى المطعم الذى فى المحطة كنت قد تناولت غذائى. كان عبارة عن ساندوتشات جبنة وبيض، خوفا من لحم الخنزير، ولكن كريمة لم تكن تعانى من هذه المشكلة مثلى. والسندوتشات توضع بين شريحتين من خبز التوست، وأحيانا أكثر من شريحتين. ثم شربت كوب شاى وكان الحساب ٥٠٠ ين. طول الرحلة.. كنت أنا وكريمة نأكل معا.. ولكنها تدفع حسابها، وأدفع حسابى. وهى تحصل على إيصال بكل ما تدفعه؛ لأنها ستحاسب مؤسسة اليابان على كل ين دفعته. وقد رفضت بشكل قاطع وحاسم ولا يقبل النقاش أن أدعوها على الغذاء، ولم تقم هى بدعوتى أبدا.

يبدو أن كريمة يابانية أكثر من اليابانيين أنفسهم، وبعد أن دفعت الـ٥٠٠ ين. يعنى ما يوازى خمسة دولارات، طلبت البائعة خمسة وعشرين ينا ضريبة مقررة على هذا المبلغ. ثم أعادت المبلغ بعد قليل معتذرة وقالت إن الـ٥٠٠ ين تتضمن الضريبة المقررة فيها.

لفت نظرى أنه لا أحد يدفع بقشيشًا، والبائعة نفسها لا تنتظر البقشيش ولا تقوم بأى تماحيك انتظارا له، مثل فرك اليدين. ولا تقول «بالهنا والشفا» و«مطرح ما يسرى يمرى» باليابانية طبعا. أو «المحلسة» وهى تقول: «أى خدمة يابيه» وهذا لا يعنى ميزة فيها ولا عيبا فى العاملين عندنا، لا بد وأنها تحصل على مرتب كبير يكفيها.

ثم إن معظم الذين يعملون عندنا فى المطاعم والمقاهى والكازينوهات لا يحصلون على أى أجر. وعملهم يتم مقابل البقشيش فقط. المشكلة هى فى طبيعة هذا المجتمع. فى جوهر التركيب الاجتماعى نفسه وليس فى الأفراد.

كنا فى جامعة أوزاكا قبل الموعد المحدد، وفى أوزاكا جامعتان. واحدة حكومية. وهى

التى ذهبت إليها، والأخرى خاصة أقامتها الجمعية البوذية فى اليابان. وفى الجامعة حوالى ٤٥٠٠ طالب «لا يقولون: وطالبة؛ لأن ذلك مفهوم طبعا» وقد رأيت الشوارع المؤدية إلى الجامعة. وفيها عدد كبير من الدراجات، وعدد أقل من الموتوسيكلات الصغيرة. لم تكن هناك سيارة واحدة تقف أمام الجامعة، والشوارع حول الجامعة مصممة لوقوف العجلات، والخطوط البيضاء تحدد لكل عجلة مكانها.

وهذا على عكس الجامعات عندنا. حيث نجد أن مدخل الجامعة ـ خاصة جامعات القاهرة وعين شمس والإسكندرية ـ عبارة عن غابة من السيارات الحديثة والجميلة والتى تعد من آخر الموديلات، والمفارقة تأتى من كون أن التعليم فى مصر مجانى «وأنا على فكرة مع هذه المجانية ولا أغمز ولا ألمز لها». ولكن فى اليابان فإن التعليم من الحضانة حتى الإعدادى إجبارى ومجانى. وبعد ذلك فإن التعليم بالفلوس، وهى مصاريف باهظة وضخمة وأرقامها فلكية، ومع هذا فإن مصاريف الجامعة الحكومية تبدو نصف مصاريف الجامعة الأهلية. سألنا عن رئيس الجامعة، ومع هذا كان من الصعب العثور على مكتبه. السعاة والفراشين لا وجود لهم. هذه الوظائف انقرضت فى اليابان، وعجلة العمل تتم وتدور بصورة طبيعية، بدونها. ويبدو أن هذه الوظائف لا تؤدى أعمالا حقيقية.

كان هناك حارس فى مدخل الجامعة يقف أمام كشك صغير، وليس هناك باب أصلا. أشار إلى مدخل الجامعة وتركنا. بعد أن صعدنا مبنى ثم نزلنا، ودخلنا بناية وخرجنا منها، وذهبنا إلى ثالثة، وأخيرا تمكننا من الوصول إلى مكتب الرجل الذى من المفروض أنه رئيس هذه الجامعة كلها، وهو مسئول له شنة ورنة فى مصر، وحتى قوالب الطوب التى أمام الجامعة فى مصر تعرفه جيدا.

والطلبة الذين سألناهم عنه يبدون لنا غير مهتمين بحكاية هذا المسئول ولا يعرفون مكتبه، ومن يريد أن يعرف مكان أستاذ فى الجامعة عليه أن يعرف أولا رقم الغرفة التى يستخدمها كمكتب، وهذا هو الدليل الأساسى الذى يمكن من خلاله الوصول إليه.

كان مكتب رئيس الجامعة عاديا. لا يوجد أمامه طابور من السعاة والفراشين وكدابى الزفة. ولا توجد أى إشارة تقول إن هذا مكتب رئيس الجامعة، أعلى سلطة فى المكان كله. كانت هناك سكرتيرة واحدة ووحيدة. شابة وصغيرة، انحنت لنا بالطريقة اليابانية الخالدة؛ كأنها تتحرك فوق «زمبلك» والمكتب الذى جلسنا فيه يفصله عن مكتب رئيس الجامعة صالون صغير وعادى. شكله يقول إنه لا يستخدم إلا فى الحالات النادرة عندما

يحضر ضيوف من خارج البلاد. جلسنا فى الصالون، ثم دخل علينا رجل بسيط. سلَّم علينا. سألته عن المستر أكيدا رئيس الجامعة. فقال لى إنه هو رئيس الجامعة. عندما دخل علينا تصورت أنه مدير مكتب رئيس الجامعة، مادامت التى استقبلتنا هى السكرتيرة. جلس معنا فى الصالون وكان مكتبه شديد البساطة. رحب بنا بلغة عربية سهلة وسليمة، لهجتها تقول لك إن صاحبها تعلمها فى مصر دون سواها من البلدان العربية.

أتت السكرتيرة ومعها القهوة، وكأنها مشروب إجبارى وبعدها شاى أخضر، ولكن تجرأت هذه المرة وطلبت شايا أحمر، وفى منتصف اللقاء قدموا لنا الجاتوه، وقد عددْتُ هذه أكبر لمسة كرم قدمت لى فى اليابان منذ حضورى إليها، ويبدو أن السبب فى ذلك أن الرجل قضى فترة من عمره فى مصر أم الدنيا، ومع الجاتوه كان هناك شاى أحمر آخر، فاعتبرت أن هذا إكراما لى، أكبر من كرم حاتم الطائى ذات نفسه الذى يتحدثون عنه فى الأدب العربى بصورة تقترب من الأساطير.

عرفت أن رئيس الجامعة يحضر إلى مكتبه فى الثامنة صباحًا، وينصرف إلى منزله فى الخامسة بعد الظهر، وإن ذهب إلى البيت مبكراً فى بعض الأيام يكون ذلك فى الرابعة والنصف بعد الظهر، وأنه يتناول وجبة الغذاء مع الطلاب هنا ويقف فى الطابور مثلهم. من أجل أن يحصل على وجبته، ولا يجرؤ أن يطلب من سكرتيرته أن تذهب بدلا منه من أجل الحصول على وجبة له، لأنها تحصل على وجبة لها.

والسكرتيرة هنا من أجل العمل العام فقط وليست لخدمته الشخصية، ولدى رئيس الجامعة سيارة من الجامعة يحضر بها من بيته إلى الجامعة فى الثامنة صباحًا، ويعود بها فى الخامسة بعد الظهر. وإن تأخر عن هذا الموعد فإن سائق السيارة يتركه ويذهب لأن له مواعيد لابد من احترامها. هذه المواعيد صارمة وغير قابلة للتعديل والتبديل. والسائق موظف عمومى مرتبه مثل مرتب رئيس الجامعة، لأن الأجور مرتبطة بسنوات الخدمة.

وعندما لا تكون سيارة الجامعة فإنه لا يستطيع ركوب أتوبيس الجامعة؛ لأن هذا مخالف للوائح والمخالفة هنا يمكن أن تؤدى إلى السجن، والخطأ يجعل هيبة المنصب تتآكل. والذى أثار دهشتى إنه غير مسموح له الحضور إلى الجامعة بسيارته الخاصة، لأن هذه السيارة الخاصة تستخدم فى الأمور الشخصية فقط.

وفى حالة تعطل سيارته الرسمية لأى سبب من الأسباب. فإن إدارة الجامعة التى هو رئيسها الأعلى تصرف له بونات يركب بموجبها تاكسيا فى الحضور إلى الجامعة والعودة

منها إلى المنزل فقط. وكل التاكسيات محدد لها خط سير. وهى جميعها تابعة لشركات كبرى عملاقة ولا تعرف اليابان التاكسى الفردى الذى يملكه صاحبه. أو التاكسى الذى يملكه إنسان ويحضر سائقا لكى يعمل عليه لحسابه.

الطالب فى هذه الجامعة الحكومية يدفع حوالى ستة آلاف دولار فى السنة، وإيجار غرفته فى المدينة الجامعية هو ٧٠٠ ين فى الشهر. وهذا الرقم يرتفع إلى الضعف وأكثر فى الجامعات الأهلية، ولكن فى الكليات العملية تصل المصروفات إلى ٦٠ ألف دولار فى السنة؛ هذا فى الجامعات الخاصة، وثلث هذا المبلغ فى الجامعات الحكومية؛ لأن الدراسة العملية تكلف كثيراً بسبب الأدوات والأجهزة.

ـ تسـعة ـ

ظهور شهرزاد فى اليابان

بقايا اليوم الثالث..

والمستر أكيدا رئيس جامعة أوزاكا للدراسات الأجنبية عمل أستاذا زئرا للأدب العربى فى جامعة القاهرة مرتين، وآخر ما ترجمه من الأدب العربى إلى اللغة اليابانية كان ألف ليلة وليلة. التى بدأ ترجمتها الأستاذ مايا جيما فى جامعة كيو فى طوكيو وقد ترجم هذا الأستاذ نصف الليالى ثم توفى. سألت عن سنة وفاة الأستاذ، ففتح أكيدا كتابا أمامه وقرأ منه وقال لى إنه توفى سنة ١٩٨٣، وبدأ أكيدا إكمال الترجمة سنة ١٩٨٥.

كان معنا فى هذا اللقاء الدكتور عبدالمنعم تليمة، وقد قال لى الكثير عن قصة الاهتمام اليابانى بالأدب العربى. حيث أكد أن الدكتور أكيدا من رواد الجيل الجديد فى الدراسات الاستشراقية. الجيل الأول اعتمد على الدراسات الغربية؛ أى أنهم من خلال أوروبا عرفوا العرب. وإن كان البعض منهم خاصة الأساتذة الثلاثة: إيزتو وبان وفوجى موتو. يعتبرون من الرواد الأوائل، الذين بذلوا جهودا خاصة فى الاتصال بالمصادر الإسلامية والعربية مباشرة وبعيداعن أى وسطاء.

على أياديهم تمت الترجمة الأكثر شهرة للقرآن الكريم إلى اليابانية، وقد صدرت للقرآن فى اليابانية ثلاث ترجمات أشهرها وأدقها هى هذه الترجمة، ثم برز جيل ثان فى مقدمته ثلاثة أساتذة هم: أكيدا. وايتاجاكى ويورى موتو.

يكمل الدكتور تليمة أن ايتاجاكى أستاذ التاريخ العربى القديم والشئون العربية الحديثة. ومورى موتو راعى أكبر معبد بوذى فى العالم الآن، ومقره إقليم نارا وهو الذى ترجم مقدمة ابن خلدون من العربية إلى اليابانية.

ويعد أكيدا رائد هذا الجيل فى مجال الدراسات الأدبية واللغوية وله مجموعة هائلة من النصوص العربية التى نقلها إلى اليابانية فقد ترجم شجرة البؤس لطه حسين، وشارك فى ترجمة القرآن الكريم، وأكمل ترجمة ألف ليلة وليلة، ورواية الكرنك لنجيب محفوظ وأشرف على ترجمة ثلاثية بين القصرين التى ترجمها الأستاذ هاناوا، وترجم كتاب «الاعتبار» لأسامة بن منقذ ورحلة ابن جبير وأجزاء من مروج الذهب للمسعودى.

وشارك أكيدا فى إنشاء قسم جديد للغة العربية فى الجامعة البوذية فى أوزاكا، وشارك فى تأسيس قسم اللغة اليابانية فى كلية الآداب بجامعة القاهرة. والعاملون فى ميادين الدراسات الأدبية واللغوية فى جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية قسم الدراسات العربية من تلاميذه المباشرين. أكيدا لم يكتف بالترجمة من بعيد ولكنه خلال وجوده فى مصر زار والتقى بنجيب محفوظ وتوفيق الحكيم ويوسف إدريس، وعندما كان يزور الوطن العربى تعرف على أدونيس.

يقول أكيدا عن تجربته مع ألف ليلة وليلة:

ـ الدكتور ماياجيما ترجم حوالى نصف الليالى، ثم توفى سنة ١٩٨٣ وبدأت فى إكمال ترجمته سنة ١٩٨٥. وانتهيت منها بعد ثمانى سنوات من العمل المتواصل؛ لأن الأمر لم يتوقف عند الترجمة فقط، ولكنى قدمت الترجمة بمقدمة طويلة تطرح نظرة جديدة لليالى. فإن كان الغرب يهتم بالجنس المباشر، فإننى أرى أن استخدام الجنس فى الليالى كان هدفه وضع المثال العربى الأخلاقى والفكرى من خلال الحكايات. لقد كان الهدف إبراز انتصار الخير والحق والعدل، حتى لو كانت الليالى قد توسلت إلى هذا المعنى بالجنس وغيره من الأسس والوسائل.

ـ على أى الطبعات من الليالى اعتمدت فى هذه الترجمة؟!

ـ على طبعة كلكتا بالهند التى صدرت فى القرن الماضى. وهى أكمل من طبعة ألف ليلة وليلة الصادرة فى مصر عن مطبعة بولاق فى أوائل هذا القرن. فى طبعة بولاق نقص. وإن كان من المؤكد أن بعض الليالى لابد وأن تكون مصرية.

ـ هل يمكن القول إن ترجمة الليالى إلى اليابانية قد أثرت فى القص والحكى فى اليابان؟!

ـ التأثير الجوهرى فى كتابة القصة اليابانية يعود إلى مؤثرات غربية، دانييل ديفو الذى يرجع إلى القرن الثامن عشر. وشخصية روبنسون كروزو. الغريب أن اللاتى تأثرن بهذا

كن من النساء اليابانيات، ومعظم القصص اللاتى كتبنها تنتمى إلى القرن التاسع عشر وهى قصص بوذية.

وهذه الأعمال ليست قصصية بالمعنى الدقيق، وليست ملحمية بالشكل الإغريقى، وفى الوقت نفسه هناك تأثر بقصص جاءت من الصين. ولا تنس أن اليابان جزء من الدائرة الحضارية الصينية القديمة، لقد أخذنا عنهم اللغة والأطعمة والملابس والتقاليد البوذية والكونفوشوسية. كل هذا جاء إلينا عبر الصين وكان محاطا بقصص شعبى وأساطير. والسيدات اليابانيات فى العصور الوسطى هن اللاتى حملن عبء الكتابة ولكن على شكل يوميات ومذكرات. وهى لهذا أقرب إلى الليالى.

ـ كيف كان استقبال الليالى فى اليابان؟!

ـ الليالى صدرت عن دار «هيبون» وهى من شركات النشر الكبرى فى اليابان، وقد صدرت فى ١٨ مجلداً، والطبعة الأولى كانت ٢٠ ألف نسخة، وقد نفدت طبعتان أخريان من الليالى فى فترة قصيرة جدا. والاستقبال يكاد أن يكون شعبيا. محطة ان. كى. اتش. وهى من المحطات التليفزيونية المهمة فى اليابان. أجرت لقاء مطولا معى حول الليالى، وقدموا خلال الحوار بعض المشاهد من ألف ليلة وليلة. وأقيمت ليلة على أكبر مسارح اليابان، وقامت كاتبة من أشهر كاتبات اليابان بتقديم شهرزاد على المسرح. بالتحديد على أكبر مسارح اليابان وكان ذلك فى الصيف الماضى.

ولكن كل الاهتمام لا يتوقف عند حدود الأدب العربى القديم ـ يكمل الدكتور تليمة ـ فتلاميذ أكيدا يهتمون بترجمات اللغات العربية الدارجة والأدب الشعبى، وهم الأساتذة: فوكاهارا رئيس القسم وتاكى شفيا وفوجى ومورى كاكا، وكانت رسالتها للماجستير عن قنديل أم هاشم ليحيى حقى وفوكاهارا مهتم بكتاب هز القحوف فى شرح قصيدة أبى شادوف.

جريدة جابان تايمز خصصت صفحة كاملة عن نجيب محفوظ بعد حصوله على نوبل. ثم خصصت صفحة عن أهداف سويف بعد صدور روايتها «فى عين الشمس» بالإنجليزية. وثمة كتابات عن صلاح عبدالصبور وأمل دنقل ويوسف إدريس ولكن بعد وفاتهم.

يقول لى الدكتور عبدالمنعم تليمة: من الأعمال الأدبية العربية التى صدرت هنا باليابانية: العطش لحسن محسب. جبل الشاى الأخضر ليحيى الطاهر عبدالله. ستة أيام لحليم بركات. موسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح. أنا أحيا لليلى بعلبكى. رجال

فى الشمس لغسان كنفانى، وقصائد لمحمود درويش وأدونيس، وكتابات لعائشة التيمورية وملك حفنى ناصف. وقد ترجمت ٣ أعمال لنوال السعداوى، وهناك فيلم عن إحدى رواياتها معروض فى اليابان.

وإن كان الاهتمام قليل بالأدب المغربى الحديث وآداب شمال إفريقيا، فإن ثمة كتابات تنشر بين الحين والآخر عن أدب شمال إفريقيا المكتوب بالفرنسية. والعراق ودول الخليج العربى، وشبه الجزيرة العربية لم تترجم لهم إلى اليابانية حتى الآن. سمير أمين وأنور عبدالملك كتبهما على الأرصفة فى اليابان، وفى كل مكان. القوى التقدمبة اليابانية تحترم اليسار العربى وأعمالهما مترجمة إلى اليابانية ومتاحة على شكل كتب شعبية.

أسأل عن الجامعات فى اليابان.

ويتناوب الرد علىّ أكيدا وتليمة:

ـ فى اليابان ما يقرب من ٥٥٠ جامعة منها ٩٥ حكومية، وبعض الجامعات الخاصة ذات وزن أكاديمى، ولا تكاد تخلو جامعة من مادة أو أكثر فى الدراسات الإسلامية والعربية وشئون الشرق الأوسط. لكن هناك ثلاثة أقسام متخصصة فى الدراسات الإسلامية والعربية، واحدة حكومية فى طوكيو وجامعة أوزاكا وجامعة أخرى هنا فى أوزاكا. ويمكن القول إن نسبة العلماء المتخصصين فى الدراسات العربية والإسلامية فى اليابان هى بمقياس عدد الطلاب كبيرة جدا. نحن هنا فى أوزاكا. نقبل فى حدود أربعة شباب كل سنة ولكن العدد فى طوكيو أكبر بكثير.

والجامعة الثانية فى أوزاكا والتى أقامتها الجمعية البوذية للسلام. زار وفد منها مصر سنة ١٩٨٢ وذلك للتمهيد لإنشاء قسم خاص بدراسات الإسلام واللغة العربية فيها، وقابل الوفد شيخ الأزهر ورئيس جامعة القاهرة، وافتتح هذا القسم فى العام الدراسى ٨٣/ ١٩٨٤.

وعموما لا يوجد فى اليابان كلها الآن أمى واحد. والدكتور عبدالمنعم تليمة عمل فى اليابان من سنة ١٩٧٩ إلى ١٩٨٣، ومن ١٩٨٩ إلى ١٩٩٣.

وأسأل عبدالمنعم تليمة:

ـ أليس هناك احتمال أن يكون ابن بطوطة قد حضر إلى اليابان، ربما لم يدون هذا، أو دونه فى جزء ضاع من كتابه المعروف؟!

ـ ليس هناك أى احتمال لذلك، لقد ذهب إلى سومطرة وجاوة فقط، وفى زمن ابن بطوطة كانت هناك حروب داخلية فى الصين وقد منعته هذه الحروب من إكمال رحلته.

ـ وماذا عن العلاقات بين مصر واليابان؟!

ـ سنة ١٩٢٦ جاء إلى هنا أول قنصل مصرى فى اليابان، وقد تعلم اللغة اليابانية، وظلت تجربة اليابان موضع عنايته حتى عندما أصبح رئيسا لوزراء مصر بعد ذلك. ولكن اليابانيين هم الذين سافروا إلى مصر فى القرن التاسع عشر، كانت هناك بعثة متجهة إلى أوروبا، إلى ألمانيا بالتحديد، وقد مرت هذه البعثة على مصر وذلك لمعرفة أسباب التقدم المصرى فى ستينيات القرن الماضى، وعندما هزم عرابى باشا أمام الإنجليز أرسل اليابانيون بعثة إليه فى سيلان لتسأله: لم انهزمت ياباشا؟ إن نهوض مصر فى القرن التاسع عشر دفعهم إلى محاولة استلهام التجربة المصرية بدلا من التجربة الأوروبية لأن مصر هى الأقرب إليهم من الغرب. إن تجربة محمد على فى مصر كانت مهمة جدا بالنسبة لليابانيين؛ ففى مصر سار القطار الأول فى الشرق وفيها جرى سن الدستور الأول، وتم تشكيل البرلمان الأول.

والإمبراطور العظيم مابيجى بدأ النهوض اليابانى على أسس سياسية ولكنها أسس حديثة. لقد أخذت اليابان فى ذلك الوقت من مصر التعليم الحديث والبرلمان والحقوق والحريات وهى كلها تسمى إصلاحات مايجى التى تعتمد على المحافظة على الروح اليابانية الخالصة، مع الاستفادة من تجارب الأمم المعاصرة.

ـ مسك الختام هو القرآن الكريم. ماذا عن ترجمة معانيه إلى اللغة اليابانية؟!

ـ لقد حظى القرآن الكريم بتقدير عميق من اليابانيين؛ بدليل إعادة ترجمته إلى اللغة اليابانية أكثر من مرة، وذلك اعتمادا على تفاسير مشهورة للقرآن فى مقدمتها تفسير الطبرى وتفسير الجلالين. ومنذ ٨٠ سنة صدرت أول ترجمة للقرآن الكريم، ولكن هذه الترجمة كانت عن لغات أوروبية، وأول ترجمة عن أصل عربى هى ترجمة الأستاذ إيزسوتس. لكن صدرت ترجمة فى اليابان عن طريق المملكة العربية السعودية من خلال جمعية مسلمى اليابان، وهناك ترجمة أخرى صادرة من اتحاد المسلمين فى اليابان وهو اتحاد ترعاه الجماهيرية الليبية.

ومهما تعددت الترجمات، فإن الترجمة الرائدة عن العربية هى التى أعدها الأستاذ توشيهيكو إيزوتس عام ١٩٥٧، فقد كان عليه أن يجد التعابير اليابانية الملائمة

للمصطلحات القرآنية، وقد استفاد من جهود أساتذة جامعة أوزاكا للدراسات الأجنبية الذين أعادوا ترجمة القرآن من العربية سنة ١٩٧٠، وقد شارك فى هذه الترجمة المستر أكيدا ومعه فوجيمو تودبان.

وقد صدرت الترجمة فى سلسلة الكتب العظيمة فى العالم، وحظى بتقدير عظيم من اليابانيين، وذلك بدليل إعادة طبعه أكثر من مرة، وهناك تفاسير للقرآن تصدر عن وجهة نظر شيعية أو فلسفية وفى مقدمتها تفسير الطبرى وتفسير الجلالين.

نهـــاية الفصـــحى

ونحن نتجول فى جامعة أوزاكا - د. عبدالمنعم تليمة وأنا - التقينا مع أستاذ قال لى عنه تليمة إنه الأستاذ تاى شينا، وقال إنه يدرس موضوعًا يعد من الموضوعات المهمة بالنسبة لى؛ ألا وهو جدل الفصحى والعامية فى لغة العرب منذ قديم الزمان وحتى وقتنا الراهن.

ونحن فى الطريق إلى مكتب تليمة للحديث حول هذا الموضوع تساءلت: لماذا لا ينادى الباحث الذى معنا بلقب دكتور؟ قال لى: عندما نجلس سوف نتكلم. قال لى عبدالمنعم تليمة - بدون الدال نقطة - على سبيل الإيضاح ومن أجل العثور على بداية الكلام:

- اليابان لم تكن بعيدة عن قضية الفصحى والعامية. الآن يوجد اهتمام خاص باللغات الدارجة العربية ولدينا فى أوزاكا فوكوهارا وهو رئيس القسم ومعه تاكاشينا ونوجى والأستاذة مورى تاكا. على أن قضية ثنائية اللغة العربية تعبرعن نفسها باعتبارها مشكلة على صعيد آخر تمامًا.

فإن كان الطالب اليابانى الذى يدرس العربية من أجل أن يعمل فى السلك الدبلوماسى؛ فإنه يدرس الفصحى. وهذا ينطبق على من يعمل فى الصحافة أو التدريس. أما إن كان الطالب يعد نفسه من أجل العمل لدى بعض الشركات التى تعمل فى الشرق الأوسط، فإنه يدرس العاميات العربية. وإن كان الطالب - فى هذه الحالة - يجد صعوبة فى فهم المجاز والاستعارة والجناس والتشبيه فى اللغة. تاكاشينا درس اللغات القديمة فى المنطقة: العبرى، السوريانى، العربى، وهذا قاده إلى اللهجات العربية الحديثة.

قلت للدكتور تليمة :

ـ ألاحظ أنك تذكر أساتذة الجامعات دون ذكر لقب دكتور . أين الدال نقطة اليابانية؟!

ـ استخدام لقب دكتور فى اليابان مختلف عن أوروبا وبالتالى عن العالم العربى . الدكتوراه هنا تعنى فقيه أو مفتى . الذى يحصل على الدكتوراه لابد وأن يقضى عمره كله فى هذا الفرع من الدراسة . التقاليد العلمية فى الجامعات فى منتهى الصرامة ، إن منح درجة الدكتوراه يعتمد أساسا على النتاج العلمى وليس على الرسالة العلمية التى تقدم من أجل الحصول على اللقب العلمى .

فى السنوات الأخيرة يوجد عدد كبير من الطلاب الذين يدرسون فى اليابان ولا يحصلون على أى شهادة ، ولكن نتيجة شكاواهم للحكومة اليابانية ، قررت الجامعات أن تصدر لبعض الطلاب هذه الشهادات ، وذلك بهدف الاستخدام خارج اليابان فقط ، وتكون فى العموميات وليست فى التخصص العلمى .

ويتحدث الدكتور تاكاشينا عن مشروعه :

ـ أنا متخصص فى تاريخ اللغة العربية ليست الفصحى فقط ، كل اللهجات التى تكلمها العرب ولو لمرة واحدة فى التاريخ . إن الباحثين فى هذا المجال يبدءون من أشعار الجاهلية ، ولكن هذا خطأ ؛ فمن المؤكد أن العرب الأوائل كانوا موجودين منذ بداية التاريخ المدون . فى شبه الجزيرة العربية نقوش ، والذين رسموها هم الذين سكنوا هناك . لقد جرى العرف فى العصر الحديث بين المستشرقين ومن تأثر بهم من أساتذة العصر الجاهلى ، على أن هذا العصر يمتد مائتين سنة قبل الإسلام ، وإن كنت أختلف مع هذا التصور .

وأقول إن العرب هم كل الذين استخدموا اللغات بين الرافدين وشبه جزيرة العرب ، ولذلك فإن عمر هذه التجربة لا يقل عن ثلاثة آلاف سنة قبل الإسلام ، كانت هناك الآشورية والكلدانية . هناك عرب يسمون «عريبى» وهذا ما جاء فى النقوش القديمة .

هل تعرف أن الحجاز ربما جاءت تسميته من كلمة الهكسوس عندما خرجوا من مصر وأسسوا الحياة فى شبه الجزيرة العربية ، هناك العرب العاربة والمستعربة ، إن هذه المصطلحات عند ذكريات العرب والتاريخ الأسطورى للعرب ، وفى هذه الأساطير كل العناصر التاريخية ، وهى برهان للتاريخ القديم والطويل لمراحل ما قبل الإسلام عند العرب الذين عاشوا فى شبه الجزيرة العربية حياة طويلة .

ـ ولكن من يتابع تاريخ الإسلام لا بد وأن يعرف أن انتشار الإسلام ساعد أيضًا على انتشار العربية السليمة!

ـ إن من يقرأ ضحى الإسلام يدرك أن اللغة العربية الفصحى نشأت مع القبائل ولكنها ظلت فى دوائر ضيقة، ولكن بعد مجىء الإسلام وانتشاره، فإن هذا أدى إلى نشأة اللغة الفصحى. وإن كان فى نفس الوقت قد نشأت لغتان من الفصحى، الأولى: الفصحى التى ينطق بها العرب الذين آمنوا بالإسلام. والثانية: اللغة العربية لغير الناطقين باللغة العربية مثل الفرس والمغاربة، وفى الأندلس اللغة العربية لعبت دورًا مهما فى تفهم الثقافة العربية والإسلامية لغير الناطقين باللغة العربية علاوة على الناطقين بها بدرجة أكبر.

إنها تسمى الفصحى وفيها قواعد ونحو سيبويه؛ صاحب أول محاولة لوضع قواعد اللغة العربية، مع أنه فارسى الأصل والمنشأ، وسؤالى هو: لماذا لم يقم بهذا الدور أى عالم عربى؟ لقد نشأت مشكلة وضع قواعد اللغة العربية عندما دخل غير العرب فى الإسلام؛ لأن حاجة غير المسلمين إلى تعلم اللغة العربية كانت هى السبب فى هذا البحث المهم. ألم يُقل إن الحاجة هى أم الاختراع؟! واللغة العربية الفصحى وصلت بالثقافة العربية والإسلامية إلى كل الجهات التى كان من المفروض أن تصل إليها. إنها هى التى حملت الثقافة العربية إلى كل أنحاء العالم.

ـ وكانت هناك ضرورات لتعلم قواعد اللغة العربية فى داخل الأمة العربية؟

ـ عند العرب لم تكن هناك مشكلة، ولم تكن توجد ضرورة لتعلم قواعد اللغة العربية؛ ذلك أن العرب كانوا يتكلمون اللغة العربية بالفطرة والغريزة ونتيجة لتميز الحياة مع التطور البطىء فى بعض البلدان العربية بدأت اللهجات فى الانتشار تدريجيا. المصرية أولا، والشامية ثانيا ثم العراقية.

إن كل هذه المناطق تنتمى إلى العالم الإسلامى. وإن كانت العربية الفصحى حملت الدين والقرآن، فإن اللهجات المحلية استخدمت لتلبية مطالب الحياة اليومية عند الناس العاديين. تلك إذن هى ظلال التاريخ الطويل للعرب، لقد استخدموا لغتين: الأولى فصحى للحياة الرسمية والثقافية، واللهجات العامية التى استخدمت فى الحياة اليومية من أجل قضاء الحاجات فى الأسواق. إن هذا يعنى أن اللهجة لعبت دورًا مهما فى حياة العرب؛ ولذلك فإن من يدرس العربية لابد وأن يبحث اللهجات المختلفة وأيضا قواعد اختلاف اللهجات من مكان لآخر فى الدول العربية.

ـ ولكن العاميات ليست لغات، ولكنها مجرد لهجات من لغة أم؟

ـ اختلف معك على طول الخط، العامية فى أى مكان من العالم العربى هى بمثابة لغة كاملة متكاملة. هناك لغة مصرية ولغة عراقية وهى لغة مستقلة، والفصحى تستمد وجودها من أن القرآن نزل بها. إنها لغة دينية؛ أى من كونها لغة قومية يتكلم بها قوم من البشر، ووجودها مرتبط بالدين، ودهشتى تأتى من أن قداسة الدين لم تصل إليها، ولم تعامل على هذا الأساس. إن القرآن الكريم فيه من ١٧ لغة، لقد نزل بلسان عربى مبين، ولكنه تمثل اللهجات العربية القديمة.

ـ وكيف ترى مستقبل التطور اللغوى؟!

ـ بعد سنوات قد تطول. لا بد وأن يتطور الأمر. أتصور أن الفصحى ستكون بمثابة اللاتينية فى الدول الأوروبية، والعاميات ستكون هى اللغات فى الدول المختلفة، مثل الإيطالية والفرنسية والإنجليزية. ليس معنى هذا أن تصورى من الممكن أن يتم فى القريب العاجل، لابد أن تمر سنوات طويلة قد تصل إلى قرون قبل أن نصل، أقصد تصلون إلى مثل هذه الحالة.

طه حسين ونجيب محفوظ وصلاح أبو سيف وشادى عبدالسلام وآخرين

وهكذا ألهانى موضوع العامية والفصحى عن وصف مكتب عبدالمنعم تليمة الذى كنا نجلس فيه، والذى حدث أننا بعد أن تركنا مكتب رئيس الجامعة، تجولنا فى الجامعة بعض الوقت، وعندما قابلنا الأستاذ دارس العاميات والفصحى، عدنا إلى مكتب تليمة.

لم أكن فى حاجة إلى أن يدلنى أحد على الغرفة ويقول لى إن هذا هو مكتب عبدالمنعم تليمة. على باب المكتب مكتوب: عبدالمنعم تليمة. أستاذ زائر للغة العربية. وهى مكتوبة باللغة العربية، وفى الأعلى غلاف القرآن الكريم، وتحته كلمة «محمد» بلون أحمر كبير، وكل هذا كنوع من الإعلان عن هوية صاحب هذا المكان.

وما أن فتح عبدالمنعم تليمة الباب حتى وجدنا فى مواجهتنا صورة كبيرة لطه حسين معلقة فى فضاء المدخل. حتى يكون أول ما تقع عليه العين، وفى الداخل صور لنفرتيتى وأبو الهول وإخناتون وكليوباترا، إنه إعلان عن انتماء صاحب هذا المكان دون أن يتكلم

عن نفسه، وحتى من غير تعارف أو مصافحة. ولكن على الطريقة اليابانية التى لا تحب التعبير المباشر عن النفس بالكلمات، وتفضل الرمز والتعبير المغلف بالضباب والفن الجميل.

فى داخل المكتب مكان مسكون بالأدب العربى، الصحف والمجلات والكتب العربية. الغريب أننى وجدت مطبوعات لا تصل إلى مصر، مثلا: مجلات العراق واليمن وشمال إفريقيا وبعض المطبوعات من موريتانيا. معظم الكتب الصادرة فى مصر والوطن العربى، وحتى ما يصدر باللغة العربية فى أماكن أخرى من العالم، والدراسات الخاصة بالأدب العربى فى لغات أخرى من العالم.

كانت هناك جرائد الأهرام والأخبار وأخبار الأدب من مصر، والحياة العربية التى تصدر من لندن، ومن المجلات المصرية: المصور وروز اليوسف، ومن الصحف الحزبية: الوفد والأهالى. عبدالمنعم تليمة يسارى وهو صديق شخصى للباشا فؤاد سراج الدين وقريب من قلبه بدون حدود. ومن الوطن العربى مجلة المجمع العلمى فى دمشق، وأعداد من مجلة الأقلام العراقية، وجريدة الجمهورية العراقية، وبعض هذه المطبوعات لا نراه فى مصر؛ بسبب الخلافات السياسية والتى كثيرا ما أفسدت علينا صفو الحياة وقطعت التواصل الثقافى.

الغرفة متوسطة المساحة، ليست واسعة وأيضا ليست ضيقة، على الجدران الأربعة دواليب كثيرة، من أعلى دواليب مفتوحة تطل منها الكتب، ومن أسفل دواليب مقفلة. تتوسط الغرفة منضدة كبيرة وبجوار النافذة مكتب صغير، والمنضدة الكبيرة تصلح لعقد الاجتماعات. كانت على الأرفف كتب متنوعة، والجديد أنه لو وجدت رواية مثل «بداية ونهاية» المأخوذة عن رواية لنجيب محفوظ، تجد بجوار الفيلم السينمائى النص الروائى، وأيضا الترجمات الصادرة عن نفس الرواية فى لغات العالم المختلفة.

هكذا وجدت دعاء الكروان، الكتاب والفيلم. . والحرام ليوسف إدريس، الرواية والفيلم، والسقا مات ليوسف السباعى، الرواية والفيلم الجميل الذى أخرجه صلاح أبوسيف، ورواية الحرب فى بر مصر لكاتب هذه السطور وبجوارها فيلم المواطن مصرى. كذلك كانت هناك مكتبة فيلمية من الأفلام المصرية والعربية ذات المستوى الجيد مثل أفلام يوسف شاهين وصلاح أبو سيف وشادى عبدالسلام.

فى القاعة كانت هناك حنفية مياه، لم أدر السبب فى وجودها، وأيضا مكان لصنع

الشاى والقهوة، وبهذا تم الاستغناء عن اختراع اسمه البوفيه الذى يكون موجودا فى كل مكان. وذلك بعد الاستغناء عن الاختراع البشرى عندنا، والذى اسمه السعاة والفراشين. والذين لا يؤدون أى عمل سوى تعطيل الأعمال الرسمية، والقيام بأى شغلانه تكون مدفوعة الأجر والقيمة.

شربت فى مكتب عبدالمنعم تليمة وطه حسين وكليوباترا وإخناتون ونجيب محفوظ وصلاح أبو سيف، أقول شربت فى هذا المكتب الشاى المصرى المعتبر والقهوة التركية الأصيلة، والكرَم هنا مصرى من الدرجة الأولى.

عرفت أن عبدالمنعم تليمة يعد كتابا عن فترة وجوده فى اليابان عنوانه المبدئى «البيان فى رحلة اليابان»، ومن المؤكد أن هذا الكتاب سيصبح وثيقة شديدة الأهمية؛ لأن الرجل عايش هذه البلاد سنوات ليست بالقليلة، وفى فترتين زمنيتين ليستا متباعدتين.

قال لى تليمة إنه سيدعونى أنا وكريمة على العشاء. كان يعرف والدها جيدا وللدكتور تليمة ذاكرة عجيبة، أقوى من ذاكرة فلاح مصرى لم يترك القرية لحظة واحدة. قال لكريمة إنه فى سنة ١٩٦٣ كان الدكتور على السمنى والد كريمة يدرس اللغة العربية فى المركز الإسلامى فى طوكيو. والدكتور تليمة هو أول أستاذ زائر للأدب العربى فى الجامعات اليابانية. نعود إلى دعوة تليمة، قال إنه دعا الدكتور أكيدا إلى هذا العشاء، وبعض الأساتذة من زملائه فى الجامعة، وأن هذا العشاء سيكون فى مطعم فى وسط مدينة أوزاكا.

حاولت أن أشكره، وأن أثنيه عن هذا التهور الذى لا يعرف عواقبه إلا الله سبحانه وتعالى؛ فالرجل لا يعمل فى دولة بترولية، ومهما كان مرتبه فإن الحياة هنا أغلى من كل تصور، فالمائة ين لا تكفى لشراءكوب شاى أو قلم جاف أو رغيف خبز صغير جدا، يمكن للإنسان أن يلتهمه فى قضمة واحدة.

عزومة عبدالمنعم تليمة لم تكن عزومة مراكبية، وليست على طريقة «تتعشى ولا تنام خفيف أحسن لك». كما أنها كانت بعيدة عن طريقة الدمايطه فى العزومات. حيث يذهب بك المضيف أنت وحمارك تحت نخلة ومن المؤكد أن مالك النخلة شخص آخر غير صاحب الدعوة، وتبدأ فى تناول البلح الرطب من فوق الأرض، وما أن تبدأ فى نفخ التراب وإبعاد قشر البلح حتى يأخذك إلى بيته فوراً؛ لأن هذا معناه أنك بدأت تشبع وليس هناك خطر من عزومتك فى البيت فى هذه الحالة.

كان عبدالمنعم تليمة قد رتب أموره وحجز فى المطعم الذى كان فى فندق غير الفندق

الذى من المفروض أن نتزل فيه، وقد اكتشفت بعد ذلك أنه أكثر حميمية وإنسانية من الفندق الذى كان مخصصا لنا. المشكلة الوحيدة التى قابلتنا فى ترتيب الدعوة كانت ظروف رئيس الجامعة، فالدعوة كانت بعد الخامسة مساء، أى بعد دوام العمل الرسمى لأنهم لا يمكنهم الانصراف من الجامعة قبل هذا الموعد.

ولكن المشكلة أن رئيس الجامعة من الصعب عليه استخدام سيارة الجامعة بعد هذا الوقت. فكيف سيعود من الفندق إلى البيت مساء؟ فضلا عن أن الذهاب إلى الفندق هو عمل غير رسمى للجامعة، ولا يقوم به باعتباره رئيس الجامعة.

سألت نفسى: هل هذا هو ما يجرى فعلا فى الواقع اليابانى أم أن الأمر الذى يجرى أمامى من الآن فيه قدر من الاستثناء؟! قمنا بحل المشكلة، سنلتقى جميعا فى المطعم، وبعد العشاء نوصل نحن رئيس الجامعة إلى بيته ونحن فى الطريق إلى الفندق الذى سنقضى الليل فيه.

وإن كان رئيس الجامعة رجلا بسيطا فى مكتبه فقد أصبح إنسانا عذبا تصادقه بسهولة فى العشاء. الحسابات التى كنت أجريها فى ذهنى وأنا فى الطريق إلى المطعم عن المبلغ الذى يمكن أن يدفعه عبدالمنعم تليمة فى هذا الغذاء الذى يمكن اعتباره عشاء أيضا، هذه الحسابات دوختنى.

نبهت نفسى ونبهت عبدالمنعم تليمة من أن الأمور يجب أن تكون أكثر من محددة، إلا أن بذخ تليمه ذكرنى بليالى هارون الرشيد فى بغداد، وطوال الجلسة كان بداخلى عداد يعد المبالغ التى يمكن أن يدفعها تليمة.

رئيس الجامعة أصر على أن يدعونى إلى مشروب، شربت أنا وهو الويسكى الفاخر والجميل، وشرب الآخرون مشروبات ما بين الشاى الساخن والبيرة المثلجة، أما كريمة فلم تكن تشرب أى شيء، مع أن الشعب اليابانى الذى تفخر بانتسابها إليه بدون حدود يشرب نصف ما تنتجه البشرية من خمور. خرجنا من الفندق فى التاسعة مساء، ويبدو أنه وقت متأخر جدا فى مثل هذه المدينة البعيدة عن العاصمة.

مما زاد فى سعادتى هذا المساء، والإحساس بالسعادة من الأمور النادرة فى الحياة بالنسبة لى. ضبطت نفسى سعيدا، فقد كانت الدنيا تمطر بغزارة. سألت نفسى، وأنا أقف على باب الفندق فى انتظار أن يحضر لى سائق السيارة الشمسية: هل ينزل الثلج هذه الليلة؟ هل أعيش أجواء كاوباتا فى قصصه البديعة فتحدث المعجزة؟

أحب التجول فى الشوارع لحظة هطول المطر ولكن فى سيارة أنظر إلى نقاط المطر ومسّاحات السيارة تطردها إلى أعلى وأسفل ثم يعود المطر من جديد. مشهد بندرى، كثيرا ما عشته فى قريتى الضهرية، ولكن بدون سيارات ولا يحزنون.

أوصلنا رئيس الجامعة وعدنا إلى الفندق. كان التعب قد وصل إلى نخاع العظام ولكنى كنت سعيدا لسببين، الأول: أن هذه أول دعوة توجه لى فى اليابان لعزومة مصرية أهم ما فيها هذا القدر الهائل من الإنسانية العذبة.

والأمر الثانى: أننى كنت منذ صباح هذا اليوم فى المدينة التى ولد فيها كاوباتا، الكاتب الوحيد من بين الروائيين اليابانيين الذى قبض بيديه على حقيقة اليابان وجوهرها. والذى ولدت قراءاتى له سكة فى القلب نحو اليابان، الناس والمكان والجبال والمدن والبحار، وأيضا هذا المطر البديع.

السندباد لم يصل إلى أوزاكا

لم أصل بعد إلى نهاية المطاف فى حكاية الأدب العربى فى هذه البلاد.

مازالت هناك فصول قادمة.

ولكن أحاول الآن تدوين قصة القصة أو حكاية الحكاية.

وعذرا

فمن يقوم بهذه الرحلة أديب قبل أى اعتبار آخر.

فضلا عن أن اللبنة الأولى فى علاقتى بأهل هذه البلاد جاءت من خلال قصة لى..

وتلك هى قصة الأدب العربى فى بلاد اليابان.

وهى القصة التى يمكن أن تبدأ برقم:

١٩٧٣.

سنة واحدة، وإن كان لها أكثر من اسم. فى الوطن العربى: هى سنة أول انتصار عربى على الصهاينة، وفى تل أبيب هى سنة التقصير الكبير، ولكنها هنا فى اليابان تكتسب اسما

آخر. إنها سنة صدمة البترول الأولى، والتى يحلم اليابانيون أن تكون فى نفس الوقت الصدمة الأخيرة.

١٩٧٣

هي نفسها السنة التى شهدت بدايات الاهتمام الحقيقى بالوطن العربى باعتباره مصدراً رئيسيًا للبترول الذى يصل إلى اليابان، وليس باعتباره سوقا لبضائع اليابان، فالوطن العربى كله لا يستهلك من صناعات اليابان سوى ٥٪ فقط.

يروى لى مستشرق يابانى أنه فى نهاية سنة ١٩٧٣ طلبت منهم دار نشر أى ترجمات إلى اليابانية من الآداب العربية الحديثة، وذلك لإصدارها فى كتاب. وعندما اكتشفوا أن ما ترجم من العربية مباشرة قليل، قاموا بالترجمة من لغات أخرى، أى أن الأدب العربى ترجم مرتين، وهكذا صدر أول كتاب من الأدب العربى الحديث فى اليابان وكان عبارة عن مختارات من النثر العربى الحديث، وكان هذا سنة ١٩٧٤، والكتاب فيه نصوص لغسّان كنفانى، وإبراهيم عبدالقادر المازنى، ونجيب محفوظ، ويوسف السباعى، وعبدالرحمن الشرقاوى، وميخائيل نعيمة، وهذا لا يعنى أن الكتاب كان شهادة الميلاد الأولى، لقد سبقته بعض المحاولات هنا وهناك، ولكنها كانت فردية ومتباعدة ومبعثرة. أما سنة ١٩٧٣ وما بعدها فقد كان هناك جهد منظم ومدروس من أجل تقديم الأدب العربى فى اليابان.

على أن القصة لابد لها من بداية أخرى، ألا وهى محاولات وصول اللغة العربية نفسها إلى اليابان. يروى فصول هذه القصة الدكتور رءوف عباس حامد أستاذ التاريخ الحديث فى كلية الآداب بجامعة القاهرة، والذى كان أستاذا زائرا فى جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية لمدة ستة أشهر. قال:

ـ اليابان حديثة العهد بالدراسات العربية، واليابان لم تحول بصرها فى اتجاه البلدان العربية، إلا بعد الحرب العالمية الثانية، حيث أخذت المصالح الاقتصادية لليابان فى المنطقة تنمو تبعا لنمو الصناعة اليابانية التى كانت تعتمد على إمدادات البترول من المنطقة.

لم يكن هناك معهد مهتم بتدريس اللغة العربية قبل الحرب الثانية، فيما عدا جامعة أوزاكا للدراسات الأجنبية، التى بدأت تدريس اللغة العربية كفرع من فروع اللغات السامية سنة ١٩٣٩، وقبل افتتاح ذلك الفرع، كانت دراسة العربية محدودة النطاق تعتمد على جهود فردية أكثر من اعتمادها على الدراسات النظامية.

وزارة الخارجية اليابانية كانت رائدة فى الاهتمام بدراسة اللغة العربية، فأوفدت رجالها إلى مصر لتعلم اللغة العربية قراءة وكتابة وحديثا تمهيدا لإلحاقهم بالهيئات الدبلوماسية فى المنطقة، وقد بدأت الخارجية اليابانية ذلك سنة ١٩٢٦ .

كان أبرز من درسوا فى مصر السيد هيديجى كامورا سفير اليابان السابق فى المملكة العربية السعودية، فقد التحق بمدرسة محرم بك الابتدائية فى الإسكندرية فى شبابه، وكان زميل الدكتور عبدالقادر حاتم فى تلك المدرسة، ويعد الآن من كبار خبراء الشئون العربية فى اليابان وقد بلغ عدد موظفى الخارجية اليابانية الذين أتقنوا العربية نحو ثلاثين دبلوماسيا. كذلك أخذ بعض اليابانيين يفدون إلى مصر منذ عام ١٩٣٠ لدراسة اللغة العربية بالأزهر، وقد بلغ عددهم أربعة أفراد من بينهم إبراهيم كايا يوكى الذى يعمل مديرا لشركة ميتسوبيشى التجارية فى الشرق الأوسط.

بدأ الاهتمام - يكمل الدكتور رءوف عباس حامد روايته - بتدريس اللغة العربية يتزايد، ولعب المركز الثقافى المصرى بطوكيو دورا مهما فى تنشيط دراسة اللغة العربية منذ منتصف الخمسينيات، وقد تخرج فيه عدد ممن يعدون من خبراء شئون الشرق الأوسط مثل الأستاذ يوزوايتاجاكى والأستاذ واترميكى وغيرهما.

وحين أغلق المركز المصرى أبوابه فى ١٩٦٧ كان الكثير من الجامعات اليابانية قد بدأ إدخال اللغة العربية ضمن برامج تدريس اللغات الأجنبية، إذ أنشىء قسم اللغة العربية بجامعة طوكيو للدراسات الأجنبية فى سنة ١٩٦١، كما أخذت جامعات تاكو سوكو وكيو وواسادا وتوكاى وتنرى تنظم برامج لتدريس اللغة العربية وآدابها.

هذا بالإضافة إلى معهد لغات آسيا وإفريقيا، وفصول تدريس اللغة العربة المسائية التى تنظمها جمعية الصداقة اليابانية السعودية واليابانية الكويتية واليابانية العربية، والتى يقبل عليها هواة دراسة اللغات السامية أو طلبة الدراسات العليا الذين يحضرون لرسائل الماجستير والدكتوراه حول الشئون العربية وغيرهم.

وقد انعكس هذا الاهتمام على أعداد الطلاب الذين يوفدون إلى البلدان العربية لدراسة اللغة العربية وآدابها، ففى مصر - على سبيل المثال - نحو ثلاثين طالبا يابانيا من بينهم عشرة من اليابانيين المسلمين، الذين يدرسون فى الأزهر وجامعة القاهرة، وذلك بموجب منح مقدمة لهم من المجلس الأعلى للشئون الإسلامية والأزهر، وثمانية طلاب

أوفدتهم بعض الشركات اليابانية التى تزاول نشاطها بالمنطقة، وكذلك جريدة أساهى كبرى الجرائد اليومية اليابانية.

الباقون يمثلون بعض الباحثين الذين أوفدتهم هيئات علمية يابانية لإعداد البحوث فى الشئون العربية، مثل معهد اقتصاديات الدول النامية بطوكيو أو غيره، وهم طلبة للدراسات العليا فى اليابان يلتحقون بالجامعات المصرية بموجب منح مقدمة من وزارة التربية والتعليم العالى فى مصر، أو على نفقة الحكومة اليابانية، أو على نفقة البعض منهم الخاصة.

ولا يقتصر الأمر ـ يقول الدكتور رءوف عباس حامد ـ على اهتمام الجامعات والمعاهد فى اليابان بدراسة اللغة العربية وآدابها، بل يمتد ليشمل مجال الدراسة التاريخ العربى والإسلامى والحضارة الإسلامية والأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية المعاصرة فى البلدان العربية.

وأصبحت هناك هيئات علمية تركز بحوثها على ناحية من هذه النواحى فيهتم معهد اقتصاديات الدول النامية بدراسة الواقع الاقتصادى العربى ومدى إمكانية تنمية العلاقات التجارية اليابانية العربية، بينما تركز جامعة أوزاكا على دراسة اللغة العربية فتحولت من مجرد قسم بفرع اللغات السامية إلى قسم مستقل.

وقد ركزت هذه الجامعة على دراسة النحو وفقه اللغة العربية والأدب العربى، فى حين اهتمت جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية بالجانب الحضارى فشرعت منذ عام ١٩٦٦ تنظم حلقات لدراسة التجديد فى التجمعات الإسلامية بوجه عام، ثم تتنوع الموضوعات تبعا لتنوع اهتمام الباحثين، من الأدب إلى التاريخ والاقتصاد إلى الشريعة الإسلامية وغيرها من مجالات البحث. وتركز جامعة تنرى على دراسة الدين الإسلامى والشريعة الإسلامية، وهكذا نجد هذا التنوع الفريد فى دراسات اليابانيين للواقع العربى والإسلامى، وهو ما يضمن عدم التكرار.

أخرج من نطاق تعلم اللغة العربية وأصل إلى الأدب العربى نفسه، وهو الذى بدأت به هذه القصة من بدايتها، ولن أتكلم من جديد عن مظاهر الاحتفال بصدور الترجمة العربية لألف ليلة وليلة إلى اللغة اليابانية، ولا سعادتى عندما كانت مذيعة التليفزيون تسأل الدكتور أكيدا. والمترجمة تترجم لى السؤال والإجابة.

ـ بمناسبة صدور ألف ليلة وليلة فى بلادنا، ألم يصل السندباد إلى شواطئ اليابان؟!

ـ من المؤكد أن السندباد لم يصل إلى شواطئ اليابان. إنه شخصية متخيلة، وإن أصله الواقعى قد لا يكون على نفس الصورة، ولكن من الإشارات فى الليالى يتضح أنه وصل إلى جزيرة مهجورة فقط. وهكذا يمكن القول إن حركة الترجمة من العربية إلى اليابانية قد نشطت فى النصف الأول من هذا القرن، أى أنها سبقت الاهتمام بالمنطقة العربية، باعتبارها مصدرا من مصادر البترول العربى.

كانت البداية بكتب التراث الإسلامى والعربى، وكان القرآن الكريم هو البداية الأولى، وألف ليلة وليلة ترجمت أربع مرات إلى اليابانية، وقام الأستاذ مايجيما شيخ المستعربين اليابانيين بنقل كتاب البخلاء للجاحظ إلى اليابانية، وترجم الأستاذ كاتو تسوجى فوجيهوتو كتاب المنقذ من الضلال للغزالى. وابن اسحق وابن خلدون ترجمت بعض أعمالهم أيضا.

بعد التراث جاء دور كتب الأدب العربى الحديث، فترجم السفير هيديجى تامورا كتاب الأيام لطه حسين، على أن نقل الأدب العربى الحديث إلى اليابانية قد لعب الدور الأساسى فيه الدكتور نوبوآكى نوتاهارا. أستاذ الأدب العربى فى جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية.

نوتاهارا هو الذى ترجم غسان كنفانى إلى اليابانية، وكذلك رواية الأرض لعبدالرحمن الشرقاوى، وقد شهدت بنفسى سفره إلى قرية الصحافة بمحافظة الشرقية لكى يعايش الناس فى هذه القرية، ويتابع حياتهم اليومية، ويسجل تفاصيل الحياة اليومية حتى يصل إلى أقصى درجات الصدق فى الترجمة.

نفس هذا الشى فعله معى نوتاهارا ـ وكان أول يابانى أراه فى حياتى ـ حيث سافر معى إلى قريتى الضهرية، وكان معنا الصديق الكاتب عبدالفتاح الجمل رحمه الله رحمة واسعة، وذهبنا نحن الثلاثة إلى عزبة الحاج عبدالقوى أحمد سمك ـ رحمه الله رحمة واسعة وبدون حدود ـ حيث قضى ليلة بين قريتى والعزبة يسجل بالصوت والصورة كل مظاهر الحياة.

أصوات العصافير ونهيق الحمير وصور بالكاميرا كل ما شاهده حتى يساعده عند ترجمة روايتى: «أخبار عزبة المنيسى» إلى اليابانية. وتحت إشراف نوتاهارا ترجمت بعض أعمال يوسف إدريس إلى اليابانية وكذلك لنجيب محفوظ حيث بدأت ترجمته إلى اليابانية قبل حصوله على نوبل بسنوات طويلة، واستمرت الترجمة بعد ذلك. ولم يتوقف جهد

نوتاهارا عند حدود الأدب المصرى، بل ترجم العديد من الأعمال الأدبية العربية إلى اليابانية أيضا.

كان هذا هو الجانب المشرق من الصورة، ولكن لكل صورة فى الدنيا جانبها الآخر، الذى ربما كان مؤسفا وحزينا، وأنا لا أبحث عن الوجه المعتم فى كل قمر أعثر عليه فى طريقى ولكن أحاول أن أقدم صورا كاملة متكاملة.

وذلك هو الوجه الآخر لقمر الأدب العربى الذى أشرق فى زمان مضى، ويبدو أنه قد لا يستمر فى الإشراق لفترة أخرى قادمة. قال لى نوتاهارا إنه ترجم مؤخرا رواية لكاتب مصرى، انطلاقا من اهتمامه الخاص بأدب القهر والسجون والمعتقلات فى الوطن العربى، ولكنه بعد ترجمتها اكتشف أنه من الصعب عليه العثور على ناشر لها؛ فالنشر فى اليابان تقوم به الشركات الخاصة، ويعتمد على مبدأ الربح فقط.

وعندمايقدم لهم مخطوط عمل أدبى من أجل نشره فإنه لا يتم فحصه بقراءته فقط، ولكن تتم له دراسة جدوى من حيث العائد المادى من وراء نشره، وأنه عندما لم يجد ناشرا للرواية، قام بنشرها فى مجلة فصلية خاصة بآسيا وإفريقيا تصدرها جمعية لها اهتمام خاص بالقارتين.

هذا الموقف دفع نوتاهارا نفسه إلى إعادة النظر فى موقفه من ترجمة الآداب العربية كلها، إلى اليابانية. كان لابد من البحث عن كل ما له عائد مادى، أى يغطى تكاليفه ويربح. الروائى اليابانى المعروف: ياسوهيرو تاكى وتشى وهو الذى كتب مقدمة للترجمة اليابانية لرواية الأرض للشرقاوى، عندما صدرت باليابانية يرى أن الحل هو إنشاء جمعية لنشر الأدب العربى فى اليابان. وإن كنت لا أعرف كيف يتم هذا إلا أننى أخشى - رغم وجاهة الفكرة - أن يصبح الأمر كما لو كان دعما لنشرات تصدر عن الأمة العربية هناك.

ولكن فى جميع الأحوال لابد من مخرج ما.

آخر المنغصات فى موقف الأدب العربى فى اليابان ولأهمية الحكاية أرويها مرة أخرى، أننى عندما كنت فى جامعة أوزاكا، قابلت - من خلال عبدالمنعم تليمة - الأستاذ ياكاشينا الذى يدرس اللغات القديمة فى المنطقة العربية، وهذا قاده إلى اللهجات العامية الحديثة وعلاقتها بالعربية الفصحى.

وهذه الدراسات أوصلته إلى أن مستقبل اللغة العربية يبدوعلى النحو التالى:

مع التطور البطىء وعبر سنوات قادمة ستصبح العربية الفصحى مثل اللاتينية فى أوروبا الآن، أما العاميات الراهنة فى الوطن العربى وهى مجرد لهجات نابعة من اللغة الأم هذه العاميات ستصبح فى النهاية مثل لغات أوروبا المختلفة: الفرنسية، والإنجليزية، والألمانية، والإيطالية.

ولى بعد كل هذا أسئلة محددة:

ـ هل هذا ممكن؟ ومتى يحدث؟! وإن كان ممكن الحدوث. هل من المعقول أن يتنبأ به مستشرق يابانى ونحن هنا فى هذا الجزء التعس من العالم نتذوق سعادة البلهاء بواقعهم؟!

للأسف الشديد. يبدو لى أن كل هذا قد يكون صحيحا.

ـ عشـــرة ـ

ذاكرة لا تقبل العزاء

اليوم الرابع.

السبت ١٣ من نوفمبر ١٩٩٣.

ما من مدينة قرأت عنها وسمعت عما جرى لها قبل أن أصل إليها مثل هيروشيما. لقد دمرت نجازاكى هى الأخرى، ولكن هيروشيما تأتى فى المقدمة دائما وأبدا عند الحديث عن الدمار الإنسانى الذى جرى لأول مرة فى تاريخ البشرية، ونتمنى أن تكون الأخيرة.

هيروشيما لها فى وجدانى مكان من نوع فريد؛ خاصة وأنها دمرت عندما كان عمرى سنة واحدة وأربعة أشهر. لم أدرك ما جرى للمدينة البعيدة فى حينه، ولكنها ظلت باقية فى القلب. فى حبه القلب تكبر وتنمو مع الإنسان، وعندما تقدم بى العمر كان الزمان يحمل معه كل ما هو جديد عن المدينة ويرحل.

قرأت مذكرات الطيار الذى طار فوق هيروشيما من أجل أن يفنيها. وقدم نظرة على الجحيم من خلال تجربته الفريدة. حتى فيلم «هيروشيما حبيبى» الذى كتبت له السيناريو والحوار مارجريت دوراس. شاهدته، ثم قرأت المشروع الأدبى الذى كان نواة الفيلم.

ما من مرة ترد هيروشيما على الذهن حتى أتصورها صحراء جرداء، منذ الأربعينيات وحتى الآن، أساطير كثيرة سمعتها عن أن بقايا الإشعاع النووى ستظل فى أرض هيروشيما لقرن كامل بعد ضربها بالقنابل الذرية. وأنه من المستحيل أن يعيش فيها إنسان وينجو من المرض القاتل، وأن الاقتراب ـ مجرد الاقتراب من هيروشيما ـ كفيل بأن يجعل الإنسان مريضا بمرض خطير. إن لم يتم موته فى التو واللحظة. لم أتخيل ـ ولو بعين الخيال ـ أن قدمى يمكن أن توضعا فوق أرض هيروشيما فى أى وقت من الأوقات، مهما

طال بى العمر، وذلك لبعد المسافة، ولأن ما جرى هناك جعلنى أتصور أن ظلاله مازالت موجودة وستظل قائمة حتى قيام الساعة، وهل يذهب الإنسان إلى الدمار بقدميه؟ لا يفعل هذا سوى مجنون.

ركبنا القطار - أنا وكريمة - من محطة أوزاكا فى التاسعة والنصف صباحًا. كنا قد وصلنا إلى محطة السكة الحديد مبكرين نصف ساعة، نتيجة خطأ فى التوقيت وقع فيه سائق السيارة. كان قد قال إن المسافة من الفندق إلى محطة القطار تستغرق نصف ساعة، ولكن الذى حدث أن المسافة استغرقت عشر دقائق فقط. لم أكن قد تناولت إفطارى أو شربت شاى الصباح فى الفندق، لذلك جلسنا فى بوفيه المحطة.

أخذت توست بالزبدة. برودة الجو توفر لى إحساسا بالأمان من أخطار السكر، والتعب الذى أتعرض له هنا، وهو تعب لذيذ يحرق طنًا من الزبد فما بالك بلحسة صغيرة على خبز التوست، وشربت شايا، ودفعت وأنا مثل الشاطر ألف وخمسمائة وثلاثين ينا. وأنا أحسبها فى ذهنى عندما كنت أخرج المبلغ من جيبى، كم تساوى؟

كان المبلغ يوازى خمسة عشر دولارا، أى حوالى خمسة وأربعين جنيها مصريا بأسعار ذلك الوقت. يابلاش يا مصر المحروسة برخص أسعارك بصورة من الصعب تصورها إلا عند من يسافر إلى بلد أسعارها فى غلاء بلد مثل اليابان.

استغرق القطار ساعتين، وكالعادة فإن معظم القطارات الفاخرة والغالية «ومعظم القطارات هنا فاخرة» تملكها شركتان؛ إحداهما صاحبها يعد من أغنى أغنياء العالم، وكل القطارات والمحطات والعاملين فيها مكتوب عليها جى. آر. وجى هو الحرف الأول من اسم اليابان والحرف الآخر هو الأول من اسمه.

والجبال فى الرحلة من أوزاكا إلى هيروشيما مختلفة عن الجبال التى شاهدتها من قبل. سار القطار فى أنفاق تحت الجبال أكثر مما سار فى الهواء الطلق، والأنفاق عبارة عن تحف معمارية نحتها اليابانيون فى بطن الجبل، وهو الجبل نفسه الذى تركناه نحن للمطاريد فى الماضى، وللمتطرفين فى الحاضر، ولا نعرف لمن يكون الجبل فى المستقبل المصرى القريب والبعيد. إن الصناعة التى تصدرها لنا اليابان ليست هى معجزة اليابان الوحيدة، ولكن نمط الحياة اليومى الذى وضعه اليابانيون لأنفسهم هو المعجزة.

أول ما وصل إلىّ من هيروشيما كان اسمها، الذى سمعته من مذيعة القطار التى نبهتنا إلى أننا خلال ثلاث دقائق، والدقيقة لها قيمة كبرى فى هذه البلاد، سنكون فى محطة

هيروشيما. وطريقة النطق اليابانية للكلمة شديدة الاختلاف عن نطقنا لها. فالياء الأولى التي بعد الهاء، والياء الثانية التي بعد الشين لا وجود لهما تقريبا في النطق. إن شئت الدقة فإن النطق الياباني يفرض علينا أن نقول الاسم هكذا: «هرشما».

سرت رعدة في الجسم. هيروشيما؟! فكرت للحظة، أليس هناك خطر على الإنسان أن يمشي على أرض هيروشيما الآن؟ إنني أقرأ وأسمع كلاما كثيرا عن خطر الإشعاع النووي الذي سيظل في هذه المدينة حتى القرن القادم. قبل البحث عن إجابة للسؤال، كانت أعداد الذين قاموا من أماكنهم استعدادا للنزول قد ابتلعت السؤال قبل النطق به.

وقفت، بحثت عن حقيبة السفر الخفيفة التي أتحرك بها في سفرياتي الداخلية في اليابان، توقفت فجأة، عشت من جديد، لا أدري للمرة الكم، ذلك المشهد الذي لا ينسى أبدا سيظل يطارد الذاكرة حتى لحظة توقفها عن العمل.

عندما وقفت إيمانويل ريفا بطلة فيلم «هيروشيما حبيبي» المأخوذ عن نص بديع لمارجريت دوراس، كانت إيمانويل تقف أمام غابة من الجثث. آلاف أو ربما ملايين الرجال والنساء والأطفال. بشر مشوهون من الإشعاعات النووية، تحولوا إلى عجينة معجونة من مادة بشرية.

لقد نظرت إلى هذا المشهد غير الإنساني طويلا وقالت:

ـ كل ما أريده هو أن تكون لي ذاكرة لا تعرف الصفح أو النسيان. ذاكرة لا تقبل العزاء.

إنها تبحث عن ذاكرة لا تنسى. قلت أخاطب إيمانويل قبل أن أتحرك من مكاني:

ـ لأن ذاكرتي لا تقبل العزاء ولأنها غير مثقوبة، فقد جئت إلى هنا من آخر مكان في الدنيا.

أول ما وقعت عليه عيناي في هيروشيما كانت عمارة سكنية تطل على السكة الحديد مباشرة.

البيوت التي تطل على السكك الحديدية كثيرة لدرجة أنه يخيل للإنسان أنها البيوت التي يسكنها عمال الدريسة. لقد سافرت محملا بمصر ومسكونا بها لدرجة المرض. أعتقد أنهم في هذه البلاد لم يعرفوا عمال الدريسة في أي مرحلة من مراحل تطور السكة الحديد عندهم.

كان البيت جميل، ومن شرفته كان ثمة غسيل منشور، والإنسان يرى الغسيل المنشور يتدلى من كل العمارات فى كل المدن التى يذهب إليها وقد لا تلفت نظره. يرى أن الغسيل المنشور من الأمور الطبيعية حيث يوجد العمران والناس و الحياة اليومية. هذه المرة كان الأمر مختلفا. كانت الملابس صغيرة للغاية لأطفال صاحب إحدى الشقق. كانت الملابس ترفرف فى الهواء وتتلقى ـ قبل أن تجف ـ أول قطرات المطر.

قالت لى الملابس إن المدينة التى دمرت منذ حوالى نصف قرن، عادت إلى الحياة مرة أخرى، والغسيل المنشور استدعى إلى الذهن دفء البيوت فى هذا الوقت البارد. إن مجرد الخروج من المحنة وإعادة بناء الحياة اليومية، ورصف الشوارع وبناء البيوت معجزة بكافة المقاييس.

توقف القطار، محطة عادية مثل كل المحطات، زحام من البشر لم أجده فى أى محطة أخرى. قالت لى كريمة، إن السبب فى هذا الزحام يعود إلى أن اليوم هو السبت، وهو يوم عطلة وأول ما يفعله اليابانى هو السفر من مكان إلى آخر من أجل الاستمتاع بالحياة. لفت نظرى أن كبار السن هم أكثر الذين يسافرون. قالت لى كريمة إن الذين تعدوا المائة من العمر فى اليابان يصل عددهم إلى حوالى ألف نسمة، واليابانى يعمر طويلا بشكل عام.

فى المحطة شاهدت عددا من الشباب يمشون على شكل طابور، والمشية أقرب إلى العسكرية ويرتدون زيا واحدًا. سألتها وأنا أشير إليهم: هل هم من الجيش اليابانى؟ قالت لى إن اليابان لا يوجد عنده جيش. لا يوجد ما يسمى عادة فى الدول الأخرى بالمؤسسة العسكرية، ولكن فقط بعض قوات صغيرة تسمى قوات الدفاع عن اليابان أو الأمن الوطنى. منع وجود جيش هدفه كبح النزعة العسكرية فى هذه البلاد حتى لا يتكرر ما جرى فى هيروشيما مرة أخرى. إن هذه البلاد لا تحتمل مأساة أخرى أبدا. . سواء بنفس حجم ما جرى فى هيروشيما أو حتى أقل.

قالت لى كريمة إن هؤلاء طلاب مدرسة من المدارس، واليوم عطلة لذلك قاموا برحلة من الرحلات الكثيرة التى يقومون بها عادة، والرحلات هنا جزء من التعليم.

هذه المرة كان السائق فى انتظارنا، وكان يحمل لافتة مكتوبة باليابانية مكتوب عليها: «مؤسسة اليابان» وكان سائقا ومرشدا سياحيا فى الوقت نفسه، وهو من أبناء هيروشيما ويبدو أنه قام بهذه العملية من قبل أكثر من مرة. عنده دربة ومهارة وقدر كبير من الآلية وهو يقوم بعمله.

حمل السائق حقيبتى بيد وحقيبة كريمة باليد الأخرى. بذلك الأدب اليابانى الذى يستنفرك حيث ينحنى لك أكثر من مرة ويرحب بك بطريقة ميكانيكية، وإن كان يحاول أن يشعرك أنها صادرة من القلب. عندما فتح شنطة العربية من أجل وضع الحقائب فيها، شاهدت أمرا سبق أن رأيته فى السيارة التى كانت معنا فى أوزاكا ولم أتوقف أمامه طويلا. كان عبارة عن أنبوبة ضخمة ممدودة بالعرض فى شنطة السيارة وتبدو أنها مثبتة فيها.

سألت السائق عن هذه الأنبوبة من خلال كريمة طبعا، فقال إن السيارة تعمل بالغاز الطبيعى وليس البنزين، وإن هذا الغاز الطبيعى يوفر حوالى نصف الثمن الذى يدفع فى البنزين. وكنت لم ألاحظ من قبل أن السيارة كانت تتحرك بدون صوت تقريبا، وقد تصورت وقتها أن السبب ربما كان لأن السيارة جديدة لنج، وأننا فى بلد السيارات الأولى فى العالم كله، وعندما لاحظت من قبل أن شكمان السيارة بدون عادم يخرج منه، قلت لابد وأنهم هنا توصلوا لحل مشكلة العادم هذه.

قال لى السائق وكان سعيدا بالحديث فى هذا الموضوع: إن الغاز الطبيعى علاوة على التوفير فى النفقات فهو لا يلوث الجو، وعيبه الوحيد - حتى الآن - هو الجهد المطلوب من السائق للضغط على دواسة البنزين - آسف - أقصد دواسة الغاز فهو جهد مضاعف.

قال لى إن كل السيارات لا تعمل بالغاز، وحتى الآن فإن هذا النظام قد طبق فى السيارات التى تعمل تاكسيات فقط، والسيارة التى تعمل بالغاز لها مواصفات خاصة، وليست مثل كل السيارات الأخرى، خاصة فى الموتور. اتجه إلى أمام السيارة وفتح الموتور لكى نتفرج على مدى النظافة والنظام. كان مندفعا ومبهورا لدرجة أننى خفت أن يعرض علىّ شراء هذه السيارة بمجرد الانتهاء من زيارة هيروشيما.

اتجه السائق بنا مباشرة إلى مكان التفجير، حيث يوجد البيت الوحيد الباقى منذ الكارثة وحتى اليوم. وكان يشرح لنا طوال الطريق معالم المدينة، خاصة منذ التفجير وحتى الآن. ولفظ التفجير كان يحب السائق استخدامه عند الإشارة إلى عملية ضرب هيروشيما بالقنابل الذرية.

كان السائق يشير بيده التى ترتدى جوانتيا أبيض، وكان يضع على رأسه كابا وربطة العنق زرقاء غامقة من نفس لون البدلة. أما القميص فأبيض يشرب من فوقه العصفور.

كان يتكلم اليابانية وكريمة تترجم لى، واللغة اليابانية فيها أمر تنبهت له فى هذه اللحظة

فقط، فهى تخلو من حرف اللام وبدلا منه يقولون الراء، ومن يتكلم بها يبدو لك وكأنه يهرول أو يجرى، أو أن الأحرف تجرى على لسانه بصورة غريبة.

قبة القنبلة الذرية

١٦ من أغسطس سنة ١٩٤٦

انفجرت على بعد ٦٠٠ متر فوق الأرض قنبلة ذرية واحدة، قتلت ٢٠٠ ألف شخص. والدولة ستعمل على حفظ هذا المبنى عن طريق المساعدات المالية من السكان. من أجل السلام العالمى سيبقى هذا المبنى إلى الأبد.

نص مكتوب على لوحة
من الرخام الأسود
معلقة على سور المبنى
الخارجى

يقول الأهالى: لم يكن من السهل العثور على جثث الموتى، والأجزاء والأشلاء والبقايا القليلة التى وجدت دفنت بعد ذلك فى مزار جماعى. أصبح مزارا سياحيا فيما بعد.

ورغم كثرة ما قرأت عن هذه المأساة، أسأل من باب التوثيق الحى:

ـ وكم كان الوقت بالتحديد لحظة التفجير؟!

يتفق الجميع حول هذه النقطة:

ـ كانت الساعة هى الثامنة والربع صباحًا بالتوقيت المحلى طبعا.

وفى هذه الثوانى توقف الزمان تماما فوق هيروشيما. كانت لحظات فاصلة فى التاريخ الإنسانى كله، وليس اليابان أو هيروشيما وحدهما بحيث إنه يمكن القول إنه خلال هذه الثوانى أدركت البشرية أن الحرب النووية لن تخلف وراءها منتصرا أو مهزوما، ولكنه الدمار الشامل للجميع. لقد كانت هذه اللحظة عبارة عن نظرة على الرعب النووى الذى ينتظر الجميع بلا استثناء.

وقفنا عند البيت الوحيد الذى نجت أجزاء منه من الدمار، لقد تحول المبنى إلى مزار، والغريب أن معظم الذين كانوا يزورونه ـ وقت وجودى هناك ـ من الأمريكان، ويبدو أنهم أفراد يريدون أن يقولوا لليابانيين إنهم هم أيضا يعترضون على السياسة العسكرية الأمريكية. من يدرى، ربما كانوا رسل المخابرات الأمريكية المركزية يقومون بجزء من مشهد تمثيلى يخدم أيضا السياسة الأمريكية؟ كان هذا المبنى ـ منذ أكثر من نصف قرن ـ من أجمل المبانى فى هيروشيما ـ هذا ما يقوله الناس ـ ولم يبق منه سوى منور السلم على شكل دائرى «هكذا كانت مناور السلالم منذ نصف قرن فى اليابان» وأجزاء من الحيطان المرتبطة بالمنور، أما باقى المبنى والبيوت التى كانت حوله، فقد دمرت تماما.

أشار السائق إلى مبنى أبيض، يبعد عنا مبنيين فقط، وقال إن هذا المبنى كان تحت الانفجار تماما، وقد أبيد ولم يبق منه شىء، وكذلك البيوت المحيطة به، والسكان وحتى المارة الذين تصادف مشيهم فى الشارع أبيدوا عن آخرهم. كنت متأثرا، ولكنى فوجئت حقا وصدقا ببكاء كريمة موروكا. نهر من الدموع نزل من عينيها وتلطخ وجهها بالدمع رغم أنها لا تستخدم أى مكياج تقريبا، ومنذ هذه اللحظة انحرف مزاجها ولم تكن راغبة فى إكمال الجولة، وعندما وصلت إلى المتحف رفضت دخوله معى وتركتنى أدخله بمفردى.

حتى الحطام الذى تناثر لحظة التفجير مازال موجودا، وثمة أسياخ من الحديد الخاص بالتسليح ملوية وملقاة، ذكرتنى بعيدان الحديد، كان شكلها قريبا من الذى أراه أمامى. شاهدتها بعد مرور جنازة عبدالناصر فى شارع رمسيس وقد ثناها الذين حضروا جنازة الـ٥ مليون مصرى وعربى، والتى كانت آخر الجنازات فى عمرنا، حيث لم تتكرر بعد ذلك أبدا.

لم يكن حول المبنى حراس ولا يوجد بداخله موظفون يمضغون اللبان ويقزقزون اللب، وينشغل الرجال بحل الكلمات المتقاطعة فى الصحف، والنساء معهن التريكو ويقمن بإعداد وجبة الغذاء اللاتى سيطهينها فى بيوتهن بعد العودة. وهذا ما يحدث فى بلادنا الجميلة، والتى تعيش وفق قانون خاص بها لا وجود له فى سواها.

عرفت من اللوحات المعلقة، أن الأهالى هم الذين يدفعون تكاليف صيانة المبنى ويتبرعون بكافة متطلباته المالية.

سرنا، مررنا على تمثال الطفلة سانكا، التى ماتت ولكن بعد الانفجار بعشر سنوات

مصابة بسرطان فى الدم، وهذه الطفلة يقولون عنها إنها فى أثناء المرض عرض زملاؤها الأطفال أن يركبوا لها جناحين مصنوعين من ريش ألف طائر من أجل أن تحلق بهما فى السماء العالية.

ولكنها ماتت قبل أن يتمكنوا من تركيب جناحى الطيور الألف. وهكذا أصبحوا يحضرون أجنحة الطيور الألف، ولكن من الورق يعلقونها هنا من أجل أطفال هيروشيما.

ثمة نصب جميل لا حد لجماله، مكتوب تحته:

ـ نحن نصرخ ونصلى من أجل السلام.

أطفال هيروشيما

حمامة بيضاء وشجرة خضراء وامرأة

قالوا لى: إنه يوجد تل صغير بالقرب من المدينة، وفيه دفنت الجثث التى لم يتعرف عليها أحد، وهناك نصب تذكارى ونيران مشتعلة دائما وأبدا طوال نصف قرن بأكمله.

ويوم ١٦ من أغسطس من كل عام، يحضر إلى هنا رئيس وزراء اليابان من أجل الاحتفال بذكرى القنبلة والنار، ولكن على مدار السنة كلها فإن أسراب الحمام تملأ المكان وقد عرفت إنهم لا يأكلون الحمام فى هذه البلاد، وفى ذلك الوقت وبعد الخروج من كارثة التفجير حرقت الجثث كلها؛ خوفا من أن يكون فى العظام إشعاع نووى.

اتجهنا إلى مبنى الشهداء، شهداء الانفجار. ثمة حمام كثير يطير فى الجو أو يمشى على الأرض. لم أر هذا المشهد من قبل سوى فى ميدان الطرف الأغر فى لندن، ونحن فى بلاد الحمام نأكله بدلا من أن نستخدمه لتجميل الحياة من حولنا.

قالت لى كريمة: إن إدارة المتحف هى التى تربى هذا الحمام، فهو من رموز السلام. وقد شاهدت اليابانيين العواجيز يقفون أمام نصب الشهداء، الذى هو عبارة عن جدار على شكل نصف دائرة، وينحنون بالطريقة اليابانية التقليدية، ثم يخرجون أموالا من محافظهم ويضعونها فى صندوق أمام النصب. ذكرنى هذا بصناديق النذور فى أخزنة أولياء الله الصالحين فى مصر.

عرفت أن هذه الأموال تستخدم فى الجهود المبذولة من أجل منع الحرب. وراء النصب شعلة نيران مستمرة فى الاشتعال ليلا ونهارا، وحولها المياه. ومن يقف أمام النصب التذكارى للشهداء «يقولون هم القتلى» لابد وأن يشاهد فى الوقت نفسه شعلة النيران المتوهجة، ويستمع إلى غناء الطفلة التى ماتت بسرطان الدم ويرى بقايا البيت، وكلها على خط مستقيم، وتبدو للعين من وراء بعضها، والذى لفت نظرى لذلك هو السائق؛ فكثرة التعود تجعل الإنسان يدرك المغزى والرمز من وراء هذه الأمور.

أقف أمام لوحة مكتوب عليها:

ـ ناموا فى سلام لأننا لا نكرر الخطأ.

ولوحة أخرى:

ـ إن الشعب سيعمل ويصلى من أجل السلام العالمى الدائم.

ومن يحضر إلى هنا لابد وأن يرى شجرة ويزور سيدة، وإلا فلا يمكن اعتباره قد حضر إلى هيروشيما أصلا.

والسيدة كانت موجودة وقت التفجير، أى أنها عاصرت ما جرى، وإحدى ساقيها مبتورة وتمشى على عكازين من الخشب، وتلتقط صورا مع الذين يحضرون إلى هيروشيما من كل مكان من الدنيا. مشت معنا، وسرنا ببطء لأن الحركة بالعكازين مرهقة. الجميع يعرفونها من كثرة ظهورها فى تليفزيون اليابان، وقد حكت لنا عن تجربتها الخاصة مع التفجير، وتكلمت معنا عن الشجرة التى دمرها التفجير ومع هذا حاولت أن تنمو من جديد رغم أنها تناثرت. هذه الشجرة هى التى منحت تلك السيدة القوة والرغبة فى الاستمرار فى الحياة، وإن كانت بقدم واحدة.

دعتنا السيدة للذهاب معها بعد الجولة وزيارة المتحف إلى جمعية السلام، حيث أهدتنا كتابا تسجيليا عن حياتها وصورة لها، وبعض أوراق الشجرة وقت الانفجار ومازالت تحتفظ بها حتى الآن. والشجرة حولها أشجار أخرى صغيرة. وشجرة القنبلة ـ هكذا يسمونها ـ انفلقت من الانفجار، والشظايا الشجرية التى تناثرت منها تحولت فيما بعد إلى أشجار خمسة موجودة فى الجهات الأربع حول الشجرة الأم.

وقت الانفجار كانت الشجرة فى الحديقة. والمرأة صاحبة الساق المقطوعة كانت طفلة صغيرة فى الفصل الدراسى فى المدرسة. ورغم هول ما جرى فقد بقيتا ـ الشجرة والمرأة ـ

حتى الآن . وفى هذه الأيام . . ومنذ بدء الحياة مرة أخرى فى هذه المدينة، فإن بعض من يحضرون للزيارة يكتبون أسماءهم فوق ساقها، ساق الشجرة طبعا . وساق الشجرة الرئيسى تحول إلى ساقين، ويقال إنه انفلق لحظة التفجير . ومازالت الشجرة خضراء حتى هذه اللحظة . مع أنه حتى البشر الذين نجوا من التفجير عاشوا بعد ذلك بتشوهات غير عادية .

تقول لنا المرأة صاحبة العكازين والقدم الواحدة والابتسامة التى تعد معجزة أخرى :

ـ لا يمكن أن أنسى هذا اليوم أبدا . سأظل أتذكره حتى آخر لحظة فى العمر . كان يوم اثنين، وما أن انتهى طابور الصباح فى المدرسة ـ هكذا سمعت بعد ذلك ـ وجلس التلاميذ والتلميذات فى الفصول، حتى حدث الانفجار فجأة وبدون مقدمات وقبل الصراخ كان المبنى قد انهار . حاول أحد الأصدقاء إخراجى من المكان الذى كان فصلا دراسيا حتى لحظات مضت . كان وسط المدينة بحراً من اللهب، انصهر بداخله ما تبقى من مكونات هيروشيما، الطوب والأسمنت والحديد والخشب .

كان طول القنبلة الذرية التى كانت من نصيب هيروشيما ١٢٠ بوصة، وقطر الجزء الأسطوانى ٧٠ سنتيمترا، والوزن أربعة أطنان، واليورانيوم الذى بها كيلوجرام واحد توازى قوته التدميرية ٢٠ ألف طن من مادة أى . إن . تى . والدمار الذى أحدثته القنبلة يوازى ١١ ألف طن .

والصورة الوحيدة الباقية من ذلك الحدث التقطت بعد الانفجار بـ٣ ساعات . ويظهر فيها شرطى يدوّن شهادات القتلى، ويبدو فى الصورة كما لو كان غير مبال بما حوله، أو ربما غير مدرك لحجم ما جرى، أو أن العمل الذى يقوم به أكثر قداسة ـ فى نظره ـ من أى اعتبار آخر .

لقد مات من تأثير الانفجار ١٤٠ ألف شخص فى نهاية العام الأول، وشمل الانفجار دائرة قطرها ٢ كيلومتر من مركز التفجير، وقامت به ثلاث قاذفات من سلاح الجو الأمريكى، التى اقتربت من مركز المدينة، وبعد إلقاء القنبلة الذرية مالت الطائرة وطارت على الفور . برقت القنبلة لحظات على ارتفاع ٨٥ مترا، ثم تحولت إلى كتلة من اللهب وارتفعت إلى ١٩ ألف متر غيوم من الدخان الأسود . لقد اجتاحت المدينة بحار من اللهب .

كانت صفارة الأمان قد أعلنت انتهاء الغارة الجوية بعد فرار المقاتلات الأمريكية، وهكذا تخيل الناس فى قلب هيروشيما الاقتصادى والسياسى أن بإمكانهم العودة إلى

حياتهم العادية . وهيروشيما محاطة بالجبال من ٣ جهات ، وفى هذه الجبال كانت توجد منشآت عسكرية . أى أن المدينة كانت محاصرة من ثلاث جهات وهذا معناه تحقيق أكبر قدر من الدمار .

كان فى المدينة لحظة التفجير مدنيون وعسكريون ، والذين عانوا من آثار القصف بعد ذلك كان عددهم ٣٥ ألف شخص ، وكان من بين الضحايا كوريون وصينيون وألمان وأمريكان ، وقد أصيب ٣٢ ألف كورى . مات منهم خمسة آلاف ، ودرجة الحرارة وصلت إلى ملايين الدرجات ، ودائرة اللهب شملت ٢٨٠ مترا . وكانت كرة اللهب تبدو حمراء مائلة للاصفرار .

أحد الأشخاص كان يجلس أمام مصرف فى هيروشيما ، فى انتظار أن يفتح أبوابه ، وكان هذا المصرف على بعد ٢٠٠ متر من مكان الانفجار ، وقد أصيب هذا الشخص بالإشعاع ومات وهو جالس على السلم المؤدى لباب المصرف ، ولأن بلاط درجات السلم قد تحول بسبب الانفجار من الأبيض إلى البنى الغامق القريب من الأسود . فعندما رفعوا جثمانه بقى المكان الذى كان يجلس فيه بنفس لونه الأبيض الأصلى .

لقد تطايرت النوافذ لمسافة ١٦ كيلومترا ، والمداخن الخرسانية حمتها استدارتها ، وبقيت . والبعض تحول إلى شظايا ، وحتى الآن يتم اكتشاف هذه الشظايا ويتم استخراجها من أجسام سكان هيروشيما ، بعد أن شكوا من وخز أجسام غريبة فى أجسامهم .

الأمطار التى هطلت على المدينة كانت سوداء اللون مختلطة بالطين والسناج ، وقد قتل حتى السمك فىَ البحار ، والذين شربوا من المياه أصيبوا بإسهال استمر لمدة ثلاثة أشهر بعد ذلك . فى العاشرة صباحا اندلع حريق استمر طول النهار والنيران الملتهبة التهمت كل شىء ، وقد انثنت دراجة طالب أو عامل كانت ملقاة فى الشارع وانصهرت زجاجة بيرة . ذلك أن هيروشيما أصبحت مدينة الموت . ورغم هذا فقد كان عدد سكان هيروشيما يومها ٣٠٠ ألف . الآن عدد السكان فى المدينة أكثر من مليون نسمة يعيشون فيها .

الجرح الذى أصبح متحفا

صعدت إلى المتحف بمفردى ؛ لأن كريمة قالت إنها لن تستطيع ذلك رغم أنها المرة الأولى التى تحضر فيها إلى هذه المدينة . والسائق قال إنه صعد أكثر من مرة إلى المتحف ولا

يريد الصعود. وبعد أن صعدت بدا لى أن السبب فى عدم صعوده معى أن هناك رسما كبيراً لابد من دفعه عند الدخول.

ولأن هذه البلاد لا يوجد فيها استثناء، فقد صعدت معى كريمة لكى تدفع لى رسم الدخول، ورسم حصولى على جهاز تسجيل كان عليه شريط باللغة العربية يحكى ما جرى على مدى نصف ساعة، تسمعه وأنت تتجول فى المتحف، تشاهد كل ما أمامك بعينيك وتسمع الشرح من خلال المسجل بلغة عربية سليمة ونطقها صحيح، وبلغة شاعرية جميلة تقدم ما جرى باعتباره قصة من القصص، هدفها الاعتبار بما جرى. كانت المفاجأة الأخيرة فى جولتى بالمتحف عندما وصلت إلى المرحلة النهائية، شاهدت بالقرب منى شخصًا ملتحيا له لحية كثيفة، أكثف لحية أراها حتى الآن. ربما جاء الإحساس بكثافتها الرهيبة، لأننى فى بلاد لم أر فيها شاربا واحداً منذ حضورى، فالوجوه تلمع كأنها خارجة لتوها من حمام شعبى.

وياليت الأمر توقف عند هذا الحد. كان الملتحى يصطحب منقبة معه. نظرت إليهما طويلا، الجلباب الأبيض والسبحة التى تصل إلى الأرض، والطاقية البيضاء والبلغة السوقى البيضاء. كان هذا زى الملتحى. أما المنقبة فهى قطعة من السواد، كأن الليل نسيها هنا قبل أن يرحل. نظرت لهما وقلت لنفسى، إن كان أجدادنا قد قالوا: اطلبوا العلم ولو فى الصين، فها أنذا أقول إن التطرف والإرهاب ورائى ولو فى اليابان. لفت نظرى أن الشرح الذى استمعت إليه فى التسجيل يتحدث عن قنبلة، ولا يقول إن الذين ضربوا هيروشيما بها هم الأمريكان. لا توجد كلمة واحدة عن أمريكا، تشعر خلال الجولة وكأن جهة مجهولة هى التى فعلت كل هذا.

ثمة مأساة مروعة، ولكن الفاعل الذى نعرفه جميعا يتجاهله التسجيل، ولا يتكلم ولو مرة واحدة عن الدور العسكرى اليابانى الذى سبق ما جرى وربما أدى إليه.

إن القصة تبدأ بصباح اليوم الذى وقع فيه التفجير، ولكنها تتجاهل كل التفاصيل التى أدت إليه، وتتعامل مع لحظة التفجير كما لو كانت مفصولة عما جرى قبلها، مع أن التاريخ يحدث على شكل حلقات أهم ما فيها التواصل والاستمرار. قلت بينى وبين نفسى: هل القاعدة العسكرية الأمريكية - الموجودة فى اليابان - هى السبب فى محاولة نسيان الدور الأمريكى فى تدمير هيروشيما؟! وهل الكلام الذى لا يمل اليابانيون من ترديده عن السلام، هو السبب فى عدم ذكر ما قامت به العسكرية اليابانية فى هذه الحرب؟! ربما.

كنت أشاهد المتحف، وأنا أسأل نفسى: هل لدينا متحف مثل هذا المتحف للعدوان الثلاثى على بورسعيد؟ هل لدينا متحف لما جرى لأطفال بحر البقر؟ هل عندما متحف لما حدث لعمال أبو زعبل؟ هل عندنا متحف للعمال الذين استشهدوا فى حفر قناة السويس؟! ربما يقول البعض إن ما جرى لليابانيين أشد هولا مما حدث لنا، ولكننا أيضا تعرضنا لحروب ظالمة، ومن المفروض أن يكون لدينا متحف لمؤامرة ١٩٦٧ على التجربة الناصرية.

لقد حولوا جرحهم إلى متحف.

ومن قبل شاهدت فى مدينة لينجراد السوفييتية - بطرسبرج الروسية الآن - متحفا شبيها بهذا، عن الذى فعلته قوات هتلر بالمدينة، وذلك من خلال دفتر مذكرات طفلة صغيرة كانت تدون ما جرى لها يوما بيوم وساعة بساعة. أما نحن، وما نفعله بتاريخنا فتلك حكاية أخرى.. حزينة كل الحزن الذى يملأ هذا العالم الواسع المترامى الأطراف.

وهل نملك نحن غير هذا الحزن؟!

ـ حادى عشــر ـ

إنهــا الحيــاة

مساء اليوم الرابع.

السبت ١٣ من نوفمبر ١٩٩٣

عدت إلى الفندق لأجد فى انتظارى أغرب مفاجأة يمكن أن تحدث .

كنت عائداً لتوى من رحلة الموت والدمار

لكى أجد نفسى وجها لوجه مع قصة استمرار البشرية .

مع الزواج ولكن على الطريقة اليابانية .

قلت لنفسى هذا هو الإنسان فى كل زمان ومكان .

ففى قريتى الضهرية يحدث هذا .

فى الليلة الأخيرة من المآتم تجد الرجال العائدين للتو واللحظة من رحلة المقابر يواصلون الحياة ولكن بطريقة أخرى مغايرة .

إن البذرة الأولى لحياة أخرى جديدة ، حياة الحفيد ، إنما توضع فى الرحم بعد الانتهاء مباشرة من تقبل العزاء فى الجد .

وهذا ما فعلته معى هيروشيما .

بعد العودة من رحلة الموت والدمار

وجدت نفسى فى الفندق فى مواجهة حفل زواج .

إن الرجال فى قريتى يعودون من العزاء حيث يحدث الحمل الجماعى فى نفس الليلة لنساء العائلة من أزواجهن.

إن كان استمرار الحياة هو معجزة الحياة المصرية، منذ فجر الضمير وحتى الآن؛ فإن تحويل مكونات الحياة إلى إنجاز يومى؛ أى استثمار الزمان والمكان قبل تحويل الناس أنفسهم إلى إنجاز، تلك هى معجزة اليابان.

كان استمرارنا هو المعجزة.

وكان تحويل القليل عندهم من مكونات الزمان والمكان هو معجزة المعجزات فى بلد كل ما فيه معجزة. ألا وهو اليابان. وتلك هى قصة الزواج أولا . .

الزواج على الطريقة اليابانية

كنت فى فندق هيروشيما «جراند أوتيل»، وهو من الفنادق الضخمة التى نزلت فيها. وإن كان الفندق الذى نزلت فيه سواء فى أوزاكا أو هاكونى أكثر فخامة، فإن فندق هيروشيما كان أكثر ضخامة.

فى المساء نزلت من أجل أن أتمشى فى الدور الأول. كانت تحكمنى فكرة أساسية واحدة؛ وهى التقابل بين الفناء والبقاء، الحياة والموت. إن استمرار الحياة فى هذه المدينة هو التحدى الأكبر لمن أرادوا صناعة الدمار فيها. لم أكن أتصور وجود حياة يومية هنا. تصورت قبل الحضور إلى هنا، أن الناس تحضر من أجل القيام بأدوارهم، ثم ينصرفون بعد ذلك إلى حيث المبيت وممارسة شئون الحياة فى مكان آخر.

عندما جاء الليل كانت مظاهر ومفردات وتفاصيل الحياة اليومية تتحدانى فى كل مكان أذهب إليه، وقد وصلت سعادتى إلى أقصى درجة لها عندما وجدتنى وجها لوجه أمام فرح. والأفراح هى قمة صناعة الحياة فى كل زمان ومكان. إنها اللبنة الأولى لفن صناعة استمرار الحياة نفسها، من خلال بناء المؤسسة الوحيدة القادرة على إهداء المجتمع أطفالاً جدداً.

عندما شاهدت الفرح اليابانى فى الدور الأول من الفندق، اعتبرت الفرح فألاً سعيدا. قلت هاهى فرصة نادرة غير قابلة للتكرار لكى أرى بأم عينى كيف يحتفل هؤلاء الناس بأفراحهم. فكرت فى الدخول مع الذين يدخلون، ولكن لاحظت من بعيد أن كل من يدخل

لابد وأن يبرز بطاقة الدعوة المكتوبة التى بيده، وكل واحد يدخل بمفرده لدرجة أننى لاحظت أن بعض المعازيم كان يترك زوجته تجلس فى انتظاره فى استقبال الفندق حتى يعود من الفرح .

بدا لى هذا التصرف أفضل ألف مرة من الحاصل فى بلادنا، حيث يذهب الإنسان بدعوة مفردة، ومع هذا يكون معه زوجته وأولاده، وياليته يتوقف الأمر عند هذا الحد؛ فى بعض الأحيان يصطحب أصهاره وجيرانه ومعارفه. الفرح فى بلادنا مرتبط بفكرة المولد الذى لابد وأن يكون صاحبه غائبًا، وهكذا يصل الزحام فى أفراحنا إلى حد الاختناق. إن الدعوة توجه إلى مائة مدعو. فيذهب أضعاف هذا الرقم. أيضا فى بلادنا يذهب من لم يُدع أصلا، مراهنا على أن أهل العريس لابد وأن يعتبروه من معازيم العروس، وأن أهل العروس يتصورون أنه معزوم من قبل أهل العريس. أمام هذا النظام اليابانى الصارم الذى وصل حتى إلى الأفراح رغم الفوضى الجميلة المحببة التى تكون عادة من علاماتها، جعلنى أفضل المشاهدة ولكن من بعد.

كانت العروس وبجانبها العريس يقفان فى صدر القاعة، وكل من يدخل القاعة لابد وأن يتجه إليهما؛ من أجل أن يقدم لهما التحية على الطريقة اليابانية. كان العريس يلبس الملابس الأوروبية السوداء اللون مع بابيون أسود بدلا من رابطة العنق التقليدية التى يرتديها الرجال بكثرة فى هذه البلاد. أما العروس فكانت ترتدى الكيمونو - الزى الوطنى اليابانى - ولم يكن هناك عازفو موسيقى أو أطفال ولا راقصة ولا تمر تقدم وفق ترتيب معين.

كل طقوس الفرح جرت هكذا . .

بعد أن اكتمل الحضور من الناس، وقد عرفت هذا من شغلهم للمقاعد المرصوصة على شكل مربع فى القاعة، وقف بعض المدعوين يلقون قصائد. عرفت أنها عن مزايا العروس، وذكريات عن العريس فى فترة ما قبل الزواج، وحكايات عن المستقبل الذى ينتظرهما معا. والبعض قدم لهما نصائح غالية عن الحياة الزوجية السعيدة.

بعد كل خطاب كان هناك تصفيق وانحناءات، وحرارة التصفيق كانت تختلف من كلمة لأخرى، وقد طالت هذه الخطب كثيرا لدرجة أنها استغرقت السهرة كلها. وقف المدعوون على شكل طابور طويل، وسلموا على العروس والعريس بالطريقة اليابانية، أى الانحناء ورفع الكتفين متقابلين أمام الوجه مباشرة. وكان العريس يقدم لكل مدعو لحظة انصرافه باقة صغيرة من الورد، لم يكن بها أكثر من خمس وردات فقط وعلبة صغيرة من الشيكولاته . . شكرا على حضوره.

كان هناك مدعو مهم. هو الذى انصرف أولا، وقد مشى معه عدد كبير من الحاضرين، ووقفوا معه حتى ركب سيارته السوداء الفاخرة، وانحنوا له حتى كادت جباههم أن تلامس الأرض، والسيارة تتحرك من أمام الفندق. يبدو لى أن هذا الرجل إما مسئول كبير أو غنى من أغنياء اليابان الكبار، وهذا واضح من طريقة تعاملهم معه. إما السلطة وإما المال؛ لكى يبدى الناس كل هذا الاحترام لأحد من الناس.

سألت عن طقوس عقد القران فقيل لى إنها قد تمت فى البلدية، وهى التى تقوم بإجراءات عقد القران، ويتم هذا صباحا. وقد عرفت أن البلدية تقوم بكثير من الأمور الموزعة عندنا على السجل المدنى والشهر العقارى ومكاتب الصحة والتموين. إنها تقدم كافة الأعمال المطلوبة من أجل تيسير الحياة اليومية للناس.

قبل هذا لا يوجد حفل خطوبة ولكن مجرد كلام، وهذا الكلام يعنى الارتباط، وإن كان معظم شبان هذه الأيام فى اليابان لا يقبلون على الزواج، ومعظمهم لا يرغب فيه أبدا. لم يكن فى الحفل طعام ولا شراب. تذكرت جبال الطعام والتباهى الاجتماعى بنوعية الأطعمة التى تقدم فى الأفراح عندنا وأدركت الفارق بين هذا وذاك.

عرفت أن هناك بعض الاختلافات فى الأفراح، من حيث التقشف أو البذخ ولكن هذا هو المتوسط الحسابى لما يجرى فى الأفراح. إن الفرح الذى شاهدته هو فرح ناس مستورين. أغنى قليلا من الطبقة الوسطى، وأفقر كثيرا من الأغنياء، سواء بسبب السلطة أو تراكم الأموال. هكذا تجرى الأفراح فى هذه البلاد، ويمكن القول إنها أفراح اقتصادية بالدرجة الأولى.

ميـــــلاد

لم أحضر عملية ولادة.

ولكن سألت عن طقوس الميلاد فى هذه البلاد، فقيل لى إنها عادية تماما؛ تذهب الأم الحامل إلى المستشفى، مستشفى الولادة الذى يحدده لها الطبيب الذى يتابع حالتها، وفى المستشفى تتم عملية الولادة، وهذا يتم على حساب التأمين الصحى، ومظلته تغطى الجميع؛ العاملين وغير العاملين وهو تأمين حقيقى وليس شكليا.

ومنذ سنة ١٩٤٦ وحتى الآن فإن القضية الأساسية بالنسبة للميلاد والمجىء إلى الدنيا

هى الخوف من التشوهات، من أن يأتى الطفل مشوها. كان هذا هو الهاجس الجوهرى، وكل ما عداه يدخل تحت بند التفاصيل الصغيرة. وهذا التخوف بدأ يقل كلما ابتعدت بهم السنوات عن منتصف الأربعينيات. لأن الظاهرة أخذت فى التراجع من حياة الناس، وقد عبرت هذه الظاهرة عن نفسها بقوة فى الأدب اليابانى المكتوب بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية. لقد انتهت الحرب ولكن بقيت هذه التشوهات التى أصابت العديد من الأطفال فى اليابان. والآن يتم التعامل معها باعتبارها من تراث الماضى.

سألت عن قواعد إطلاق الأسماء فى اليابان، فقيل لى إنها عادية. ليست لها محطات معينة، حيث نجد أنه من الممكن فى فترة معينة شيوع اسم قائد عسكرى أو حاكم. وفى هذه الحالة يطلق الاسم حتى لو كان اسم شركة حققت العديد من النجاحات.

أما تسجيل المولود الجديد فيتم عن طريق البلدية. وقد عرفت أنه بعد الميلاد والتسجيل ينتهى الأمر. وخلاله وقبله لا تقام أى احتفالات من أى نوع، وأنه لا تجرى عملية ختان للمواليد الإناث ولا عملية طهارة للمواليد الذكور. بل إن الناس فى هذه الأماكن لم تعرف هذه المسميات ولم تسمع عنها أصلاً.

الموت ووهم الخلود

بعد الميلاد والزواج كان لابد من السؤال عن طقوس الوفاة، قالوا لى إنه بعد حدوث الوفاة فإنه يسجل فى البلدية، ثم تسلم الجثة إلى المحرقة التابعة للبلدية، ومعها تكاليف عملية الحرق. والإنسان اليابانى فى سنوات عمره الأخيرة يدخر تكاليف الحرق هذه، ويتركها مع أقرب الناس إليه، لأنه بدون دفع تكاليف الحرق لا تتم العملية وهى تساوى عملية الدفن عندنا.

وإن كان الميت مؤمنا بأى دين من الأديان، فإنه يتم إحضار الكاهن أو القسيس أو الشيخ أو الأب الذى يمثل هذا الدين من أجل إقامة الصلاة عليه.

بعد يومين من عملية الحرق يحضر ذووه من أجل استلام التراب الناتج عن عملية الحرق، ويكون التراب فى زجاجة صغيرة، وتحمل هذه الزجاجة من أجل أن تدفن فى قمة جبل من الجبال، وتوضع فوقها وحولها الحجارة حتى تظل مكانها، ومكتوب على الزجاجة اسم الميت وتاريخ الوفاة، وإن سمحت مساحة الزجاجة تكتب بعض سجايا المتوفى.

وتنتهى الصلة بينه وبين الأحياء بمجرد وضع الزجاجة فى مكانها فوق قمة الجبل، بمعنى أن أهل المتوفى لا يقومون بزيارته فى المناسبات؛ لأن الزجاجة لا تعد من القبور حتى تزار لسبب بسيط هو أن المطر عندما يأتى فإن الزجاجة لا تبقى مكانها، تجرفها المياه وتصبح فى خبر كان مثلما أصبح صاحبها فى خبر كان أيضا.

إن فكرة الخلود لا وجود لها فى اليابان أساسا، وبالتالى لا وجود لكل العذابات الإنسانية الناتجة عن هذه الفكرة، ولأن الأرض محدودة. وهى الثروة الكبرى التى يملكها الوطن فإن دفن الجثث ممنوع منعا باتا فى هذه البلاد، ثمة قانون ينص على هذا. والجميع يحترم هذا القانون ولا يحاول الخروج عليه أبدا.

- ثاني عشــر -

عاصمة الـروح

اليوم الخامس.

الأحد ١٤ من نوفمبر ١٩٩٣.

خرجنا من فندق هيروشيما فى الساعة التاسعة إلا عشر دقائق. ركبنا السيارة التى كانت فى انتظارنا على باب الفندق. فى عشر دقائق بالثانية كنا فى محطة السكة الحديد. كان موعد القطار هو التاسعة والنصف. بحثت كريمة عن الرصيف ورقم الموضع الذى من المفروض أن نقف أمامه، حتى نصبح فى مواجهة الباب الذى سندخل منه للعربة التى يوجد فيها مقعدانا.

استأذنت كريمة منى لشراء مجلة رياضية، وهى مجلة خاصة بلعبة كرة القدم فقط، وهى غير المجلة التى اشترتها فى الرحلة السابقة من طوكيو إلى أوزاكا، والمجلة ثمنها ٤٠٠ ين أى حوالى أربعة عشر جنيها مصريا، وهى تعتمد على الصورة مثل اعتمادها على الكلمة. عندما ألقيت نظرة على المجلة اكتشفت أن مساحة الكتابة أو الكلام - كما نقول نحن فى مهنة الصحافة - قد تكون مساوية للصور أو الرسومات.

تحرك القطار فى موعده بالثانية قبل الدقيقة «أمر يثير الغيظ لابد وأن يخطئ هؤلاء اليابانيون ولو مرة واحدة، بلاد تعوم فوق نظام صارم. إن هذا يضايق من كان مثلى قادمًا إلى هنا من بلاد لا تعرف سوى الخطأ الذى وصل إلى ما بعد الفوضى».

مقعدى كالعادة لابد وأن يأتى بجوار النافذة. ألا ينسى هؤلاء اليابانيون شيئا ولو مرة واحدة يتيمة غير قابلة للتكرار؟! أعلنت المذيعة باليابانية ثم بالإنجليزية أن القطار سيقطع المسافة من هيروشيما حتى كيوتو فى ساعتين وثلث الساعة.

إن القطار يعامل هنا مثل الطائرة . أمامك شاشة تعرض عليها البيانات ، وإذاعة داخلية بصوت امرأة يتلوه صوت رجل ، وقبل كل هذا وبعده موسيقى ناعمة وهادئة . والقطار مثل باقى القطارات الأخرى التى استخدمتها ـ ملك شركة جى . آر . وهو حتى الآن ، أسرع قطار فى العالم يقطع حوالى ٣٠٠ كيلومتر فى الساعة .

ما أن تحرك القطار حتى دفنت كريمة وجهها فى المجلة ، وإن لم تكن معها مجلة فلا مفر من الكتاب اليابانى الذى معها ، حيث الكتابة مرة من فوق لتحت ، وأخرى من الشمال إلى اليمين ، ولا أعرف القاعدة التى يتم على أساسها ذلك .

نمت ، وعندما صحوت رحت أقرأ فى وجوه الناس ، وخوفا من الفضول الذى يشيع من وجهى ، ويندلق على الناس من حولى . ربما لا يفهمون أن الدافع إليه هو محاولة قراءة وجوه خلق الله . حالة من اللهاث الذى لا ينتهى وراء رفع الأقنعة التى يتخفى تحتها البشر والنفاذ إلى الماوراء ، والتسكع فى شوارع حياتهم الخلفية .

إن لم يفهموا هذا لا أعرف المدى الذى يمكن أن تصل إليه ردود الأفعال ، حيث إننى الآن غريب فى بلاد غريبة . صحيح أننى ضيف الحكومة اليابانية نفسها ، ولكن الحكومة فى هذه البلاد مثل سيدنا الخضر ـ عليه السلام ـ حاضر وغائب . من الصعب أن تضبط حكومة هذه البلاد متلبسة بالتواجد العلنى أبدا .

بعد أن صحوت من النوم ، تساءلت عن السر فى النوم الكثير فى هذه البلاد . من الممكن أن أنام طوال الوقت ، ولا أصحو إلا من أجل تغيير رقدتى ثم أستأنف النوم فورا ، وأظل هكذا حتى أصاب بالتعب من النوم نفسه ، ولكن فى مصر يبدو النوم بالنسبة لى طيفا عزيز المنال . ربما فى الجو شيء ما . قد يكون الطعام نفسه أو الشراب ، أو أحد مكونات الجو يحرِّض على النوم الذى بدون حدود .

أخرجت كتابى من حقيبتى ، مع أن السفر يحتاج إلى البحلقة فى الناس والأشياء والإنصات حتى لأصوات الصمت ، والثرثرة أكثر من القراءة . عموما إن الدرس الأول والأخير لى أن السفر بدون حبيبة كارثة ، وإن كان الأجداد قالوا : الرفيق قبل الطريق ، فأنا أقول : إن الحبيب قبل الطريق .

أخرجت رواية صالح مرسى «دموع فى عيون وقحة» ، ودفنت وجهى فى الكتاب أقرأ الرواية بعد أن شاهدت المسلسل أكثر من مرة ، والرواية سابقة على المسلسل الذى يبدو لى

الآن ربما كان أنضج من الرواية. عموما إنهما معا - المسلسل والنص - يصلحان لدراسة ميدانية عن تطور الكاتب واجتهاده الفنى.

ذهبت إلى دورة المياه، منذ أن أصابنى مرض السكر منذ سنوات والبحث عن دورات المياه، خاصة فى الشتاء، عذاب لا نهاية له، لدرجة أننى أصاب بحالة من الرعب أحيانا لمجرد تواجدى فى مكان لا توجد فيه دورة مياه، وأصاب برغبة سريعة فى التبول وأظل هكذا حتى أتأكد من وجود دورة مياه فى المكان.

وجدت فى هذا القطار - مثل غيره - دورات مياه أربع، مبولة فقط، دورة مياه يابانية قديمة مثل الكنيف الذى كان فى بيتنا الذى فى الضهرية قبل أن تدخلها المياه، ودورة مياه أفرنجية، ودورة رابعة ولكن للمعوقين. عرفت ذلك من الرسم الذى على الباب.

قتلنى الفضول من أجل دخول دورة مياه المعوقين، ولكن خجلت لا أعرف لمَ، ولم أدخل. وفى نهاية العربة كان هناك مكان للمعوقين يدخلون إليه بالعجلات التى يتحركون فوقها. كان يجلس فيه معوق ركب معنا من محطة هيروشيما، كان صبيا تجاوز المراهقة بقليل. أحضره والده حتى باب العربة وتركه لتدفعه الموظفة المختصة بسيارة المعوقين. كان الصبى جالسا فى العجلة وكان يدخن بشراهة، وسألت نفسى هل لتعويقه علاقة بهيروشيما؟ هل تعويقه من آثار التفجير الذى جرى فى هيروشيما منذ أكثر من نصف قرن؟!

المكان المخصص للمعوقين لا يزيد على مساحة تقف فيها العجلة وهو يتسع لعجلتين بالكاد. ماذا يفعلون إن كان عندهم أكثر من اثنين من المعوقين؟ كدت أتساءل: لماذا لم يوفر له التقدم العلمى اليابانى غير العادى عجلة تتحرك آليا بدلا من الاحتياج لمن يدفعه فى كل مرة؟ ربما كان هذا الفتى من فقراء اليابانيين؛ فشكل والده أقرب إلى العمال منه إلى الصفوة اليابانية التى من السهل أن تميزها من ملابسها وسلوكياتها.

بحثت فى دورة المياه عن حنفية مياه لكى أغتسل. أغسل يدى، لابد وأن أفعل هذا منذ أن كنت فى قريتى، حيث يرتبط التبول أو التبرز فى النفس بمعنى النجاسة وهو معنى دينى أكثر من كونه قضية نظافة. منهم لله أهلى فى الضهرية. وجدت الحنفية ولكنى لم أجد ما يفتحها أو يغلقها؛ حتى تنزل منها المياه ثم تتوقف. احترت و غلب حمارى. ولكن فى أثناء البحث فى كل مكان مررت بيدى تحت الحنفية فنزلت منها المياه فورا. سحبت يدى من تحتها فتوقفت المياه عن النزول بنفس الفورية.

وهكذا تصر اليابان على أن تفاجئنا كل لحظة بكل ما هو جديد. بعد أن عدت إلى مقعدى قلبت الأمر فى ذهنى. لابد وأن فى الحكاية خدعة ما. عدت من جديد إلى دورة المياه ولعبت نفس اللعبة مع الحنفية. نزلت المياه، عندها مددت يدى وتوقفت عندما سحبتها.

سألت كريمة عن هذه الظاهرة الجديدة على الأقل بالنسبة إلى، فردت على بكلمة واحدة: ترشيد. قلت لها: لا إنه تقدم علمى فاق حتى الخيال البشرى. قالت لى: إن الهدف مما رأيته هو الترشيد فقط، وليس أى تقدم علمى ولا غيره، فاليابان ليست فى حاجة لكى تثبت أنها متقدمة؛ لأن هذا من بديهيات النصف الثانى من القرن العشرين، ولكن ما تحتاج اليابان فعلا هو ترشيد استخدامات المياه العذبة.

هذه الظاهرة تكررت فى المطعم الذى تناولنا فيه الغذاء فى كيوتو. فعندما ذهبت إلى دورة المياه الخاصة بالمطعم. ودورة المياه فى أى مكان - عام أو خاص - تحظى بأكبر قدر من الاهتمام هنا. وعندما تذهب إلى البيت اليابانى ستجد أن دورة المياه هى مكان الخلاص. ليس من الفضلات البشرية، ولكن من الاحساس بضيق الشقة. إن دورة المياه هى أوسع مكان فى الشقة الصغيرة أساسيا مع أننا مازلنا نسميها فى شقق الأحياء الشعبية المصرية «عفشة الميه».

ما أن دفعت باب دورة مياه المطعم حتى أضاء النور، وما إن أغلقت الباب حتى انطفأ، نفس الشىء حدث مع المبولة، ما إن انتهيت من التبول حتى نزلت منها المياه. ولكن كريمة بعد عودتى إليها متهللا لم تجد ما تقوله عن كل هذه الاكتشافات سوى الكلمة التى تتمترس عندها وهى كلمة: ترشيد. وأنا حائر فى إعجابى الذى وصل إلى مدى غير معقول.

وعندما عدت إلى مصر وحكيت لنجيب محفوظ وجمال الغيطانى عن هذه الأعاجيب التى رأيتها فى اليابان. فاجأنى نجيب بقوله: إن مصر عرفت هذا كله فى السنوات الأخيرة من الأربعينيات. لمحت فيما يقوله نجيب محفوظ مقدمة للهجوم على مشروع يوليو. فقلت له: لابد وأنه كان فى قصور باشوات العصر الملكى، فقال لى: لا، كان فى محل جروبى على ما أذكر. وحتى نخرج من هذه المناقشات سألنى: لماذا لا تكتب كتابا عن رحلتك لليابان وأثرها الذى تركته فى نفسك؟ قلت له: هذا ما أقوم به الآن.

آثـــار لا ..
ثروة وطنية نعم ..

توقف القطار فى محطة كيوتو . وطبعا أعلنت المذيعة عن ذلك من قبل بصوت ناعم كالحرير، وصوت رجالى بعدها يقول نفس ما قالته المذيعة، والموسيقى من ورائهما . قمنا، حملت الحقيبة ونزلت . ما أن وقفنا على الرصيف حتى توقفت كريمة، لم تتحرك . . قالت إن السائق هذه المرة من المفروض أن يقابلنا هنا وليس خارج المحطة . كما فعل معنا من قبل السائقان السابقان سائق أوزاكا، وسائق هيروشيما .

لم أفهم الهدف من ذلك أكثر من أنه نوع من استعراض العضلات؛ عضلات التنظيم اليابانى بصورة مذهلة أمامى، وخروجًا على ملل الروتين . ثوان معدودات وجاء السائق تسبقه انحناءاته التى تكاد أن تصل بجبهته إلى الأرض . حمل حقيبتى وحقيبة كريمة بعد أن عرفنا وعرفناه قبل أن يعلق الورقة المكتوب عليها : مؤسسة اليابان، التى تبدو مثل كلمة سر الليل بين أفراد الجيوش المتحاربة تحت ظلام الليالى .

وسائق كيوتو مثل سائق هيروشيما . سائق ودليل سياحى . ما أن تحركت السيارة حتى بدأ يتكلم مع كريمة . يشرح ويحكى ويقول وهو يتقن قيادة السيارة مع الكلام وثقافته السياحية مرتفعة جدا . قال لكريمة التى كانت تترجم لى بدورها : إن كيوتو كانت العاصمة اليابانية حتى قبيل إصلاحات مايبجى العظيم فى ستينات القرن الماضى ثم نقلت العاصمة إلى طوكيو . الغريب أن العاصمة قبل أن تنقل إلى كيوتو كانت فى طوكيو وكانت المدينة تحت مسمى آخر غير طوكيو . وبعد نقل العاصمة إلى طوكيو، ظلت كيوتو يقال عنها العاصمة القديمة، وتذكر أيضا باعتبارها العاصمة الثقافية لليابان بل والحضارية .

عندما قالوا تعبير العاصمة الثقافية، تصورت أن فيها دور النشر مع حركة ثقافية قوية، ولكن هذا لم يكن صحيحا . كان السبب فى هذه التسمية هو وجود عدد كبير من الآثار فيها، وبالمناسبة فهم فى اليابان لا يحبون استخدام كلمة الآثار ولا يستخدمونها أبدا . يبدو أن كلمة الآثار اختراع مصرى . فى اليابان يقولون عن الأثر الذى فى مستوى الأهرامات مثلا : ثروة وطنية كبرى . والآثار التى فى مستوى أقل، يقولون عنها مرجع ثقافى مهم . أما تعبير الآثار التى تعطى الانطباع بالماضى أو ما تبقى من هذا الماضى فهم لا يميلون إلى استخدامه، وقد استغربوا عندما سمعوه منى .

بدأنا الجولة فى شوارع كيوتو. وبرنامجى فى كيوتو كان عبارة عن زيارة لبعض المعابد البوذية القديمة، وبيت الحاكم الذى قرر فى القرن الماضى عودة النظام الإمبراطورى إلى اليابان. المعبد البوذى الذى كان يستخدمه الحاكم فى الإقامة مطلى بالذهب الخالص، ومحاط ببحيرة واسعة وحول البحيرة سياج من الشجر. وهذه المكونات مازالت موجودة فى اليابان حتى هذه الأيام. الحدائق الخضراء التى تتحول ألوانها فى الخريف إما إلى اللون الأحمر أو الأصفر، والماء والسماء والهواء. إن الطبيعة لها بعد مهم فى تركيبة الجمال اليابانى، والزوار يلفون حول المعبد من مكان بعيد ولا يقتربون منه، وبعض المعابد ممنوع التصوير فيها، والمعبد الذى أصبح مقرا للحاكم مبنى من الخشب بنفس النمط المعمارى اليابانى القديم، والجديد هو طلاء الذهب الذى يحيط به من كل جانب.

ذهبنا إلى معبد آخر، وبعدها خلعنا الأحذية؛ ذلك لأن اليابانيين لا يدخلون إلى أى معبد بالأحذية، بل يخلعونها على الباب، وتوضع فى دواليب مثل المساجد. ولكنك لا تدفع أموالا من أجل ترك الحذاء وعندما تعود تجده. وبعض المعابد يقدم لك العاملون فيها شبشبا، وبعضها الآخر يتركك تمشى بالشراب. ولكن فى هذه المعابد كلها لابد من دفع مبلغ يتراوح بين ٣٠٠ و٥٠٠ ين يابانى من أجل دخولها؛ أى من حوالى عشرة إلى سبعة عشر جنيها من أجل الدخول.

وقد تأكدت من عدم وجود فئة واحدة من أبناء الشعب اليابانى مستثناة من الدفع. لا شرطة ولا جيش ولا صحافة ولا دياولو. الكل يدفع والجميع يقف فى طابور. والطوابير فى هذه البلاد طويلة ولا نهاية لها. معظم الواقفين من اليابانيين وقلة من السياح الأجانب. واليابانى رغم أنه السائح رقم واحد فى العالم من حيث العدد، فإنه لا يتقن السياحة الداخلية. وقد استلفت نظرى رحلات المدارس والأسر التى تخرج، وتقوم بجولات بهدف أن يرى أطفالها قبل كبارها أمجاد بلادهم، والاهتمام بهم والشرح لهم بما يوحى أن الهدف الحقيقى من السياحة هو الأطفال.

المعبد الثانى، الذى ذهبنا إليه له قصة تقول إن الحاكم الذى كان يسكن هنا حارب دفاعا عن اليابان. وخلال الحرب احترق قصره تماما. وبعد الحرب لم يكن معه ما يمكن أن ينشئ به حديقة حول قصره الجديد، لأن أمواله كلها قد استنفدت فى الحرب. فأحضر مهندسا وطلب منه أن ينشئ له حديقة حول القصر بشرط ألا تتكلف ينا واحدًا، لأنه لا يملك هذا الين. وهو لا يستطيع الاستغناء عن الحديقة فى قصره أبدا. فكر المهندس طويلا وحصل

على أجزاء من الطبيعة من الأمكنة المحيطة بالقصر، ومنها شكّل للحاكم حديقة جميلة وبديعة دون أن تكلفه أى مبالغ مالية.

الغريب أن كتب التاريخ تقول إن الحديقة التى خرجت إلى الوجود بالجهود الذاتية أصبحت أجمل حديقة فى اليابان كلها وذلك لعدة سنوات طويلة. ومازالت حتى اليوم يقولون عنها: لا حد لجمالها. وقد وقفت طويلا أمام هذه الحديقة الصغيرة جدا، وقد حاولت الوصول إلى المعنى الذى تستند الحكاية إليه. وعندما قلت لكريمة إنها أسطورة يابانية جميلة، غضبت قائلة إن حكاية الحديقة قد تمت بعيدا عن زمن الأساطير بوقت طويل وإنها حقيقية، وقد فسرت كلامى على أنه هجوم بقدر ما كان نوعا من التوصيف.

المعبد الأخير الذى زرناه كان فقيرا وكان مقرا لحاكم البلاد الذى تلا الإمبراطور صاحب الإصلاحات الكبرى. والمعجزة التى شاهدتها فى القصر كانت عبارة عن أن المبنى كله من الخشب دون أن يستخدم فى بنائه سوى الخشب بمعنى أن المسامير لا وجود لها فى هذا المبنى. الأسقف والحيطان عليها رسومات نادرة مرسومة باليد، ويخيل إلى أن العمال الذين صنعوا هذا المعبد يعدون بالآلاف، ولكن الذى يصل بك إلى حد الذهول هو أن أرضية مدخل المعبد مصنوعة من خشب وضع بطريقة تجعله يصدر صوتا مثل شقشقة العصافير عندما يدوس عليه أى إنسان.

وقد سمعت هنا الصوت أكثر من مرة، والهدف من وراء الصوت أمنى بالدرجة الأولى حتى يضمن الحاكم ألا يدخل قصره أحد، ويتسلل إليه دون أن يعرف. إن عمر القصر أكثر من نصف قرن؛ حوالى ستمائة سنة بالتحديد، ومع هذا مازال هذا الصوت يصدر بمجرد أن يدوس عليه الإنسان ولم يتغير أى شىء فيه.

المدخل ثم قاعة واسعة كانت مخصصة لمقابلات الحاكم وقاعة أخرى فيها تماثيل لحكام الولايات التى يتكون منها اليابان، وهم يجلسون على مستوى أكثر انخفاضا من المستوى الذى يجلس عليه الحاكم، وكلهم يحنون رءوسهم إلى الأرض. إن الأدب اليابانى المعاصر لنا، والذى ندهش منه أحيانا، له جذوره الضاربة فى التاريخ اليابانى القديم. والكل يرتدى الكيمونو، وهذه أول مرة أعرف أن الرجل اليابانى له كيمونو مثل النساء.

على يمين الحاكم صبى صغير يحمل سيف سيده. أما حراس الحاكم فهم يقفون وراء الباب مباشرة، ولا يحضرون الاجتماع. كان الحاكم يشير بيديه، والصوت الذى نسمعه ويصف ما نشاهده ونحن نمر يقول إن هذه كانت جلسة تاريخية قرر فيها الحاكم

العسكرى لليابان عودة الأسرة الإمبراطورية إلى الحكم وإن جميع الحاضرين قبلوا القرار ورحبوا به.

الناحية الأخرى من قصر الحاكم كان حجرة يجلس فيها الحاكم يرتدى الكيمونو اليابانى وبالقرب منه امرأة، وعلى مستوى منخفض تجلس حوالى خمس نساء منهن واحدة تقدم له الشاى بالطريقة اليابانية التقليدية المعروفة، وقال الصوت الذى يصف ما يجرى إن اللاتى مع الحاكم هن من الخادمات ولسن زوجاته كما تصورنا فى البداية.

هذا القصر المهول مساحته لا تصل إلى نقطة فى بحر، إذا ما قورن بقصر الإمبراطور الذى كان مشيدا فوق مستوى أعلى من بيت الحاكم. ولكننا للأسف الشديد لم نتمكن من الدخول إليه. لابد من الحجز قبل دخولنا بفترة كافية. أولا: بسبب الزحام، والرغبة العامة فى دخوله، وثانيا: لأن القصر مايزال ملكًا للأسرة الإمبراطورية. أى أنه ملك خاص ولم ينقل إلى الملكية العامة. ولذلك لابد من مراعاة بعض الأصول فى استخدامه. اكتشفت أننى لم أزر منذ حضورى إلى اليابان أى أثر عبارة عن قبر. كل ما زرته معابد كانت فى الأصل مقار حكام. ألا يقول ذلك شيئا لك عن هذه الحضارة؟!

كان يوما متعبا. وبعد الغداء فى أحد المطاعم صعدنا على الجبال التى تحيط بالمدينة من ثلاث جهات ماعدا الجهة التى توصل بأوزاكا. الجبال عالية جدا وصعودنا كان بالسيارة. إنها المرة الأولى فى حياتى التى أشاهد فيها جبالا خضراء. عالم يصل الأرض بالسماء، يلحمها باللون الأخضر. الجبل فى الذهن عبارة عن رمال وصخور وأحجار، واليابان نفسها فى الذهن صخور وبراكين. قالت لى كريمة: إن أول من وصلوا إلى اليابان من الصين كانوا يصابون بالذهول عندما يرون الجبال الخضراء أمامهم لأنهم قادمون من بلاد جبالها صفراء.

الجبال هنا نوعان: النوع الأول بالقرب من المدن، والطريق المؤدية إليها والتى تمتد عليها ناعمة مثل الحرير، والنوع الثانى من الجبال موجود بالريف. حيث تجد عمدان الكهرباء تغطى هاماتها معلنة عن رسالة العمران الأولى فى هذا الزمان اليابانى العجيب.

بدت لى كيوتو منخفضة وسط الجبال. قالت لى كريمة إن مكان المدينة كان بحيرة وبعد أن جف الماء فيها بدأ البناء. والمدينة القديمة كانت تحتل جزءا أصغر من هذا الحجم فى الزمان القديم ولكنها امتدت بعد ذلك. سنة ١٩٩٤ مرت مائتا سنة على تأسيس كيوتو.

ورغم اتساعها المكانى وامتدادها الذى يبدو واضحا من فوق الجبل، فإن سكانها لا يزيدون على مليون ونصف مليون نسمة.

كنت أقف فوق الجبل وسط الخضرة الهائلة. وأقارن الموقف فى عقل بالى بجبل المقطم الذى لا ينزل منه فوق القاهرة سوى التراب، ولا يصعد عليه سوى عشاق آخر الليل، ولا تتذكره حكومتنا الرشيدة إلا عندما تقرر القيام بكبسة على العشاق. تعاقبهم على العشق وتصادر السيارات التى يستخدمونها.

وحكومتنا ترفع فى وجوههم شعارات الحلال والحرام. مع أن هذا لا يخدم سوى توسيع المرجعية الدينية فى المجتمع، وهذا يصب فى خانة الإرهاب والتطرف، وفى النهارات الطويلة تتكلم الحكومة عن كمية التراب التى تنزل من فوق المقطم يوميا على القاهرة. ونسبة التلوث والأخطار الناتجة عنه. والحل بسيط وسهل ألا وهو زراعة جبل المقطم بالخضرة والحياة.

الجبال هنا خضراء. لو بحثت عن رملة أو زلطة فيها ستدوخ السبع دوخات قبل العثور عليها إن وجدتها أصلاً. الجبال فى هذه البلاد تستغل سياحيا. فقد دفعنا عند الصعود إليها ثمن تذكرة قدره ٤٠٠ ين للفرد الواحد علاوة على مطاعم ومقاه ومحلات لبيع الهدايا التذكارية. وأفواج السياح فى صعود ونزول وشرطة المرور موجودة فقط من أجل تنظيم المرور لأن طريق الصعود إلى الجبل متعرج بصورة مفزعة، فكم تكسب البلاد من هذه الجبال الخضراء! ألا يكفى اليابانيون شركات الصناعة الكبرى؟ إنها موجودة وشركاتها تغزو العالم ولكن ما المانع من وجود غيرها؟!

مازالت أمامى زيارات فى كيوتو مؤجلة إلى الغد. وكان من المفروض أن نقضى الليل هنا. ولكن فنادق المدينة رغم كثرتها غير العادية لم تجد المؤسسة التى أجّرتها مؤسسة اليابان من أجل عمل إجراءات الزيارة. لم تجد سريراً واحداً خاليا. لهذا سنعود إلى أوزاكا بالسيارة لعدم وجود قطارات فى هذا الوقت من النهار. أو ربما من أجل أن أجرب الطريق مرة بالسيارة وأخرى بالقطار. علينا أن نذهب إلى أوزاكا فقط من أجل قضاء سواد الليل هناك والعودة إلى هنا صباحًا.

كل طريق فى اليابان عليك أن تدفع رسوما قبل السير عليه وإلا ممنوع الدخول. وكل مكان انتظار للسيارات لابد من دفع رسوم مقابل الوقوف. وهذا ما يتم مع محطات البنزين؛ تحصل على ما تشاء من البنزين وتدفع عند الخروج من المحطة بصورة آلية. وكل

هذه الأمور لا يقوم بها أحد من العمال . فالتقدم العلمى يقوم بالمطلوب كله . والصندوق الذى تدفع فيه سواء فى الطريق أو مكان الانتظار أو محطة البنزين يفتح لك أوتوماتيكيا ، وذلك بعد أن تحصل من آلة أخرى على ورقة تحدد لك المبلغ الذى من المفروض أن تدفعه . وتدفع فينفتح لك باب الخروج ، وبدون الدفع لا يفتح أبدا .

المشكلة الوحيدة التى صادفتها ـ وكنت سعيداً لأنه هنا أيضا مشاكل ـ كانت الارتباك المرورى من كيوتو إلى أوزاكا . لقد وقفنا طويلا فى الإشارات . سألت فقيل لى إن السبب يعود إلى أن اليوم هو الأحد . والجميع يعودون الآن إلى بيوتهم فى هذا الوقت المسائى ؛ لأن غدا هو صباح الاثنين ، وهو بداية الأسبوع حيث يبدأ الكل العمل والنشاط احتفالا ببداية أسبوع جديد .

ـ ثالث عشـــر ـ

كل إنسان يمكنه أن يكون بوذا

اليوم السادس،

الاثنين ١٥ من نوفمبر ١٩٩٣ .

كيوتو مرة أخرى وأخيرة .

خرجنا من أوزاكا فى التاسعة والنصف صباحًا .

قضيت الليلة السابقة فى نفس الفندق الذى نزلنا فيه عند زيارة أوزاكا . فندق «رويال أوزاكا» . وهو مبنى ضخم وهائل ويبدو أن التعمد فى بناء هذه المبانى المهولة يعود إلى الرغبة فى تعويض حالة الجوع للمكان . أحاول الآن أن أتخابث وأقول إن قزمية الإنسان اليابانى هى التى تدفعه إلى تعويض هذا فى المبانى التى تحاول وصل السماء بالأرض .

حاولت الاتصال طوال الليلة السابقة بالصديق عبدالمنعم تليمة ولكن دون جدوى . فشلت فى الاتصال به على الرغم من أن الرقم الذى كنت أطلبه عليه من القاهرة قبل سفرى بسهولة تامة كان معى . هذه المرة لم أعرف السبب فى ذلك . لابد وأن هناك خطأ ما أو ربما أصيبت تليفونات اليابان بعدوى تليفونات مصر ، هذا جائز . فرحت للمرة الثانية لأن هناك مشكلة ما هنا تعد الثانية بعد المرور المتعكر .

فى التاسعة والنصف صباحا تحركنا بالسيارة وكان الطريق مزدحما بصورة لا تطاق . كان من المفروض أن نقطع الطريق فى نصف ساعة ولكن الوقت الذى استغرقناه امتد إلى الساعة ونصف الساعة بسبب الزحام الشديد . القطارات هى وسيلة المواصلات الأولى فى هذه البلاد ، هكذا يخيل إلى . وغير القطارات مشاكله كثيرة رغم أننى تصورت فى البداية أن السيارة أفضل ألف مرة من القطار . فهى على الأقل سيارة خاصة تعمل بالبوتاجاز ولها

سائق ينحنى لنا كلما تحركنا من السيارة أو إليها. ولكن القطارتضبط عليه ساعتك وحياتك.

سألت كريمة عن وسيلة المواصلات الأولى فى هذه البلاد بعد تأملاتى الخاصة. قالت فورا وبدون أى تردد: القطارات. قلت لها: مع أننى لم أشعر بأهمية القطار فى الأدب اليابانى؛ بمعنى أن القطارات لا وجود لها فى الأدب الذى قرأته. سألتنى عمن قرأت له. قلت. ميشيما وكاوباتا. قالت لى: ربما قرأت لهما نماذج لا وجود للقطارات فيها. ولكن هناك نماذج أخرى، القطار موجود فيها بصورة واضحة. أكدت كريمة أن أدبيات القطار موجودة فى الأدب اليابانى، وإن لم تحدد لى فى أى الأعمال.

وصلنا إلى كيوتو متأخرين، ولذلك اتجهنا فورا إلى المعابد. أول معبد ذهبنا إليه كان أعجب المعابد التى رأيتها خلال زيارتى لليابان. فى المعبد ألف نسخة من بوذا. وكل نسخة لا تشبه الأخرى، والألف نسخة تقف بجوار بعضها على شكل طوابير. تصورت فى البداية أن المعبد يحاول أن يؤكد فكرة شبيهة بالفكرة الإسلامية. حيث قدرة الخالق على أن يخلق ملايين البشر دون أن يكون هناك شبه بينهم، كل واحد منهم مختلف عن الآخر تماما. ولكن كريمة قالت لى إن الهدف من المعبد مختلف عن تصورى، فهو يريد أن يقول إن كل مواطن عادى يمكنه أن يصبح بوذا هو الآخر بشرط أن تتصرف كما تصرف بوذا.

طبعا خلعنا الأحذية قبل الدخول إلى المعبد، وأمام تمثال بوذا الرئيسى الذى يعد أكبر ما شاهدته حتى الآن، كان الناس يتحركون بجانبهم حتى لا يعطيه أى واحد ظهره، وكانوا ينحنون أمامه بعد أن يضم كل منهم يده اليمنى على يده اليسرى ويبدى غاية الاحترام. كان كل واحد يخرج أمواله ويرميها فيما يشبه صندوق النذور عندنا، وذلك من أجل أن تستخدم هذه الأموال فى صيانة المعبد والإنفاق عليه. كانت ضخامة المعبد ونظام وقوف بوذا يثيران الرهبة فى النفوس. أعداد اليابانيين الذين يزورون المعبد مهولة. وأغلبهم على شكل مجموعات سياحية. وكل مجموعة لها قائد، وهذا القائد يرفع علما له لون معين، وعليه كتابة بذاتها، وفى يده الأخرى ميكروفون يستخدمه وهو يشرح لمن معه.

إن سياحة «اعرف بلدك» هى اللبنة الأولى فى إرساء أسس الانتماء للوطن. وأغلب الأفواج السياحية التى شاهدتها من تلاميذ المدارس كانوا يزورون المعابد وهم يلعبون ويمرحون ويتفرجون ويتعلمون التاريخ القديم لبلادهم.

إن كانت الشنتو هى الديانة اليابانية القديمة. فإن البوذية لها تأثير واضح هنا. رغم أنها

قادمة من بلاد بعيدة هى الهند. قالت لى الآنسة موروكا إن هذا لا يعنى وجود حرب دينية أو طائفية فى اليابان. فالشعب اليابانى علمانى بطبعه والدين لا يخرج من باب المعبد بأى حال من الأحوال.

وقفت أمام بوذا وفكرت فيما لو كانت جهود الفاتحين الأوائل فى صدر الإسلام قد اتجهت شرقا بدلا من الاتجاه إلى الغرب. إن هذه البلاد كانت هى المهيأة لتقبل الدين الإسلامى والتفاعل معه. والإيمان به بدلا من أوروبا التى دخلت حروبا ضد الإسلام ومازالت تمارس هذه الحروب الغربية ضد المسلمين حتى الآن. ربما كان الإسلام قد وجد أرضا خصبة هنا.

عندما خرجت من المعبد لاحظت وقوف عسكرى مرور لون ملابسه هو الكحلى الغامق. وهناك صبى صغير يقف فى منتصف الشارع ويلبس ملابس برتقالية ،بيده عصا يشير بها للسيارات. سألت عن الفارق بين هذا وذاك. قالت لى كريمة إن الأول هو عسكرى المرور العادى. لكن هذا الصبى يقف هكذا لأن بلاعة مفتوحة فى منتصف الشارع، والشركة التى فتحت البلاعة مسئولة عن تعيين فرد هنا كل أوقات الليل والنهار على مدى الـ٢٤ ساعة، لكى ينبه المارة إلى خطر البلاعة، سواء أكان المار يركب سيارة أو يمشى على قدميه. إن هذا الصبى يقف رغم أن مكان البلاعة محاط من كل الجوانب بسور عال.

شاهدت هذا واستغرقت فى التفكير من جديد. طار بى الفكر إلى الوطن الذى لم أغادره بخيالى لحظة واحدة. إنها بلادى التى لم أتمكن من إخراجها من داخلى أبدا. أحملها فوق كتفى أينما كنت. تساءلت: كم من أطفال مصر ماتوا فى بلاعات؟ لأنه لم يكن هناك من ينبههم أو حتى يهتم بهم؟ مساكين أطفال مصر وناس مصر؛ لأن الإنسان هو أرخص ما عندنا.

تذكرت أن تليفزيون أوزاكا فى الصباح قد قطع إرساله فجأة، من أجل أن يعلن خبر وفاة مواطنة فى حادث سيارة من حوادث الطرق العادية. وقد انتقلت الكاميرات إلى المكان الذى وقع فيه الحادث وصورته، وقدمته للناس باعتباره خبرا مهما يسبق حتى الأخبار السياسية. مازلت أذكر أن الخبر عندما أعلن فى التليفزيون الكبير الذى كان فى مطعم فندق رويال أوزاكا. فإن الكل ترك ما فى يده واتجه إلى التليفزيون لدرجة أننى تصورت أن انقلابا عسكريا قد وقع فى اليابان وقد تصورت أن أمراض العالم الثالث

تطاردنى حتى فى اليابان، وتكدر خاطرى صباحًا؛ لأن هذا معناه أن أعود طائعا مختارا إلى مشنقة كارثة العمر التى اسمها الصحافة.

المعبد الثانى الذى ذهبت إليه كان قد تعرض لعملية تجديد شاملة مسخته وربما شوهته. حيث تم طلاؤه بلون برتقالى فاقع وهكذا فقد المعبد سمته القديمة ولم يصبح جديدا. الجديد الذى شاهدته فى هذا المعبد أن الأطفال فى سن الثالثة وحتى السابعة من العمر يحضرون مع أهلهم، ويتم ترتيل الدعوات. إنه شىء أشبه بالتعميد فى المسيحية. والطفل أو الطفلة يلبس أزهى ما عنده من الثياب. وفى الغالب هى الثياب الوطنية فى اليابان. وإن كانت ملابس الفتيات أزهى وأجمل ألف مرة من ملابس الأطفال، فعلاوة على الكيمونو هناك كثير من الفضة والذهب الذى يكون له صوت رنان عند المشى.

لاحظت أن الذين يقومون بهذه الطقوس الدينية شبان صغار السن، وليسوا كباراً مثل رجال الدين التقليديين فى كافة الأديان الأخرى، لكن المتغير الوحيد فيهم كان ملابسهم فقط؛ فهم يلبسون ملابس رجال الدين فى العصور الوسطى، وهى بيضاء للرجال وملونة للنساء. كان هناك فتى يدق الطبل عن طريق شد حبل مربوط فى أعلاه بخشبة، عندما تتحرك فتخبط فى قرص نحاسى. ثم تقدم شاب إلى مكان مرتفع وبدأ يرتل الصلوات باللغة اليابانية القديمة. ثم لوح بمنشة مصنوعة من الريش الأبيض، ودار بها نصف دورة على الأطفال الجالسين. وكان الأطفال يجلسون مع أهاليهم على كراسٍ فى مكان منخفض، ثم جاءت امرأة بعده وكررت ما قام به.

لم يستغرق الأمر أكثر من عشر دقائق، وعرفت أن أسر الأطفال يدفعون رسوما من أجل هذه الصلوات. علاوة على رسوم تدفع من أجل الدخول إلى المعبد. على أن أجمل ما كان فى هذا المعبد كان الحديقة التى تحيط به مياه وأحجار ومزروعات وأسماك تجرى فى الماء. وكل هذا يلف على شكل دائرة حول المعبد من كل جانب.

المعبد الثالث الذى زرته كان اسمه «معبد المياه المقدسة» وهو مبنى فى مكان مرتفع جدا. والبناء من الخشب فقط. ومنذ العصور الوسطى، هناك مثل شعبى يقوله اليابانى تعبيرا عن المجازفة والإقدام على مغامرة صعبة من المستحيل أن تتكرر فى حياته، فيقول: «كأننى قفزت فى الهواء من معبد المياه المقدسة». وذلك دليل على عمق المغامرة التى أقدم عليها. ويقولون فى اليابان ـ القديمة والحديثة على السواء ـ إن من يقفز من المعبد المقدس وينجو فلن يصيبه أى ضرر فى حياته بعد ذلك أبدًا.

الجميل فى هذا المعبد أن الإنسان لا يخلع حذاءه عند الدخول إليه، والصعود إلى

مكانه والنزول منه متعة نادرة. وفى كل مكان حوله مقاه ومطاعم وأماكن أخرى تقدم المشروبات والمأكولات وفى منتصفه تنزل المياه المقدسة، وهناك طابور طويل على الشرب منها؛ يقف فيه اليابانيون على شكل طابور ومن يسعده حظه وزمانه هو من يفوز بالشراب من هذه المياه.

فى يد كل منهم ملعقة طويلة يمدها وفى آخرها حلة صغيرة أيضا. كل الأشياء هنا صغيرة، تذكرك ببكارة الأشياء الصغيرة التى كنا نستخدمها فى طفولتنا البعيدة. ولكن المبانى شاهقة عملاقة كنوع من المواجهة المستحيلة للزلازل التى يخيم شبحها على كل مكان فى هذه البلاد، وفى جميع أوقات الليل والنهار.

وفى كل المعابد التى ذهبت إليها بخور فى الجو، ولكن دخانه جعل عينىَّ تدمعان. وهم يحرقون البخور بحثا عن البركة. وفى هذه المعابد شموع من أحجام مختلفة وإن كان معظمها يميل إلى الضخامة. كل زائر يشترى شمعة ويشعلها تبركا بأصحاب المعبد، وهو نفس ما تقوم به العامة عندنا حول أضرحة أولياء الله الصالحين فى مصر.

فى كل معبد عدد من الكتبة الذين يكتبون الأمنيات التى يتمناها أى شخص بعد أن تدفع له مبلغا من المال، ثم تضع ورقة الأمنيات فى صندوق بالقرب من أهم مكان فى المعبد. وينصرف الإنسان وهو يتصور أن أمنياته قد تحققت بمجرد كتابتها، وقد لاحظت هذا الأمر بقدر كبير من الدهشة. ذلك أنه يبدو أن التقدم العلمى الهائل الذى جرى فى اليابان لم يمنع الناس من أن يبحثوا عن هذه الروحانيات.

وعلى الرغم من أن دستور البلاد لا يستند إلى أى ديانة من الديانات، ومن المسموح به لأى إنسان أن يكون بلا دين، إلا أن البحث عن الإيمان مسألة مهمة بالنسبة للناس. لكنى لاحظت أن الذين يفعلون هذا هم من المتقدمين فى العمر أو الذين يقفون فى منتصفه أو الأطفال الصغار الذين يذهب بهم أهلهم إلى المعابد، وطلبة المدارس الذين يذهبون بشكل جماعى فى رحلات. وحول أى معبد يمكنك شراء كل ما تحتاج إليه.

نزلنا إلى المدينة بحثا عن مطعم لتناول طعام الغداء. وتلك هى الوجبة الوحيدة التى لا أتناولها فى مطعم فخم. كانت مواعيد المطاعم قد انتهت وأغلقت أبوابها. وهكذا تنقلنا بين أكثر من مطعم. حتى عثرنا على كافتيريا صغيرة فى شارع جانبى قدمت لنا طعاما أقرب إلى الأطعمة التى نتناولها فى منازلنا فى مصر، ولكن الكميات كانت أكثر من محدودة.

دفعت حوالى ألفى ين، أى ما يوازى سبعين جنيها مصريا، أكلت بها قطعة بوفتيك وبجوارها قليل من الأرز والبطاطس وطبق سلاطة وجهه الخارجى يبدو منه أنها سلاطة خضراء، وإن كان الطبق عبارة عن قطعة طماطم واحدة وقطعة خيار صغيرة، وشىء أخضر تصورت أنه خس، ولكن اتضح لى أنه كرنب، ومعه مكرونة خارجة لتوها من الثلاجة وبطاطس من الثلاجة.

أجمل ما كان فى الغداء كان كوبا من الشاى الذى لا يصنع سوى فى كيوتو، أى شاى ثقيل مثل الشاى الفلاحى المصرى. وهذا الشاى لم أتناوله سوى هنا فى كيوتو. كنا نأكل وكان السائق يجلس فى السيارة التى كانت تقف أمام المحل مباشرة. وقد سألت كريمة عن طعام السائق. لماذا لا يتناول غداءه الآن مثلنا؟ قالت لى: إنه الآن فى العمل ولا يجوز له أن يأكل. سألتها: ألا يصح أن ندعوه كى يأكل معنا؟ قالت لى: إن هذا ممنوع، والتقاليد ضد هذا، علاوة على أنه يحصل على مرتب كبير جداً. كنت قد لاحظت أن السائق فيه طيبة نادرة. وقد قالت لى كريمة إن أهل كيوتو يتميزون بهذه الطيبة النادرة.

كانت الشوارع مزدحمة والإشارات تحجز عددا هائلا من السيارات. وكان موعد القطار قد أزف؛ ولهذا تحول السائق اليابانى إلى سائق مصرى ترك الشوارع العمومية التى كان يمشى فيها، وبدأ يدخل فى الحوارى الضيقة والأزقة الصغيرة حتى نصل إلى المحطة فى الموعد المحدد.

وهكذا دخلنا شوارع جانبية ممنوع الدخول فيها. وحدثت المعجزة ووصلنا قبل موعد القطار بحوالى عشر دقائق. وقد سألت كريمة عن الموقف فى حالة إذا ما تأخرنا على القطار. قالت إن السيارة من المستحيل أن تذهب إلى طوكيو لأن الطريق الذى يستغرقه القطار فى ساعتين تقطعه السيارة فى حوالى ١٢ ساعة.

وفى حالة ترك القطار لنا، لا مفر أمامنا من انتظار القطار التالى له مباشرة، ولابد من دفع غرامة تأخير قدرها ٥٠٪ من ثمن التذكرة، ونركب القطار الذى يليه وإن كانت هى لا تعرف أى وقت يأتى فيه القطار التالى.

وقفنا عند الرصيف فى المكان الذى ستتوقف أمامه العربة رقم ١٢. وبالفعل وقفت العربة نفسها أمامنا وركبناها. جلسنا على مقعدينا، وفى المقعد الذى جلست عليه كانت هناك مجلة تركها الراكب الذى كان يجلس هنا. كانت عبارة عن مجلة يابانية جنسية موجهة لكبار السن، تستخدم الكاريكاتير فى شرح ما تريد شرحه.

- رابـع عشـــر -

لا مصـر إلا مصـر

اليوم السابع،

الثلاثاء ١٦ نوفمبر ١٩٩٣.

هذا هو يومى الأول فى طوكيو. لم يكن فى برنامجى سوى زيارة السفارة المصرية فى طوكيو. وكنت قد اتصلت بسفيرة مصر ميرفت التلاوى قبل حضورى من القاهرة ولكنها كانت فى إجازة فى كوريا الجنوبية. وقد قام الإخوة الذين كانوا مكانها بعمل اللازم. وهكذا عندما وصلت إلى مطار طوكيو الدولى وجدت فى انتظارى لويس حبيب الملحق الإعلامى المصرى فى طوكيو.

صحوت مبكرا فى الصباح على صوت تليفون من المهندس على حسن منصور وكيل وزارة الكهرباء المصرية، والمهندس المقيم فى حى غرب القاهرة. نزلت معه للتمشى حول الفندق فى جنزا. مشينا فى شارع جنزا الرئيسى. كان يقوم بعملية تسليم وتسلم للمدينة لى، فهو مسافر، أما أنا فمازلت باقيا لفترة من الوقت، وهكذا كنا نقوم بعملية وهمية. بدا لى للحظات وهو يتحدث عن المدينة كما لو كان صاحب طوكيو وعلى افتراض أننى سأصبح صاحب طوكيو من بعده. عندما جاءت الساعة العاشرة إلا الربع كان لابد وأن يستأذن منى لأن هذا هو موعد دليله لكى يسافر معه إلى نجازاكى لرؤية محطة من محطات الكهرباء هناك.

عدت إلى غرفتى من أجل القراءة وتدوين بعض المذكرات وبعض ملاحظاتى حتى يحين موعد كريمة معى لكى نذهب إلى السفارة المصرية. كان موعدنا هناك هو الثالثة بعد الظهر، والناس هنا تعمل من الصباح بصورة مستمرة وحتى المساء. لا توجد البدعة التى نمارسها فى حياتنا حيث نعمل من الصباح حتى الظهر. ثم نتغدى فى البيوت ونستريح

ونقيِّل. نأخذ تعسيلة العصارى، ثم نعاود الذهاب إلى العمل بعد الظهر، ومن لا يذهب إلى عمله مساء لا يجد أمامه سوى المقهى يجلس فيه حتى يكبس عليه النوم. هنا اليوم كله عمل متصل من الصباح وحتى المساء.

جاءت كريمة كالعادة فى الموعد تماما، ونزلنا. هذه هى المرة الأولى التى أتحرك فيها فى قلب طوكيو، خرجت من جنزا والحمد لله. ومن كان مثلى فإنه فى مثل هذه الحالات يصبح عيونا مفتوحة وآذانا تنصت حتى لأصوات الصمت. لاحظت على شوارع اليابان عموما خلوها من الصيدليات بالصورة التى نجدها عندنا. الصيدليات نادرة فى هذه البلاد التى من المتصور أن أهلها يعانون من أمراض التحضر والمدنية. فى مصرنا الغالية بين كل صيدلية وصيدلية، صيدلة ثالثة لدرجة أن القانون أصبح يشترط مسافة معينة بين كل صيدلية وأخرى.

فى شوارع اليابان أندر شىء هو وجود صيدلية. وعندما سألت عن هذه الظاهرة، قيل لى إن وجود مشروع التأمين الصحى هو السبب. فالكل يعالج من قبل التأمين الصحى. والقليل والنادر هو الذى يذهب إلى الصيدلية بحثا عن الدواء. كما أن بيع الدواء فى الصيدليات لأى مواطن ممنوع. لابد من روشتة مكتوبة بمعرفة أحد الأطباء الذين لهم الحق فى هذا.

وعموما من المستحيل أن تجد مواطنا يابانيا خارج مظلة التأمين الصحى. وكل إنسان يتعرض لحادث وتحمله سيارة الإسعاف إلى المستشفى يعالج مجانا على الفور، ابتداء من أغنى الأغنياء حتى أفقر الفقراء وبصرف النظر عن كون هذا المستشفى استثمارى أو خلافه.

ومن يعالج فى المستشفيات خارج مشروع التأمين الصحى فإن تكاليف العلاج تدفعها ثلاث جهات: الشخص المعالج نفسه وجهة عمله، والبلدية التى يتبعها، وإن كانت جهة عمله ملزمة بالدفع له لأنه يعمل فيها. فإن البلدية تقف معه بسبب الضرائب التى يدفعها.

ولقد لفت نظرى أننى لم أر حيوانا واحدًا فى الشوارع، حتى الحيوانات الأليفة التى تربى فى البيوت عادة، لم يكن لها وجود، وربما كان هذا من الأمور الطبيعية. ولكن الغريب والملفت للنظر كان خلو الريف اليابانى من مثل هذه الحيوانات. يبدو أنهم ينظرون إليها باعتبارها كائنات منقرضة، تركها الزمان هكذا ومضى لحال سبيله.

كما أننى لم أشاهد أبدا أى خناقة فى الشوارع ولا معارك لفظية. ولا سمعت أصواتا عالية، حتى فى الأحياء الشعبية التى تجولت فيها فى طوكيو وأوزاكا. كانت تخلو من هذه

المظاهر المصرية، والتى لم أشاهدها خارج مصر سوى فى أفلام السينما الإيطالية الواقعية. ورجال الشرطة اليابانيين يمكن القول إنهم الغائبون الحاضرون. حضورهم مؤكد، ولكن من الصعب القول بأنهم موجودون.

ثم هل يصدق أحد أننى واجهت متسولين فى شوارع طوكيو؟ كانوا يتكلمون بلغة لم أعرفها. لأننى لا أعرف اليابانية أصلاً. إن أرصفة حى جنزا أفخم الأحياء فى هذه المدينة يجلس عليها كل أصناف المتسولين. لكنى تعجبت لأنهم لا يستخدمون التقدم العلمى الهائل فى عمليات التسول. سألت نفسى: لماذ لا يحمل كل متسول آلة حاسبة معه؟ أو أن يلعب العلم دوره فى تشويه شكل الإنسان؟ سؤال لم أجد له إجابة خلال وجودى فى اليابان.

ومن يزر اليابان لأول مرة مثلى لابد وأن يلفت نظره كثرة الساعات فى كل مكان. والساعات اليابانية فضلا عن أنها تعمل فهى مضبوطة. والمنبه له نفس التواجد والهيمنة فى حياة الناس أيضا. ما من مكان دخلته حتى لو كان دورة مياه إلا وفيه المنبه أو الساعة المعلقة على الحائط. وهذا يعكس إحساس الناس هنا بالوقت وحرصهم عليه.

كان المرور مرتبكا، ولذلك وصلنا متأخرين عن الموعد. السفارة المصرية فى طوكيو فى مبنى جميل مستقل، فيه مقر السفارة وسكن السفيرة. والمبنى على شكل هرم مقلوب والعلم يرفرف فوق منتصفه. والنسر الذى فى منتصف العلم كان أول ما لفت نظرى على المبنى. كان هناك حارس صينى يقف خارج المبنى، فتح لنا الباب الخارجى وفى الداخل كان هناك حارس صينى آخر، ثم سكرتيرة صينية. لم أفهم الحكمة فى ذلك. مع أننا فى مصر نعانى من البطالة ربما كانت الاستعانة بالصينيين أرخص من استقدام حراس فى القاهرة.

كانت ميرفت التلاوى سفيرة مصر فى اليابان فى مكتبها، وهذه أول مرة أراها فيها. أسمع عنها كثيراً وأتابع أخبارها، ولكن هذا هو اللقاء الأول معها. كانت تتصرف بكبرياء مَنْ تمثل دولة عظمى. وكان هذا مهما بالنسبة لى. من الضرورى أن نؤمن أن مصر دولة كبرى. والباقى بعد ذلك يُعدُّ من التفاصيل.

أول ما طلبته منها كان فنجانا من القهوة التركية. هذه القهوة التى لم أجدها فى أى مكان هنا. وافتقاد الشىء يولد الشوق إليه ويشعر الإنسان بالاحتياج إليه أكثر من لحظات وجوده. طلبت لى بتهذب الدبلوماسيين فنجانا من القهوة السادة، وهذا التصرف جعلنى

أتوقف . كنت أريد أن أطلب جردلا من القهوة السادة ، ولكنى قلت أطلب مرة أخرى . بدلا من محاولة جرح هذا الجو المعطر بتقاليد الدبلوماسية التى أدفأت قلبى . وجعلتنى أشعر من جديد أننى أنتمى لوطن فيه تقاليد عريقة .

تحدثنا عن اليابان ومصر والعلاقات بين البلدين . كان يحضر اللقاء معنا كريمة موروكا . وقد قدمتها للسفيرة باختصار ، لأنه كان لدى يقين أن السفيرة تعرفها . وكريمة قالت لى إن السفيرة على معرفة بها .

وكعادتنا نحن أبناء مصر الذين يحملون حب الوطن فى قلب كل منهم أينما رحلوا وسافروا . ومهما بعدوا عن البلاد فإن رحلتهم تصبح فى النهاية هى رحلة إلى أعماق البلاد ، يبتعدون عن الوطن من أجل الاقتراب منه . يرحلون عنه ليرحلوا إليه . بالنسبة لنا جميعا ، لا مصر إلا مصر . لهم مصرهم ولنا مصرنا . لقد استمر اللقاء حوالى الساعة ونصف الساعة ، دارت كلها حول أوضاع مصر ، وكنت قادما لتوى من القاهرة أحمل بداخلى رؤية طازجة مليئة بالتفاصيل . وكانت السفيرة ترى ما يجرى فى بلدها عبر هذه المسافة البعيدة ، مضافًا إليها الرؤية اليابانية لما يجرى فى مصر. وهكذا تكاملت رؤانا وشرق الكلام بنا وغرب . اتفقنا على لقاء آخر على عشاء . قالت لى إنها تفكر فى دعوة السفراء العرب فى اليابان إليه . ربما توصلت لصيغة لإقامة هذا العشاء فى أثناء وجودى فى اليابان .

فى نهاية اللقاء نظرت السفيرة ميرفت التلاوى إلى كريمة وقالت لها : أنت مثل ابنتى تماما . كانت تتكلم بحنان صادق وصادر من حبة القلب . ورغم أن الأم توجد حينما توجد التجربة الإنسانية ، فإن الأم المصرية لها طعم خاص . وإن كنت قد فوجئت بكلام ميرفت التلاوى لأننى منذ أن دخلت هنا لم أتعامل معها باعتبارها أما ، أو حتى امرأة ولكن كنت أجلس معها باعتبارها ممثلة لبلادى هنا . قالت لكريمة : مادمت مصرية فأنا تحت أمرك فى أى وقت من الأوقات .

بوجه جاف كأنه منحوت من الصخر قالت لها كريمة : ولكنى لست مصرية أنا يابانية .

بهت ولم أعرف كيف أتصرف أبدا . وكريمة هى ابنة الدكتور على السمنى . هاجر من مصر فى زمن عبدالناصر العظيم ، وأتى إلى هنا . ودرس اللغة لليابانيين وتزوج من يابانية تعمل الآن فى السفارة اليابانية فى القاهرة فى حين أن على السمنى يعيش فى شبرا بالقاهرة .

كريمة تعلمت فى مصر حتى حصلت على الشهادة الجامعية من جامعة القاهرة. أعتقد من كلية الآداب جامعة القاهرة من قسم اللغة اليابانية، الذى يعد أقدم قسم يدرس اليابانية فى مصر الآن. كانت كريمة تتحدث عن اليابان بدرجة من الإعجاب، توشك أن تحرمنى من القدرة على رؤية الجانب الآخر لهذه التجربة. قلت لها: أنت معجبة باليابان. ردت علىّ فوراً: لا، أنا فخورة باليابان. أوضحت لى بعد قليل أن الذى يعجب يكون غريبا عن البلد. أما ابن اليابان نفسها فهو لا يكون إلا فخوراً ببلده، وهذا هو موقفى من بلادى.

بدت لى على الفور قصيدة أحمد فؤاد نجم بقرة حادة، حقيقة واقعة، ماثلة أمام العينين. كنت أرغب أن أسألها عما قدمته لها مصر. ولكن لم أحب أن أبدأ هذا الجدل فى مكتب سفيرة مصر فى طوكيو. وكريمة فتحت مكتب مترجمة خاصة فى طوكيو وتستعد الآن لاستئناف العمل. وهى تترجم من اليابانية إلى العربية وبالعكس وإن كنت لم أعتقد أن لها عذرها فيما قالته أبداً.

مررت بعد ذلك على لويس حبيب فى المكتب الصحفى المصرى، وهو يحتل بدروم مبنى السفارة المصرية فى طوكيو. كان لويس بعد استقباله الحافل لى فى المطار كان يرسل لى يوميا صباحا فى الفندق نشرة أخبار تصله من القاهرة، فيها أهم أخبار الوطن كما تنشر فى الصحف المصرية الثلاث الرئيسية علاوة على جريدة يصدرها الحزب الوطنى الديمقراطى. أما أحزاب المعارضة وصحفها فلا مكان لها هنا، رغم أن الناس فى اليابان تنظر إلى المعارضة باعتبارها جزءا من النظام السياسى.

عدنا إلى الفندق، تركتنى كريمة وذهبت إلى بيتها. وفى المساء اتصلت بى إيمان أنور الصحفية المصرية فى أخبار اليوم. كنت فى اليوم الأول لوصولى إلى اليابان قد نزلت فى المساء أتمشى فى المنطقة المحيطة بالفندق، ووصلت إلى شارع جنزا. وخلال سيرى تنامى إلى سمعى كلام يقال باللغة العربية، لم أتصور أن الدنيا ضيقة بهذا الحجم وإلى هذا الحد الغريب، نظرت إلى مصدر الصوت، كانت إيمان أنور ومعها بعض الشبان. قلت لنفسى: هل من المعقول أن أسافر كل هذه المسافة لأجد العرب يتمشون فى شارع جنزا. حاولت الاستعانة بالمثل الشعبى الذى يقول: يخلق من الشبه أربعين. وهكذا قلت لنفسى إنه من المستحيل أن تكون إيمان أنور وأن يكون الذين معها من أبناء العرب.

بعد أن عدت إلى الفندق سألت السفارة المصرية. فقالوا لى إنها إيمان أنور فعلا، وإنها

تحضر تدريبا صحفيا هنا لمدة شهر، وأعطونى رقم الفندق الذى تنزل فيه. اتصلت بها وعاودت الاتصال بى وحددنا موعدًا فى مطعم ماكدونالد فى شارع جنزا. كانوا يذهبون إلى ماكدونالد لأن الطعام قريب من طعامنا، ولأن أسعاره أرخص ألف مرة من الطعام اليابانى. كان مع إيمان صحفى من اليمن، وأخت صحفية فلسطينية تعمل فى الأردن، وصحفى من الإمارات العربية المتحدة يدعى ناصر أسعد بن أسعد طاهر. وهو مدير إدارة الإعلام فى وزارة الإعلام والثقافة فى أبوظبى.

تحدث الشاب اليمنى معجبا بعبدالناصر وسعيدا. ودارت بنا الكلمات حول الوطن العربى الذى يبدو بعيدا عنا جدا. تناولنا العشاء فى ماكدونالد، وطريقة المطعم ساعدتنا على أن يدفع كل واحد منا حسابه.

يخيل إلى أن هذه الشركات التى تشغل تلك المطاعم أقيمت أصلا من أجل اختراق القوميات والقضاء على مفرداتها. إن هذا زمن إعلان الحرب على الهوية الوطنية. وإن كانت المحطات الفضائية التى تقدم حرب الهواء من أجل احتلال العقول فى كل مكان على الأرض، فإن مثل هذه الشركات الهدف منها هو إعلان الحرب ولكن على الأرض حتى تكمل ما تقوم به المحطات الفضائية.

كان الفندق الذى يقيمون فيه قريب جدا منى، وقد فكرت فى الانتقال إليه. الغريب للغريب ونَسٌ. خاصة إن كان هناك فارق فى الإيجار الذى يدفع. ورغم أن الفندق الذى يقيمون فيه يبدو أبسط من فندقى إلا أن الإيجار كان واحدًا؛ لأن الحى واحد.. ونحن فى الطريق إلى فندقهم وجدنا مطربة يابانية سجلت أول شريط لها ووقفت فى الشارع لكى تبيعه للجمهور. كان ثمن الشريط الواحد ألف ين يابانى أى حوالى ثلاثة وثلاثين جنيها مصريا.

كان بجوارها سيارة فيها مولد كهربائى وبجوار السيارة جهاز تسجيل لسماع صوت المطربة طوال الوقت، وكانت تقف معها أمها. وكل من اشترى شريطا كان يلتقط صورة مع المطربة ويبدو أن هذه الصورة على البيعة. فى المسافة الزمنية بين ذهابى معهم إلى فندقهم وعودتى إلى فندقى كانت الشرائط التى معها قد انتهت عن آخرها.

بعد هذا اليوم بعدة أيام، كنت مدعوا على العشاء فى بيت سفيرة مصر فى طوكيو ميرفت التلاوى. وعندما كنت فى الطريق إليها عشت من جديد تجربة عشاء آخر فى أثناء وجودى فى بيونج يانج عاصمة كوريا الشمالية. الفارق الوحيد بين هذا العشاء الذى أنا فى

الطريق إليه وعشاء بيونج يانج أن هذا العشاء بدعوة من السفيرة ميرفت التلاوى، ولكن عشاء كوريا كان بناء على طلب منى بسبب غرابة الطعام الكورى، وعدم القدرة على الاستمرار فى تناوله.

من المؤكد أن الطعام فى اليابان مختلف عنه فى كوريا. فالطعام اليابانى متنوع ومن الصعب القول إنه طعام جغرافى. هنا من الأطعمة الغربية أكثر من الطعام اليابانى الصرف، بل إن هناك تداخلا عجيبا بين الاثنين، بمعنى أنك يمكن أن تجد مطعما يقدم الاثنين ـ الطعام الغربى والطعام اليابانى ـ فى حالة تجاور مدهشة وجميلة.

ولكن مع هذا تبقى للطعام المصرى وحشته. والمطبخ المصرى الذى احتوى بداخله العديد من المطابخ العابرة هو مزيج من مطابخ مختلفة، له مذاق خاص لأن مصر هى الوطن الوحيد الذى احتله الأجانب فترات طويلة من تاريخه. ومع هذا ظلت مصر قادرة دائما وأبدا على احتواء المحتل وتذويبه فى أعماقها، وتحويله إلى جزء من مكوناتها الأصيلة.

وذلك بدلا من أن تكون مهددة بخطر الذوبان فى شخصية المحتل الأجنبى. ياليت الذين يتحدثون عن مخاوف الغزو الثقافى لمصر وأخطاره يعرفون هذه الحقيقة ويدركونها؟ من المؤكد أنهم يعرفونها. ولكنهم يوهمون أنفسهم بالجهل بها، من باب العثور على قضايا صالحة للإثارة فى كل زمان ومكان.

لم يكن العشاء لى بمفردى، ولكن كان هناك السفراء العرب فى طوكيو جميعا، وأركان السفارة المصرية فى طوكيو. لفت نظرى السفير السعودى فى طوكيو فوزى الشبكشى، وعائلة الشبكشى من مؤسسى الصحافة فى المملكة العربية السعودية.

وقد أكدت تصرفاته أن أخواله لابد وأن يكونوا مصريين. وأنا بذلك أحاول أن أمدحه. سفير آخر للسعودية، تربطنى به صداقة من نوع خاص. هو سفيرها فى موسكو: عبدالعزيز محيى الدين خوجه. وهو شاعر وأديب ومثقف قبل أن يكون سفيرا وفى شعره نضج فنى متقدم وإن كانت فى ملامح وجهه بعض من ملامح المسلمين فى أواسط آسيا.

كان هناك سفير السودان، وقد حاول ألا يبدو متطرفا أو إرهابيا باعتبار أنه يمثل نظاما أغلق الباب على نفسه بالضبة والمفتاح. وكان نجم هذا العشاء هو حسين عبدالناصر والسيدة زوجته ابنة عبدالحكيم عامر. عرفت من الكلام الذى قيل فى هذا العشاء أن المسلمين فى اليابان هم من أصول غير يابانية، ولكن المسلم اليابانى القح قليل لحد الندرة،

وأنه كان فى طوكيو مسجد. وقد تم هدمه منذ سنوات بسبب حادثة جرت هنا. فعندما صدرت ترجمة رواية سلمان رشدى «آيات شيطانية» إلى اليابانية بمعرفة أستاذ للأدب الإنجليزى فى الجامعة، دخل شخص عليه وذبحه، فصل رأسه عن جسده، ولم يهرب القاتل بل وقف فى انتظار وصول الشرطة إليه.

ومن التحقيق الذى جرى معه أعلن فخره الكامل بما أقدم عليه، لأنه نفذ بذلك شرع الله فى الكافر الذى ترجم كفر سلمان رشدى. كان القاتل إيرانيا، ينفذ بذلك فتوى الخمينى. ورغم أن الفتوى تتوقف عند حدود سلمان رشدى فقط، فإن هذا الإيرانى قد جعلها تشمل كل من يترجم رواية رشدى إلى أى لغة من لغات العالم.

من يومها تم هدم المسجد الوحيد الذى كان موجودا فى اليابان، وقيل لمن يريد أن يؤدى الصلاة، عليه أن يستأجر مكانًا من أجل أدائها فيه. وهكذا عندما يهل على طوكيو عيد الفطر أو عيد الأضحى، فإن كلا من السعودية وليبيا تؤجر كلٌ منهما قاعة مغلقة تقام صلاة العيد بداخلها، حتى الأحذية التى تخلع إنما توضع فى داخل هذه القاعة، والميكروفون يوضع داخل القاعة وممنوع أن يكون خارجها. فى اليابان جمعيتان للإسلام والمسلمين. واحدة تكونت برعاية وتمويل السعودية والأخرى كونتها وتمولها وترعاها ليبيا، بل إن القرآن الكريم المطبوع باليابانية توجد منه نسختان فقط؛ واحدة ترجمت وطبعت وتوزع بمعرفة الجمعية السعودية، والثانية ترجمت وطبعت وتوزع بمعرفة ليبيا.

ورغم أن الترجمة تنصب على معانى القرآن الكريم أكثر من نصه، فإن هناك فارقا ضخما بين الترجمتين، مع أن الأصل واحد. كان من الطبيعى ألا أسأل لماذا لا يتم توحيد الجهود بدلا من هذه البعثرة التى أوشكت أن تصل إلى التناقض؟

سمعت فى هذه السهرة حقيقة لم ألتفت إليها من قبل، وهى أن البترول لم يظهر سوى حيث يوجد الإسلام. كان فى الكلام بعض المبالغات لأن الأرض الأمريكية ليست مسلمة والأرض السوفييتية (الروسية الآن) ليست مسلمة، ولكن ربما كانت هناك حقائق إلى حد ما فى هذا القول.

ـ خامس عشــر ـ

بلاد الشمس الغاربة

منذ أن وصلت إلى اليابان والسؤال الذى أطرحه على كل من أقابله سواء من أبناء البلد أو من المقيمين هنا من الغرباء هو :

ـ ماهى مشاكل اليابان؟ !

والسؤال له ما يبرره. فقد تأكد لى بعد الوصول إلى اليابان والحياة فيها الوقت الذى قضيته فى اليابان أن طوكيو فيها أكبر كيان مصرفى فى العالم، وأن أكبر عشرة بنوك على الأرض، الخمسة الأولى منها يابانية، وفيها ناتج إجمالى يفوق نظيره فى أمريكا وأوروبا، وعلى الرغم من أن اليابان تضم ٣٪ من سكان العالم، إلا أنهم يعيشون على ٠٣,٪ من الأرض؛ فأى معجزة تلك؟ !

فى هذه الأيام: تمثل اليابان القوة الاقتصادية رقم «١» فى العالم، فماذا سيكون عليه الوضع فى القرن الحادى والعشرين. الذى نعيش فيه الآن مع أن الرحلة تمت فى قرن مضى؟ هل ستصبح القوة رقم «٢»؟ !

على طول المسافة من القاهرة إلى طوكيو كنت أفكر فى اليابان باعتبارها جنة الله على الأرض. وكنت أتخيل اليابانيين على أنهم البشر الأسطوريين الذين حطموا كل المعايير السائدة من قبل فى شروط النهضة الصناعية.

ولأننى من نسل آدم الذى أكل من التفاحة المحرمة الشهيرة وطرد من الجنة فقد كانت تفاحتى على أبواب الجزر اليابانية عبارة عن ثلاثة أسئلة :

هل تعانى هذه الجمهورية الفاضلة ـ فى نظرى ـ من الهموم أيضا؟ !

السؤال الثانى يخرج من السؤال الأول: وما هى تلك الهموم؟ !

والثالث والأخير سؤال مصرى صرف: وكيف تغلبت اليابان على همومها؟!

غير أنه لابد من الاعتراف بأن هذه الأسئلة لم تتحول إلى تفاحة آدم ولم تتسبب فى طردى من الأرض التى تصورتها جنة الله على الأرض.

وتلك هى الأسئلة ومحاولات الإجابة عليها.

وإن كنت لا أحب أن يفهم أننى أجعل المشاكل والهموم اليابانية هى مدخلى إلى تلك التجربة الفريدة، لأننى ذهبت إلى هناك بحثا عن شماعة جديدة نعلق عليها عجزنا اللانهائى. ولكن لأننى أرى الدنيا بعين الروائى. وأستمع إلى أصواتها بأذنى الأديب، وأتعامل مع معطياتها بشك المثقف، كنت أتصور أن كل تجربة لها ظلال قد لا نراها بالعين المجردة. وهموم اليابان بعضها من الثوابت القديمة وهى القليلة، والبعض الآخر من متغيرات العصر وهى كثيرة. من الثوابت: ضيق المساحة الشديد، والإحساس الحاد بالعزلة. لقد غزت اليابان الدنيا اقتصاديا ومع هذا عندما تدعو يابانيا إلى شرب بيرة فى أى مقهى، يقول لك على الفور إن ذلك يسعده جدا، ولكنه يمكنه الاستمتاع بالبيرة بشكل أفضل فى بيته.

واليابانيون الذين يذهبون إلى المسارح ودور السينما والحدائق العامة، إنما يتوجهون على شكل أسر وعائلات أكثر منهم على شكل مجموعات، والعزلة ناتجة عن الحياة وسط المياه من كل جانب، وهى تؤدى إلى قلق ناتج من الإحساس بأن اليابان دولة أطراف وليست دولة مركز. بمعنى أنها موجودة فى آخر الدنيا أو على شمال السماء من الناحية الأخرى للكون. وربما كان هذا هو السبب فى الخريطة المطبوعة لليابان والمعلقة فى المكاتب والمصالح، وهى مصممة لكى تجعلها - أى اليابان - باعتبارها مركز الكون. والدنيا تبدو متناثرة من حولها.

من هموم المتغيرات، أى الهموم الطارئة، انخفاض معدل المواليد بشكل ملفت للنظر. وقد ذهبت كل المحاولات دون أن تثمر. وهذا سيؤدى - كما تؤكد ذلك الدراسات اليابانية الكثيرة - إلى أن ٢٥٪ من اليابانيين ستكون أعمارهم مع بداية القرن الحادى والعشرين أكثر من مائة سنة. وهم يعتبرون أن الإنسان المتقدم فى العمر. فضلا عن أنه مفخرة يابانية. إلا أن ازدياد العدد سيحمِّل المجتمع اليابانى بعبء إضافى يتمثل فى رعاية كبار السن، وجعل حياتهم ممكنة وسهلة فى هذا العمر بالذات.

وهذه المشكلة لها وجه آخر فمع مقدمات القرن الحالى سيكون لدى اليابان أقل نسبة

سكان فى سن العمل بين الدول الصناعية الكبرى. وهذا سيفرض تأمينات اجتماعية عالية ستؤثر على ديناميـة العملية الإنتاجية. كذلك قد تحدث شحة وندرة فى اليد العاملة اليابانية.

ومن يتجول فى أسواق اليابان لابد وأن يلحظ حالة من الركود فى عمليات البيع والشراء. وبعض أهالى البلد أصبحت أبصارهم تمتد إلى بعض السلع القادمة من الخارج بعد حالة التشبع من إنتاج بلادهم. ولا يمنعهم من التعامل معها سوى الفارق الضخم فى الأسعار بين المنتج المحلى والمنتج الوارد من الخارج.

الركود يمتد إلى زوار اليابان، ذلك أنه فى كل أسواق طوكيو يردد الزائرون مقولة إن أسعار المنتجات اليابانية خارج اليابان أرخص منها داخلها. ويحكون فى اليابان أن فريق الكرة اليابانى الذى ذهب إلى قطر ضمن دورة رياضية آسيوية، نزل إلى أسواق الدوحة واشترى من المنتجات اليابانية، مع أنهم جميعا من أبناء المعجزة اليابانية نفسها.

وهذا الموقف له ثلاثة تفسيرات سمعتها فى طوكيو. إما أن المعروض فى الأسواق اليابانية أفضل من الذى يصدر باعتبار أن الثانى يمكن أن يكون فرزا ثانيا أو ثالثا، أو أن اليابان تدعم صادراتها من أجل المنافسة وإغراق الأسواق الخارجية، أو أن الإنتاج اليابانى المشترك مع دول أخرى، خاصة دول شرق آسيا التى تسير على نفس النمط الآسيوى فى الإنتاج، أرخص سعراً من المنتج اليابانى الأصلى.

كذلك، فإن معظم من يذهبون إلى اليابان من الشرق الأوسط وفى طريق عودتهم لابد وأن يمروا بإحدى العواصم من أجل الشراء فقط، لأن الشراء من اليابان مستحيل. إذن لا يبقى من السياحة اليابانية سوى الفرجة فقط، وهى لا يمكن أن تشكل دخلا حقيقيا لليابان التى مازالت من الدول الطاردة للسياحة.

وثمة تقرير مهم يقول إن حجم فائض اليابان يميل إلى الانكماش. إن النمو الاقتصادى اليابانى قد بدأ فى التباطؤ مع دخوله طورا أكثر نضجا وتقدما، يضاف إلى هذا أن الدول الكبرى الأخرى لا تريد لليابان أن تظل محتفظة بميزاتها الاقتصادية التى ساعدت على الطفرة السابقة. والاقتصاديون فى اليابان ينظرون بجدية إلى التحديات التى تبديها الدول الآسيوية الناهضة.

من مشاكل اليابان فى الأجندة الاقتصادية.. علاقة الين بالدولار التى تتعب اليابان

كثيرا . وهذا التعب لا يظهر بشكل واضح فى بنية المجتمع اليابانى الداخلى ، ولكنه شديد الوضوح فى علاقات طوكيو الخارجية .

واليابان تشارك الدنيا فى مشكلات البيئة والتلوث والإيدز باعتبار أنها جزء من العالم . وتتعرض لما يتعرض له الآخرون . واليابان مجتمع شركات ، ولابد من فهم معنى الشركة بعيدا عن القاموس المستخدم فى بلادنا . فميزانية شركة واحدة هناك تماثل ميزانية دولة عربية غنية .

والمشكلة تبدأ من علاقة هذه الشركات بالمؤسسات السياسية وأهل السياسة . وفى اليابان لا تسأل الإنسان فى أى وزارة أو مصلحة يعمل ، ولكن فى أى شركة . وفى الكارت الذى يطبعه ويقدمه لك وهو ينحنى انحناءة الأدب اليابانى ، تجد أن اسم الشركة مكتوب قبل اسمه . والشركات اليابانية المتعددة الجنسيات أو المخترقة للقوميات ، إغراؤها لأهل السياسة لا يقاوم خاصة بعد أن أصبحت عماد المجتمع اليابانى كله .

بدون لف أو دوران ، نحن نتكلم عن الفساد الذى هو جزء من التجربة الإنسانية كلها فى السنوات الأخيرة ، وهذا الفساد الذى كنت أتصور أنه جزء من تخلف العالم الثالث ، فها هو يحتل وعى المواطن فى دولة برمجت كل ما فيها بصورة لم تحدث من قبل على الأرض ، وهذه البرمجة من المفروض أن تجعل الخطأ الإنسانى نادراً .

ومن المشكلات المهمة التى يعانى منها اليابان أن الدور الاقتصادى والصناعى اليابانى الذى يجوب العالم من شماله إلى جنوبه ومن غربه إلى شرقه لا يقف بجواره دور سياسى يقترب منه ، بل إن المسافة بين المنتج اليابانى والإبهار اليابانى والدور السياسى تبدو مهولة .

وكل الذين قابلتهم يتحدثون فقط عن دور سياسى . ولكن عندما كنت أقول لهم إن الدور السياسى لابد من قوة عسكرية تسانده ، كانوا يقولون لى إن الدستور هو الضمان الوحيد الذى يمنع أى مغامرة فى هذا الاتجاه . فاليابان دولة بدون جيش . كانوا يذكروننى برحلتى إلى هيروشيما ، ويقولون لى إن هيروشيما ونجازاكى يمثلان الخط الأحمر الذى لا يجرؤ أحد على الاقتراب منه . وعندما كنت أقول لهم إن الآلة العسكرية الغربية المتقدمة لا قيمة لها بدون التقدم التكنولوجى اليابانى ، كانوا يعتبرون أننى قد دخلت فى أحراش غابة يابانية تعلو جبلاً يصل السماء بالأرض ، ولا يفضلون المضى قدما فى هذا المسلك الوعر .

وفى اليابان تقرير خطير ، بدأ على شكل منشور سرى مطبوع على الآلة الكاتبة سنة

١٩٨٩ . تم تصويره وتوزيعه على دوائر محددة وعنوانه «اليابان يمكن أن تقول لا» . والتقرير وضعه شنيارو إيشهارا أحد قادة بعث القومية اليابانية . والوزير الياباني للبيئة والمواصلات من ٨٦ـ١٩٨٨ . ومؤلفه الآخر هو: أكيو موريتا صاحب ورئيس شركة سوني، ومن أهم خبراء اليابان في العالم العربي واقتصادياته .

والتقرير يركز على ضرورة خروج الشعب الياباني من ركوده، وأن القيم اليابانية في حاجة إلى تغيير . فاليابان هو البلد الوحيد الذى لم يستشعر الحاجة إلى الإصلاح منذ نهاية الحرب العالمية الثانية . ويؤكد التقرير على أن اليابانيين يحتاجون إلى إصلاح جذرى في وعيهم يستند إلى التكنولوجيا التى استحدثت واستخدمت، وأنهم بذلك يمكن أن يحققوا مجتمعا ناضجا بالمعنى الحقيقى للكلمة .

ثمة أمور أخرى لا يحبون الحديث عنها طويلا فى اليابان، مثل ساعات العمل الطويلة، والخضوع التام الذى يبديه الفرد إزاء روح الجماعة وغياب الاستقلال الحقيقى للاتحادات التجارية وظروف الإسكان الصعبة والإذعان للهرم الوظيفى . باختصار فإن الإنسان اليابانى العادى قد لا يشعر بدفء السعادة الإنسانية . حتى فى ظل هذا التقدم غير العادى .

هكذا يتضح لنا الأمر؛ لابد من إصلاح . . وإلا . .

تلك هى الهموم فكيف واجهها اليابانيون؟!

إن ضيق المساحة يجعل اليابانى يشعر بحالة من الجوع الشديد للأرض، الذى يصل إلى حدود الشبق . وهذا دفع اليابانى إلى أن يكون منظما لدرجة تفوق الخيال . فالفوضى الجميلة تحتاج إلى مساحات أوسع من الأرض، واليابانى عموما يمكن أن يستخدم مساحة أقل، تصل إلى عشر المساحة التى يستخدمها أى إنسان آخر لنفس الغرض .

هناك حلول أخرى مثل التوسع الرأسى . وذلك هو السر فى البنايات التى توشك أن تلامس السماء فى المدن الكبرى، كمحاولة للخروج من مأزق ضيق المكان وعدم اتساعه لكى يشمل حجم التجربة . وبعيدا عن الامتداد نحو السماء الذى نراه بسهولة فهناك امتداد نحو باطن الأرض لا نراه . فأى مبنى كبير نجد فى أسفله تحت الأرض أدوارا لا تقل عن الأربعة أو الخمسة لها استخدامات كثيرة .

والأمر لم يتوقف عند هذا الحد، بل إن اليابانيين بدءوا فى ردم بعض الخلجان المحيطة

بهم. فعلوا هذا مرة من أجل إنشاء مطار فى إحدى الجزر النائية. وفعلوه مرة أخرى لكى يبنوا مدينة ملاهى كبيرة. ومن المؤكد أن عملية تحويل أجزاء من البحار المحيطة باليابان إلى يابسة ستصبح هى الأخرى واحدة من معجزات هذا الزمان اليابانى.

مشكلة النسل أكثر تعقيدا من قضية المساحة. الشباب اليابانى لا يريد الزواج. فالمجتمع اليابانى حَوّل انعدام هذه الرغبة لدى الشباب والشابات إلى تجارة؛ فسلسلة المحلات التى تحمل اسم العائلة من باب السخرية والتى تقدم للأعزب كل ما يحتاجه ربما ساعد على هذا الموقف من الزواج.

أيضا، فإن ارتفاع مستوى المعيشة الرهيب يجعل الأسرة اليابانية قليلة العدد بصورة ملفتة للنظر. ولا يجب أن ننسى مأزق المسكن اليابانى الذى يمكن وصفه بكلمة واحدة هى: «الاكتظاظ». فالشقة التى تسكنها عائلة فى المتوسط العام مساحتها ٥٠ مترا مربعا، وسكن الأعزب بمفرده لا يزيد على مترين فقط. ومن الناحية الأخرى، فقد حققت اليابان تفوقا فى استخدام الإنسان الآلى لم يصل إليه أحد. وأرقام الاستثمارات اليابانية فى هذا المجال تساوى ما ينفقه العالم بأسره.

الركود مرتبط بالصناعة والتجارة معا. وفى اليابان يتحدثون عن هذه القضية كجزء من أحاديثهم عن الزمن القادم والاستعداد له، ودور اليابان فيه. وكلمة السر فى التطور الجديد هى التكنولوجيا المتقدمة. إن خروج اليابان من ميدان إنتاج المنسوجات وبناء السفن وأساسيات الصلب إنما تم أساسا لأنها تريد أن تترك هذه الصناعات للدول ذات العمالة الأرخص.

ولهذا؛ فإن منتجات ومنجزات اليابان فى الحاسبات الآلية أسطورية. لقد وصلوا إلى الجيل الخامس، علاوة على أن ما ينفق على البحث العلمى الذى يستخدم فى تطوير الصناعة يفوق ما تقدمه أمريكا وأوروبا فى هذا المجال. أما العلوم البحتة؛ أو العلم من أجل العلم فقد تركوها للآخرين، واهتمامهم بالبحث العلمى مرتبط بجدواه التجارية أولا وأخيراً.

أيضا هناك المدخرات اليابانية الهائلة، فكل مواطن يابانى يدخر ٢٠٪ من كل ما يحصل عليه فى حياته. وهذا معناه أن البنوك اليابانية مكتظة بالأموال ويمكنها أن تغذى الصناعة بقروض فوائدها لا تذكر. ثمة ميزة أخرى تنبهت لها اليابان أخيرا، وهى أن الموقف من شراء المنتجات اليابانية هو موقف عاطفى أكثر منه عملية اقتصادية، علاوة على جودة

المنتج ومناسبته للإنسان الياباني وغيره من البشر . وجميع هذه العوامل لا قيمة لها بدون قوة العمل التي تربت في ظل نظام تعليمي وتنافس مكثف لا يوجد مثيله في أي دولة أخرى. فعدد المهندسين في اليابان يزيد على أمريكا بنسبة ٥٠٪ .

يبقى الدور السياسي، والتقرير الذي سبقت الإشارة إليه يتحدث عن الدور الغائب لليابان يقول :

ـ إذا قارنا المعونة اليابانية الخارجية على شكل قروض كنسبة من الناتج القومي الإجمالي، فإن اليابان تأتي في الترتيب الخامس عشر من بين دول العالم الثماني عشر المانحة للمعونة الخارجية . كذلك إذا نظرنا إلى المعونة الخارجية التي لا ترد فسنجد أن ترتيب اليابان هو الثامن عشر من ١٨ دولة ، أي أنها الدولة الأخيرة .

والسؤال هو : هل كان ذلك مدعاة لفخر اليابانيين، أم لا؟

وعندما ننظر إلى اليابان كدولة فإن بقية العالم يتصورها غير منصفة ، لأنها لا تعيد بعض ما تجني من أرباح إلى العالم من جديد ، لذلك فنحن نقول : ألا يتعين علينا أن نعيد النظر من جديد فيما نفعله؟

إن الأمور لن تتحول في العالم إلى الأفضل ما لم يتم تقاسم الألم بشكل أكثر عدالة . إن لم نعد توجيه وعينا في منظور كوننا شعبا عالميا ، فنحن نرى أن اليابان لن تكون قادرة على الاستمرار في أن تجوب العالم كقوة اقتصادية أولى في هذه الدنيا ، إلى ما لا نهاية . . تلك هي مخاوف الزمن القادم على ألسنة اليابانيين أنفسهم وهي مخاوف حقيقية . . لابد من طرحها . .

والأكثر أهمية أنه لا مفر من العثور على إجابات لها .

ـ سادس عشـــر ـ

تساؤلات يابانية

تفاحــة آدم فى فمى

اليوم الثامن

الأربعاء ١٦ من نوفمبر ١٩٩٣.

كان موعدى هذا الصباح مع مدير مركز دراسات الشرق الأوسط فى وزارة الخارجية اليابانية. والمركز وإن كان يعمل تحت جناح الخارجية اليابانية فإن تمويله يتم من الشركات التى تعمل فى الشرق الأوسط. حضرت كريمة إلى الفندق واصطحبتنى إلى المعهد. وأنا فى الطريق إليه لم أكن مستريحا لتعبير الشرق الأوسط. فهو يعتمد على الجغرافيا أكبر من الحس القومى. يحاول تعبير الشرق الأوسط نفى الوجدان العربى من حياتنا.

لا أحب تعبير الشرق الأوسط لسبب آخر، وهو أنه عرف الطريق إلى حياتنا بعد هزيمة الخامس من يونيو ١٩٦٧. والجرح مازال طريا فى الأعماق حتى الآن. يومها تحولت الهزيمة التى كانت مؤامرة على تجربة عبدالناصر من الألف إلى الياء. فأصبح المسمى الأساسى لها مشكلة الشرق الأوسط. أما الأحلام التى وئدت والتجربة التى أجهضت والمؤامرة التى تمت فقل على كل هذه الأمور الإنسانية السلام.

الغريب أننا نعيش حالة من الاستعداد للوقوع فى فخاخ المسميات، ولا نفطن إلى مؤامرة التسميات إلا بعد أن نكون قد استسلمنا لها. كان هذا جزء من مشاعرى فى ذلك الصباح وأنا فى طريقى إلى المعهد الذى يحتل شقة فى عمارة يابانية متوسطة العمر والأهمية بمعنى أنها ليست حديثة البناء. كما أنها لا تعد من المعالم اليابانية القديمة.

يخيل إلىّ أحيانا أن اليابان بلد بنى مرة واحدة وفى زمن حديث. لا قديم فى اليابان

سوى المعابد والمتاحف والجبال، والمعابد تحدثت عنها من قبل والمتاحف فى الطريق. والجبال رأيتها قبل هذا، وسأراها فيما تبقى لى من أيام هذه الرحلة. أما المدن والقرى والبيوت والشركات فكلها جديدة ليست معمرة. يبدو لى أنها كلها الابنة البكر للنهضة اليابانية الحديثة.

كان المدير له مكتب صغير، ذكرنى بالأبهة التى نرآها فى مكاتب المديرين عندنا حيث يتحدد الموقف الاجتماعى والوظيفى للمدير من شكل مكتبه. أما هنا فالتواضع الجم والدور الاقتصادى لأى مبنى - أو إن شئت الدقة لقلت الاستخدام الاقتصادى - هو الذى يحدد حجم وشكل المكتب. وأنا فى الطريق إلى المكتب لاحظت خريطة لليابان سأجدها مكررة فى أمكنة كثيرة سأذهب إليها، ولكن المشاهدة الأولى هى التى تبقى فى الذاكرة، إنها خريطة اليابان.

إن خريطة العالم بشكلها التقليدى الذى نراه فى كل مكان من العالم لها وضع آخر فى اليابان. ثمة خريطة أخرى هنا. يبدو أن قلب العالم فيها هو اليابان حيث نجد جزراً من القارة الأمريكية وجزرا من القارة الآسيوية. والمياه فى المحيطات تدور من كل ناحية حول جزيرة لا تبدو صغيرة، ولكنها تظهر كبيرة من ناحية وتحتل قلب العالم نفسه من الناحية الأخرى. وهذه الجزيرة هى اليابان وهى فى الحقيقة عبارة عن مجموعة من الجزر تدور وتلتف حول جزيرة كبيرة.

ربما كانت هذه الخريطة من تصميم جغرافى عبقرى، ولكنها تعكس الرغبة فى أن تكون اليابان هى الدولة رقم واحد فى عالم اليوم. وإن كانت أمريكا تقود العالم عسكريا؛ فإن اليابان يمكن أن تفعل هذا. ولكن بأساليب أخرى؛ بالعلم والتقدم الصناعى.

قبل الوصول إلى مكتب المدير مررنا على أرشيف وباحثين، يجلسون إلى مكاتب، يعملون ويقومون بأدوارهم وفى آخر المبنى كان مكتب المدير. استقبلنا سكرتير المدير بالاحترام اليابانى التقليدى، ونقر على باب المدير وفتحه ودخلنا. كان المدير يعطينا ظهره وينظر من الزجاج إلى سماء طوكيو، فى لحظة تأمل لا تجدها سوى فى هذه البلاد.

لم يكن على مكتب المدير ورقة واحدة! سألت نفسى: تنظيم هذا، أم أن كل الأوراق تحولت إلى ديسكات فى بلاد الكمبيوتر الأولى فى عالم اليوم؟ المدير اسمه: توشيو تاوا. وقد كنت حريصا على لقائه خلال وجودى فى طوكيو. ومكتبه عبارة عن قاعة اجتماعات

متوسطة الحجم، فيها تليفزيون وثلاث شجرات. أما مكتبه الذى يعمل عليه فهو منضدة مواجهة للنافذة، وعندما يجلس إليها يعطى ظهره للغرفة وكل من فيها.

كان شهود هذا اللقاء مترجمتى كريمة موروكا. وكان مع المدير شخص يدون محضرا بما يقوله، بالإضافة إلى الشجرات الثلاث التى تحضر كل الاجتماعات وتشارك فيها بالصمت.

كان سؤالى الأول عن الشرق الأوسط، وموقف الشرق الأقصى منه.

قال ردا على السؤال:

ـ اهتمام اليابان بالشرق الأوسط هو فى أساسه اهتمام اقتصادى، وبالتحديد بالدول المنتجة للنفط؛ فالبترول الذى تستورده اليابان ٧٠٪ منه يأتى من دول الخليج. وإلى جانب الاهتمام الاقتصادى لدينا اهتمامات أخرى فى المنطقة مثل مصر بسبب دورها السياسى المؤثر. ونحن ننظر لها باعتبارها قوة مؤثرة فى الاستقرار هناك.

ـ الاستقرار؟!

ـ نعم. ولقد ظهرت حاجة اليابان الماسة إلى استقرار الشرق الأوسط أيام حرب الخليج الثانية سنة ١٩٩٠. ومنذ صدمة البترول الأولى ـ ١٩٧٣ ـ أدركت اليابان أهمية هذا الجزء من العالم بالنسبة لها. بعد أن أصبحت من الدول الرئيسة فى هذا العالم لأنها مع أمريكا تشملان ٣٠٪ من الدخل فى العالم كله.

هذه القوة الاقتصادية الهائلة لابد من دور سياسى يساندها، ومن هنا جاءت مساعداتها للسلام فى الشرق الأوسط بطريقة مباشرة. ولقد كانت هذه المساعدات موجودة من قبل، ولكن من خلال الأمم المتحدة.

واليابان هى الدولة الأولى التى تدفع حصتها من الاشتراك فى الأمم المتحدة. ولليابان دور سياسى فى أنجولا وكمبوديا وآسيا الجنوبية. نحن فقط لا نشارك فى قوات حفظ السلام، لأن ما لدينا من قوات للدفاع فقط والدستور يمنع بصورة قاطعة تحريكها خارج الحدود.

ـ ماذا تقدمون لمصر؟!

ـ لكى تلعب اليابان دوراً مهما فى استقرار العالم من حولنا، ولكى يكون هناك دور سياسى ولا نكتفى بالبضائع التى تجوب العالم؛ نحن نقدم العديد من المساعدات؛ مثلا

مصر حصلت فى الفترة من ١٩٨٨ إلى ١٩٩١ على ٤٠٠ مليار ين يابانى، وهو ما يعادل ٤٥٩ مليون دولار تساوى ٤٠٪ من المساعدات التى قدمتها اليابان إلى الشرق الأوسط خلال هذه الفترة. والعلاقات بين اليابان ومصر تعود إلى القرن الماضى. وكانت مصر من أولى الدول التى أقيمت بها وكان ذلك منذ سنة ١٩٤٠؛ لأن علاقتنا بمصر استراتيجية أكثر منها ثقافية أو حضارية.

ـ هل تقدمون هذه المساعدات؛ لأن اليابان تريد أن تصبح دولة عظمى، خاصة بعد غياب الاتحاد السوفييتى؟!

ـ أعتقد أن لتعبير الدولة العظمى الذى تستخدمونه عندكم دلالات عسكرية. ومن هذه الناحية ليس لليابان أى طموح، والدستور اليابانى ينص على أن القوة العسكرية لا تعنى أى شىء. واليابان لا تسعى لأن تكون قوة عظمى بالمعنى العسكرى، ولكنها دولة تسعى إلى تحقيق الاستقرار السياسى فى العالم الذى تعيش فيه.

ـ ومع هذا هناك التباس فى موقفكم من القضية الفلسطينية. وفى طوكيو سفارة لإسرائيل ولكن الموقف من الفلسطينيين ليس على نفس المستوى والدرجة؟!

ـ هذا ليس موقف اليابان من الفلسطينيين ولكنه موقف العالم كله، وحتى الآن. الأمم المتحدة لا تتعامل مع الفلسطينيين كدولة والدولة لابد لها من عناصر أساسية: الأرض والحكومة والشعب. وهذا غير موجود على أرض الواقع.

على الجانب الآخر، فإن اليابان لا تعترف بما قامت به إسرائيل ولا تؤيده، ولكن إسرائيل الآن دولة، ولابد من الاعتراف بهذا الوضع. أعترف معك أن ثمة تفرقة عند التعامل مع الطرفين، ولكن هذه التفرقة ليست نابعة من أن هذه فلسطين وتلك إسرائيل، ولكنها نابعة من أن الأولى منظمة أو حركة تحرير، والثانية دولة معترف بها من المنظمات الدولية ومعظم دول العالم.

ـ لكن هذا لا يمنع اليابان من مساعدة الفلسطينيين.

ـ نحن نسعى إلى هذا فعلا، ونساعد الفلسطينيين على إقامة دولتهم فى أسرع وقت ممكن، وبالنسبة لما تم فى قضية الحكم الذاتى فى غزة وأريحا، فإن اليابان تقدم نفس المبلغ الذى قدمته أمريكا وهو ٢٠٠ مليون دولار. وقد أسرعت اليابان بإرسال بعثة لدراسة إمكانيات إقامة المستشفيات والمؤسسات الاجتماعية حتى نساعد الفلسطينيين فى إقامة دولتهم فى أسرع وقت ممكن.

ـ أيهما أكثر أهمية لكم؛ أن الوطن العربى مصدر ٧٠٪ من الطاقة أم أنه سوق للمنتجات اليابانية؟!

ـ قد تشعر بالاستغراب عندما أقول لك إن أهمية الشرق الأوسط كسوق للمنتجات اليابانية قليلة جدًا. كل الشرق الأوسط ودوله إن انضمت مع بعضها لا تشكل سوى ٥٪ «خمسة فى المائة فقط» من أسواق المنتجات اليابانية التى تصدر إلى الخارج؛ لأن الدول ذات القيمة الشرائية الكبيرة بالمنطقة عدد سكانها قليل، والدول ذات الكثافة السكانية الهائلة قدراتها الشرائية محدودة. كذلك فإن مجمل عدد السكان فى المنطقة قليل بالمقارنة إلى بقية أسواق العالم. كما أن أغلب أسواقنا الخارجية تتركز فى الصين وأمريكا وأوروبا وشرق آسيا. وهى مناطق أكثر أهمية لنا من السوق العربى. إذن علاقة اليابان بالطاقة هى الأساس. والطاقة لن تكون مضمونة إلا بتحقيق الاستقرار السياسى والاجتماعى فى المنطقة كلها.

لذلك، نحن مهتمون مثلا باستقرار الأوضاع فى بلد مثل مصر؛ لأن هذا مهم بشكل أساسى، خاصة وأن عدد سكان مصر يزداد بسرعة رهيبة، ومن المتوقع خلال سنوات أن يزيد على مائة مليون نسمة وهؤلاء لا يعيشون فى مساحة واسعة، بل فى حيز ضيق جدًا من الأراضى الزراعية. وهذا ينشأ عنه نوع من الظلم الاجتماعى الذى نخشى عواقبه.

إن النفط يعنى بالنسبة لنا الاستقرار السياسى فى الشرق الأوسط.

ـ ما هو مفهومكم لكلمة الاستقرار هذه؟!

ـ اليابان لا يهمها طبيعة الحكم فى الدول الأخرى. إمارات أو ممالك أو أى اسم آخر: النظام يختاره الشعب، واليابان ليس لديها طموح للتدخل فى هذه الشئون، فالشعب فى كل بلد من بلدان العالم هو الذى يختار حكامه. وبعض الدول تسعى لاختيار نظام معين لتصبح دولة عظمى بالمفهوم العسكري؛ مثل أمريكا أو الاتحاد السوفييتى سابقًا. ولقد سعت كل منهما بوضوح إلى فرض نظام سياسى معين على الآخرين طول سنوات ماضية.

وحاليا تبين أن هذه السياسات قد خلقت الكثير من الذنوب. لسنا الاتحاد السوفييتى قبل انهياره ولسنا أمريكا، وعلى الشعوب الأخرى أن تختار النظام الذى تريده، ونحن نساعد فقط على الاستقرار فى هذه الدولة أو تلك، ربما لأننا نعتقد أن هذا أفضل لمستقبل العالم.

ولو أن الحرب الباردة كانت مستمرة لما انهارت الأهمية العسكرية التى كانت تملكها إسرائيل لأمريكا، ولكان من المستحيل إقرار السلام الذى تقرر أخيراً. كما أن اتحاد اليَمَنَيْن؛ الجنوبى والشمالى لم يكن ليحدث لو أن الحرب الباردة كانت مستمرة، وهذه الحقائق أثبتت أن الدول العظمى كانت تسعى دائمًا إلى فرض نظام معين فى الدول الأخرى مع أن هذا النظام لا يمكن أن يستمر لفترة طويلة.

ـ تختلفون مع أمريكا حول التدخل فى شئون الآخرين فقط، أم أن هناك أموراً أخرى؟!

ـ هناك نقاط خلاف كثيرة بيننا وبين الأمريكان، واليابان لا تتدخل فى الشئون الداخلية لأى دولة. وإن تدخلت أمريكا عسكريا فى الشرق الأوسط تصبح نقطة الخلاف بيننا وبينهم كبيرة.

ـ بيع المؤسسات والشركات ألا يؤثر على الدور اليابانى؟!

ـ الاقتصاد الحر لا يؤدى إلى تقلص الدور الاقتصادى والسياسى لليابان وفى مصر أدت هيمنة الدول على الاقتصاد المصرى إلى إعاقة تطور الحياة الاقتصادية. وفى بلادنا كانت السكك الحديدية ملكا للدولة وكانت تعانى من المشاكل، ومثقلة بديون ضخمة ولهذا تحولت إلى شركة خاصة؛ لأن الموظف الحكومى لا يستطيع أن يقوم بتنشيط شركة أو حتى تشغيلها. ولأن الشركة الخاصة لابد وأن تحقق ربحًا، بينما شركة القطاع العام مثل الموظف الحكومى الذى قد لا يهتم بذلك بعكس الشركة الخاصة التى تعتمد على تحقيق الربح وتجعله هدفها الأساسى. صندوق النقد الدولى يطلب من مصر التحول الكامل إلى القطاع الخاص فى كافة المؤسسات، وهذه ليست عقوبة ولكنها وسيلة للتطوير الاقتصادى، وهذا لا يضر بدور الدولة ولكنه ينشطه.

ـ بيع السكك الحديدية عندكم.. ماذا كانت نتائجه؟!

ـ هناك مراحل للتطور الاقتصادى فى اليابان. والسكك الحديدية تحولت إلى القطاع الخاص منذ عشر سنوات فقط. وعندما كانت الدولة مسئولة عن السكة الحديد لم يكن العمل بهذه الكفاءة، لأن القطاع العام يقدم أسوأ الخدمات، ثم إنه مادامت الدولة مشرفة بشكل جيد على هذه الشركات فلن يكون هناك قلق حتى من الناحية الأمنية.

وفى الصين كان كل شىء مملوكًا للدولة، حتى الأرض والمنزل ولكنها فى الفترة

الأخيرة بدأت تسعى نحو الملكية الخاصة، وفى هذه الناحية فإن الصين أفضل ألف مرة من روسيا؛ لأن الاقتصاد الروسى فى حالة سيئة.

ـ هل تم فصل العمال فى السكة الحديدية عندكم عند بيعها؟!

ـ تحول الشركة العامة إلى شركة خاصة يتسبب فى قلق اجتماعى؛ لأن الشركة الخاصة تعاقدت مع نفس العاملين ولم يفصل منهم سوى ١٪ فقط. والذين اقتربوا من سن المعاش كانت لهم الأولوية، والباقون حوّلوا إلى أعمال أخرى.

ـ كم دارس فى هذا المعهد؟!

ـ الدارسون الدائمون أربعة فقط. ولكن هناك اتصال دائم بأساتذة الجامعات، أو الدارسين الآخرين الذين نقيم معهم الندوات واللقاءات. وإذا كان هناك موضوعًا مهمًا، نشكل بعثة ونرسلها إلى الشرق الأوسط ـ مثلا ـ والمعهد يصدر دوريات تنشر فيها نتائج دراستنا.

ـ هل أنتم مطبخ صناعة القرار فى الخارجية اليابانية؟!

ـ لا تتصور أن هناك دولة ما يعتمد قرارها على مطبخ واحد.

هذا المعهد يقوم بإعداد التقارير والبحوث ليقرأها صانعو القرار لكى يهتدوا بالمعلومات ويستفيدوا منها عند صنع القرار ولا أعتقد أن معهدًا واحدًا يمكن أن يصنع القرار.

وإذا كانت وزارة الخارجية اليابانية تسهم فى هذا المعهد، فإن معظم الشركات الخاصة تسهم فيه أيضا، وتقدم له الدعم المطلوب حتى يستمر فى مهمته. وعدد هذه الشركات ١٦٣ شركة تسهم فى ميزانية المعهد.

ـ كيف ترون مستقبل الشرق الأوسط؟!

ـ البترول العربى لن ينتهى بسهولة؛ لأن احتياطى البترول العربى يشمل ٧٠٪ من احتياطى العالم؛ أى أن البترول العربى سيكون آخر البترول فى العالم كله.

وأهمية البترول مستمرة؛ لأن الطاقة الذرية مشاكلها كثيرة وبالتالى يبقى البترول سيد الموقف، وأيضا فإن الأهمية الجغرافية للشرق الأوسط مستمرة باعتبارها حلقة وصل بين الشرق والغرب. فى الوقت نفسه فإن معظم دول الشرق الأوسط مستوى المعيشة فيها مرتفع، مقارنة مع دول جنوب شرق آسيا. وذلك بسبب انخفاض عدد السكان، باستثناء

مصر، التى تعانى من انفجار سكانى خطير، وهذه المشكلة يمكن حلها من خلال التنويع فى الصناعة.

ـ ما هى هموم اليابان الآن؟!

ـ (ضحك طويلا قبل أن يجيب) العالم كله مقبل على مرحلة تحول. الدنيا كلها تتغير ونحن جزء من هذا، واليابان أيضا دولة لابد وأن تتغير. اليابان دولة هزمت فى الحرب العالمية الثانية، ولكن حدث فيها تغير وتقدم. الخطأ يكمن فى أن الأولوية كانت للشركات من أجل إحداث هذا التقدم؛ ومن هنا حدث اختلال، ولكن هذا الاختلال ليس مثل الوضع فى الفلبين التى تعانى من ظلم اجتماعى فادح. فهناك قلة تحصل على كل شىء، والأغلبية محرومة تمامًا، وهذا الاختلال لم يحدث فى اليابان.

ولكن المطلوب هو تغيير السياسات. فالعلاقات مع أمريكا لابد من تغييرها. أمريكا سبق وأن هاجمت اليابان، والآن لن تكون السياسة اليابانية تابعة لأمريكا، ولابد من تغيير جذرى فى سياسة اليابان الخارجية يبعدها عن التبعية لأمريكا، وهذا يتطلب تغيير علاقات اليابان الخارجية.

عندنا مشكلة أخرى اسمها الشركات الكبرى. صحيح أن التقدم الصناعى بعد الحرب الثانية باليابان كان كبيرًا، ولكنه قام على أساس تمتع الشركات بالأولوية لدى الحكومة، وهذا تم على حساب المستهلكين من الناس. وإذا كان دخل الفرد فى اليابان قد وصل إلى أعلى مستوى فى العالم كله فإن هذا الفرد يعيش فى منزل أطلق عليه أحد الإنجليز «عش الأرانب»، لأنه لا يزيد على مائة متر.

ـ تحدثت عن الصين أكثر من مرة، أين تقع الصين فى اهتماماتكم؟!

ـ الصين تختلف عن الاتحاد السوفييتى. الروس بدءوا من الإصلاح السياسى ولم يصنعوا شيئا من أجل إصلاح الاقتصاد، ولكن الصين بدأت من الاقتصاد، ولهذا نجحوا!

الصينيون تجار فى الأصل، ولذلك نجحوا فى التجارة؛ من حيث إن الروس كانوا فى الأصل عبيدًا فى العصر الإمبراطورى. الصين كتلة بشرية ضخمة، وعندما تبدأ هذه الكتلة فى الاستهلاك لابد وأن تصبح الدولة الأولى فى العالم، وسيكون لها ثقل حقيقى فى السياسة الخارجية اليابانية، ونحن نعمل على هذا الأساس.

ـ ألا تعانون من مشكلة أصولية عندكم؟!

ـ لا توجد عندنا مشكلة أصولية دينية ؛ لأن الدستور يضمن الحرية التامة للعقيدة. ومن حسن الحظ ـ أو سوئه ـ أن اليابان مجموعة من الجزر ليست لها حدود برّية مع أى دولة أخرى، ومن المستحيل حدوث تسرب أحد من هذه الحدود إلينا، ولذلك لا توجد مشكلة أصولية عندنا حتى الآن على الأقل.

أعود إلى إكمال سؤال سابق لك عن هموم اليابان، إننا نعيش حاليا عصر الرغوة. على سبيل المثال؛ شركة ناشيونال وهى شركة أدوات كهربائية فى الأساس، ولكنها كانت تخسر لأنها كانت تتاجر فى الأراضى. إنها شركات اقتصاد الرغوة ولابد من وقف هذا الاقتصاد ولوقف معاناة المستهلكين الذين كانوا ضحية، وأيضا هناك نظام ضريبى سيئ.

إن التضحية الكبرى لتقدم اليابان قدمها السكان العاديون. وها نحن نواجه ارتفاع الأسعار الرهيب فى اليابان. إن الفواكه تباع بخمسة أضعاف سعرها فى أمريكا، وعن نفسى أتمنى أن آكل يوستفندى مصر، وبرتقال سوريا، ولكن سعرهما فى الأسواق مرتفع جدًا. إن برتقال كاليفورنيا الذى يصل إلينا أرخص بكثير جدًا. هذا النظام لابد من إعادة النظر فيه، ولابد أن يكون التقدم الاقتصادى فى صالح الإنسان العادى.

ـ سابع عشر ـ

.. وأحزان مصرية

السؤال الجرح..

لماذا تقدمت اليابان.. ولماذا تعثرت مصر؟!

أطلال اليوم الثامن

. . عندما كنا طلابا فى المدارس، قال لنا أساتذة التاريخ: إن نهضة مصر واليابان قد تمتا فى وقت واحد؛ النصف الأول من القرن الماضى، وإن مصر تعثرت ـ لأسباب كثيرة لا داعى لذكرها ـ فى حين أن اليابان استمرت فى التقدم، حتى وصلت إلى ما وصلت إليه الآن.

كانوا يقولون لنا ـ من باب البحث عن تشابهات بين مصر واليابان ـ إن سنة ١٩٥٢ شهدت فى مصر ثورة يوليو، وفى السنة نفسها شهدت اليابان بداية الاستقلال والتخلص من توابع الحرب العالمية الثانية. كان عندنا مدرس تاريخ، ينظم دروسه على شكل أبيات من الشعر، وكان يقول لنا إنه لولا مساعدات مصر لليابان فى القرن الماضى، ما كان لليابان أن تحقق ما وصلت إليه من إنجازات مهمة.

أعترف أننى سافرت إلى اليابان، ومثل هذه الحكايات التاريخية تملأ الأذن وتحتل الوجدان وكان من الطبيعى أن أبحث عن الأصول التاريخية لها. رحت أجرى وراء التفاصيل اليابانية، وبعد العودة إلى مصر كان من الطبيعى أن أحاول الوصول إلى الرؤية المصرية لنفس الوقائع.

أبدأ بما قاله اليابانيون لى. .

كان أول من قابلته الدكتور توشيوتاوا. مدرس معهد الشرق الأوسط فى الخارجية اليابانية، وعندما سألته عن هذه القضية قال لى:

ـ القول إن هناك علاقات بين مصر واليابان فى القرن الماضى فيه خطأ. إنها أساطير مصرية. فقط يمكن القول إنه كانت عندنا دراسات للغة العربية، وإنه كان هناك طلاب يدرسون كل شيء عن مصر والمنطقة العربية، وهذا ما زال مستمرا منذ بدايات هذا القرن وحتى الآن. وهذا المعهد مثلا لم يكن موجوداً منذ ٣٠ سنة مضت.

ـ ولكن يقال: إن مصر واليابان فى عصر «مايیجی» قد جرت بينهما اتصالات؟!

ـ ربما كانت هذه المعلومات صحيحة، ولكنى أعتقد أنها لو تمت؛ فإنها لم تصدر عن رغبة فى معرفة الحضارة العربية الإسلامية ولكن بنوع من الفضول فقط. لا أكثر ولا أقل. ثم لا تنس أنه فى عصر الإمبراطور العظيم مايیجى، لم تكن مصر قد استقلت بعد.

قد يكون هناك خطأ فى التوقيت. ربما جرى هذا قبل عصره، ولكن كتب التاريخ عندنا تخلو من هذا. ثم إن مصر قبل الاحتلال الإنجليزى كانت محتلة أيضا من قبل العثمانيين. ومعلومة أن اليابان أرسلت إلى مصر لتطلب مساعدات، أسمعها لأول مرة فى حياتى، برغم اهتمامى بتاريخ هذه الفترة.

فى معهد آسيا وإفريقيا فى جامعة طوكيو، قدم لى «كامى توكا» مدير المعهد دراسة عن القرية فى مصر العثمانية وفى اليابان، ضمن سلسلة الدراسات الخاصة بالثقافات الإسلامية وهى برقم «٧» فى السلسلة وكتبها وأعدها: عبد الرحيم عبد الرحمن، وأطارو ميكى. فأسأله:

ـ ولكن كانت هناك صلات مصرية يابانية فى ذلك الوقت؟!

ـ إن الذى درس هذه القضية هو الدكتور رءوف عباس حامد، وقد دعوناه إلى اليابان لكى يجرى بحوثا حول هذه القضية. خاصة وأن هناك تشابهاً بين العصرين؛ كل منهما جاء قبل التحديث والتغريب مباشرة فى البلدين، عندما كان الموضوع المثار هو العلاقة بين الإمبراطور والحاكم العسكرى والعالم الإقطاعى. يمكن القول إن هناك تشابهاً بين البلدين فى هذا الظرف بالذات.

إننا ندرس عصر محمد على باهتمام، ولا بد من الاعتراف أننا بدأنا هنا فى اليابان متأخرين عن محمد على، لقد سبقنا إلى التحديث والتنمية والعصرية وبنى نظام حياة حديثة، واليابان تأخرت عن مصر، من ٥٠ إلى ٦٠ سنة، وهذه حقائق تاريخية لا تقبل الجدل أو المناقشة ولا أحد يستطيع أن يقاوم حقائق التاريخ.

ـ وماذا عن العلاقات بين محمدعلى ومايیجى؟!

ـ لا أعتقد أنه كانت هناك علاقات شخصية بين محمد على وماييجى، واليابان لم تعرف التجربة المصرية إطلاقا. الأمر الحاكم عندنا هو: هل كانت توجد قنوات معلومات بين البلدين، أم لا؟ ولا أعتقد أنه كانت هناك أية قنوات معلومات مباشرة؛ كانت قنوات المعلومات فى الاتجاهين: من اليابان إلى مصر. ومن مصر إلى اليابان تمر عبر أوروبا. ونحن ـ هنا ـ متأكدون من عدم وجود قناة مباشرة.

ـ ولكن لدينا صورة لبعثة يابانية تقف تحت «أبو الهول» الذى هو أحد معالم مصر؟

ـ كانت هناك بعثة يابانية سافرت إلى أوروبا وبالتحديد إلى ألمانيا وإنجلترا وفرنسا، وقد مرت هذه البعثة على مصر فى ذلك الوقت وكان هذا بعد إصلاحات ماييجى، ولا تنس أن اليابان بعد هذه الإصلاحات كان ينافس العالم كله؛ فكيف يمكن القول إنه استفاد من مصر؟

ـ فى طريق عودة هذه البعثة من أوروبا مرت على مصر، وكان ذلك فى زمن ثورة عرابى التى كانت تقاوم التدخل الأوروبى فى شئون مصر فى ذلك الوقت.

ـ وعموما أعتقد أنه صدر فى جمعية مسلمى اليابان كتاب عن تاريخ الإسلام فى اليابان منذ دخوله إلى اليابان وحتى الآن. ربما كان فيه شىء موثق عن هذا الموضوع.

ـ والمراسلات مع عرابى؟!

ـ قد تكون هناك مراسلات يابانية مع عرابى باشا، ولكن هل كانت هذه المراسلات مع ماييجى أم مع غيره؟! خاصة وأنه كانت هناك مجايلة بينهما، أى أنهما كانا فى زمان واحد تقريبا.

ثم قام وأحضر وقائع عصر ماييجى، وكانت فى مجلدين كبيرين، وبدأ القراءة فيهما، وكان معه اثنان من أساتذة المعهد، لكنه لم يتوصل إلى شىء حول تساؤلاتى. ولكنه توقف عند نقطة فى المجلد الثانى، وعاد يقول لى:

ـ أعتقد أن انتصار اليابان على روسيا الذى جرى سنة ١٩٠٥ كان له أثره فى مصر. وكانت له ردود أفعال واسعة فى ذلك الوقت، فلماذا لا تتحدثون عنه؟ أين الحقيقة حول هذا الموضوع؟ لقد قامت عندكم ثورة سنة ١٩١٩، هل كانت هناك علاقة ما بين الثورة والحدث اليابانى العظيم؟

ـ قلت له: لست فى معركة حول هذه القضية أو تلك، ولم أحضر إلى اليابان من أجل الخلاف أو الاختلاف، ولكن أبحث هذه القضية من أجل توثيق هذه الوقائع غير الموثقة.

ـ ولكنى أقول لك إن هذا الانتصار اليابانى على روسيا ألهم شاعرا مصريا كبيرا ـ فى ذلك الوقت وحتى الآن ـ هو شاعر النيل حافظ إبراهيم؛ فكتب قصيدتين فيهما الكثير من التفاصيل اليومية اليابانية التى لم تكن معروفة فى ذلك الوقت. كما أن الزعيم مصطفى كامل كتب كتيبا فى هذه السنوات البعيدة أسماه: «الشمس المشرقة» عن سر تقدم اليابان.

بعد عودتى إلى مصر كان لا بد من لقاء الدكتور رءوف عباس حامد. أستاذ التاريخ الحديث فى كلية الآداب بجامعة القاهرة والذى يُعد المرجع العمدة فى هذه القضية، وما يقوله يعد القول الفصل فيها.

وعلاوة على تخصصه فى التاريخ المصرى، فله دراسات عن اليابان هى: الدراسات العربية فى اليابان، ودراسات تاريخ اليابان الحديث فى مصر، المصالح اليابانية فى الشرق الأوسط، وله كتابه الفريد: المجتمع اليابانى فى عصر ماييجى.

كذلك فإن الفترة التى قضاها فى اليابان، كانت مخصصة لعمل دراسة تاريخية مقارنة بين الشيخ «رفاعة رافع الطهطاوى» وشخصية يابانية مقابلة له، ومشابهة من حيث الدور العام هو: «فيوكوفريوا ياكيتسى» ومن خلالهما يدرس التجربة اليابانية والتجربة المصرية فى التحديث فى أواخر القرن الماضى وهى دراسة ـ على الرغم من أهميتها الفائقة ـ ما زالت بالإنجليزية حتى الآن.

قال لى الدكتور رءوف:

ـ لقد عرفت اليابان شخصية مقابلة للطهطاوى، ويعد رائداً للفكر الليبرالى فى عصر مايبجى ونستطيع أن نميز ثلاث مراحل من تطوره الفكرى: المرحلة الأولى ١٨٦٢ ـ ١٨٦٩ ركز خلالها على التعريف بالغرب وحضارته من خلال بعض الكتب التى ذاع صيتها فى حينه مثل قدوم وذهاب الأجانب، والأحوال فى الغرب ودليل السياحة فى الغرب، والعلوم الطبيعية المصورة، وجدول جميع البلدان.

وفى المرحلة الثانية ١٨٦٩ ـ ١٨٧٧ اهتم فيوكوفريوا ياكيتس بإبراز ما يمكن أن يفيد منه اليابان من حضارة الغرب وعلومه، وكتب فى هذه المرحلة كتابين مهمين هما: «تشجيع المعرفة»، و«الإلمام بالحضارة».

أما المرحلة الأخيرة، فتمتد من سنة ١٨٧٧ إلى عصر وفاته سنة ١٩٠١ وقد وضع فيها صيغة يابانية للفكر الحديث فى قضية الموروث والمكتسب من الآخر. وقد ذهب إلى أن الغرب يمتاز على الشرق بالاعتماد على المنهج العقلى والرياضيات، وطبق رؤياه على بلاد العالم؛ فرأى أن إفريقيا تعيش مرحلة التوحش، وأن تركيا والصين واليابان تعيش مرحلة البربرية وأن أوروبا الغربية وأمريكا تعيش مرحلة المدنية.

فإذا أرادت اليابان أن تأخذ بمرحلة المدنية وأسباب التقدم. فإن عليها أن تطرح عنها مرحلة البربرية وتتخذ من الغرب المثل الأعلى فتجعل المدنية الغربية هدفها الأسمى وتتخذ من الغرب مثلها الأعلى. فالتمدين يجلب الراحة الجسدية للإنسان ويرفع بمعنوياته ويحقق له الرفاهية والكرامة ما دام الإنسان سعى إلى تحقيق ذلك بالمعرفة والفضيلة اللتين يستطيع الإنسان عن طريقهما إقامة التوازن بين الراحة البدنية والمعنوية.

ـ وماذا عن العلاقات مع مصر؟

ـ كانت بداية معرفة اليابان بالعربية ومصر من خلال التجار والمبشرين مع معلومات محددة نقلها الهولنديون والبرتغاليون إلى نجازاكى. حيث كتب المفكر اليابانى فى حوالى العقد الأول من القرن الثامن عشر، ما سمعه عن الغرب، وقد ضمّنه ما سمعه من مبشّر إيطالى عن البلاد العربية وخاصة مصر.

ثم عاد الاهتمام قويا بمصر فى عصر مايجى، عندما احتاجت اليابان إلى رءوس الأموال لإقامة بعض المشروعات الكبيرة كالسكك الحديدية. وكان أمام اليابان خياران: إما أن تعقد القروض الأجنبية لتمويل تلك المشروعات، أو أن تعتمد على رءوس الأموال المحلية.

وقد تعالت أصوات رجال الاقتصاد والسياسة تحذر من التورط فى الاقتراض خشية أن يمهد ذلك الطريق أمام المصالح الغربية فتتدخل الدول الأوروبية فى اليابان كما تدخلت فى مصر.

وعكفوا فى اليابان على دراسة تغلغل الاستثمارات الأجنبية فى مصر وما ترتب عليه من نتائج سياسية، وظهرت دراسات متفرقة حول هذا الموضوع فى التسعينيات والثمانينيات من القرن الماضى. فكتب الرائد الاقتصادى الكبير ساوايشى فى يومياته التى نشرت عن هذا الموضوع. كما ظهرت بعض المقالات فى الصحف عن موضوع الديون

المصرية ، والتدخل الأجنبى فى مصر ، كتبها بعض الساسة البارزين مثل : ايتوهنز بومو وماتاسكانا ميرونيشى واوكوما شنديز .

ـ أعتقد أنهم فى هذه الفترة ذهبوا إلى عرابى فى منفاه؟ !

ـ لقد أثارت الرواية الواقعية التى كتبها فى عام ١٨٨٨ الأديب السياسى : شيبا شيرو بعنوان : «حديث إلى سيدتين جميلتين» الكثير من الجدل حول هذا الموضوع . فقد وصف ذلك الأديب الشاب ـ الذى كان يعمل سكرتيرا لوزير الزراعة والتجارة اليابانى ـ رحلته التى صحب فيها الوزير تاسى كانجو إلى أوروبا فى أواخر الثمانينيات فى القرن الماضى . حيث توقفا فى جزيرة سيلان وقابلا أحمد عرابى باشا وسألاه عن تجربة مصر مع الغرب فحذرهما من احتمال تورط بلادهما على نحو ما جرى فى مصر .

وفى أثناء مرور السفينة التى كانت تقلهما بقناة السويس شاهدا القناة ، ولكن الأمر المؤكد أنهما بعد العودة إلى اليابان ، اعتزلا الخدمة فى الحكومة وانضما إلى المعارضة من خلال المجلس النيابى . وصرف شيبا شيرو بقية حياته السياسية يدعو إلى اعتماد اليابان على إمكانياتها الذاتية وعدم التورط فى الاستثمارات الأجنبية . وذلك انطلاقا من التجربة المصرية مع الديون من القرن الماضى .

ـ ولكنى عندما قرأت «مذكرات عرابى» لم أجد فيها أى إشارة إلى هذه الواقعة ؟ !

ـ هذا صحيح تماما . عرابى لم يكتب عن هذه الواقعة فى مذكراته ؛ لأن هذه المذكرات اقتصرت على الثورة العرابية وما جرى فيها فقط ، ولم تتطرق إلى أى موضوع آخر .

ـ بعد عودة عرابى من منفاه إلى مصر . ألم يتحدث عن هذا الأمر ؟ !

ـ عرابى بعد العودة من المنفى أقام فى حلوان . كان كمّا مهملا . لم يكن يهتم به أحد . كان منفيا ولكن داخل وطنه ، وعلى الرغم من وجود صحف فى ذلك الوقت ؛ فإن أحدا لم يُجْرِ معه أى حديث ، وبالتالى لم يذكر الوفد اليابانى الذى زاره فى سيلان .

ـ لكن تبقى لنا الرواية اليابانية فقط ! !

ـ هناك غيرها ؛ وهى عبارة عن وثائق يابانية أيضا للأسف الشديد ؛ ذلك أن الببلوجرافيا التى نشرتها المكتبة القومية ـ وهى أعظم مكتبة فى اليابان ـ منها ٥٠٠ كتاب عن الشرق الأوسط ، وفيها ذكر وبيان عن تشيرو الذى ذهب إلى سيلان من أجل مقابلة عرابى

فقط. وفى تلك الفترة قدم ياندريوكى أفكار جمال الدين الأفغانى باعتبارها نوعا من الفكر السياسى المناهض للاستعمار الغربى وذلك فى كتابه: «قصة الساسة»!

وعندما قامت اليابان بالتوسع الاستعمارى فى بلدان الآخرين، تكونت فيها جمعية اليابان العظمى للحضارة وقد نشرت هذه الجمعية فى عام ١٩١١ كتاب كرومر «مصر الحديثة» وصدَّره رئيس الجمعية بمقدمة ذكر فيها أن التجربة الإنجليزية فى مصر جديرة بالدراسة من حيث تقديمها نموذجا للحكم الاستعمارى، تستطيع اليابان أن تقتدى بها فى حكمها لكوريا.

- ماذا عن البعثة التى زارت مصر، ومتى تم هذا؟!

- هذه البعثة جاءت إلى مصر سنة ١٨٧٢ فى زمن الخديو إسماعيل، وكانت مكلفة بمهمة من الإمبراطور مايیجى، وكانوا من الساموراى وهم الذين كانوا يتولون الحكم، وكان هدف هذه البعثة هو الطواف بأوروبا من أجل متابعة التحديث، ومحاولة الاستعانة بالخبرة الغربية فى التنمية وجذب رءوس أموالها. وقد بقيت من هذه البعثة صورتان. الصورة الشهيرة تحت «أبو الهول»، وأفراد البعثة يرتدون فيها ملابس الساموراى المعروفة، ولأعضاء البعثة الخمسة صورة أخرى فى برلين يجلسون فيها متجاورين.

- ماذا فعلوا فى مصر؟!

- كانوا عابرين فقط؛ كان من عادة الركاب أن ينزلوا من السفن فى السويس. ويسافروا إلى القاهرة والإسكندرية من أجل السياحة والفرجة، ثم يعودوا بعد ذلك إلى بورسعيد؛ فتكون السفينة قد وصلت إليها. ومن هنا يستأنفون رحلتهم، والرحلة من السويس إلى القاهرة والإسكندرية، والعودة إلى بورسعيد كانت تتم بالقطار.

وهذه العملية كانت تستغرق أسبوعا. وكانت السفينة تتوقف فى بورسعيد من أجل التموين، وكانت فى بورسعيد محطة كبرى للفحم من أجل تموين السفن، وكانت أهمية مصر بالنسبة لليابان فى ذلك الوقت مرتبطة بوجود قناة السويس بها وهى الطريق الأقصر والأقرب إلى الغرب عموما، وأوروبا خصوصا. والصورة الشهيرة لليابانيين تحت «أبو الهول» صوّرها اليابانيون. وأعتقد أنه لم تكن لهم أى صفة رسمية فى مصر، ولكن مرورهم بها كان أقرب إلى السياحة. ولكن من المؤكد أنهم شاهدوا ورأوا وعرفوا واستفادوا من التجربة المصرية فى ذلك الوقت.

- ماذا عن أثر الانتصار اليابانى على الروس فى مصر؟!

ـ صورة اليابان فى مصر والعالم العربى أصبحت صورة براقة بعد انتصارها على روسيا؛ فقد رأى العرب فى هذا الانتصار إمكانية تحقيق آمال الشعوب العربية فى مواجهة الغرب واستعاده مجد الشرق القديم. وكان هذا النصر ملهما لحافظ إبراهيم؛ فكتب قصيدتين شعريتين شهيرتين، حيث تغنى بانتصار اليابان وأشاد بشعب اليابان الذى نجح فى سلخ جلد الدب الروسى.

وفى هذا الإطار كتب الزعيم الوطنى مصطفى كامل كتيبا صغيرا. بعنوان «الشمس المشرقة» نشر عام ١٩٠٥ تحدث فيه عن نهضة اليابان فى عصر مايیجى وأشاد بالأمة اليابانية، وطالب المصريين بالتعلم من التجربة اليابانية حتى ينتصروا على الإنجليز الذين كانوا يحتلون البلاد.

ويكمل الدكتور رءوف عباس:

ـ لقد جذب هذا الانتصار ـ أيضا ـ أستاذا مصريا فى المدرسة الحربية كان ضابطا برتبة يوزباشى، يدعى أحمد فضلى، فذهب إلى اليابان فى عام ١٩٠٨، وعاش فى طوكيو حتى عام ١٩١١ تقريبا. وعاد إلى مصر لينشر أول كتاب باللغة العربية يتحدث عن اليابان فى عصر مايیجى يحمل عنوان: سر تقدم اليابان.

وكان قد نشر بالقاهرة قبل ذلك بعامين ـ ربما فى أثناء وجوده فى اليابان ـ ترجمة عربية لكتاب ألفه ضابط يابانى يدعى ساكوراى بعنوان: النفس اليابانية. قدم له بمقدمة أشار فيها إلى عظمة الجيش اليابانى، وذكر أن المؤلف اليابانى ساكوراى صديق شخصى له، وكذلك الكونت أوكوما، الذى كتب مقدمة الكتاب الأصلى، مشيدا بالضابط ساكوراى مؤلف الكتاب.

ـ ومن هو أحمد فضلى؟!

ـ للأسف الشديد ليست لدينا معلومات عن أحمد فضلى نفسه ولا عن الصفة التى سافر بها إلى اليابان، أو نشاطه خلال إقامته فى طوكيو فمعلوماتنا عنه مستمدة من مقدمته لترجمة النفس اليابانية وكذلك مقدمة كتابه عن سر تقدم اليابان.

ـ وماذا عن كتابه الرائد عن اليابان؟!

ـ كتاب «سر تقدم اليابان» الصادر سنة ١٩١١ يقع فى ١٥٢ صفحة ويتخذ طابع التعريف بالبلاد، كما يقدم فيه المؤلف انطباعاته عن المجتمع اليابانى طوال مدة إقامته فى البلاد

اليابانية. ويفهم مما أوردة المؤلف أنه كان على دراية باللغة اليابانية والعادات والتقاليد ونمط الحياة اليابانية.

ولما كان الكتاب هو أول كتاب من نوعه عن اليابان، فقد حرص المؤلف على تقديم نبذة عن تاريخ اليابان منذ أقدم العصور في الفصل الأول، وخصص الفصل الثاني للحديث عن الشنتو باعتبارها العقيدة اليابانية. ثم انتقل في الفصل الثالث إلى الحديث عن طبيعة اليابان وأخلاق وعادات أهلها.

أما الفصل الرابع الذى حمل عنوان «عهد النور» فقد خصصه للحديث عن الإمبراطور مايبجى وأورد ترجمة عربية للمرسوم الإمبراطورى الخاص بالجيش ونظامه، وكذلك بعض المراسيم الأخرى الخاصة بالحياة فى اليابان، وأنهى كتابه بخاتمة ذكر فيها أن نظام التربية وأخلاق الأمة هما سر تقدم اليابان، وطالب المصريين بالاقتداء بالتجربة اليابانية حتى تحقق مصر ما حققته اليابان.

والقضية ما زالت فى حاجة إلى المزيد من الدراسات.

إن مصر ترسل بعثات للدراسة فى جامعات اليابان، واليابان ترسل طلابا أيضا للدراسة فى جامعات مصر. والسؤال هو: لماذا لا تكون هذه القضايا المعلقة موضوع هذه الدراسات بدلا من الدراسات النظرية التى تتم.

إن رحلة أحمد فضلى وحياته وظروفه فى مصر وكذلك ما فعله فى اليابان طوال ٣ سنوات مسألة تستحق أن تدرس وأن يُعتنى بها.

فهل نفعل هذا؟!

على الأقل قبل أن تسبقنا اليابان إليه؟!

ـ ثامن عشر ـ

فساد.. وشركات.. وحكومة

اليوم الثامن ــ بقية

ثم اتجهنا بعد الخروج من معهد دراسات الشرق الأوسط فى الخارجية اليابانية لمقابلة عضوة البرلمان التى اختاروها لى، ولم أكن أعرف الحكمة فى أن أقابل هذه العضوة دون سواها، ولم أشأ أن أسأل كريمة؛ لأن إجابتها لن تشفى غليلى ولا تطفئ فضولى، ولن تدلّنى على ما أريد.

كان اسم العضوة غريبا. وفى الطريق إليها رحت أتدرب على الاسم: يوريكو كوابكى. وقد كتبته هكذا بعد عناء طويل. انتظرنا وقتا حتى تمكننا من الدخول إليها. مكتب مسئولة. خارج مكتبها عدد كبير من السكرتارية. فرحت. هاهى مسئولة يابانية تمارس عملها على الطريقة المصرية. هل هنا مكتب قوى عاملة هو الذى عين لها هذا العدد من السكرتارية؟ نظرت فوجدت جيشا من السكرتارية.

وقبل دخولنا شاهدت أناسا يدخلون، وأناسا يخرجون، وملفات تحملها السكرتارية إلى الداخل وتخرج بدونها، وأوراق يخرجون بها من داخل المكتب، وعندما مر وقت طويل ونحن فى الانتظار تصورت أننا من المفروض أن نمشى، أو أن هناك خطأ فى الأمر. أخيراً دخلنا، كان ذلك بعد الوقت المحدد لنا بحوالى الساعة. كنت سعيداً مرة أخرى، لأن الطريقة المصرية فى التعامل قد تسللت ووصلت إلى هنا، ورغم ضخامة المكتب، فقد كانت عضوة البرلمان جميلة للغاية وصغيرة فى السن، ولونها يميل إلى السمار؛ ألم يقولوا فى بلدنا إن السمار نصف الحلاوة؟!

سألت نفسى: ألا يعنى السمار خفة الدم؟! كنت أعوم منذ أيام فى بحر من التأدب اليابانى، والدبلوماسية التى تحاصر الإنسان فى كل مكان والانحناء فى كل دقيقة تمر، وكنت أرغب فى الخروج على هذا الجو الإمبراطورى.

قلت لكريمة : إن عضوة البرلمان هى أجمل امرأة يابانية رأيتها حتى الآن . أخذنى الانفعال بعيداً، فقلت : إنها أجمل من رأيت، ولو شاهدتها فى الشارع لعاكستها فورا؛ باعتبارها هدية السماء لى . كانت كريمة تحاول أن تحرك يدها ، بحيث لا يراها سواى من الذين فى المكتب، وحركة اليد كانت بهدف تحذيرى من هذا العبث الذى أقوم به فى المكان غير المناسب، والوقت غير المناسب، وأيضا فى حضور بشر لا يجب العبث معهم.

وجه كريمة مُغطى بطبقة من الذُّعر، وملامح وجهها تحاول أن توقفنى عما أقوم به، كانت ترغب فى أن تفعل هذا ولكن دون صوت، ثم توقفت عندما اكتشفت أنه لا جدوى من المحاولة. توقفت النائبة عما كانت تقوم به، وتكلمت مع كريمة باليابانية وإن كنت لم أفهم ما قالته لها، غير أن إشراقة وجهها (أى النائبة) جعلتنى أتصور أن غزلى قد وصلها مباشرة؛ لأن كريمة كانت ضده، وبالتالى لم تحاول ترجمته.

قلت : إنه لا مانع من وصول غزلى، بدون معرفة بمفردات اللغة، أليست هناك وسائل أخرى للتواصل الإنسانى غير اللغة؟! وهذا ما كان. كانت النائبة تبدى إعجابها لكريمة بالغزل الذى سمعته منى ولا يمكن أن تسمعه امرأة فى أى مكان من الدنيا سوى فى شوارع القاهرة. مفاجأة؟! أليس كذلك. لو كنت مكانى لوقعت على الأرض من الخجل والكسوف.

النائبة عاشت فى القاهرة خمس سنوات، وهى خريجة جامعة القاهرة، كلية الآداب، قسم علم الاجتماع، وقد جرى هذا فى السبعينيات، كم جرى أيضا فى هذا العقد الغريب ولا نعرفه نحن؟ أو علينا أن نعرفه فى ظروف صعبة؟ كم سيخرج لنا حاوى السبعينيات من جرابه من المفاجآت الأخرى؟! ورغم أن شهادتها من جامعة القاهرة، إلا أنها تعرف العربية بالسماع فقط، اللغة استخدام أساسًا، ومن يوقف تداولها على لسانه ينساها بعد ذلك فورا.

كان موعدنا معها فى الثانية عشرة والنصف، ولكن مكتبها اتصل يطلب جعله فى الرابعة والنصف؛ وذلك بسبب انشغالها الشديد، وعندما دخلنا إليها ونحن نمشى فى مكتبها الواسع، كان عندها زوار سابقين علينا لا يفضلون الانصراف، بدوا كما لو كانوا يرغبون فى حضور مقابلتنا. عندما جلسنا كانت تستمع إلى السؤال بالعربية منى، وتجيب باليابانية لكريمة، وكان جمالها أخاذا، لدرجة أنك عندما تنظر إليها يكون من الصعب عليك أن تستعيد عينيك اللتين توشكان أن تلتصقا بها إلى الأبد.

قالت إنها مشغولة للغاية؛ لأن اليابان على أعتاب إصلاح سياسى شامل، إصلاح

من النـوع الـذى لا يحـدث فى هذه البلاد سوى كل سبعمائة سنـة، ويؤرخ به لعصـر من العصور. يبدو أنها كانت تحلم، وأنها مثل كل النساء الجميلات اللاتى يتولين مسئولية ما يخلطن بين أحلامهن وحقائق الواقع، أو بين ما تتمناه الواحدة منهن وبين ما يجرى فى الدنيا.

ذلك أننى بعد أن عدت من اليابان إلى مصر، تابعت هذا الإصلاح طويلا أو على الأقل نتائجه. ولم يحدث شىء. بالعكس لقد قيل لى فى اليابان إنها رقم «٢» فى الحزب الحاكم فى البلاد، وإن هزة تطير برئيس الحزب الذى هو رئيس الوزراء فى الوقت نفسه، فالدور عليها لرئاسة الحزب الحاكم، وبالتالى رئاسة الوزراء.

ولكن الذى حدث هو أن الحزب كله قد طار فى الهواء، ولا أعرف الآن إن كانت النائبة الجميلة، شديدة الجمال لدرجة توجع القلب، ما تزال مشغولة كما رأيتها. أم لا؟

قالت لى: إن الإصلاح الذى يتم الآن فى اليابان يتلخص فى أمرين، الأول: الإصلاح الديمقراطى؛ أى توسيع رقعة الديمقراطية فى اليابان. والثانى: هو مواجهة الفساد. قلت لنفسى: حتى هنا يوجد فساد؟! يبدو أن الجزء الأخير من القرن العشرين سيدخل التاريخ باعتباره عصر الفساد فى كل زمان ومكان.

قالت لى: إن الفساد الذى فى اليابان يشبه إلى حد كبير الفساد الذى فى إيطاليا. مع فارق بسيط؛ أن اليابان لا توجد فيه عصابات مافيا. والفساد فى اليابان نابع أساسًا من حجم وضخامة مصالح الشركات الصناعية الكبرى «دائما الشركات. أينما تكونوا تدرككم الشركات». سألتها عن كيفية مواجهة الفساد عندهم. هل يتم ذلك بالتشريع أم بمزيد من الإجراءات الإدارية؟ أم هل وصلوا إلى مشارف الإجراءات الاستثنائية؟!

مع العلم أنها قادمة من صفوف المعارضة إلى الحكم، ورئيس الوزراء، هو نفسه رئيس حزب اليابان الجديد.

قالت لى: إنها ضد الإجراءات التى تحدثت عنها كلها سواء التشريعات أو الإجراءات الإدارية، أو الاستثنائية. ولكنها مع كلمة واحدة هى الشفافية، أن تكون كل الأمور معلنة أمام الناس، والناس أصحاب البلد هم الرقباء الفعليون والقادرون على مواجهة هذا الفساد.

ذلك أن الإجراءات قد تعنى الروتين وزيادة تدخل الدولة، الذى لا يعد مطلوبا فى ظل الحريات الاقتصادية الواسعة. التى تدخل إليها اليابان. ومفروض أن يزيد التوسع فيها مع مرور الوقت. والحل هو المزيد من الرقابة الشعبية.

قلت لنفسى: تاج الجزيرة؟ السلطانية؟ لقد سافرت كل هذه الساعات والأيام، لكى أسمع كلمة، هى أكثر الكلمات المتداولة فى مصر. وأعتبرها نوعا من الضحك على الذقون فى بلدى.

علىْ من يضحكون هنا؟ يبدو أن الشعب هو الشعب؛ بصرف النظر عن كل الإمكانيات الهائلة المتاحة هنا. فالناس هم الناس. والحكومة هى الحكومة. والحكومة أساسًا فكرة قائمة على العدوان على فردية الإنسان فى كل زمان ومكان. يبدو أن الدولة فى العصر الحديث تعنى غلبة الحكام على المحكومين، وهى أيضا تجسيد لفكرة الأهل والغنيمة، وأن الذين يحكمون لا يمارسون سوى عادة الكذب اليومى. وعلى الآخرين الانصياع لهذا.

كان وقتها محدودًا؛ ولذلك اتفقنا على تحديد موعد آخر، ولكن هذا لم يحدث، لا هى تحمست، ولا أنا من جانبى وجدت الحماس الكافى. ولا المؤسسة التى دعتنى لزيارة اليابان كانت تسعى لأن يتم هذا اللقاء الآخر. المهم أننى عدت إلى فندقى وأنا أتساءل عن الشهادة التى تحملها معها من جامعة القاهرة كيف حصلت عليها مع أن اللغة العربية التى من المفترض أنها عرفتها فى مرحلة ما من عمرها قد تبخرت تماما؟!!

لقد بدا لى الأمر مثل اللغز الذى بدون حل.

ـ تاسع عشر ـ

جحيم اسمه الأسواق

اليوم التاسع.
الخميس ١٨ نوفمبر ١٩٩٣

نزلت إلى أسواق اليابان مرتين : الأولى فى هذا اليوم وإن كانت بشكل غير رسمى ـ أى بعيدا عن طقوس الزيارة وبرنامجها المدون فى أوراق المؤسسة ـ كانت مع الصديق منصور أبو العزم. والثانية كانت بشكل رسمى فيما بعد مع كريمة موروكا، أى ضمن برنامج الزيارة، وفى أوقات عمل كريمة موروكا.

وقد يستغرب من يقرأ هذا الكلام، فنحن نتصور على البعد أن اليابان ربما كانت سوقا كبيرا وكفى، ولكن الذى رأيته كان تجربة أخرى؛ السوق جزء صغير منها. إن اليابان بلد مُنتج كبير، والإنتاج والابتكار هى قضية اليابان الأولى، أما الاستهلاك فهو مسألة تالية فى الاهتمام.

لم تكن لى مطالب كثيرة من اليابان، وقد أخذت معى من القاهرة مبلغا صغيرا، وعندما أبلغونى أننى سأحصل على مبلغ من المال، وأتولى تدبير أمورى فى اليابان به، انتابنى إحساس حاد بالقلق، تصورت أن المبلغ لن يكفى، ولأنى لا أحب الاستدانة أبدا، والحرص المالى عندى يسبق أى اعتبار آخر، لذلك لم أفتح يدى فى مسألة الشراء.

ومن يعش طوال عمره فى مصر، ولا يجرب تجربة العيش فى أى مجتمع آخر. لا بد وأن يصيبه الفزع من أسعار اليابان، من إيقاعها المجنون والذى بدون حدود. وهذا الجنون السعرى هو القاعدة العامة على الرغم من وجود محلات فى كل حى وشارع مكتوب عليها بالإنجليزية : «تاكسى فرى» أى أن البضائع المعروضة بداخلها معفاة من الضرائب والجمارك، ولذلك فإن أسعارها رخيصة، ومع هذا فإن هذه المحلات لم تقلل أبدا الإحساس بلهيب الأسعار . هذه هى النقطة الوحيدة التى كنت أهتف بعدها دائما : عمار يا مصر .

قبل السفر نصحنى أكثر من صديق بالذهاب إلى أسواق «أكى هارا» للأجهزة الكهربائية. من المستحيل وصف حجم هذه الأسواق. والأجهزة فيها ثلاثة أنواع: نوع يُستخدم فى اليابان فقط، ونوع ثان يستخدم فى منطقة الشرق الأوسط، ونوع ثالث يمكن استخدامه فى أماكن العالم الأخرى، بدون الشرق الأوسط. والذى يتحكم فى هذه الأنواع ويفصل بينها هو ڤولت الكهرباء المستخدمة فى هذا الجهاز أو ذاك.

والخبير بأسواق اليابان لا بد وأن يعرف أن الموديل عندما تمر عليه سنة لابد وأن ينخفض سعره فورا. وقد حبانى الله بالصديق منصور أبو العزم؛ مدير مكتب جريدة الأهرام فى طوكيو، وهى الجريدة العربية الوحيدة التى لها مكتب صحفى فى طوكيو. ومنصور أبو العزم يعرف طوكيو كما يعرف كف يده، وهو يستخدم سيارة هوندا يابانية الصنع، والسيارة صغيرة وعجلة القيادة فيها فى ناحية الشمال؛ مثل كل السيارات الموجودة فى اليابان، وقد اشتراها مستعملة.

وعندما وصلنا إلى الأسواق اكتشفت أن الباعة يعرفونه شخصيا، وثمة ذكريات مشتركة بينه وبينهم، لكن المفاجأة الحقيقية كانت الفصال على الطريقة المصرية، هذا آخر ما كنت أتوقعه فى اليابان، والبائع يقدم البضاعة مكتوبا عليها السعر؛ فيقوم منصور على الفور بخفض السعر إلى النصف، كانت طلباتى متواضعة؛ لأننى أعتقد أن أسواق مصر فيها الآن كل شىء.

وعندما نزلت إلى الأسواق اليابانية، كانت معى ورقة فيها طلبات أحمد ورباب؛ ابنى وابنتى، وطلبات أحمد كانت رياضية فى معظمها؛ ساعة للسباحة وساعة رياضية، وطلبات رباب ترفيهية فيها أبهة؛ كانت تطلب ساعة أيضا، ولكن على شكل لم يصل إلى مصر من قبل، وتكون ساعتها هى الساعة الوحيدة فى بر مصر.

كنا نقف عند البائع فأخرج الورقة التى معى ونبدأ السؤال حتى نهتدى إلى ما نريده، ثم الفصال الذى لا ينتهى بعد ذلك، والسوق مثل كل مكان آخر فى اليابان؛ ليس مستويا، وامتداده ليس أفقيا، ولكنه يمتد رأسيا إلى أعلى. نتفرج صعوداً مرة، ونتفرج هبوطا مرة أخرى. وفى أثناء الصعود من دور إلى دور لمحت كشكا يبيع الأقلام الفلوماستر، خراب البيوت والجيوب الجديد الذى أطل علينا من اليابان، حيث تركنا القلم الجاف التقليدى، وحتى القلم الحبر مهدد بأن نحيله إلى المعاش أيضا.

لكل منّا هوايته، وهوايتى الوحيدة فى هذا العالم تتلخص فى اقتناء الأقلام ـ الرخيصة

طبعا ـ بكافة أنواعها والاحتفاظ بأكبر كمية من الورق، لأنه يخيل إلى أحيانا أننى قد أستيقظ صباحًا لأكتشف أن الورق قد نفد من فوق كوكبنا الأرضى أو أنه قد تم حرقه؛ مثلما جرى فى فيلم فرانسوا تريفو الشهير «٤٥١ فهرنهيت».

لمحت الأقلام وذهبت إليها؛ ما من نوع من الأقلام إلا وأعرفه وأعرف ثمنه وعيوبه ومزاياه. كنت أتصور أننى سأجد الأقلام هنا أرخص من مصر ألف مرة. تكفى تكاليف الشحن من طوكيو حتى القاهرة. وضريبة المبيعات والجمارك وأرباح البائع المصرى، وخلافه. المفاجأة أننى اكتشفت وتأكدت أن سعر الأقلام فى مصر أرخص منه فى اليابان كثيراً. سألت نفسى: هل يبيعون هنا سلعا مضروبة ويصدرون لنا الأفضل والأحسن والأجود؟ ما الحكاية بالضبط؟!

قال لنا البائع عندما نقلنا إليه حيرتنا: إن الدولة اليابانية تقدم مزايا كثيرة لكل سلع يتم تصديرها إلى الخارج؛ لأن التصدير ليس تجارة بقدر ما هو دور أساسًا. ثم إن هناك المنافسة وهى مهمة. مثل هذه الأقلام تصنعها ألمانيا وإنجلترا وفرنسا وأمريكا. حتى إيطاليا دخلت هذا الميدان مؤخرا، والانتصار على المنافسة من الأمور المهمة من أجل البلاد كلها، وليس من أجل الشركة المصدرة. حمدت الله أننى جئت إلى هذه البلاد مسلحًا بأقلامى الكثيرة، وبالتالى لست مضطرا للشراء. وكل الأقلام التى عدت بها من اليابان كنت أحصل عليها من المحلات كنوع من الباقى أو حلا لأزمة الفكة التى كانت موجودة طوال الوقت فى اليابان.

وإن كان يخيل إلىّ أن الأمر لا يدور حول أزمة فكة ولا يحزنون، ولكن الحكاية تدور حول وسيلة للتوزيع والترويج والبيع بأشكال مختلفة. فى كل المحلات السريعة فى وسط طوكيو كنت أحصل مقابل المائة ينّ الباقية على قلم جاف. وقد عُدت بعدد كبير من هذه الأقلام تكاد أن تعكس عدد المرات التى نزلت فيها إلى الأسواق أو لجأت للشراء فيها.

سألت منصور أبو العزم إن كانت هذه الأجهزة قد صنعت خارج اليابان؛ وتباع هنا؟ قال لى: إن ذلك من الأمور المستحيلة لأن الانضباط هنا لا يسمح بمثل هذه التصرفات. والأسواق فى اليابان مصممة من أجل الاستغناء عن العمالة بقدر الإمكان؛ فإن دخلت مطعما، تجد أنك مفروض عليك أن تأخذ طعامك بنفسك، والأطباق والملاعق والشوك والسكاكين ـ فى الغالب ـ من الورق، يتم رميها فى صفيحة الزبالة، والدفع ـ دائما وأبدا ـ مقدما. كل مطعم أو مقهى له فاترينة كبيرة، يعرض فيها ما يقدمه من مأكولات

ومشروبات على شكل نماذج مصنوعة من الحجر وبجوار كل طبق الثمن. إن هذا يسهّل على الإنسان التعامل مع المطعم أو المقهى، حتى لو لم تكن تعرف أى لغة، يكفى أن تشير إلى ما تريده فيحضرونه لك، وكانت أغلى الأطباق هى أطباق السلاطة الخضراء، أغلى من السمك واللحم والدجاج.

وقد لاحظت على المطاعم فى اليابان أنها تعمل على أساس اقتصادى وإنسانى، يراعى المصلحتين العامة والخاصة قبل الربح. فإن قدم لك أرزاً لا يقدم البطاطس، وإن كانت هناك بطاطس على المائدة لا يوجد خبز، وإن وُجد الخبز تختفى المكرونة وهكذا، طبعا يمكن أن تكون هناك استثناءات من أجل ضيف غريب، ولكن هذا هو الموقف العام بالنسبة لليابانيين أنفسهم.

المقاهى أقرب إلى «الكافى شوب» منها إلى المقهى، وهى عبارة عن غرفة واحدة متوسطة الحجم، والمناضد قطع من الخشب مثبتة فى الحائط، يجلس الإنسان ووجهه للحائط وظهره للآخرين، ويقوم بدفع ثمن الشاى والكيك ويحملهما ويعود إلى مقعده، يدفن وجهه فى الجريدة التى أمامه ويشرب، وما أن ينتهى من تناول الشاى حتى ينصرف.

المرطبات تباع بنظام العملة؛ تضع هذه العملة بقدر ثمن ما تريده، فيخرج لك المشروب، والسجائر تباع بنفس الطريقة؛ تضع ثمن العلبة التى تريدها فتخرج لك وذلك بدون أى عمالة. وصاحب الدولاب الكبير الموضوع فى الشارع، واجهته من الزجاج وخلف الزجاج أنواع المشروبات والدّخان. صاحب هذا الدولاب هو الذى يفتحه كل فترة من الوقت، ويقوم بملء ما نفد من الأصناف ويحصل على الأموال الموجودة نتيجة للبيع الآلى، ويغلق الدولاب بمفتاح كبير معه.

عندما تنزل إلى الشارع تجده غابة من الإعلانات، وكل مدن العالم مليئة بالإعلانات، هذا صحيح، ولكن كل هذا كوم ومن فى اليابان كوم آخر، أينما كنت تواجهك الإعلانات وما أن يأتى الليل حتى تصبح طوكيو مدينة أخرى. تطفئ وتضىء.

أسماء الشركات منتشرة فى كل مكان، ونحن هنا نتعامل مع وجه واحد لكل شركة، مثلا شركة متسوبيشى. كنت أتصور قبل السفر أنها شركة للسيارات، ولكن بعد السفر اكتشفت أن الشركة تصنع الأقلام والورق، بل ولها بنك مهم متواجد فى كل مكان فى اليابان.

وعلى الرغم من أننى كنت أقيم فى أرقى وأغلى حى فى العالم؛ هكذا شاءت مؤسسة اليابان وليس أنا. فمن ناحيتى كنت أفضل الإقامة فى حى شعبى بسيط، أو فى فندق مثل المشهد الحسينى أو الكلوب الزينبى، أو فندق البرلمان فى العتبة الخضراء، أو أحد فنادق كلوت بيك؛ ففى هذه الأجواء يوجد عبق الجماهير ورائحة أنفاس الناس.

ورغم فخامة الحى تعال معى ننزل إليه ليلاً والليل يخفى حقائق الأشياء. لترى ما رأيته أنا فى شوارع هذا الحى الفاخر، يتحول رصيفه إلى سوق غريب، تعاملت معه كما لو كان تعاملى مع شارع كلوت بيك فى أول مرة نزلت فيها القاهرة فى أواخر الخمسينيات. كل ساعة معروضة للبيع هى عبارة عن هيكل فقط وبداخلها برغوث يحرك العقارب لحظة. هى لحظة البيع والشراء، وشرب الزبون المقلب الجميل، ثم تتوقف الساعة إلى الأبد، كما لو أنها أصيبت بالسكتة القلبية. كان هذا يقينى الخاص. رغم عدم معرفتى إن كانت جزر اليابان قد عرفت البراغيث وتعاملت معها أم لا.

شاهدت فتى وفتاة يعرضان شخصا صغيرا من الورق على أحد الأرصفة. يناديان عليه؛ تحرك يا چو فيتحرك. قف يا چو فيقف. وانحن احترامًا يا چو فينحنى. كانا يطلبان منه بالإنجليزية ثم باليابانية. كان «چو» هذا أعجوبة مِن أعاجيب العصر والأوان، مع أنه مجرد قطعة من الورق مرسوم عليه شكل إنسان من الأمام والخلف. فكرت فى شرائه. تخيلت «چو» هذا عندما يدخل قريتى الضهرية فاتحا وغازيا. إنه سيفعل بها ما لم يفعله فص الفوسفور الذى كان يستخدمه إمام اليمن قبل ثورتها. ولا تنسَ أن اسمه «چو» وهكذا ينطق القوم فى القاهرة اسمى عندما يرغبون فى تدليلى.

قررت شراء چو. وليكن ما يكون، حتى لو كان لصًا سيذهب معى إلى الفندق من أجل سرقة أموالى وأموال مؤسسة اليابان التى قدمتها لى من أجل الإنفاق منها. لم تبق من مشكلة سوى اللغة. هل لو قلت له تحرك يا چو باللغة العربية سيتحرك؟ مسألة مهمة طبعا. لا بد وأن يستمع إلى العربية ويفهمها. ألم يجعلونها لغة من لغات هيئة الأمم المتحدة؟ وضحكوا علينا وقالوا لنا: هكذا أصبحت لغة الضاد لغة عالمية؟!

أين اعتزازى بعروبتى إن اشتريت «چو» وهو لا يعرف العربية؟! ولا يعترف بها؟ ولا يتحرك بموجبها؟ إن كان عندى إصرار على عدم الشراء ما لم يتكلم «چو» بالعربية الفصحى، ربما فرض عليهم ذلك إدخال العربية ضمن اللغات التى يتحرك السيد «چو» بموجبها. وهل الذى يباع عندهم هو السيد «چو» فقط؟! أم أن أنثاه هنا أيضا، وانتهوا من بيعها أولا لأنها أنثى؟ ثم لماذا چو؟ ما السبب فى اختيار هذا الاسم بالذات دون أسماء

أخرى كثيرة؟ تلك مسألة لابد من بحثها مع الذين يبيعون السيد چو على الأرصفة. ومن تنوع الإجابات سأصل إلى الحقيقة المؤكدة.

كانت البنت تصرخ بصوت عال، مثل صراخ الذين يبيعون فى سوق الثلاثاء الذى يقام فى التوفيقية بالقرب من قريتنا وكانت تصفق بيدها، وتنادى على الزبائن، أما زميلها الذى كان هادئا، فكان عليه البيع واستلام الثمن فقط. ثمن چو كان حوالى مائة وسبعين قرشا، وهو بذلك يعد أرخص ما صادفته يُباع فى هذه البلدان. كانت البنت تجرب چو وصديقها هو الذى يبيعه، وكلما ازدادت حمى الشراء، ارتفع صوتها أكثر، وتزداد حمى الموقف كله.

اقتربت من البنت لأسألها عن حكاية إمكانية نطق «چو» باللغة العربية. كانت البنت طويلة، أطول فتاة رأيتها فى حياتى. رفعت رأسى لأكلمها، وهنا جاءت المفاجأة، ولأقُل اللطمة! كانت الفانلة البيضاء التى تلبسها البنت عليها علم إسرائيل! نظرت كالمجنون، اللون الأزرق الذى يحد العلم من الناحيتين. سألت نفسى: أى اللونين الأزرق هو ماء النيل؟ وأيهما ماء الفرات؟ أيهما ماء البحر الأبيض المتوسط؟ وأيهما ماء البحر الأحمر؟ أم أن دلالة هذا اللون أن إسرائيل ستحرمنا من أى قطرة مياه فى المنطقة؟!

أنا متأكد الآن أن هذه أول مرة فى حياتى أقترب فيها من كائن إسرائيلى، أعتقد أن حوالى مائة سنتيمتر كانت تفصلنى عنها، ولم يحدث هذا من قبل، ولا يمكن أن يجرى بعد هذا. إسرائيل هنا، وإسرائيل هناك، تطاردك إسرائيل حتى فى قلب طوكيو! فأى حظ تعس هذا؟! بلعت سؤالى وانصرفت، لا أريد من البنت أى شىء، والعربية على لسان چو الذى تبيعه ستكون عربية مشوهة، عندما سألت بعد ذلك عن إسرائيلية البنت، أكد لى مَنْ سألته أن كل الذين يبيعون بهذه الطريقة فى جميع أنحاء اليابان هم من إسرائيل، وأنهم يتمكنون من دخول اليابان بطرق لا يعرفها أحد ولا أحد من الأمن اليابانى يعترضهم أو يحاول الاقتراب منهم. رغم النصب الذى يقومون به.

بعدها، كنت أمشى فى شوارع جنزا، وعندما كنت أشاهد هؤلاء الباعة، كنت أترك لهم الرصيف بمن فيه وبما فيه. ألم نترك لهم فلسطين؟! وألم نترك لهم سفارة فى الضفة الغربية لنهر النيل؟ علمها يوشك أن يبصق على تمثال نهضة مصر؟ وسفارة فى قلب الأردن؟ كنت أجرى إلى الرصيف المقابل. حتى چو الذى كان يتحرك بتعليمات الفتاة الطويلة، لم أفكر حتى فى النظر إليه بعد ذلك.

فى الشوارع، كنت أقف فى كل ليلة أشاهد قرّاء البخت. وقارئ البخت شخص متقدم فى العمر، ملابسه محترمة، تقابل ملابس وزير أو محافظ عندنا، أو رئيس مجلس إدارة، أنيق الهندام وألوان ملابسه جميلة، وعلاقة الألوان ببعضها فيها ذوق. يجلس قارئ البخت على كرسى شديد الانخفاض. وأمامه منضدة، بدت لى بدون أقدام لأنها كانت شديدة الاقتراب من الأرض. وفوق المنضدة أربع شموع؛ شمعة فى كل زاوية من الزوايا الأربع، وثمة مقعد أمام المنضدة خال، يجلس عليه من يريد أن يقرأ طالعه. وكما تفعل الست الغجرية فى ريف مصر، عندما تفرد منديلها وفوقه الرمال، وتقول لك: ارمِ بياضك. يخرج الجالس أمام المنضدة النقود، ويقدمها لقارئ البخت اليابانى، وإن كانت الأرقام أكبر من الذى يقدم عندنا.

كانت الجلسة أقرب إلى التنويم المغناطيسى، وقد لاحظت أن أكثر الذين يقبلون على قراءة البخت هن من النساء، وبعضهن فى مقتبل العمر، وشكلهن يقول إنهن ربما كن يدرسن فى الجامعات، ومن النادر لو شاهدت مكانا خاليا؛ كان عدد المنجمين كبيرا بامتداد الشارع الطويل، والكل كان يعمل. ألا يدلك هذا على أن الناس فى اليابان وعلى الرغم من التقدم العلمى الهائل، ما زالوا يبحثون عن اليقين المستحيل؟!

الشارع اليابانى كرنفال عجيب وغريب. لا يمكن أن يتصوره الإنسان ـ ولو بعين الخيال ـ ولابد من رؤياه على الطبيعة؛ هذا بوذى يقف فى صمت. ينظر ولكنْ عيناه لا تريان ما هو أمامه، فى يده طبق يجمع فيه تبرعات من المارة، ولكن بدون كلمة واحدة ولا حركة.

بطل من أبطال «اليوجا». عنده تلك القدرة الفريدة على التركيز، التى لم أشاهدها على الطبيعة من قبل. ملابسه قطعة من السواد. كأن الليل كان هنا، وتركها ونسيها حوله. وجهه ورأسه بدون شعرة واحدة. أى عذاب يتعرض له هذا الشاب اللحيم؟! عليه أن يقف هكذا من الصباح وحتى الليل بدون حركة واحدة.

نظرت إلى وجهه ورأسه باحثا حتى عن منابت الشعر. قلت لنفسى: ربما كان أجرودا ـ كما يقال فى ريفنا ـ والأجرود عكس الرجل المُشعر، والأجرود رجل مهدد فى رجولته؛ ينظر إلى انعدام الشعر كما لو كان عيبا خلقيا أتى به إلى العالم.

سألت عن المطاعم العربية هنا. قيل لى: إن هناك مطعمين لبنانيين، ولكن الفكرة لم تجد الرواج الكافى، فأصبحا خليطا من المطعم اليابانى والمطعم العربى، ولم يكن لدىّ

وقت للذهاب إلى أحد المطعمين لمعاينة الأمر على الطبيعة. قالوا لى: إن هناك شابّا مصريّا، اشترى عربة مثل عربات الكشرى عندكم، يقدم عليها فى المساء فولا وطعمية؛ الطعمية تبدو كما لو كانت من مصر فعلا، ولكن الفول حَبُّه ضخم لا علاقة له بفول مصر من قريب أو بعيد. أكدوا لى أن الشاب لم يحصل على ترخيص من الحكومة اليابانية بمزاولة هذا العمل؛ ولذلك فهو يقف كل يوم فى مكان مختلف عن مكان اليوم السابق، وإن كان وقوفه دائما وأبدا فى حى جنزا ويكون فى الليل.

ورغم أن الإنسان المصرى يسافر من مصر وهو كفران من الفول والطعمية، إلا أننى بحثت عن الشاب بدون جدوى، تحولت إلى صابر سيد الرحيمى بطل رواية نجيب محفوظ «الطريق»؛ أذهب فى هذه الليلة إلى مكان، وأعرف بعد ذلك أن عربة الفول والطعمية المتنقلة كانت هنا، وتحركت قبل حضورى بدقائق، وكنت أعرف ذلك من المصريين والعرب الذين يعيشون فى طوكيو.

أعود إلى أسواق اليابان وأقول إن السوق فى تصورى نوع من الجحيم على الأرض، جحيم لا يطاق، يفوق جحيم دانتى، هذا الجحيم اسمه الغرق فى بحار البضائع التى تحاصر الإنسان من كل جانب. صدقونى. إن عدم الوفرة فى الأسواق نعيم حقيقى، نعيم جربته أنا فى مصر فى الستينيات، كانت الأسواق رحيمة بنا وبجيوبنا، تقف فى وجه تطلعاتنا، كان ما معنا مساويا لما فى الأسواق، وبالتالى فإن الحرمان لم يكن شعورا عاما ولا سائدا، ولم يكن فى بلادنا كل هذا التوتر المخزون والذى ينتظر لحظة الانفجار بمناسبة وبدون مناسبة. كنت أصاب بحالة من الدوار بمجرد نزولى إلى الأسواق، وأعود دائخا من مجرد التحديق فى المرئيات، فما بالك بمن سيشترى؟! ينظر ويقلب ويفاصل ويقارن بين ما معه من أموال، والسعر الذى أمامه.

إنهم يقولون: إن المواطن اليابانى يحصل على أكبر أجر فى العالم، ولكن تعالوا نلقى نظرة على أسواق اليابان ماذا فيها. والأسواق فى هذه البلاد يذهب إليها من لم يتعلم فن التعامل مع الأسواق؛ لأن فى اليابان اختراع جديد اسمه التليفون، ونحن فى بلادنا تليفونات وصلت إلى القرية المصرية، ولكن القضية هى فى استخدامات هذا الجهاز، فى اليابان تتصل بالمحلات وتطلب ما تريد، وما أن تضع السماعة حتى تجد الجميع عندك. يقدمون لك كل ما طلبته. وهو ما نسميه نحن توصيل الطلبات إلى المنازل.

وبمناسبة التليفون، فإن التقدم العلمى فى هذه البلاد ليست له حدود. فى يومى الأول

فى اليابان، وعندما نزلت أتمشى حول الفندق، سمعت صوت تليفون يدق، لم يكن بالقرب منى أى مبنى، ولا أى تليفون، والمبنى القريب لا باب له فتصورت أن التليفون الذى بداخله صوته قوى وعال أكثر مما يجب. ولكن المشهد الذى رأيته بعد ذلك حلّ جزءا من الفزورة اليابانية التى حيرَّت غريبا مثلى! كان يمشى أمامى شخص يابانى، فى يده حقيبة سامسونايت ـ أو هكذا تصورت ـ فوجئت به يقف مكانه، ويفتح الحقيبة، وهنا أصبح صوت التليفون عاليًا جدا. مد يده وأخرج التليفون من الحقيبة، وبدأ يتكلم فيه، وهو واقف فى الشارع؛ ركن بجوار عامود نور واستغرق فى مكالمة تليفونية طالت أكثر من اللازم. وكنت أنا أنظر إليه بدهشة واستغراب بالغين. عرفت أن هذا الذى شاهدته جزء من التطورات المذهلة التى أدخلت على التليفونات فى هذه البلاد، وهناك اختراعات أخرى كثيرة وبدون حدود. لا شأن لى ولا شأن لكم بها، حتى لا نبدو مثل فلاحين القرن العشرين(*).

عندما كنت أنزل إلى الأسواق كنت أقول إننى ذاهب إلى الجحيم. ومن قبل قال سارتر: إن الجحيم هو أعين الآخرين، ولكن أقول وأزيد عليه: إن الجحيم هو التمشى فى أسواق اليابان؛ لأن فيها كل شىء وأى شىء.

ومن قبل احتاروا فى تعريف الإنسان؛ وهناك من قال إنه حيوان ناطق، ثم اكتُشف أن بعض الحيوانات تنطق، أو حيوان مفكر، وضبطوا بعض الحيوانات متلبسة بالتفكير. وقال عمنا وأستاذنا وعقلنا المستنير أحمد بهاء الدين ـ شفاه الله وعافاه ـ: إن الإنسان حيوان له تاريخ، وها نحن نقرأ فى الليل والنهار تواريخ الحيوانات.

ولكنى الآن أحاول أن أريح الجميع من حيرته وأقول بعد جولتى فى أسواق اليابان: إن الإنسان حيوان استهلاكى؟!

(*) كان هذا وقت الرحلة ـ ١٩٩٣ ـ ولكن عند نشر هذا الكتاب أصبح هذا الاختراع ـ الذى لم يعد اختراعا ـ موجودا فى مصر بكثرة تفوق دول العالم المتقدمة. ولكنى فقط أثبت دهشتى هنا عندما شاهدت المحمول لأول مرة.

ـ عشـرون ـ

لقاء مع جمال عبد الناصر فى طوكيو

لم يكن ورائى فى برنامجى لهذا اليوم سوى الذهاب إلى البرلمان اليابانى فى مهمة خاصة بدار الهلال. وبعدها موعد مع حسين عبد الناصر. شقيق الزعيم الخالد جمال عبدالناصر.

وحكاية البرلمان أننى عندما حضرت إلى اليابان كانت معى نسخًا من كل مطبوعة تصدرها دار الهلال، وكذلك نسخا من الأعداد التذكارية التى أصدرتها دار الهلال فى مناسبة مرور مائة سنة على تأسيسها. كان صاحب هذه الفكرة هو عبد الحميد حمروش. الصديق قبل أن يكون نائب رئيس مجلس الإدارة. قال لى وأنا فى القاهرة: إن فى اليابان متحفًا ضخمًا لكل صحف العالم. فسيكون جميلا لو أن صحف ومجلات وكتب دار الهلال وضعت فى هذا المتحف.

أليس عبد الحميد حمروش سليل الفراعنة؟ ومن أحفاد الذين بنوا الأهرامات؟ هكذا هُم المصريون. معظم ما يقومون به ليس سوى بحث عن الخلود، والخلود معنى نبيل، ربما كان من الغيبيات بمعنى أنه قد يتحقق بعد رحيل الإنسان عن الدنيا، ولكن هذا المعنى يقف وراء العديد من الإبداعات الإنسانية، والأعمال التى يقوم بها الإنسان فى حياته، ومن ضمنها هذا الذى أفعله الآن عندما أدوّن مثل هذا الكتاب؛ إنه كما قال كافكا: كفاح ضد الفناء.

إن أكبر عدو لنا هو جريان الزمان، ومحاولة الإمساك به وتثبيت لحظات معينة منه فى وجه هذا الغول الذى اسمه النسيان ـ مسألة مهمة وحيوية. ربما كان هذا هو الدافع الجوهرى لما طلبه منى عبد الحميد حمروش قبل السفر إلى اليابان.

قبل سفرى إلى اليابان، أبلغت المسئولين فى السفارة بتلك الرغبة، التى قالت لى ملامح وجوههم، تمنياتهم أن تكون الرغبة الأخيرة. قالوا لى: إن البرنامج قد وُضع

فعلا، وكل المطلوب أن أناقش ذلك مع الإخوة فى مؤسسة اليابان بعد وصولى؛ لأن الاتصالات قد لا تفيد فى هذه الحالة.

فى اجتماعى الأول مع المسئولين فى المؤسسة أبلغتهم بهذه الرغبة. غطت وجوههم طبقة من الدهشة. بدوا لى كما لو كانوا يسمعون ما قاله عبد الحميد حمروش عن متحف الصحافة فى اليابان لأول مرة. فما بالك إن كانوا يعرفون مكان هذا المتحف أم لا.

طلبوا منى مهلة لدراسة الأمر. وبعد أيام قالوا لى: إن متحف الصحافة موجود ولكن فى البرلمان، وإنهم سيتصلون بالمسئولين فى هذا المتحف من أجل أن أودع مطبوعات دار الهلال فى هذا المتحف وهناك ـ عندما أذهب ـ سأجد صحفًا من كل أنحاء العالم.

عندما تحدد الموعد حملت الأوسمة والمطبوعات والهدايا التى من دار الهلال. واتجهت إلى المتحف. كانت الأشياء كثيرة وثقيلة، ولكن العزاء كان وجود السيارة، وإن كانت الفرحة لم تكتمل بعد ذلك؛ لأن مظاهرة تصادف مرورها قطعت طريقنا، وتسببت فى أن نكمل المشوار على أقدامنا. وطبعا كان من نصيبى حمل الهدايا؛ أولا: لأن كريمة آنسة ولا يجوز أن تحمل شيئا، وثانيا: لأنها لم تعرض علىّ حتى المشاركة فى حمل الهدايا، طوال المسافة من المكان الذى توقفت فيه السيارة وحتى مبنى البرلمان.

أنسانى هذا شكل المظاهرة، وموقفى من المظاهرات التى أراها خارج مصر معقّد، ومتداخل ومركب؛ من ناحية أعجب بهذه المظاهرات التى لم نعشها فى مصر فى حياتى ولا فى تجربة جيلى، وإن عاصرناها؛ فإن ذلك يكون من بعيد كما جرى فى انتفاضة الخبز فى يناير ١٩٧٧. أو ثورة الأمن المركزى سنة ١٩٨٦.

على الوجه الآخر كنت أنظر إلى هذه المظاهرات باعتبارها جزءًا من الديكور الديمقراطى الغربى الذى علينا أن نقلده وأن نسير على هواه، وأن نصبح فى النهاية صورة منه، بصرف النظر إن كان ذلك يناسبنا أم لا. ولى رأى قد يبدو متطرفا فى مسألة الديمقراطية؛ وهو أن الديمقراطية التى فى بلادنا لم نصل إليها نتيجة نضال ديمقراطى طويل سقط له شهداء. إن الانقلابات العسكرية فى بلادنا، حرمتنا من هذا النضال. ولعل هذا هو الفارق بين تجربتنا وما يجرى فى أمريكا اللاتينية.

أيضا؛ فإن الديمقراطية لا قيمة لها مع تفشى الأمية بهذه الصورة الرهيبة. إن الأذن المصرية تعمل أولا، ويعتمد عليها الإنسان أكثر من العين. إن الأمى يسمع أكثر مما يرى، ومن يعتمد على الاستماع أولا، يسلم نفسه لأول صوت يصل إليه. إن السماع لا يعطى

الإنسان فرصة للتفكير وتقليب الحقائق ولا يكون لديه منهج من أجل الوصول إلى الحقيقة بنفسه.

ثم إن الاحتياج المالى لا يُعطى الإنسان فرصة لكى يعتمد على نفسه فى اتخاذ قراره. إن البطون الخاوية لا تدافع عن رأى سياسى يكون اختيارا أكثر من كونه رأيا. إن حرية لقمة العيش لا بد وأن تسبق حرية تذكرة الانتخابات. وقفت أشاهد المظاهرة التى كان يقوم بها مزارعو الأرز فى اليابان. وكانت المظاهرة فى طريقها إلى البرلمان اليابانى. كان رجال الشرطة يفسحون الطريق من أجل المظاهرة التى كانت صامتة وهادئة. ولكن الذين كانوا يسيرون فيها كانوا يرفعون عددا لا يُحصى من اللافتات، بطريقة تجعل من يشاهدها يمكنه قراءتها ولو على البعد.

لم تكن هناك أجهزة الإعلام - التى تسد عين الشمس فى مثل هذه الحالة فى بلادنا - لا كاميرات ولا تليفزيونات ولا ڤيديو. مع أن هذه الأرض هى التى اخترعت هذه الأمور، حتى رجل الشرطة كان يتعامل مع المظاهرة باعتبارها من الأمور العادية التى ربما تحدث كل يوم. كنت أنا المندهش الوحيد مما يجرى أمامى. على الرغم من تعقيد موقفى من المظاهرات. وأصل المشكلة أن محصول الأرز فى اليابان هذا العام - ١٩٩٣ - كان منخفضا بسبب موجة من الحرارة الفريدة التى من النادر أن تحدث فى اليابان. كان الانخفاض فى المحصول بنسبة ٤٠٪ عن السنوات السابقة. ولأن الأرز هو الغذاء الرئيسى فى اليابان ويأكلونه تقريبا فى الإفطار والغداء والعشاء. إنه خبز المائدة اليابانية. وبالنسبة للفلاح اليابانى فهو القطن؛ زرعة العام كله.

ومنذ أن نشأت فكرة استيراد الأرز من الخارج لأول مرة فى تاريخ اليابان. كانت أمريكا فى انتظار هذه اللحظة، وأمريكا منذ سنوات تحاول أن تدخل سلعتين من إنتاجها إلى اليابان وفشلت كل محاولاتها. السلعة الأولى هى الأرز، والثانية هى التفاح الأمريكانى المعروف، وقد رفضه اليابانيون رغم أن تفاحهم أقل جودة منه.

القضية بالنسبة لليابانيين ليست تصديراً واستيراداً بقدر ما هى جزء من العزة الوطنية والكبرياء القومى والانتماء إلى مجموعة الجزر التى تشكل اليابان، التى تحاول أن تقول لا لأمريكا. وقد نجحت فى هذه المحاولة إلى حد كبير، إن الأرقام هنا تتراجع كثيرا إلى الخلف وحسابات الربح والخسارة تأتى فى المرتبة التالية من الأهمية.

هذا العام - ١٩٩٣ - كررت أمريكا المحاولة، وعرضت أرزاً على اليابان ينخفض سعره

كثيرا عن سعر الأرز الياباني، واليابانيون لم يكن لديهم مانع يحول دون استيراد الأرز الأمريكي، ولكن في هذا العام فقط، بسبب العذر الطارئ ولمواجهة الوضع الناجم عن انخفاض المحصول هذا العام. ولكن الأمريكان رأسهم وألف سيف أن يصدروا الأرز إلى اليابان في السنوات القادمة كلها وليس لعام واحد فقط.

الأسعار كانت مشكلة أخرى، فالسوق الياباني يعتمد على قواعد العرض والطلب فقط. والأسعار الأمريكية تضرب زراعة الأرز في اليابان إلى الأبد؛ لأن العملية تفقد جدواها الاقتصادية. تحرك زراع الأرز في اليابان؛ لأنهم يفكرون في المستقبل قبل الوقوع في حُفَر الحاضر، والحل الذي يرونه هو عدم الاستيراد من أمريكا، ولكن الحكومة تردّ عليهم قائلة: إن ثمة أزمة في محصول الأرز هذا العام فما هو الحل؟!

الحل الجاهز عند زراع الأرز؛ أنه إن كان لا بد من الاستيراد فلابد وأن يكون ذلك لمدة سنة واحدة فقط. وعندما يطرح الأرز الأمريكي في الأسواق؛ فلابد وأن يكون ذلك بأسعار قريبة من أسعار الأرز الياباني؛ حتى لا يسبب لهم أضراراً مستقبلية يمكن أن تقضي على هذه الزراعة، ثم ما العيب في الاستيراد من الدول الآسيوية التي تنتج الأرز وخاصة تلك التي يكون عندها فائض؟!

أخيرا وصلنا إلى مبنى البرلمان، وبرطمت كريمة للحراس بالغرض من الزيارة، والحراس لجئوا إلى القائد، قائدهم طبعا، وسلّمانا ـ كريمة وأنا ـ كل واحد كارتًا أبيض مكتوب عليه رقم بخط غليظ. اكتشفت بعد ذلك أنه رقم الدور الذي من حقنا أن نتجول فيه. في الأرشيف القومي للصحافة؛ صحافة العالم، قابلنا موظفًا صغيرا. أخذ منا المجلات والكتب والهدايا، كنت أريد رؤية المكان الذي ستوضع فيه، ولكن الموظف الصغير لم يكن مخولا سوى باستلامها منا فقط. أما حكاية المكان فتلك تدخل في اختصاص زملاء له.

كان الموظف عند وصولنا إليه، قد شمّر أكمامه، ويلبس زحافة في قدميه. لو كنت في مصر لقلت إنه يتوضأ من أجل الصلاة التي قد يمارسها البعض في أماكن العمل كنوع من الهروب من العمل أساسا وليس باعتبارها فريضة. لقد ذهبت وأنا أتصور أنني سأقابل أحد المدراء المهمين في البرلمان. حتى أفهم منه أولا ما هي العلاقة بين البرلمان ومتحف الصحف؟ وإن الرجل سيلقي كلمة يرحب فيها بي وبما معي. وإنني بدوري سأرد عليه بكلمة عن دار الهلال. وربما كان هناك مصورون لتصوير هذه اللحظة، كنت في هذا كله أحاول أن أفرض تصوراتي على اليابانيين الذين لهم منطق خاص.

انصرفنا، قلت لكريمة: إننى من المفروض أن أذهب إلى حسين عبد الناصر. قالت لى على الفور: إن هذا مشواراً خاصاً ولا علاقة لها به. ربما كان لها موقف ضد عبد الناصر فوالدها الذى جاء إلى هنا فى زمن عبد الناصر. وقيل لى إنه كان له موقف خاص من افتتاح مكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية فى اليابان. قلت لها ليس من المفروض أن تكون معى فى اللقاء، فهو لقاء خاص وحميم. ولكنها فقط ملزمة بتوصيلى إلى مقر مصر للطيران. ولما كانت الطرق ما زالت مغلقة. فقد مشينا على الأقدام. كان مقر مصر للطيران مقابلا للقصر الإمبراطورى. وهكذا شاهدت - بالصدفة - وحدها - موكب الإمبراطور.

كان القصر الإمبراطورى بدون أسوار. ولم تكن هناك حراسات مسلحة حول المكان، وكان يمكننا الدخول إلى حديقة القصر. ولكنى كنت مرتبطا بموعد. أما الموكب الذى كان فيه إمبراطور اليابان ذات نفسه، فقد كانت تسبقه الخيول التى تشد عربة سوداء من العصور الوسطى، والخيول تسير وفق نظام معين وبسرعة محددة، وكان الإمبراطور يركب سيارة ليموزين سوداء فخمة، ووراء السيارة كانت هناك عربة ثانية تجرها الخيول والموكب كله يسير بنفس بطء حركة سير الخيول. كان الموكب يعكس أزمة اليابان التى تريد أن تصبح فى طليعة العصر الحديث. وفى الوقت نفسه تظل محتفظة بالطابع القديم كما هو. لماذا أقول إنها أزمة؟ ربما كانت هذه هى الطريقة اليابانية فى التوفيق بين الغربى الوافد والتراث الحى الأصيل للأمة اليابانية، التى ترى أنه لا بد من الحفاظ عليه.

تبقى قصتى مع حسين عبد الناصر، والذى حدث أننى عندما كنت فى القاهرة وسألت عن مدير مكتب مصر للطيران فى طوكيو. وبعد اتصالات مطولة ومضنية قالوا لى إنه حسين عبد الناصر. وكان السؤال الفورى: شقيق عبد الناصر؟ وكان الرد: نعم.

كان السبب فى السؤال أنه بعد استشهاد عبد الناصر كثيرا ما يفاجأ الإنسان ببشر يقولون إنهم أولاد عمومة عبد الناصر، أو أقاربه، أو على الأقل من بلده فى الصعيد.

مع أن عبد الناصر تاريخيا لم يولد فى بنى مر بأسيوط، ولكن كان ميلاده فى قرية صغيرة كان اسمها الضهرية؛ نسبة إلى بانيها الظاهر بيبرس؛ الحاكم الوحيد الذى ألف المصريون عنه ملحمة شعبية، كانت هذه القرية عندما ولد فيها عبد الناصر فى ضواحى مدينة الإسكندرية، ولكنها مع التطور الذى حصل للمدينة أصبحت بمرور الوقت جزءا من المدينة نفسها، ويبدو أنها الآن حيا من أحياء الإسكندرية الفقيرة التى تشكل حزام بؤس حولها.

طبعا أنا سعيد بهذه المعلومة لأن قريتى اسمها الضهرية، وكنت قد عرفت أن الظاهر بيبرس كان قد بنى سبع قرى تحمل اسمه فى الوطن العربى كله. وقد انتهيت حتى الآن إلى معرفة قرية الضهرية مركز شربين محافظة الدقهلية، وضهرية عبد الناصر، وقرية ثالثة اسمها الضهرية سمعت اسمها فى الإذاعات العربية بعد الانتفاضة الفلسطينية البطلة؛ باعتبار أنها جرت فيها حوادث بطولية ضد إسرائيل. وعندما أضيف إليها الضهرية التى ولدت وعشت فيها تصبح أربع ضهريات، وأتمنى أن يمتد بى العمر حتى أعرف باقى البلدان التى تحمل اسم الظاهر بيبرس الذى اعتبره ـ مع الفارق طبعا ـ واحداً من الصور الجنينية الأولى التى بشرت بعبد الناصر قبل أن يأتى إلى العالم.

حاولت وأنا فى القاهرة الحصول على تليفون حسين عبد الناصر فى طوكيو، ولكن ذلك لم يكن سهلا، ولكنى ما أن نزلت فى مطار طوكيو وقابلت مندوب مصر للطيران حتى سألته عن حسين عبد الناصر، فأعطانى أرقام تليفوناته، والأوقات التى أتصل به فيها.

كان معى رقم منزله ومكتبه، وقد فضلت البدء بمكتبه أولا، ذلك أننى فى بلد التقاليد الدبلوماسية نفسها. فى المرة الأولى لم أجده وتركت له أرقام الفندق والغرفة. وفى اليوم التالى جاءنى صوته. صوت دافىء حنون يتسلل إلى القلب مباشرة، تشعر أنك لا بد تعرف صاحب هذا الصوت منذ سنوات مضت، وأن بينكما عشرة قديمة وألفة من عمرك وعمره أيضا. بعض الأصوات عناوين للناس مثل الوجوه، وفى هذا الاتصال اتفقنا على أن نذهب إليه (منصور أبو العزم وأنا فى الواحدة والنصف) وأن نتغدى معا فى مطعم يقع فى نفس العمارة التى بها مكتبه.

وصلت عنده فى الواحدة والنصف، وتركته فى الرابعة والنصف بعد الظهر، أى بعد حوالى ثلاث ساعات، وقابلنى منصور أبو العزم عنده، ومنذ رحيل عبد الناصر قابلت العديد من أهله، ولكن حسين عبد الناصر قصة أخرى، وقد حزنت لأننى لم أعرفه من قبل؛ فالرجل كان يتكلم عن عبد الناصر والدموع فى عينيه؛ دموع صادقة صادرة من الأعماق، علاوة على أنه فى الكلمات درجة عالية من الصدق.

تذكرت فى جلستى أن حسين عبد الناصر هو شقيق عبد الناصر الطيار الذى كنا نسمع عنه، وهو الآن يعيش فى آخر مكان فى الدنيا؛ هنا فى طوكيو، ويقولون عنه إنه المدير الإقليمى لهذا الجزء من العالم علاوة على مكتب طوكيو. المجالس أمانات وقد سألنى

حسين عبد الناصر أكثر من مرة إن كنت سأنشر ما يقوله. وطلب منى عدم النشر، وكنت أنصت له بعيدا عن أى شهية صحفية.

قابلته بعد ذلك مرة أخرى، ومعه زوجته السيدة آمال - ابنة عبد الحكيم عامر - وهى سيدة حنون وطيبة ولها اهتمام خاص بدنيا الفن والمجتمع الناصرى وحكاياته، وقد قابلتها مرة أخرى فى منزل السفيرة ميرفت التلاوى، وكان حسين عبد الناصر على سفر.

وفى المرتين أطل الروائى الذى بداخلى، كان السؤال هو: كيف كانت علاقتهما الزوجية والإنسانية بعد أزمة يونيو ٦٧ وما جرى فى العلاقة بين عبد الناصر وحسين شقيقه، وعبد الحكيم عامر والد آمال؟ فكيف استمرت الأحوال بينهما فى ظل هذه الأزمة الدامية والرهيبة؟

لم تكن هناك صلة قديمة تعطينى الحق فى التجول بحرية فى شوارع حياتهما الخلفية، ولكنى أرى من وجهة نظر فنية صرفة أن البعد الإنسانى فى علاقتهما خلال هذه الأزمة، يصلح عملاً فنيا من الدرجة الأولى، حتى مجرد يوميات هذه الأزمة كما جرت فى هذا البيت، خاصة وأننى بعد هذه السنوات وجدت بينهما درجة عالية من الألفة الإنسانية النادرة.

بعد عودتى إلى مصر كنت أنصرف من أحد فنادق مدينة نصر بعد انتصاف الليل. وفوجئت بهما أمامى، صافحتهما، عزمت عليهما؛ فهما فى المنطقة التى أسكن فيها. تواعدنا على لقاء ولكنه لم يتم؛ لأن سكان هذه الأيام هم أبناء الصدفة، كل ما يجرى فى حياتنا لا بد وأن يتم بالصدفة وحدها ولا شىء سواها.

ـ واحد وعشـرون ـ

خريطة الأديان في اليابان

اليوم العاشر.
الجمعة ١٩ نوفمبر ١٩٩٣

كان موعدى معه فى الحادية عشرة صباحًا، ولكنى وصلت قبل الموعد المحدد بحوالى عشر دقائق. كان مكتبه مغلقًا. وقفنا ـ أنا وكريمة ـ فى الطرقة أمام المكتب، وفى الحادية عشرة بالتحديد ـ دون تقديم أو تأخير ـ مر علينا شاب يعلق فى كتفه حقيبة مثل شباب الجامعات، فتح المكتب بمفتاح معه، ودخل، وفى دقائق معدودة كان يقف فى استقبالنا بكل ترحيب.

لم يكن مدونًا على باب مكتبه اسمه مسبوقًا بالألقاب العلمية التى حصل عليها، وهذه الألقاب لا وجود لها فى هذه البلاد، ولم يكن يشنق نفسه بربطة عنق رسمية. إنه كامى كوكا مدير معهد آسيا وإفريقيا بجامعة طوكيو للدراسات الأجنبية، وحضر لقاءه معنا اثنان من أساتذة المعهد، وكانت تترجم منى إليهم، ومنهم إلىَّ كريمة موركا.

قال لى عن المعهد أولا:

ـ هذا معهد للدراسات اللغوية والتاريخية وعلم الإنسان فى آسيا وإفريقيا. المعهد ليس مشهورًا داخل اليابان ولكنه معروف جدًا فى آسيا وإفريقيا. لدينا داخل المعهد جمعية لدراسة الثقافة الإسلامية، وفى العام القادم ـ ١٩٩٤ ـ سنحتفل بالعام الثلاثين لتأسيس هذه الجمعية.

ـ هل ثمة علاقة بين الجمعية والصحوة الإسلامية؟!

ـ لا توجد أى علاقة. هى مجرد جمعية للدراسات الإسلامية؛ بعض هذه الدراسات نظرى، والبعض الآخر تطبيقى، وإن كانت الدراسات النظرية أكثر من التطبيقية.

ـ ماذا يجمع بين آسيا وإفريقيا من وجهة نظركم؟!

ـ كان من الممكن أن يتضمن هذا الاسم العالم الثالث أوالدول النامية؛ كل ما فى الأمر أنه منذ ٣٠ سنة عقد مؤتمر للدول الآسيوية والإفريقية فأعطى هذا الانطباع؛ أى أكد أنه ربما كانت هناك وحدة سياسية بين القارتين. من قبل كان الاهتمام كله بالدراسات الأوروبية، ولكن نحن الذين حرصنا على أن يكون لدينا اهتمام بالقارتين.

ـ والعالم العربى. . أين هو فى خطة دراساتكم؟!

ـ إن الوحدة الخاصة بالدراسات الإسلامية تضم الدول العربية والإسلامية، ولكننا نضم معها تركيا وإيران لأنهما من الدول الإسلامية، وإن كانت هذه الوحدة خاصة أساسًا بالدول العربية. والذين يدرسون المنطقة العربية هم أساسًا خمسة أفراد مع أن المعهد فيه أفراد أكثر يتحدثون العربية. إن فى المعهد كله ٤٢ باحثًا منهم «٩» يدرسون العالم الإسلامى يخصص منهم للوطن العربى خمسة.

ـ ألا تهتمون أكثر ببعض الدول المركزية؟!

ـ إن كانت المملكة العربية السعودية فى دراساتنا هى مركز العالم الإسلامى، فإن مصر هى مركز العالم العربى. وإن كانت سوريا فيها بعض التركيز، إلا أن مصر تبقى هى الأساس وذلك لعدة أسباب منها: كثرة النشر وتدفقه، ولأن الاتصال بالمعاهد والدارسين فى مصر أسهل كثيراً.

ـ ماذا يهمكم عن عالمنا العربى وعن مصر؟

ـ لأن المعهد فيه قسم للدراسات اللغوية. فإن الاهتمام باللغة هو الأساس. هناك دارسون متخصصون فى التاريخ، لدينا الأستاذ ياجيها، يدرس العصر المملوكى وخاصة التجارة فيه. إن لدينا العديد من الدراسات عن اللغة، وخاصة اللغة الحديثة ولكن ليس لدينا دارسين متخصصين فى الاقتصاد والسياسة وعلم الإنسان حتى يدرسوا هذه النواحى المطلوبة. ومع هذا لدينا دارس يدرس التيارات الدينية الإسلامية فى القرن التاسع عشر؛ ابتداءً من محمد عبده وحتى نشأة الإخوان المسلمين. إن هذه الدراسة تنصب على تاريخ الفكر الإسلامى وليس على السياسة.

ـ ولم محمد عبده فى البداية. ولم الإخوان فى النهاية؟!

ـ نحن نعتقد هنا أن الوطن العربى والعالم الإسلامى تعرضا لمحاولة تحديث، ولكن كانت هناك قوى ضخمة تحاول أن تعارض هذه العملية.

ـ أرى عندكم دراسة عن القرية المصرية والقرية اليابانية فى الزمن العثمانى وما يقابله عندكم؟!

ـ هناك تشابه بين العصرين. سواء فى اليابان أو فى مصر؛ إنه العصر السابق على التحديث والتغريب فى البلدين. وعندما كان مطروحًا علينا موضوع العلاقة بين الإمبراطور والحاكم العسكرى والإقطاعى. يمكن أن يكون هناك تشابه بين البلدين فى هذا الظرف بالذات، وهذه الدراسة تتوقف عند نهايات عصر محمد على عندكم ومقدمات مايبجى عندنا. إن المضمون النهائى هو المقارنة بين تجربتين فى التحديث سواء فى مصر أو فى اليابان.

ـ ولكن اليابان بدأت التحديث متأخرة عن مصر؟!

ـ أعرف هذا. محمد على سبقنا فى محاولة بناء دولة حديثة بحوالى نصف قرن من الزمان.

ـ تدرسون آسيا وإفريقيا. ما هو الموقف من إسرائيل التى اغتصبت فلسطين؟!

ـ ليست لدينا أى دراسات عن إسرائيل كدولة. ولكن هناك دراسات لغوية، وخاصة لليهود العرب الذين هاجروا من الدول العربية إلى إسرائيل بعد قيامها، وهذه الدراسات سياسية اقتصادية، ومع هذا لا توجد لدينا دراسات متخصصة للنواحى السياسية والاقتصادية فى إسرائيل الآن. لدينا دراسات عن يهود مصر ويهود العراق ويهود اليمن واليهود فى التاريخ. أما إسرائيل فهى لا تعتبر موضع اهتمام فى هذا المعهد كدولة؛ لأننا ندخلها ضمن أوروبا.

ـ هل هذا معقول؟!

ـ هذا الموضوع لا جدل فيه الآن. النظر السائد إلى إسرائيل كدولة من دول الشرق الأوسط لا يخرج عن كونه من حقائق الجغرافيا، ولكن من حيث حقائق التاريخ والحضارة فنحن ننظر إليها باعتبارها جزءاً من محاولة أمريكا وأوروبا السيطرة على قدرات الشرق الأوسط. وهذا ما يتم الآن بنجاح.

ـ أرى من الأفضل العودة إلى موضوع لغات العرب؟!

ـ اللغات التى تقصدها هى اللغات القديمة فى شبه الجزيرة العربية التى تعتمد على اللهجات القديمة، ولكنها لا تعتبر من اللغة العربية؛ نحن نفرق بين اللهجات المنطوقة واللغة المكتوبة.

ـ الحركات التى تدّعى الإسلام. ألا تدرسونها هنا؟!

ـ فى هذه الحالة سأعبر عن بعض الآراء الشخصية التى لا تعبر بالضرورة عن آراء المعهد.

ـ وما السبب فى هذا التحفظ الذى يقال للمرة الأولى؟!

ـ لأنه من المستحيل أن تكون هناك آراء للمعهد فى هذا الأمر؛ إن ما يهمنا هنا بشأن هذه الحركات هو انجذاب الجماهير لما تطرحه وما تقدمه، حتى ولو كان هذا الذى تقدمه اغتيالات.

ـ ولكن ألا تعرف أن هذه الحركات إرهابية قريبة من الجيش الأحمر الذى كان عندكم، مع أنهما على طرفى نقيض؟!

ـ من أين أتأكد مما تقوله؟!

ـ أنا أعايش الأمر عن قرب، بل أنا جزء منه.

ـ أنا أسألك بدورى، هل يمكن لنا إرسال مندوبين من عندنا لمقابلة هؤلاء الناس.

ـ وهل منعك أحد؟!

ـ لم يمنعنى أحد؛ ولكنى لو أرسلت مندوبين من عندى لن يكونوا فى أمان من حيث موقف الحكومات التى توجد فى بلادها هذه العناصر. أخشى عليهم من الملاحقة الأمنية وربما القبض عليهم.

ـ لأنك تريد محاورة عناصر خارجة على القانون العام ولا يعرف أحد مكانهم حتى الدولة نفسها؛ وإن كانت هذه الدول تعرف أماكنهم؛ ما وصلنا إلى ما وصلنا إليه.

دعنى أسألك سؤالا: هل تعتبر كل الإسلاميين إرهابيين؟

ـ أنا أفرق بين أمرين جوهريين: من يعتمد على الأفكار، ومن يصلون إلى حدود الفعل. من يحمل سلاحا إرهابى، ومن يحمل أفكاراً يمكن الرد عليه بأفكار؛ وإن كانت بعض هذه الأفكار تمهد الطريق للإرهاب بعد ذلك.

ـ أين روسيا والصين فى اهتماماتكم؟!

ـ الصين تدخل عندنا فى المجال اللغوى، لا تنس أن اللغة موحدة أو متقاربة فى هذا الجزء من العالم. أما روسيا فالموقف منها يبدو مختلفا؛ فالدول الإسلامية التى كانت ضمن الاتحاد السوفييتى هى جزء الآن من آسيا الوسطى رغم أنها تتكلم التركية. دول جمهوريات البلطيق يدخلون فى هذا المجال أيضًا، ولكن من الناحية الأخرى، إنهم الأقرب إلى أوروبا، والمناطق التى لا تدخل عندنا هى التى تتحدث لغات أوروبا والقارتين الأمريكتين.

ـ والأفارقة؟!

ـ لدينا الآن تركيز على لهجات إفريقيا، نحن نسجلها عن طريق الكاسيت ثم نقوم بتدوينها بعد ذلك. إن بعض هذه اللهجات قد دونت لأول مرة فى التاريخ عندنا هنا فى اليابان مثل لغة التمبو، وهناك دراسات كثيرة تتم فى هذا الميدان. قد تكون هناك ألفى لغة فى إفريقيا غير مدونة، بل إن معظم اللغات الإفريقية غير مدونة حتى هذه الأيام.

ـ كم عدد الدارسين فى معهدكم؟!

ـ اليابانيون ٤٢ فردًا. طبعا هذا الرقم للذين يتلقون رواتب ثابتة من هذا المعهد، ولكن هناك علاوة على ذلك دراسات مشتركة، يشترك فيها ٤٣٠ دارسًا آخر، وعشرة أفراد من الخارج هم أبناء آسيا وإفريقيا وهؤلاء يشتركون فى البعثات.

ـ ومستقبل الصراعات فى العالم كيف ترونه؟!

ـ الصراعات القادمة كلها سوف تكون حول الموارد الاقتصادية، ويمكن أن يدخل فيها عنصر دينى؛ أى عنصر الخلافات الدينية، ومع هذا فإن الصراعات القادمة ستدور حول المياه والنفط، مهما كانت الادعاءات لخلق المبرر. لن يقول أحد إنه يحارب بسبب البترول أو المياه، ولكن ستصبح اللغة والدين والهوية هى مبرر الصراعات التى ستدور حول أمور اقتصادية أساسًا.

ـ وعلاقات اليابان مع آسيا وإفريقيا؛ ألا تدخل فى اهتماماتكم؟!

ـ بالنسبة للنواحى الثقافية والفكرية، لقد تأثرت اليابان بالصين بشكل أساسى، ومن الناحية اللغوية تأثرت اليابان أكثر بشبه الجزيرة الكورية، ولكن بين القرنين ١٥، ١٦ خرج اليابانيون إلى جنوب شرق آسيا. وكانت الدول أو الكيانات مفتوحة، ثم حكم على اليابان بالعزلة التى انتهت بالانفتاح بعد ذلك، وإن كان من المؤكد أن اليابانيين لم

يذهبوا بأنفسهم إلى إفريقيا؛ البرتغاليون هم الذين أحضروا معهم إلى هنا العبيد الأفارقة، وكانت المرة الأولى التى يعرف فيها اليابانيون أن هناك بشراً سوداً.

ـ ما خريطة الأديان فى اليابان، وهل لديكم أرقام بذلك؟!

ـ فى آخر إحصاء لدينا ١٠٦ مليون يدينون بالشنتو و٩٥ مليون بوذيون، والمسيحيون حوالى مليون ونصف، والآخرون حوالى مليون وأقل من رقم المسيحيين قليلا. إن الأرقام على نحو دقيق تبدو على النحو التالى:

قام وأحضر الإحصاء وقرأ منه:

ـ الشنتو: ٦١٦, ٦٤٣, ١٠٦ بنسبة ٧, ٤٩٪

البوذيون: ٩٩٦, ٧٦٣, ٩٥ بنسبة ٦٩٥, ٤٤٪

المسيحيون: ٥٥٨, ٤٨٦, ١ بنسبة ٧٪

الديانات الأخرى: ٩٩٤, ٨٣٣، بنسبة ٥٪

ـ هل يدور مندوب التعداد من أجل معرفة ديانة كل مواطن؟!

ـ لا.

ـ من أين هذا الإحصاء إذن؟!

ـ مصدره عضوية الجمعيات الدينية؛ وهذه الجمعيات مصدرنا الأساسى، أما سؤال الناس عن دينهم؛ فمن قال هذا؟!

ـ والمسلمون؟!

ـ موجودون تحت عنوان ديانات أخرى، ونحن نعتقد أن رقمهم يتعدى العشرة آلاف، ولكن المشكلة أن هناك من يقول إنه مسلم ويشرب الخمر، فلا نعرف إن كان من الممكن القول إنهم مسلمون من عدمه، علاوة على أنهم جميعا لا يعرفون اللغة العربية ولا يحاولون معرفتها. بالنسبة للمسلم اليابانى، ليس من اللازم الامتناع عن شرب الخمر، وآداء فريضة الصلاة، ولكنهم مؤمنون بمجرد التوحيد أى مجرد نطق الشهادتين فقط، وطبعا يخرج عن هذا السياق المسلمون من غير اليابانيين الذين يعيشون على أرض اليابان، إنهم خارج الحسبة.

ـ عودة أخيرة إلى اللغة، ماذا عن لغات آسيا؟!

ـ هناك لغات شفهية كثيرة فى آسيا. إنها فى ذلك مثل إفريقيا؛ لأن آسيا أكبر من إفريقيا.

فى الصين لا يدونون لغات الأقليات وفى الهند هناك الكثير من اللغات غير المدونة، والتعامل مع اللهجات غير المدونة صعب جدا.

ثم توقف ليسألنى:

ـ هل تعانون من أى صعوبة فى تدوين العامية المصرية؟!

ـ لا توجد أى صعوبة، وهناك شعراء عامية كبار ابتداء من بيرم التونسى وصولا إلى عبدالرحمن الأبنودى مرورا بصلاح جاهين.

ـ وسؤالى هو: هل لديكم قواعد نحو للعامية؟!

ـ العامية لهجة وليست لغة، ولكن لا توجد لها قواعد، وعند الوصول إلى حكاية القواعد فنحن نطبق عليها القواعد المطبقة على الفصحى.

عاد يسألنى:

ـ ماذا تفعلون مع الكلمات التى دخلت فى لغتكم من لغات أخرى مثل: الفارسية والتركية واليونانية والإنجليزية والفرنسية.

ـ لدينا مجمع اللغة العربية يحاول جاهدًا تنقية اللغة من مثل هذه العبارات الدخيلة، ولكن المشكلة هى عزلة المجمع نفسه، أيضًا فإن الجماهير ترفض الأخذ بكلمات المجمع الذى يقول: «الحافلة»، ولكن الناس ما زالت تستخدم: «الأتوبيس»، والمجمع يقول: «الهاتف» أو «المسرة» ولكن الناس تفضل: «التليفون».

ـ لقد حاولت إيران القيام بنفس المحاولة ولكنها فشلت وكانت العقبة هى إعراض الجماهير عن استخدام المفردات التى أقرتها الدولة بديلا للكلمات الدخيلة؛ ولذلك اندثرت المحاولة واختفت.

وعاد يسألنى من جديد:

ـ مسلسلات التليفزيون عندكم؛ أى اللسانين تستخدم العربية الفصحى أو اللهجة العامية، وما هو موقف الناس من ذلك؟!

ـ ما زالت العامية المصرية هى الأساس، والفصحى قاصرة على المسلسلات التى تعود إلى فترات من التاريخ العربى والإسلامى. من حيث إقبال الناس؛ الإقبال شديد على كل ما هو بالعامية، وهناك انصراف شامل عن كل ما هو بالفصحى؛ ينظرون إلى مسلسلات الفصحى كما لو كانت دروسا فى النحو والصرف.

قال لى مدير معهد آسيا وإفريقيا فى جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية فى محاولة منه لإنهاء هذه المناقشة التى طالت :

ـ أصل المشكلة وجوهرها يعود إلى أن اللغة العربية عاجزة ـ أو أصبحت عاجزة ـ عن خلق مفردات جديدة أو نحتها . إن اللغات القديمة هى : اللاتينية والصينية والعربية التى انقسمت إلى عربية أصيلة وعاميات .

النقطة الأساسية أن اللغة الفصحى أصبحت عاجزة عن التجديد ، وتلك قضية العقل الجمعى الناطق بها ، ولكن التجديد كله ينصب على العاميات ، مع أنه من المفروض أن يكون التجديد فى الفصحى المشتركة وليس فى العاميات ؛ لأن الفصحى توحد والعاميات تفرق ، والعامية تكسب شرعية وجودها على حساب الفصحى .

إن الطفل عندكم عندما يبدأ فى تعلم اللغة فإنه يتعلم أولا العامية ، وهو يتعلمها من أهله ، ومن صداقاته وتعاملاته اليومية ، ثم لا يلتقى بالفصحى بعد ذلك سوى فى المدرسة عندما يذهب إليها ، والمدرسة تعلمه الفصحى لكى يعبر بها عن أمور مختلفة عما يعبر عنه بالعامية ؛ أى إن أراد التعبير عن أفكار نظرية لابد وأن يستخدم كلمات رفيعة المستوى . من يقول : «الحلة انحرقت» من المستحيل قول ذلك بالفصحى ، وهكذا يختلف التعبير من لغة إلى أخرى مع أن الذى نتحدث عنه أمر واحد .

الأمر الوحيد المتاح لكم هو الارتقاء بالعاميات عن طريق التعليم وذلك من خلال سياسة معينة ، أنت تقول إن مجمع اللغة العربية يحاول التقريب بين العامية والفصحى .

ولكن ما القول وكل دولة عربية لها عاميتها الخاصة بها وهذا ما جرى بالحرف الواحد فى أوروبا . أخشى أن يكون لكل دولة لغة خاصة بها ، وأن ترتبط هذه اللغة بالموقف الوطنى لكل دولة . أخشى أن أقول لك إن اللغة العربية الواحدة فكرة من الصعب استمرارها فى المستقبل وتلك نظرتنا من بعيد إلى المأزق اللغوى الذى تعانون منه الآن . وسيصبح مشكلة المشاكل فى المستقبل .

وانتهى اللقاء .

هذا الكلام سبق أن سمعته ولكن بصياغات مختلفة فى جامعة أوزاكا . هل هناك تعميم بمثل هذه الأفكار الخطيرة؟! لا أعرف . . .

كان على مكتب المدير تليفون وحيد لم يرن مرة واحدة خلال الحديث!

ـ اثنان وعشرون ـ

اليابانيون يدخلون قريتى

كان الجزء الثانى فى برنامجى هذا اليوم يتمثل فى الذهاب إلى كلية الدراسات العربية، ومقابلة صديقى نوبو آكى نوتاهارا. ولى قصة سابقة مع نوتهارا أوردها هنا أولا وأنا فى الطريق إليه. فى أغسطس سنة ١٩٧٩. اتصل بى فى «المصور» مستشرق يابانى قال لى إنه مشغول بالقرية المصرية. وقد قرأ روايتى: «أخبار عزبة المنيسى» ويفكر فى ترجمتها إلى اليابانية. ولكن قبل ذلك؛ هل من الممكن أن يزورها على الطبيعة؟ يقصد أن يزور البلد ـ أوالعزبة ـ الذى كتبت عنه هذه الرواية؟!

رحبت بذلك. كان ينزل فى بنسيون فى حى جاردن سيتى. كان البنسيون أقرب إلى البيت الخاص. فيه ألفة وحميمية البيوت الدافئة. اتفقنا. كان تصورى أن نذهب إلى قريتى ونعود آخر النهار. ولكن نوتهارا كان يرغب فى قضاء الليل فى القرية. دعوت الصديق المشترك المرحوم عبد الفتاح الجمل؛ من أجل السفر معنا إلى الضهرية، وتحركنا ذات ظهر حار من القاهرة. وكان البنسيون الذى ينزل فيه يطل على طريق كورنيش النيل، وهكذا سرنا فى طريق مستقيم من قلب القاهرة إلى الضهرية.

وصلنا إلى الضهرية عصراً. تغذينا وانطلقنا إلى عزبة الحاج عبد القوى أحمد سمك ـ يرحمه الله رحمة واسعة ـ فالعزبة هى المكان الذى كتبت عنه روايتى: أخبار عزبة المنيسى. اكتشفت أن نوتاهارا يعرف الحاج.

كم يبدو هذا العالم كبيراً وصغيراً بصورة مذهلة! حضر إلى العزبة من قبل المخرج والكاتب المسرحى محمد عبد العزيز فهو من أبناء المنطقة، ومعهما الكاتب الصحفى يوسف الشريف؛ جاءوا إلى العزبة فى زيارة مثل زيارتنا هذه. وبدلا من أن أعرفهما على بعضهما، اكتشفت أنهما يتعاملان بود قديم. كان نوتاهارا يقول للحاج يا حاج وكان الحاج يناديه بالخواجة.

ووسط ذهولى بدأ نوتاهارا يعمل على الفور، فى حين جلست أنا مع الحاج عبد القوى وعبد الفتاح الجمل. والحاج عبد القوى بالنسبة لى يشكل أساسًا من الأسس التى وجهتنى إلى الأدب؛ فى مكتبته كانت قراءاتى الأولى، وبرعايته كانت الخطوات البكر. ربما كان يرى الرجل فيما أقوم به نوعًا ما من محاولة إكمال رسالته عندما حاول أن يلعب دورًا سياسيًا قبل ثورة يوليو ١٩٥٢.

وأصدقائى الحميمون جميعًا ذهبوا إليه. زار عزبته جمال الغيطانى والمرحوم إسماعيل العادلى ونبيل بدران، وكان ذلك فى السنوات الأخيرة من الستينيات، وما من مرة أذهب فيها إلى الضهرية إلا ولا بد من زيارته. والذى يحول دون القيام بهذه الزيارة إلى البئر الأولى والحقول البكر وأرض الطفولة وملاعب الصبا، لا بد وأن يكون عذرا قويا وشديدا. لا يمكن عمل شىء حياله. كانت مع نوتاهارا كاميرا وجهاز تسجيل؛ لم تكن كاميرا الفيديو من الأمور الشائعة فى الاستخدام، ولا أعرف إن كانت هذه الكاميرا كانت قد اخترعت فى ذلك الوقت أم لا.

صور كل ما رآه وسجله بالصوت والصورة. كان يجلس على مدار الساقية، وأصوات العصافير والحيوانات فى الحقول، وفى ساعة المغربية عندما كانت تهب رياح ما قبل الليل التى تمتص حر النهار؛ كان يسجل صوت الشجر والزراعات، حتى نقيق الضفادع ونهيق الحمير وخور الثيران ونونوة القططة وهبهبة الكلاب. كل هذا سجله وهو صامت وكأنه يقوم بأهم عمل فى حياته.

وكنا نحن نبدى إعجابنا الشديد بهؤلاء اليابانيين الذين يأخذون كل عمل يقومون به بأقصى قدر من الجدية، فى حين أننا لا نفعل سوى الهزل. كان نوتاهارا قد ترجم من قبل رواية عبد الرحمن الشرقاوى «الأرض» وقد أطلعنى على صور هامة التقطها لقرية الشرقاوى «الصحافة» فى محافظة الشرقية.

وعندما قال عبد الفتاح الجمل لنوتاهارا: إذن ابن القعيد ستكون له أموال باليابانى؛ أقصد بالين اليابانى، نحن نخجل دائمًا من الحديث فى أمور الفلوس، ولا أعرف ما السبب فى هذا؛ ربما نخاف أن يقال عنا إننا ماديون والمفروض ألا نكون كذلك. وهكذا قال عبد الفتاح الجمل هذا الكلام فى منتصف المسافة التى تفصل بين الجد والهزل، فإن أخذها الرجل جدا وتكلم كان بها، وإن أراد أن يتعامل معها على أنها مداعبة فنحن لم نخسر شيئًا.

رد عليه نوتاهارا قائلا : إنهم لا يدفعون للكتاب الذين تترجم أعمالهم إلى اليابانية . والذى يحدث أن نوتاهارا يحضر إلى مصر فى الصيف من كل عام بهدف ترجمة نص أدبى عربى إلى اليابانية ، وتكون مكافأة النشر للمترجم هى تكاليف الرحلة من طوكيو إلى القاهرة فى الذهاب والعودة ، مع نفقات الإقامة والتنقلات فى مصر من أجل هذا المشروع الذى جاء إلى مصر بحثا عن سواد عيونه .

وقد فعل نوتاهارا هذا مع كل الكتاب الذين ترجم لهم من قبل . ولن يكون القعيد استثناءً لهذه القاعدة ؛ هكذا قال الرجل بدقة ووضوح حسدته عليهما . كنا فى زمان مبكر ولم يكن حتى نجيب محفوظ قد عرف طريقه إلى الترجمة بلغات العالم بكثافة . كان ما ترجم له بضعة أعمال . مثل العينات التى يتم التعامل معها فى البداية على سبيل جس النبض ، وكانت روايات جمال الغيطاني وخاصة رائعته : «الزينى بركات» قد بدأت ترجمتها إلى بعض اللغات قبل أن تنطلق إلى عدد ضخم من هذه اللغات .

كانت سعادتى لا توصف فى هذا الوقت المبكر ، ولم أكن أسعى حقيقة لمكافآت أو خلافه . وإن كنت قد لاحظت ، واتفق عبد الفتاح الجمل معى فى ذلك ، أننا عندما انتصف الليل ، وكان السهر متعة فى ذلك الوقت من الصيف فى ريف مصر . سألت نوتاهارا عن مشاكل اليابان وهمومه . كنت أريد أن أقترح موضوعًا للحديث يكون هو المتكلم فيه ، بدلا من أن أتكلم أنا وعبد الفتاح طوال الوقت ، ويكون هو المستمع على طول الخط .

فوجئنا به يقول لنا إنه ليس سياسيًّا ، وإنه باحث فى الأدب العربى وكفى . احترنا . هل يتصور أننا عملاء للمخابرات اليابانية؟! وهل تمنع اليابان الكلام فى مثل هذه الموضوعات رغم كل ما يقال عن الديمقراطية اليابانية؟! وتساءلنا عما تحمله وكالات الأنباء من أخبار عن الوزارات التى ترحل فى لحظة ويأتى سواها فى أقل من اللحظة . أم أن التخصص قد أصبح آفة لدرجة أن هذا الأستاذ الجامعى لا يعرف ظروف بلاده السياسية؟ التى من المفروض أنه يعرفها بكل دقة ؛ ليس من أرضية التخصص أو سواه . ولكن بحق المواطنة ، أى باعتباره مواطنًا .

قلبنا الأمر على جميع الوجوه ، بعيداً عنه ، لأنه يعرف العربية مثلنا . فى محاولة منى لتحليل موقفه قلت لعبد الفتاح الجمل : إن الحضارة التى هناك فى شرق آسيا والتى جاء منها هذا الرجل هى حضارة بدون روح . لقد قام نوتاهارا بكل ما قام به عبر الآلات التى أتى مسلحًا بها ، ولكن عندما سألناه سؤالاً لا تجيب الآلة عليه احتمى بقوقعة التخصص حتى يعفى نفسه من الإجابة علينا .

قال لى عبد الفتاح : وماذا كانوا يفعلون قبل الوصول إلى الآلة؟ إن هذه الآلات عندهم من الأمس فقط . لا بد وأن الأمر أعمق من هذا . وانشغل عنى عبد الفتاح فى تفكير طويل ، وإن كنت قد أقنعت نفسى أن هذه الحضارة ليست مبدعة مثل حضارتنا نحن ، ولكنها حضارة نقل واستيعاب وتمثل وتنفيذ .

قلت لعبد الفتاح : إن معظم ما قدموه كان عبارة عن اختراعات توصل إليها الآخرون ، وهم الذين تولوا تحويلها إلى صناعات مذهلة وناجحة . أليس الترانزستور أكبر دليل على ذلك؟ اختراعه أمريكى ، وحولوه هم إلى ثورة فى دنيا الاتصالات لدرجة أننا نعيش عصراً جديداً اسمه عصر الترانزستور .

ضحك عبد الفتاح ضحكته العالية الرنانة ، وحرك يديه فى الهواء دليلا على السرور والفرح وصفق بهما وقال لى : ربما كان هذا صحيحا يا عكروت يا ابن . . وقال كلاما من كلامه البذىء المحبب والذى كان جزءاً من شخصيته . وإن كان قد عاد مرة أخرى ليقول لى : إن الأمر فى حاجة إلى المزيد من الدرس والفهم والاستيعاب . إن الحكاية أكثر تعقيداً من قدرتى على تبسيط الأمور بهذه الطريقة .

عدنا إلى القاهرة فى اليوم التالى ساعة العصرية . أنزلت نوتاهارا أمام البنسيون الذى ينزل فيه ، وتوجهت أنا وعبد الفتاح ـ رحمه الله ـ إلى مدينة نصر ، وفى طريق الذهاب والعودة سمعنا من نوتاهارا الكثير عن رحلاته الخرافية فى القاهرة التى لا نعرفها نحن رغم أننا نعيش فيها .

حكى لنا عن الباطنية ورجالها الكبار الذين كان يعرفهم معرفة شخصية ، وحوش آدم ، والثنائى الجميل الشيخ إمام عيسى وأحمد فؤاد نجم ، وكلوت بيك وشارع محمد على ، أو ما تبقى منه ، وها أنذا أذهب معه إلى قريتى فأجده معروفًا فيها . مستشرق يابانى هذا أم شيخ حارة مصرى من أحدث طراز؟ ! سافر نوتاهارا إلى اليابان ولم أعد أسمع عنه أو أراه إلا كلما جاء إلى القاهرة فى الصيف ، وتحولت رحلته إلى قريتى ، إلى زاد فى ذاكرتى الحية التى منحها لى الله . وهى ذاكرة قادرة على التقاط التفاصيل الصغيرة والاحتفاظ بها أكبر وقت ممكن .

إلى أن جاءت هذه الدعوة ، وكان أول ما فكرت فيه هو نوتاهارا . كان اليابانى رقم واحد الذى طلبت مقابلته ، وسألت عنه وعن مكانه فى اليابان ورقم تليفونه لأتصل به من القاهرة حتى أضمن وجوده فى اليابان فى الوقت الذى أسافر فيه إليها . لم يكن تليفونه

موجودا فى السفارة اليابانية فى القاهرة، وقالوا لى: إن مؤسسة اليابان لا بد وأن توصلك به بمجرد وصولك إلى طوكيو. لحظة وصولى إلى مطار ناريتا؛ وهو اسم مطار طوكيو الدولى، تصورت أن نوتاهارا سيكون بين الذين فى استقبالى. مشاعر فلاح بسيط، مع أننى لم أكن فى استقباله فى مطار القاهرة أو وداعه ولو لمرة واحدة، ولكن هكذا كانت تصوراتى.

منذ وصولى إلى اليابان، وأنا لم أملّ السؤال عنه، وعندما قرأت البرنامج المعد لرحلتى وجدت أن مؤسسة اليابان قد حددت لى معه موعداً فى أيام رحلتى الأخيرة؛ فقلت لنفسى: لا بد وأن اليابانيين يعرفون المثل المصرى الذى يقول: «وختامه مسك». وكلما سألت كريمة عن تليفونات نوتاهارا تقول لى إنها عندما تذهب إلى مؤسسة اليابان ستحضره لى. وطبعا لم تكن تذهب. ولأنها كانت مشغولة معى كل الوقت؛ فإنها لم تحضر لى رقم تليفون نوتاهارا.

وطوال هذا الوقت كان لدى إحساس بالذنب؛ فالضيف هو الذى يجب عليه أن يجرى الاتصال الأول. هكذا أتصرف أنا فى القاهرة على الأقل. إن الذى يأتى هو الذى يقول «السلام عليكم»، وبعدها يبدأ الدور على صاحب المكان، ثم انشغلت فى برنامجى الذى كان يصل الليل بالنهار، وقلت لنفسى: إننى سأقابل نوتاهارا قبل عودتى من اليابان بأربعة أيام وسيكون لدى الوقت الكافى للقاء آخر على الأقل.

أليس شيئًا مثيراً أن تذهب إلى هذه البلاد البعيدة، ولك فيها صديق قديم، لم تره منذ سنوات، تصل إلى الأربعة عشر عامًا؟! بأى سرعة تجرى منَّا السنوات إلى الوراء، وتتركنا عرايا؟! إن الأمر المثير بدون حدود، أن نتوقف للحظات لكى نحصى عدد السنوات التى جرت هاربة، فنكتشف أنها أكثر عدداً مما كنا نتوقع. أليس غريبا ألا يكون هذا الصديق أول من تلتقى به؟!

عمومًا هاأنذا فى طريقى إلى نوتاهارا، كنا نسير على الأقدام من معهد آسيا وإفريقيا إلى كلية اللغة العربية وآدابها فى جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية. ويبدو أن الذين اختاروا لى اليوم للذهاب إلى الجامعة كان لهم المبرر والعذر لكل هذا التأخير؛ فاليوم الذى ذهبت فيه كان الاحتفال السنوى للجامعة. هذا يوم العيدَ السنوى لجامعة طوكيو للدراسات الأجنبية. مع أن أحداً لم يهتم بأن يقول لى هذه المعلومة حتى أجد مبرراً لتصرفهم معى. إنهم فى هذه البلاد يحبون الأفعال ولكن فى صمت، ولا يميلون إلى الثرثرة.

ثلاثة أشياء أساسية بالنسبة للياباني: الطبيعة. الشتاء. الصمت. وهذا الصمت هو الذى لا يجعله يثرثر كثيراً مثلنا نحن فى بلادنا، ويحول بين اليابانى وبين الطرطشة العاطفية التى نمارسها فى كل لحظة من لحظات العمر فى بلادنا.

ويوم الاحتفال السنوى فى الجامعة كرنفال كونى. الطلبة الذين يدرسون كل لغة يقيمون احتفالا جوهره هو خلق جو الحضارة التى تقف خلف هذه اللغة أو تلك؛ فالذين يدرسون الصينية سواء من اليابانيين أو من أبناء الصين، أقاموا مطعمًا صينيًا ويرتدون الملابس الصينية. أما الطلبة الذين يدرسون اللغة العربية فقد أقاموا مطعمًا عربيًا، أسموه: «قصر الملك». وقائمة الطعام التى تقدم للضيوف مكتوبة على ورقة مرسوم عليها خريطة الوطن العربى. والأطعمة التى تقدم هنا هى: الملوخية والكسكسى والكفتة.

والفتيات اللاتى يقدمن الطعام، وهن من الطالبات، يرتدين الملابس العربية، ويبدو أن كل لغة تؤثر فيمن يتكلم بها؛ فقد كانت البنات فى هذا القسم أكثر الفتيات سمنة، كن شحيمات لحيمات، فيهن كل ملامح المرأة العربية، ولم أعرف إن كان هذا صدفة أم مقصود، وقد خجلت من السؤال عن هذه النقطة. والملوخية أكلة مصرية، وقد نقلها اليابانيون عن المصريين، وفى اليابان جمعية لمن يأكلون الملوخية، وقد حدث انشقاق داخل هذه الجمعية؛ هناك فريق مع طبخ الملوخية الخضراء، وفريق آخر فى مواجهته مع طبخها ناشفة، وكل فريق عنده مبرراته الصحية والنفسية، مع أننا فى بلادنا نأكل الملوخية الناشفة عندما تغيب الخضراء من الأسواق. وكل الذين يأكلون الملوخية، أو من وقعوا فى غرامها، أو استجابوا لغوايتها يزرعونها فى حدائق بيوتهم.

ولأن اليابانيين مصرون على أن يبهروك كل لحظة؛ فقد استمعت إلى قصة اعتبرتها من الأساطير التى أدونها هنا؛ حتى أنقل القارئ إلى الأجواء التى عشت فيها. قيل لى: إن اليابانيين عندما فكروا فى نقل الملوخية إلى بلادهم بعد أن عرفوها، أرسلوا قنصلا إلى سفارة اليابان فى القاهرة. كان عليه أن يدرس، علاوة على العمل الذى يقوم به، زراعة الملوخية وإمكانية نقلها إلى اليابان، خصوصا وأنها ستزرع فى اليابان فى الصخر وليست فى أرض زراعية مثل مصر.

وقد نجح هذا القنصل أولا فى عمله الدبلوماسى. «وهل أمامه احتمال آخر سوى النجاح؟!» ونجح ثانيًا فى المهمة الأخرى التى كانت مطلوبة منه، ألا وهى نقل الملوخية إلى اليابان، ونجح ثالثًا فى زراعتها فى اليابان. كانت الأسطورة فيها العديد من الثقوب،

فكيف عرف اليابانيون الملوخية على البعد؟! وكيف قام القنصل بكل الدراسات المطلوبة علاوة على العمل الذى كان يقوم به؟! عمومًا، كنت أميل إلى تصديق الأسطورة، رغم كل هذه الشكوك التى تحدثت عنها؛ لسبب بسيط: إن الذى عمله اليابانيون مع الملوخية يصل إلى حد الإعجاز.

لقد فوجئت بالملوخية على شكل جاتوه، وقالوا لى: إن هناك تورتة الملوخية وهى من أشهر التورتات فى اليابان. فهل فكرنا نحن فى ذلك؟ مع كل المباهاة التى نقوم بها بالملوخية وكأنها من تراث الفراعنة الذى ورثناه مع الأهرامات و«أبو الهول»؟! كان طعم جاتوه الملوخية مستساغًا، مع أننى كنت أتوقع أن يكون غريبا، وربما مرفوضًا من جانبى؛ فتناول الطعام من أكثر الأمور تعقيدًا فى حياة الإنسان.

بعد أن تناولنا الطعام الذى قدمته لنا طالبات دراسات اللغة العربية، وكان الأستاذ يختبر الطالبات فى مسميات الأشياء. كانت هناك وسائد وأمامها طبلية واطئة وفوق الطبلية صينية من النحاس الأصفر، وإن كانت هذه الأمور قد أصبحت فولكورًا فى حياتنا اليومية، فإنها كان لها حضور جميل فى هذا المكان البعيد، وكان حوار الأستاذ مع التلميذات حول مكونات المكان من الدروس العملية المهمة فى التعامل الواعى مع اللغة العربية.

تجولنا فى المكان، وجدنا الجامعة أقرب إلى هيئة للأمم المتحدة كاملة ومتكاملة، وإن كانت أكثر إنسانية من المنظمة الدولية، القائمة فى نيويورك. لقد بدت المكرونة الإيطالية، والجبن والنبيذ الفرنسيان، والهامبورجر الأمريكى، والأطعمة الحريفة الهندية، كما لو كانت علامات حقيقية تشير إلى عالم اليوم. لقد ركبت بساط الريح، الذى تحكى عنه أساطيرنا الشرقية القديمة، وفى الوقت الذى تجولت فيه فى أرجاء الجامعة، فى هذا اليوم الفريد، والذى يأتى كل سنة. لم تستغرق الجولة أكثر من ساعتين مع أننى زرت فيهما أنحاء الدنيا كلها.

كان هناك بار فى وسط الاحتفال، وحوله الإضاءة الحمراء، وكان البار مبنيًا فى مكان يتوسط الاحتفال كله؛ باعتبار أن البار موجود فى العالم كله، وإن كنت قد تمنيت لو أن هذا البار أقيم فى جناح اليونان، ففى الذهن تصور أن البار اختراع يونانى. بقى أن أقول: إن الذى يقوم بهذا الاحتفال ويموله وينفق عليه هم الطلبة، والدخول إليه، والتجول فيه مسموح لكل الناس. لم أجد حارسًا واحدًا على أبواب الجامعة، وطوال تجوالى فيها، لم

أو ما نسميه نحن بالحرس الجامعى، الذى يبدو أنه من اختراعاتنا المصرية، التى لا نظير لها سوى فى عالمنا الثالث.

لم يكن فى تنظيم هذا اليوم أى تدخل للأساتذة، ونوتاهارا حضر معى باعتباره ضيفًا. والأمر يتعدى حكاية الطعام فالطلبة يعرضون الكتب القديمة للبيع وبعض الآلات الكاتبة وهناك تبادل لمثل هذه الأشياء. وطوال تجوالى فى الكرنفال السنوى، لم أشعر بأى توتر فى العلاقات الاجتماعية، ولم يكن الشبان يتعاملون مع البنات بأى قدر من الحساسية؛ كان الأمر أكثر من سلس. كان من الصعب معرفة أين تنتهى الذكورة فى أعماق المراهقين ولا أين تبدأ الأنوثة فى الفتيات. لم تكن هناك نظرات أو اشتهاء أو معاكسات.

وقد لاحظت هذا جيداً لأننى قادم من مكان من العالم، ما أن تبدأ فيه تجربة التعامل عن قرب بين الرجل والمرأة، حتى يبدأ التوتر؟ فما بالك وهؤلاء جميعا يمرون بمرحلة المراهقة؟ وهى أكثر مراحل الإنسان حساسية تجاه الجنس الآخر؟

وعندما كنا نمر بهذا العمر، كانت مشكلة النظرة إلى الأخريات هى قضية العمر كله. كنا قد أصبحنا بصاصين لا عمل لنا سوى البص من بعيد، كنا نمارس بالنظرات كل ما حرمنا من القيام به فى أرض الواقع.

أما هنا، فلا يمكن القول إن الشبان شبان، وإن الشابات شابات. ربما كانت أجواء هذا اليوم هى السبب، ولكن هذا ما رأيته. كان المهرجان عبارة عن مولد مصرى أكثر عذوبة ورقة وجمالا، وإن كان المولد ليس بدون صاحب؛ فأصحابه هم الطلاب أنفسهم. كنت أمشى بين أعلام الدنيا كلها، ومأكولاتها وعاداتها وتقاليدها وملابسها وموسيقاها. نسيت أثناء تجوالى أن العالم الآن عبارة عن دول لا تعمل سوى ضد بعضها البعض، ومع أن اليوم نفسه محاولة لإعلاء شأن ما يميز كل دولة من هذه الدول، ولكنه تميز فى سباق السلام الجميل وليس فى الصراعات والحروب.

كنت أمشى وأنا أفكر فى حال جامعاتنا؛ هل يمكن أن تطور هذه الفكرة حتى تصبح مناسبة لواقعنا فى بلادنا؟ لماذا كل هذا العبوس والتجهم والتكشير فى العملية التعليمية عندنا؟ لماذا نعامل الجامعة وكأنها تطوير لكتاب القرية؟! والأستاذ على أنه فقى العصر؟ والفلقة القديمة تنوعت وسائلها الآن. إلى متى ننظر إلى المدرج باعتباره إما علبة سردين أو أتوبيس مزدحم؟ وأنه مكان للعلقة الساخنة أكثر منه فرصة لتطوير العقول؟ أقسم لكم،

بعد أن قضيت هذا اليوم فى جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية؛ أدركت أن إقامة مثل هذه المهرجانات كان يمكن أن تكون خط الدفاع الأول فى مواجهة التطرف والإرهاب داخل الجامعات المصرية .

أخشى أن أقول إن الأوان قد فات؛ لأننا حتى لو فكرنا فى مثل هذه المهرجانات الآن، ستكون حماية المهرجان أهم من إقامته . وأى مهرجان تحت الحماية المسلحة لا قيمة له أبدا . هل أقول إننا جيل الفرص الضائعة؟! نحن نقول ذلك فقط عن القضية الفلسطينية . ولكن يبدو أن حياتنا كلها هى حياة الفرص الضائعة .

ـ ثلاثة وعشرون ـ

عندما قابلت أبى فى جامعة طوكيو

ثم اتجهنا إلى غرفة نوتاهارا فى الجامعة، ورقم هذه الغرفة هو رقمه فى الجامعة، والاهتداء إليه لا يتم إلا من خلال معرفة هذا الرقم، وقد كانت الغرفة مفاجأة لى بكل المقاييس، ويبدو أن هذا هو يوم المفاجآت الأعظم.

كانت الغرفة قطعة من مصر، وهذا آخر ما كنت أتوقعه، أن أجد فى هذه الغرفة الجوزة المصرية والمعسل والفحم، وكل هذه الأشياء موجودة فى مكتب الأستاذ الجامعى، وفى قلب قلب جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية؛ من كان يصدق؟!

إننى أقول هذا من باب الإعجاب وليس الانتقاد أو تسليط الضوء على بعض العيوب. ومن باب خلق الجو المناسب سألنى نوتاهارا: منذ متى لم تدخن المعسل؟! فقلت له: منذ حضورى من مصر. وبدأت أحكى له عن متاعبى فى البحث عن مقهى فى طوكيو؛ كل الموجود تلك الكافتيريات. والتى نجد فيها كل ما يبعد الإنسان عن الإنسان.

عرض على أن أشاركه فى شرب المعسل، ولكنى شكرته لإحساسى أن هذا ربما كان متعبا له، كنت عينًا فى الجنة، وعينًا فى النار؛ كان مثيرًا أن أدخن المعسل فى هذا المكان ولكن من ناحية أخرى كان يناوشنى الخوف عليه وعلىّ طبعا من أن تكون هناك كبسة ما، وربما كان يضع فى المعسل بعض الممنوعات.

ولكن نوتاهارا حسم الأمر بسرعة هائلة. قام بعمل اللازم فى غمضة عين، حتى دون أن أشعر به، كان يستخدم آخر منجزات التقدم العلمى. أكد لى أن الفحم نتاج يابانى، مصنوع هنا من أجل تصديره إلى بلاد الشرق الأوسط، وأن الفحم يحترق بمجرد أن يشم النار بدون نفخ أو هواء أو خلافه، وكل هذا تم بالكهرباء الموجودة عندنا وإن كنا لا نعرف ماذا نفعل بها أكثر من إدارة الأجهزة الكهربائية المنزلية، بعد إنارة هذه المنازل طبعا.

وهكذا مددت فى فمى غابة جوزة، شاركت الكهرباء فى صنع كل ما أدخنه فيها، وكان هذا يحدث لى لأول مرة فى حياتى كلها؛ أسمع عن شيشة بالكهرباء فى بلاد الخليج تستخدمها النساء. تبادلت معه أغرب جوزة تعاملت معها فى حياتى كلها. استمر التدخين لفترة ليست قصيرة من الوقت، والمعسل كان مصنوعا فى مصر، وهناك نوع آخر مصنوع فى تونس، وإن كنا لم نستعمله. قلت لنفسى: لم يبق سوى المعسل حتى يحدث عليه هذا التنافس المصرى التونسى؟

صورة كبيرة للشيخ إمام عيسى معلقة فى الغرفة، وشريط له نسمعه طوال الوقت من جهاز تسجيل، وملف صور يحتفظ به نوتاهارا، فيه صورة لى منذ عشرين سنة مضت. وكانت المفاجأة المذهلة التى تساوى رحلتى كلها هى وجود صورة لأبى يوسف يوسف القعيد فى ملف يحمل اسمه، والصورة عمرها عشرون عامًا بالتحديد. إننى لو لم أعد من الرحلة كلها سوى برؤية هذه الصورة فقط، لعدت سعيدًا بدون حدود، ولو أننى سافرت كل هذه الأميال غير المحدودة فى الذهاب والعودة من أجل رؤية هذه الصورة فقط، ما شعرت إلا أننى عدت من الرحلة بأغلى ما يمكن العودة به.

لقد كان وجود هذه الصورة فى ملف فى اليابان فى جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية مفاجأة إنسانية وعاطفية بالنسبة لى، تفوق حتى قدرتى على الوصف، وقد مرت على فترة من الصمت كنت أستوعب فيها الحاصل أمامى بهدوء وروية. وعلى الرغم من أن وجود الصورة - عند النظرة العابرة - قد لا تكون له علاقة بالجهد الإنسانى المبذول، والعرق الذى أتصور فى بعض الأحيان أنه قد يضيع هباء؛ إلا أن وجود صورتى وصورة أبى فى هذا المكان البعيد النائى القاصى من العالم. أعطانى الانطباع القوى أن حرفًا واحدًا من الذى كتبته لن يذهب هباء أبدًا، وأن نقطة عرق واحدة لن تضيع سدى مهما حدث.

كانت عنده صور لنجيب محفوظ وطه حسين وعبد الرحمن الشرقاوى وتوفيق الحكيم. وقد سألنى نوتاهارا عن آخر أخبار نجيب محفوظ. ومن الأدباء العرب، كانت هناك صور لعبد الرحمن منيف، وقد قال لى نوتاهارا: إن الجزئين الأولين من «مدن الملح» أفضل من الأجزاء الثلاثة الأخيرة، وإن الجزء الأول من «شرق المتوسط» (هى رواية واحدة تحمل هذا الاسم) أفضل من الجزء الثانى. (فى الحقيقة هناك رواية أخرى تحمل اسم: هنا والآن).

سألنى عن صحة نجيب محفوظ، وعن سر أن نجيب محفوظ من المعمّرين. وكذلك

أبى الذى يصغر نجيب محفوظ بخمس سنوات لماذا هو معمر؟ مع أن المصريين لا يعمرون بهذه الصورة. (مات أبى بعد رحلتى بعامين فقط، وهكذا أجاب موته على دهشة نوتاهارا).

سألنى عن النتاج الأدبى الجديد لنجيب محفوظ، وإن كان ما يزال يكتب؟ أم أنه توقف عن الإنتاج مؤخراً؟ توقف طويلا قبل أن يسألنى عن عبد الفتاح الجمل؛ رفيق رحلتنا إلى الضهرية، وسألنى عن أخباره الإنسانية والأدبية. وقد استفضت فى شرح حال الذين سأل عنهم، مع تقديم أكبر قدر من التفاصيل الصغيرة التى قد تساهم فى تقديم الصورة الحقيقية لأدباء مصر.

كان نوتاهارا متأثرا جدا بحالة الموت العام التى تحصد الكتاب المصريين فى الفترة الأخيرة. قال لى: إن إدريس مات، والحكيم مات، ويحيى حقى مات، وزكى نجيب محمود مات، وصلاح جاهين مات، وعبد الرحمن الشرقاوى مات. كثيرون ماتوا فى الفترة الأخيرة فى مصر. ما الحكاية بالضبط؟!

«غريب أمر تونتهارا. لا يعجبه أن يمتد العمر بالبعض، ولا يعجبه أيضا أن يموت الآخرين».

قلت له: إن الجيل يرحل، يقوم بنوبة الرجوع الأخيرة. القضية أبعد من موت بعض الأفراد، ولكنه الجيل الذى يخلى الساحة الآن. المشكلة أن الجيل الذى يليه، ممنوع من أن يحل مكانه ويلعب دوره؛ وهكذا تبدو مصر بلداً مصاباً بالتجمد وكل ما فيه يتآكل.

كان نوتاهارا قد فرغ لتوه من ترجمة رواية محمد شكرى «الخبز الحافى» وإن كان يقول إن الجزء الثانى من الرواية ليس بنفس جودة الجزء الأول. يبدو أن إصدار جزء ثان من أى عمل مسألة تحتاج إلى إعادة نظر وخاصة بعد صدور جزء أول من العمل، لا يقول إنه عبارة عن أجزاء.

إن الأمر لا يخرج عن محاولة لاستثمار نجاح الجزء الأول، وهى عادة عربية للأسف. ورغم أن الفشل يكون من نصيب الأجزاء الثانية، إلا أن هناك حالة من الإصرار على ذلك من الآن وإلى الأبد. عرض علىَّ أعمالى الأدبية الصادرة حديثًا والتى وصلت إليهم، كان لهم مندوب فى مصر فى الصيف الماضى وأحضرها معه، وقدم لى من تلاميذه شاباً يحاول أن يترجم روايتى «أيام الجفاف» إلى اليابانية؛ من أجل أن تصدر فى طوكيو.

كانت مع نوتاهارا إحدى تلميذاته واسمها : ماري بوكا؛ وهي متخصصة في أدب يوسف إدريس. قالت بعد سنوات من معايشة أدبه وحياته : إن يوسف إدريس لو لم يمت لكان قد انتحر. وقالت لي : إن المجلد الضخم الصادر عنه من هيئة الكتاب بعد رحيله، يبدو أقرب إلى المجاملات. وكل كاتب يبدأ بالكتابة عن نفسه أولاً ثم يصل إلى يوسف إدريس بعد ذلك، ويخلو من أي نظرة نقدية. وتساءلت : لماذا يتصرف المصريون بهذا الشكل؟!

قال لي نوتاهارا : إن يوسف إدريس كان ينتظر نوبل بفارغ الصبر. وإنه قال له - أي لنوتاهارا - إنه سيحصل عليها وإن اتصالات قد جرت معه حول هذا الأمر. وقال لي : إن أدونيس قد جرت اتصالات معه حول نفس القضية، وإنه كان على القائمة مع نجيب محفوظ وحتى التصفيات الأخيرة.

أما أبرز الساعين لها الآن - قال نوتاهارا - فهو محمود درويش، وخاصة بعد اتفاق غزة أريحا. الذي قضى على المشكلة التي كانت تمنعه من الحصول على نوبل. إنه - أي درويش - يتصور أن الطريق قد أصبح سهلا أمامه الآن. بل إن عمله الرئيسي هو الإشراف بنفسه على ترجمة أشعاره إلى لغات أوروبا وإصدارها بمعرفته. لعل وعسى.

ثم تواعدنا على لقاء أخير في اليوم الأخير لي في هذه البلاد، أقصد مساء الاثنين القادم.

ـ أربعة وعشرون ـ

هنا عاش صديقى كاوباتا

اليوم الحادى عشر.

السبت ٢٠ / ١١ / ١٩٩٣

ما زالت فى الرحلة سفريات داخلية فى اليابان. حتى وأنا أبدأ نوبة الرجوع، وأفكر فى العودة إلى مصر، لا بد من شد الرحال خارج طوكيو، والقيام بنفس الطقوس التى سبق القيام بها أكثر من مرة من قبل. كان علينا التحرك من طوكيو فى العاشرة إلا الربع صباحًا، من محطة القطار الرئيسية. كل سفرياتى الداخلية تمت بالقطار، ليست فيها رحلة واحدة تمت بالطائرة.

تحركنا من الفندق فى التاسعة صباحًا، بعد أن حزّمت حقائبى من أجل تركها فى أمانات الفندق. دفعت التأمين مقدمًا وحصلت على الإيصال، هذا الإيصال هو الدليل الوحيد على أن لى حقائب فى هذا الفندق.

لم يكن فى المحطة أى بوفيه للشاى والقهوة. سألت فقالت كريمة: إن الوقت الآن مبكر، وهذه المحلات لا تعمل قبل الساعة العاشرة صباحًا. القطار عادى وليس فاخرًا، ولا هو من نوع الطلقة، الذى سبق وركبته وأنا فى الطريق إلى أوزاكا، القطار جميل وفاخر ومنظم. يبدو أن الفارق فقط فى السرعة وليس فى النظافة، ولكن المهم أن راحة الركاب واحدة، وتسبق أى اعتبار آخر.

نحن فى الطريق إلى مدينة هاكونى، وهى تبعد عن طوكيو مائة كيلو متر فقط. ومن هاكونى من المفروض أن نذهب إلى أيزو مدينة معشوقى الخاص كاوباتا، والذى كتب نصًا أدبيًا عن هذه المدينة اسمه: «راقصة أيزو» كنت سعيدًا بهذه الرحلة بالتحديد. كنت أعيش حالة من الحبور والسعادة؛ ففى هذه الرحلة من المفروض أن أذهب إلى متحف كاوباتا.

أبدأ بهاكونى أولا : إنها أصغر مدينة ذهبت إليها فى اليابان. أول ما لفت نظرى فى المدنية : نظافة الشوارع الحقيقية. المدن هنا ليست نسخًا من بعضها؛ ثمة قدر من الاختلاف والمغايرة تصل أحيانًا إلى حد التناقض، وهذا يعنى أن الإبداع المحلى له دور هام. عاملات نظافة الشوارع كثيرات. كل خمس عاملات لهن رئيسة واحدة، والزى موحد، زى برتقالى اللون، والرئيسة تعمل مثل العاملات تماما، وكل واحدة فى يدها اليسرى سلة، وفى يدها اليمنى ملقطا تلقط به أى فضلات من فوق الأرض. وعلى وجه كل امرأة كمامة من القماش الأبيض، سبق وأن لاحظتها فى كل مكان ذهبت إليه فى اليابان.

وعندما سألت عن هذه الكمامة، عرفت أن من يضعها هكذا لا بد وأن تعرف أنه مريض بالإنفلونزا، وهو يفعل هذا حتى لا يعدى أحدًا بالمرض الذى يعانى منه والعدوى منه مؤكدة. أما الكمامة هنا؛ فالسبب فى وضعها هو لوقاية العاملات من آثار الفضلات والزبالة والأمراض التى يمكن أن تتسلل منها.

الإشارات فى المدنية كثيرة، والمرور بطىء، وثمة سيارات ترش الماء بشكل ميكانيكى رغم أن الوقت كان شتاء. والرزاز الخفيف الذى يسبق المطر مثل الشجن الذى لا ينتهى كان قد نزل منذ فترة قصيرة، هكذا قال لى منظر الشوارع التى شاهدتها عند وصولى إلى المدينة.

كان أول بند فى برنامجى اليوم هو زيارة متحف هاكونى، وهو متحف فى الهواء الطلق، يعكس جزءًا من قصة اليابان مع الثروة الهائلة التى هبطت عليه، بعد هذا النهوض الصناعى الضخم والعملاق. والذى حدث مؤخرًا أن اليابان التى تناطح الدنيا من أجل أن تكون الدولة رقم واحد، وإن لم يكن فلابد وأن تكون الدولة الثانية، تدرك اليابان أن هذه المكانة لا يمكن الوصول إليها بالمال وحده فقط، ولكن لابد من وجود بعد حضارى مهم. واليابان من الدول ذات الحضارة القديمة والموغلة فى القدم، ولكن الحضارة كلها حضارة معابد، لم تترك سوى عدد هائل من المعابد القديمة.

وفى زمن الوفرة الذى تعيشه اليابان فى هذه الأيام، قامت اليابان بشراء عدد هائل من الأعمال الفنية الأصلية من كل مكان من العالم. لا أعرف بدقة لماذا لم تنتج الحضارة ابانية أعمالا خالدة من الفن التشكيلى؟ مثل الرواية والسينما والمسرح؟ ربما كانت هذه عمال حديثة ومعاصرة وتعود إلى القرن العشرين.

فى حين أن النتاج الفنى العظيم يعود إلى قرون سابقة على القرن العشرين. لقد اشترى اليابانيون أصول أعمال فنية خالدة. وفى متحف هاكونى جمعوا كمية من الأعمال الفنية تجعل هذا المتحف ينافس البوريفاچ فى لينبجراد، ومتحف المتروبوليتان للفنون التشكيلية فى باريس، وقد شاهدت المتحفين فى رحلات سابقة إلى المدينتين.

هنا فى هاكونى كنوز فنية رائعة، ولكن ثمة رهافة يابانية من نوع خاص؛ لأن المتحف فى الهواء الطلق، بعيدا عن متاحف الأسقف والجدران والأبواب والنوافذ. وجدت هنا مقتنيات مهمة لفنانين عالميين. قيل لى: إن اليابان دفعت فيها مليارات الدولارات. وفى المتحف مبنى كبير خاص ببيكاسو. كل اللوحات المعروضة فيه هى لوحات أصلية، سواء فى الرسم أو التصوير أو التكوينات الفنية الأخرى. وقد رتبت لوحات بيكاسو بشكل شديد الذكاء؛ بمعنى أن كل مجموعة من اللوحات تتصل بموضوع معين، توضع فى مكان يخصها، وكذلك صوره الشخصية النادرة والمهمة. المتحف الخاص ببيكاسو مغطى ومقفل، والمكان مكيف وفيه عدد كبير من صوره الشخصية معلقة بعد أن تم تكبيرها.

هذا الاهتمام من قبل اليابان بالفنون والأعمال الفنية لفنانين ليسوا من اليابان، مسألة شديدة الوعى. إنه لا يعنى محاولة شراء حضارة أو سد نقص موجود عندهم، ولكنه استكمال لدور ثقافى وحضارى. طبعا لم أعرف كم تكلف متحف بيكاسو، وكم من الأموال دفعوها فى هذه اللوحات الأصلية؛ لأن هذه المعلومات لم تكن موجودة. ولم أجد من أستفهم منه عنها؛ لأن اليوم الذى ذهبت فيه إلى المتحف كان يوم عطلة رسمية.

كان هناك متحف آخر للفنان هنرى مور فى الهواء الطلق، وكان هناك فى الحديقة الرئيسية للمتحف تمثال بأكبر من الحجم الطبيعى للنبى داود. كان المتحف فيه عدد كبير من الناس العاديين، وقد دهشت من إقبال هؤلاء الناس العاديين على الفن التشكيلى، الذى من المفروض ألا تقبل عليه سوى الصفوة، أو الذين لهم اهتمامات ثقافية.

مع أن هذه الزيارة، كانت تعنى بالنسبة لى لقاءً من نوع خاص مع بيكاسو؛ قبل الزيارة لم يكن بيكاسو يعنى بالنسبة لى أكثر من اهتمام عام، ولكنى عند زيارتى لمعرضه فى هاكونى باليابان، وقفت أتأمله وأقرؤه. أدركت سر عظمة هذا الفنان. هل هى غزارة الإنتاج غير العادية؟ أم أنها تلك القدرة الفريدة على التغيير والانقلاب على الإنجاز؟ لم يكن بيكاسو مستعداً لكى يستعبده اتجاه معين. كان مستعداً للخروج إلى مسارات جديدة فى كل مرحلة من مراحل تطوره الفنى. بيكاسو أبعد ما يكون عن التكرار الممل

الذى نجده عند الفنانين الذين يعمرون طويلا، وخاصة فى بلادنا. بيكاسو كان قادرًا على المفاجأة؛ أن يفاجئ الدنيا بكل ما هو جديد وغير متوقع فى لحظات غير متوقعة.

كل اللوحات والتماثيل المعروضة كانت لها صور مطبوعة فى مجلدات فاخرة، وتباع لرواد المتحف بأسعار غالية، وفى الطريق إلى المتحف، كان هناك مطعم كبير ومقهى وكافيتريا وسوبر ماركت كبير من أجل التبضع والتسوق لزوار المتحف. وكان هناك كشك صغير يبيع كاميرا من الورق للرواد، فيها فيلم واحد، تصوره وترمى بالكاميرا. وإن رفضت الرمى بها وحاولت إخراج الفيلم مع الإبقاء على الكاميرا، يكون ذلك من رابع المستحيلات؛ لأن إخراج الفيلم يتطلب كسر الكاميرا المصنوعة من الورق. وقد رأيت فى هذه الكاميرا تجسيدًا قويًا لفكرة المجتمع الاستهلاكى وتصورت أن السيارة يمكن أن تصبح من الورق، وأننا قد نلبس ملابس من الورق؛ لأن ذلك هو الضمان الأكبر لضخامة الاستهلاك التى قد تستوعب الإنتاج الرهيب فى هذا البلد.

وهاكونى مدينة متناثرة فوق الجبال، وأكبر عدد من البيوت المتجمعة مع بعضها فى مكان واحد، لا يزيد عن أربعة أو خمسة بيوت. وعندما بدأنا رحلة الصعود فوق الجبل، كان المطر الغزير قد بدأ، وفى هذه الجبال عيون تخرج مياها ساخنة كل أيام السنة، حتى فى قلب أيام الشتاء التى ينزل فيها الثلج.

سألت: هل كون المدينة متناثرة فوق الجبال له علاقة بالسياحة الموجودة فيها؟ قيل لى: لا. إن سبب السياحة هو التنوع الفريد فى المكان والذى يجعل منه تحفة حقيقية.

كان المطر غزيرا وقويا، وكان هدفنا من الرحلة إلى هاكونى هو زيارة جبل فوجى. الذى يعد أعلى قمة فى اليابان، وقمته مغطاة بالثلوج طوال أيام السنة، إلا بعض أيام معدودة، يذوب فيها الجليد، وهذه الأيام تقع فى شهر أغسطس من كل سنة. وجبل فوجى ارتفاعه ٣٧٧٧ قدمًا فوق سطح الأرض، والقول إنه جبل تعبير مجازى؛ لأن قمته مغطاة بالنباتات الخضراء وكذلك جوانبه. ومن أجل مشاهدته صعدنا فوق جبل آخر مقابل له، وإن كان أقل منه ارتفاعًا؛ لأن الصعود فوق جبل فوجى لن يمكننا من رؤية شىء فيه.

ومع هذا وعندما صعدنا فوق الجبل المقابل لفوجى تحت أغزر مطر رأيته فى حياتى، وعلى الرغم من الخطورة الكامنة فى صعود الجبل، ووسط هذا المناخ، وفى قلب طقس كهذا، إلا أننا صعدنا، ذلك أن البرنامج ينص على هذا، وإن كنا لم نر أى شىء من قمة

جبل فوجى بسبب المطر والضباب الذى يحيط به والسحاب الذى يمر من حوله ويدور بالقرب منه .

كان السحاب حولنا ونحن فوق الجبل . لأول مرة فى حياتى ألمس ذلك الشيء الهش ، الذى يبدو من بعيد مثل القطن المندوف . كنت أتصور من قبل أن السحاب يتكون من الماء ، ولكن يبدو أنه يتحول إلى الماء فى مرحلة لاحقة .

كان من المفروض أن نزور البحيرة التى تتوسط الجبال فى هذه المدنية ، ونركب المراكب فيها ، ونذهب إلى آخرها ثم نعود إلى المرسى الذى تحركنا منه ، ولكن البرد الشديد والأمطار الغزيرة ، التى بدت وكأن السماء قد فتحت فيها فتحات تنزل منها المياه علينا بكل هذه الغزارة ، جعلتنا نغير هذا البرنامج .

لقد قمنا نحن بإلغاء رحلة جبل فوجى والبحيرة ، ولكن الغريب أن الحياة كانت تمضى من حولنا بصورة طبيعية جدًا ، رغم هذا البرد الشديد ؛ السيارات تجرى ، والمشاة يمشون على الأرصفة بشكل عادى ، وكل واحد يحمل الشمسية التى تعد جزءًا من الشخصية اليابانية ، من المستحيل أن تقابل شخصًا لا يحملها فى هذه البلاد ، وكأنها بطاقة تحقيق الشخصية .

فى كل مكان عام تذهب إليه ، مطعم أو مقهى أو سينما أو مسرح ، لا بد من وجود مكان لوضع الشماسى فيه ، مثل الأمكنة التى توضع فيها البلاطى فى الاتحاد السوفييتى السابق وروسيا حاليًا ، ولا أعرف الاسم الذى قد يطلق عليه مستقبلا .

المدينة تحفة معمارية نادرة ، والطرق معبدة فوق الجبال وصعودا إليها ونزولا منها ، وإن شاهدت حادث طرق تحت المطر المخيف ؛ تجد سيارة الشرطة تقف بجوار السيارة التى تسببت فى الحادث ، مما يعنى أن التحقيق قد بدأ فعلا .

كانت معى شمسية ، أخذتها عهدة من مؤسسة اليابان ؛ لأننى فى الزيارة الوحيدة التى قمت بها للمؤسسة كان المطر قد بدأ فى أثناء وجودى فيها ؛ فأعطونى هذه الشمسية ، على أن أعيدها إليهم مرة أخرى قبل سفرى من اليابان . ولكن وجود الشمسية معى أوعدم وجودها ليس مسألة خطيرة ؛ فقد اكتشفت فى كل تاكسى ركبته أن الشنطة الخلفية فيها عدد من الشماسى من كل نوع وصنف يمكنك أخذها ، ثم تركها فى السيارة فى نهاية الجولة .

فى الثانية والنصف بعد الظهر دخلت الفندق ، وكان الفندق فوق جبل منعزل ، ولا

يوجد أى مبنى بجواره، فندق وحيد وسط الأشجار. ألا تصلح هذه العبارة عنوانًا لقصة من قصص كاوباتا؟ كنت سعيدًا بالفندق لأن كاوباتا كان ينزل هنا. لم يكن يكتب مؤلفاته من منزله. فى اليابان جحيم اسمه البيت، وعدم دعوة الضيوف للذهاب إليه ليس سببه التحفظ الذى يبدو من سمات الشخصية اليابانية، ولكن بسبب ضيق هذا البيت وانعدام إنسانيته. مساحته متوسطها خمسون مترًا، ولم أشاهد أنا خلال وجودى فى اليابان تلك البيوت الرحبة والفسيحة، حيث يبدو أن المكان يفيض عن حاجة سكانه إليه.

سألت عن مصير الغرفة التى كان ينزل فيها كاوباتا؛ هل أصبحت متحفًا مثلا؟ استغربوا من مجرد طرح السؤال. غرفة مثل كل الغرف الأخرى، ولكن كل الذى حدث بعد انتحاره أن مكونات هذه الغرفة قد نقلت إلى متحفه الموجود فى المنطقة. سألت إن كانت له غرفة معينة تعوّد أن ينزل فيها؛ والعادة تعد فى نظرى نصف إدمان. قالوا: إن هذا لم يحدث.

ومع هذا كنت سعيدًا؛ هنا مشى كاوباتا، فى هذا المطعم كان يجلس، وفى تلك الكافيتريا كان يشرب شايه. كل ما طلبته من مسئول الاستقبال فى الفندق أن تطل غرفتى على الجبال والغابات والأشجار الخضراء؛ حتى أمتع النظر كل هذا الوقت الذى أمامى برؤية منظر من الصعب أن نشاهده فى مكان آخر فى اليابان.

نظرت من شرفتى. كانت المدينة عبارة عن مبان متناثرة فوق الجبل وكانت فخامة الفندق من الصعب الحديث عنها ووصفها. كان من المفروض ألا أخرج من الفندق سوى فى التاسعة والنصف من صباح الغد.

التغيير الوحيد الذى حدث، أننى تركت الغرفة ونزلت وجلست فى صالة الفندق فى المساء، كنوع من محاولة اختبار المكان الذى حولى. كنت من قبل، وفى سفريات سابقة، انتقد بعض الذين يسافرون ويتحولون إلى كائنات فندقية، حيث لا يخرج الإنسان منهم من الفندق أبدا، ولكن يبدو وأنه قد كتب على هذه الليلة أن أكون كائنًا معلبًا فى فندق. وحتى متعة النظر من شرفة غرفتى التى كانت فى الدور الثالث تلاشت؛ لأن الليل أتى سريعًا فى هذا المكان؛ ربما بسبب الجبل أو طبيعة الشتاء فى هذه البلاد.

لقد كانت هذه الليلة من أطول الليالى فى عمرى كله، وقد بدت لى كأنها جبل مثل الجبل الذى بنى الفندق فوقه؛ يرقد هذا الجبل فوق صدرى ولا أعرف كيف أزيحه. وكريمة منذ أن سلمتنى مفتاح غرفتى وأخذت مفتاح غرفتها فى الثانية والنصف من بعد

الظهر، قالت لى: تصبح على خير. ففهمت أننى لن أراها سوى فى صباح اليوم التالى، وما حاجتى إليها، وباقى البرنامج ألغى بسبب المطر والعواصف والرعد والبرق والرياح التى لها صوت مرعب؟

السائق من المفروض أن يذهب الآن بالسيارة، وكل ما أريده موجود فى الفندق، المطعم والبار والمرقص والكافتيريا وحتى فتيات الجيشا. ففى أى الأمور احتاجها من الآن وحتى صباح الغد؟! كل شىء هنا مثير وناعم ويوحى بالدفء، السجاد الذى على الأرض يغوص فيه القدم فلا ترى الحذاء الذى تلبسه، الكراسى والحمام والسرير متعة تنسيك حتى مرور الوقت، ولكنى لست من النوع من الناس القادر على الاستمتاع بهذه الأشياء.

لقد قضيت أطول ليلة فى حياتى كلها حتى الآن على الأقل؛ والآن هذه تعود إلى تاريخ الليلة فى ثلاثة أمور: النوم: فالجو فى هذه البلاد يساعد على النوم بلا حدود. دائما يمكننى أن أنام على طول الخط، فى القطار وفى السيارة، مع أننى طول عمرى لا يمكننى النوم أبدا فى شىء متحرك، لا بد من الثبات التام حتى أنام، وأحب أن أنام قريبا من الأرض. ولو كان النوم على الأرض لكان ذلك أفضل وهذا يعود إلى نشأتى الريفية.

فى اليابان ما أن أغمض عينى حتى يأتينى النوم فورا، وبدون أى تردد، وهذه الحال لا تحدث لى فى مصر أبداً؛ النوم من الأمور شديدة الصعوبة فى بر مصر، سواء فى الليل أو فى النهار، ويا ويلى إن نمت نهاراً، ما أن أنام ـ ولو لدقائق معدودة بالنهار ـ حتى استيقظ طوال الليل، وإن أتت علىّ الساعة الثانية عشرة مساءًا، وأنا يقظ، حتى أصحو إلى الصباح مهما كان التعب والصداع، أظل هكذا حتى اليوم التالى.

هنا كان الوضع شديد الاختلاف، ولا أعرف السبب فيه. هل أتناول أطعمة تدفعنى إلى النوم ولا أدرى أنا ذلك؟ هل فى الجو نفسه ما يجلب النوم لى؟ لقد سألت أكثر من مرة عن هذه القضية ولم أتلق إجابة شافية، وكل ما سمعته لم يخرج عن كونه احتمالات.

الأمر الثانى: هو تدوين بعض ملاحظاتى عن الرحلة. وكنت أفعل هذا يومًا بيوم، وليلة بليلة حتى أبقى على التفاصيل الصغيرة، ولا أتركها تتوه من الذاكرة مع مرور الوقت. والأمر الثالث: كان القراءة. كانت معى فى هذا اليوم الطويل وتلك الليلة الليلاء

مذكرات إنجى أفلاطون. كنت أقرأ فيها وأعد صفحات الكتاب، أخشى أن تنتهى قبل أن أصل إلى نهاية هذه الليلة التى تبدو كما لو كانت بلا نهاية. كنت أنظر إلى شكل الصفحات وأعدها وأتوقف فى بعض الأحيان خوفًا من انسحاب الونيس؛ فأبقى فى مواجهة نفسى.

وعندما نزلت إلى الدور الأرضى فى الليل، لاحظت أن نزلاء الفندق كانوا فى معظمهم من العائلات. من السهل معرفة هذا، من الهدوء المفروض من الخارج على النفس الإنسانية، وحالة اليأس على الوجوه والاستسلام للقدر والتعود على الملل الذى أقرؤه فى بعض تحركات الناس، وأخيراً من وجود أطفال صغار معهم يثيرون الصخب والضجيج الذى يحدثه الأطفال فى فندق عادة.

الفندق هادئ وفاخر. مكان مسروق من الدنيا بكل ما فيها، من صراعات وهمية ومعارك لا هدف لها أو من ورائها، مكان ليس من هذا العالم فى شىء. لقد قرأت من قبل، أن من يركب البواخر فى البحار لابد وأن يكون عاشقًا وأن تكون معه معشوقته. وأقول عن هذا الفندق العذب أيضا إنه يستحسن أن يكون سكانه من العشاق؛ لأنه يبعدك عن الدنيا ويزرعك فى دنيا من البكارة والدهشة التى تعد من الأمور الأساسية لمن يحضر هنا.

ثمة مشهد لا بد وأن يلاحظه الإنسان فى الشوارع مساء كل يوم، وإن كان يبدو شديد الوضوح مساء السبت من كل أسبوع، ألا وهو السكارى الذين يترنحون. يبدأ هذا المشهد منذ الثامنة مساء ويصل إلى الذروة قبل انتصاف ليل اليابان الحزين. فى كل المدن رجال سكارى أحبطوا وعجزوا عن تحقيق أحلامهم ولم يشبع أى منهم من يومه وأمسه وليس له غد، وقد فقدوا قبل هذا كله وبعده، حتى تلك القدرة الفريدة على الحلم.

وعندما كنت أمشى فى شوارع جنزا فى الليل، كنت أشاهد طابورين، طابورا للرجال والنساء السكارى على الرصيف، وطابورا لسيارات التاكسى فى نهر الشارع، والطابوران يلتقيان معًا عند محطة التاكسى. وفى هذه البلاد فإن التاكسى له أيضا محطة مثل الأتوبيس ومحطة التاكسى موجودة حتى فى قلب الشوارع التى لا يدخلها الأتوبيس.

لقد توقفت طويلا أمام هذه الظاهرة؛ ظاهرة زبائن التاكسى؛ لأنه البلد الذى وصلت

السيارات التى من صناعته إلى كل مكان فى عالم اليوم. كنت أتصور أنه فى اليابان سيارة لكل مواطن، ومعى حق، ألم نصل إلى وجود أكثر من سيارة للأسرة الواحدة فى بعض المستويات فى مصر الفقيرة المثقلة بالديون والتى لم تنجح حتى الآن فى صناعة السيارات، رغم كل المحاولات التى تمت منذ سنوات وحتى الآن؟!

بحثت هذا الموضوع، فقيل لى: إن ملكية السيارات ليست مطلقة فى هذه البلاد؛ فكل من يقفون فى انتظار التاكسى هم من العمال الفقراء - حتى فى اليابان فقراء تصور؟! - الذين لا يملكون سيارات حتى وإن كانوا يعملون فى مصانع السيارات اليابانية.

ومن يمتلك سيارة: فإن أحداً لا ينزل بها إلى قلب المدينة. الوصول يتم عبر المواصلات العامة. وهى مريحة وسهلة وأسرع من السيارات الخاصة. وعندما سألت عن استخدام السيارة الخاصة، قيل لى: إنها تستعمل فقط فى عطلة نهاية الأسبوع من أجل فسحة العائلة.

لكن الجديد الذى لم أصدقه، ولم يكن من الممكن تصديقه لو حكاه لى أى إنسان آخر، كان هو هذا العدد من السكارى من النساء. لم تسبق لى أن شاهدت امرأة فى حالة سكر سوى فى اليابان؛ لأن المرأة حتى التى تشرب الخمر فى بلادنا، تفعل هذا بحياء وخفر وبعيداً عن أى استعراضات من أى نوع كانت.

أما هنا، فكم يبدو الموقف شديد الاختلاف، نساء فى حالة إعياء من السكر على الأرصفة تستند البعض منهن لأعمدة النور وحول البعض منهن قيء. سألت عن أسباب هذا الإحباط العام الذى يملأ حياة الناس، فقيل لى: إن البيت اليابانى هو مصدر البؤس الإنسانى الأول فى هذه البلاد، بسبب ضيقه الشديد. إن أعلى نسبة انتحار فى العالم هنا، وتبدو مشكلة ضيق البيوت بدون حل، على الأقل فى المدى القصير وحتى البعيد لأنها ترتبط بقضية المساحة المتاحة.

إن حجم البيت اليابانى فى المتوسط خمسون مترا مربعاً، لا يصلح لأن تقيم فيه أسرة؛ ولهذا يتحول الناس هنا إلى نوع من الإقامة الفردية، كل فرد يعيش بمفرده، ولهذا قد تصل مساحة الشقة إلى أمتار صغيرة جدا لا تزيد عن غرفة، وحتى لو لم يقع الطلاق قد يجد الزوج والزوجة راحتيهما فى أن يقيم كل منهما بمفرده، بعيداً عن الآخر.

الإنجاب يبدو مخاطرة غير محسوبة، والإقبال عليه قليل. ومن يتابع الكثافة السكانية

يجد أن الشيوخ فى المقدمة ، مع أن المجتمعات الصحية والطبيعية يكون الأطفال والصبية فيها هم الأكثر عدداً .

ضيق البيوت الذى يشبه ضيق المرأة الحامل؛ يجعل اليابانى لا يدعو أحداً إلى بيته ، مهما كانت درجة القرابة . إن اللقاءات تتم فى أماكن عامة ، وهى الكافتيريات والمطاعم والمقاهى والبارات المنتشرة فى كل مكان ، حتى ولو كان قرية صغيرة لا يزيد عدد بيوتها عن عشرة .

أما الذهاب إلى البيت فهو مرفوض ، كنوع من الهروب من ضيق البيوت ، التى تجعل الحياة نوعا من الجحيم ، مع أن البيت وخاصة فى المدن المعقدة ، هو حصن الأمان الأخير للإنسان الذى يلجأ إليه فى أوقات المحن ، والأزمنة العصيبة .

ذلك أن الإنسان بدون بيت من الصعب أن يقال عنه إنه إنسان أساساً .

ـ خمسة وعشرون ـ

عندما مشيت وسط السحاب

اليوم الثانى عشر.

الأحد ٢١ من نوفمبر ١٩٩٣

إن كنت بالأمس فى متحف هاكونى، فنحن اليوم على موعد للذهاب إلى معبد هاكونى. تحركنا من الفندق فى التاسعة والنصف صباحًا، متجهين إلى المتحف. سارت السيارة ببطء لأن المطر كان لا يزال مستمرًا. شاهدت أكثر من حادثة فى الطريق؛ فالطريق جبلى ووعر وشديد القسوة.

لكن الجميل فى هذا المشوار الصباحى المندى بالمطر البكر، أننا كنا نمشى وسط السحاب. كان الجبل عاليًا لدرجة أنه بدا كما لو كان قطعة من السماء، وإن لم أتمكن من رؤية لحظة تحول السحاب إلى قطرات مياه. كيف تنبت المياه من هذا السحاب الذى يبدو مثل القطن المندوف، وتنزل على الأرض؟!

معبد هاكونى من المعابد القديمة جدا فى اليابان عمره الآن ٢٤٠٠ سنة. والدخول إليه مجانى، ويميزه سلم رهيب، يبدأ من الطريق العام ويصل إلى ما فوق الجبل فى اتجاه واحد. تقف أسفله؛ ترى أن عملية الصعود من أقسى ما يمكن. وعندما تصعد أعلاه؛ يكون من الصعب عليك النظر إلى أسفل؛ لأنك من الممكن أن تقع من الدوار والدوخة. وسلالمه ما زالت تنتمى إلى العصور الوسطى.

يقولون لك: إن الحاكم صاحب هذا المعبد هو الذى أوقف تقديم فتاة قربانًا للتنين الذى فى البحيرة، صاحب الرءوس التسعة، وقبل هذا الحاكم كانوا فى يوم ٧/٣١ من كل سنة يقدمون أجمل فتاة قربانًا للتنين حتى يهدأ ولا يثور ويقلب الحياة رأسًا على عقب، ومنذ ٢٤٠٠ سنة أوقف الحاكم هذه العادة.

ألا تذكرك هذه الحكايات التاريخية أو ربما الأساطير اليابانية بحكاية عروس النيل فى مصر، وكذلك إيقافها؟ وإن كانت عروس النيل تقدم فى مصر من أجل الفيضان؛ واهب الحياة للمصريين.

يقولون فى اليابان: إن الحاكم عندما أوقف هذه العادة مكث فى مكان المعبد ٣ أيام بلياليها. ومنذ هذا التاريخ فهم يقدمون الطعام للتنين بدلا من الفتاة. تتحرك القوارب، ومنذ ٢٤٠٠ سنة وحتى الآن، من أجل أن ترمى بالطعام فى البحيرة للتنين بدلا من الرمى بالفتيات أو فداء لهن. وبحيرة اسينوكو محيطها ٢٠ كيلو مترا. وعمقها فى أعمق مكان فيها ٤٥ مترا. ومتوسط درجة حرارة المياه فيها طوال أيام السنة ٤ درجات مئوية، ومهما تغيرت درجة الحرارة حولها ـ حسب فصول السنة ـ فإنها لا تتغير فى المياه. ويعد هذا واحدًا من عجائب اليابان التى لم يقدم أحد تفسيرًا لها.

ويمكن العوم فى البحيرة فى الصيف الحار، وربما كان ذلك متعة، ولا تتحول مياهها إلى جليد ـ مثل باقى بحيرات اليابان فى الشتاء ـ وتحافظ على هذه الدرجة الثابتة من الحرارة طوال السنة ولا تغيرها أبدًا. والطبيعة هى البطل فى هذا المكان، والطبيعة عمومًا مهمة فى حياة اليابانى، والرطوبة عالية مع الأمطار التى تنزل على مدار السنة كلها، ولا تنقطع الأمطار فى الصيف، بل تستمر فيه، وهذا يجعل اللون الأخضر ينبت حتى فى قلب الحجر نفسه.

وليلة الأمس قضيتها فى فندق. هو أغلى فندق نزلت فيه منذ حضورى إلى اليابان. لقد دفعت فى ليلة واحدة ٢٥٠ دولارًا، أى حوالى ٧٠٠ جنيه مصرى، من أجل النوم فقط! ولا يدخل فى هذا المبلغ حتى الإفطار، عليك أن تدفع ثمن كل ما تحصل عليه، منذ لحظة دخولك إلى الفندق وحتى الخروج منه. وإجراء تليفون مع المدينة التى يوجد فيها الفندق لا بد وأن تدفع أجره، وهذا لم أفاجأ به سوى فى هذه البلاد التى تحسب كل شىء بدون أى استثناء وتفهم الضيافة وفق تصور خاص بها تمامًا. ولكن الحقيقة تدفعنى إلى القول إن هذا الفندق هو أفخم فنادق اليابان التى نزلت فيها منذ حضورى إلى هنا؛ من حيث الأثاث والمبنى والاتساع والخدمات وسبل الراحة.

لقد نزلت فى أربعة فنادق؛ فندق جنزا فى طوكيو، والذين يتابعون الحياة يعرفون أن كلمة جنزا تعنى الفنادق الغالية، التى تقف عند سقف الإنفاق الفندقى فى العالم كله.

وفندق «جنزا دايهاتشى أوتيل»، وهذا هو اسمه بالكامل يقع فى مكان كله محلات،

حول الفندق، محلات من كل جانب، لدرجة أننى لم أتناول وجبات فى الفندق سوى فى يومى الأول فى اليابان فقط. أما فى الأيام التالية؛ فقد عرفت الطريق إلى كافتيريات ومطاعم ومقاه وبارات تملأ كل الشوارع المحيطة بالفندق، وكذلك محلات الطعام الأمريكية التى دخلت سباق منافسة أسعار مع المحلات اليابانية.

وفندق العاصمة كانت غرفه صغيرة جدا. لقد نزلت فيه ثلاث مرات. غيرت فيه غرفتى ثلاث مرات؛ لأننى تركت الفندق وسافرت إلى مدن أخرى داخل اليابان وعدت إليه، وفى كل مرة كنت أحاسب وأنهى الإقامة، وعندما أعود أستخدم حجزاً جديداً تماماً. المرة الأولى كانت الغرفة واسعة، وكانت فى الدور الثالث ولكنى بعد العودة من السفرية الأولى، نزلت فى غرفة أصغر، مساحتها نصف مساحة الغرفة السابقة، والدور أعلى، والشرفة لا تطل على الشارع العمومى، ولكن على شارع خلفى.

فى اليوم التالى عرفت أن أجر الغرفتين واحد، وعندما سألت عن السبب فى ذلك؛ قالت لى كريمة. بعد أن نقلت سؤالى إلى إدارة الفندق: إن السبب فى هذا أننى كنت حاضرا لتوّى من مصر، وقد أقدمت إدارة الفندق على ذلك الإجراء كنوع من الترحيب بى، وفى اليابان يفعلون ما يريدونه دون أن يقولوا شيئا، ويتركون الأمر لفهمك. فى العودة الثالثة، كانت الغرفة أصغر والدور أعلى ويبدو أن الفندق يبدو مثل الهرم، ولكن بسبب تلاصق العمارات لم أستطع التأكد من هذا. المرة الأولى كنت فى الدور الثالث، وفى الثانية فى الدور السادس، وفى الثالثة فى الدور التاسع. ويبدو وأنهم يجعلوننى أمر بكل شىء هنا بالدور؛ جميع ما مررت به مقصود أن أمر به، ولا شىء يتم صدفة أبداً.

ومكونات الغرفة مثل مكونات كل غرف الفنادق: دولاب صغير للملابس، ودورة مياه محدودة، وسرير وحيد ومكتب وكل الأشياء صغيرة، لدرجة أنه يخيل إليك، فى بعض الأحيان، أنها صممت من أجل استخدامات الأطفال، والتليفزيون فى الغرفة متصل بكل القنوات الفضائية فى العالم، ولكن استخدامه يعنى أن تدفع رسمًا فى اليوم التالى لإدارة الفندق، لدرجة أننى خشيت أن يحاسبونى على المياه والكهرباء التى استهلكها فى الغرفة.

فى أوزاكا، وخلال جولتى فى كيوتو، كنت أنزل فى «رويال أوزاكا هوتيل»، وهو أفخم مبنى نزلت فيه منذ أن جئت إلى هنا، وهذا الاتساع عبر عن نفسه فى الغرف

والردهات والسلالم وحتى الأسانسير. ومكونات الغرف كما لو كانت من مكونات القصور. وقد شاهدت فى استقبال الفندق نسخة مصغرة من الغرفة التى أنزل فيها، وكل شىء من مكونات الغرفة مكتوب عليه ثمنه، وقد فهمت الحيلة اليابانية؛ هذه الغرفة تحذير مبطن لهواة السرقة من الفنادق. ألا يأخذ أى نزيل شيئا، ومن أراد فعليه الشراء من هذه الغرفة. إن العقل اليابانى لا يهدأ، يفكر فى كل الأمور، حتى فى العيوب الإنسانية والشوارع الخلفية المظلمة لأى إنسان.

«هيروشيما جراند أوتيل» كان مبنى ضخمًا، ولكنه مبنى عادى لا يوجد فيه ما يميزه. وفى مقابله كان ثمة محل، لم أعرف اسمه، لأنه كان مدونًا باليابانية فقط، وعندما ذهبت إليه لم تكن كريمة معى؛ حتى أسألها عن الاسم. كان فى المحل مليون صنف وصنف، لا يوجد شىء لا تجده فيه، من الإبرة للصاروخ كما يقولون. أو كما قلنا نحن فى مصر فى مرحلة مضيئة من تاريخنا. وقد اشتريت كل ما أحتاجه لفترة وجودى فى هيروشيما.

أما فندق أيزو الموجود فى هاكونى، والمقابل لجبل فوجى فهو الفخامة نفسها، فيه درجة من الخصوصية تعطيك الانطباع كما لو كان بيتك تركته ثم عدت إليه مرة أخرى، حتى مطعمه تتصور وأنت جالس فيه أنك تجلس فى ركن من مطبخ بيتك وكنت أقول لنفسى إن كاوباتا أحب هذا الفندق من أجل هذه الخصوصية.

فى هيروشيما وأوزاكا لاحظت وجود أعداد كبيرة من الهنود وكان وجودهم ملفتا للنظر. ثم ذهبنا إلى قرية الزهور، وهى عبارة عن مكان خاص بالزهور. فيها حدائق عامة. أقامت واحدة إنجلترا وأخرى أمريكا وثالثة كندا. وفى النهاية هناك حديقة يابانية أجمل بكثير من كل الأخريات. وكان فى وسط هذه الحدائق مطعم تناولنا فيه طعام الغداء؛ لأننا قبل الوصول إلى الحدائق حاولنا تناول الغداء فى أحد المطاعم، ولكن ما أن كنا ندخل أى مطعم حتى نكتشف أنه محجوز بالكامل من أجل أفواج سياحية.

كان فى داخل الحدائق قطار قديم وأتوبيس عتيق بدورين ويبدو أن وجودهما يعكس نوعا من الحنين للماضى، وكان هناك ما يمكن أن نقول إنه الحاوى والناس حوله على شكل نصف دائرة، وإن كان الحاوى لم يمر عليهم فى النهاية طالبًا منهم الأموال نظير ما قام به من جهد، مثلما يفعل الحواة فى بلادنا.

ـ ستة وعشرون ـ

راقصه أيـزو

المسافة من هاكونى إلى أيزو ستون كيلو متراً، والطريق متعرج وجبلى وشديد الوعورة، ومما جعل احتمالات الخطر عالية أن المطر كان ما يزال مستمرا منذ الأمس لم ينقطع لحظةً واحدة. ولكن من المؤكد أن هذه البلاد لا تغرق فى «شبر مية» ولا حتى فى محيط كامل من المياه، ثمة حالة من الاستعداد الكامل لمواجهة فيضانات الأمطار على مدار ٣٦٥ يومًا فى السنة.

نحن الآن فى الطريق إلى أيزو. بلدة كاوباتا، والقطار الذى يذهب إليها اسمه: راقصة أيزو؛ وهو عنوان رواية قصيرة من أعماله المبكرة جدًا فأى خلود أكثر من هذا؟ وأى خلود فيه ابتكار وليس خلودا تقليديا مثل موضوعات الإنشاء فى المدارس؟ فى مدخل المدينة منطقة للعيون السخنة؛ ولذلك تكثر فيها الفنادق الصغيرة، ومياه العيون السخنة تستخدم هنا لمجرد الاستجمام وليس من أجل الاستشفاء. ويقولون هنا عن المياه الساخنة إن حاكما فى زمن سابق ضرب الأرض بعصا فى يده فخرجت منها المياه الساخنة التى يستحم فيها أهل البلاد ويحضرون لها خصيصًا من أجل ذلك. ألا ترى فى ذلك تشابها مع الريف المصرى وأساطيره الكثيرة؟!

فى أيزو متحف اسمه: متحف الأدب الحديث، وهو خاص بالأدب اليابانى كله، ومع هذا فهو موجود فى أيزو وليس فى العاصمة طوكيو، والمتحف ليس خاصا بالأدب فقط، ولكن فيه نباتات كانت موجودة فى هذا المكان، وحيوانات بقيت محنطة، وكتب عن المكان وطبيعته والأشجار الموجودة فى الناحية كلها، والطيور التى كانت هنا والبيض الذى فقسته فيه.

وثمة طائر معروف فى ريف اليابان اسمه: كوساجى وهو مثل أبى قردان فى الريف

المصرى، ويخدم الفلاح خدمات كثيرة من خلال سلوكه وعاداته اليومية. نماذج صناعية من جذوع الأشجار؛ لأنه من المستحيل قطع جذع شجرة فى هذه البلاد مهما كانت الأسباب حتى لو كان الهدف من وراء القطع هو نقل الجذع إلى متحف.

أسماك من الموجودة فى البحيرات الشهيرة، فى المنطقة كبارى، مراكب، أعمدة تلغراف، قطار قديم مصنوع من الخشب، مدخل بيت مصنوع من خشب الأرز وجزء من غابة فيها غزال وبعض الطيور، وعندما تشاهد كل هذا فأنت تسمع الأصوات التى يمكن أن تسمعها فى هذه الأماكن عادة. عش الغراب الذى يؤكل ينمو هنا على الخشب وهو من المواد التى تصدر للخارج، أوراق لقوانين قديمة مدونة متعلقة بحفظ الأخشاب أو التجارة فيها، أو تحريم قطعها.

وفى اليابان وزارة للغابات اسمها: وزارة الزراعة والغابات والثروة المائية. وثلث الغابات الطبيعية فى اليابان مملوكة للدولة؛ وذلك من أجل الحفاظ عليها، وثلث الغابات ملك للأفراد والشركات، والثلث الأخير تملكه المحليات. هنا جزء من المتحف عن تطور قطع الأخشاب والأدوات المستخدمة فى هذه العملية، وصور لبعض الأشجار الضخمة فى العالم الآن، شجرة من المكسيك وأخرى من أمريكا، وكل منطقة فى اليابان لها متحفها الخاص بها.

ركن خاص بكاتب يابانى توفى مؤخرا هو: «ياسوشى انو اى»، له رواية عن أيزو، وكان يحب طريق الحرير الذى كان يمتد من الصين إلى روما عبر دولة الفرس ثم الدول العربية، ثم مصر والبحر الأبيض المتوسط، إلى روما فى النهاية وله أعمال أدبية عن هذا الطريق. فى المعرض الخاص به الأشياء التى أحضرها معه من آسيا الوسطى: الطواقى، نماذج من البيوت الصينية، كتب كثيرة ومهمة عن تاريخ هذه المناطق، بعض طوابع البريد التى كان يستخدمها، تمثال كبير له، له علاقة بالمناطق التى زارها وكتب عنها.

متحف للكتب المكتوبة عن أيزو. ميشيما له رواية عن أيزو بعنوان «لعبة الحيوانات البرية» وتانى زاكى كاتب يابانى مشهور جدا له كتاب عن أيزو. ولا يوجد فى اليابان متحف خاص بكاتب بمفردة، ولكنها متاحف جماعية، خاصة بفن من الفنون، وثمة متاحف عن موضوعات أو أمكنة أو أزمنة، ولكن أفراد لا. هل هناك ما هو أكثر من ذلك قيمة فى إطار محاولة مواجهة الفردية الرهيبة التى تحول كل شخص إلى جزيرة معزولة عن الآخرين تماما؟

وقد دخل كاوباتا على الخط بسبب أن له رواية خلدت المكان، وهى قصة طويلة إن شئنا الدقة اسمها: راقصة أيزو. قرأتها بالعربية قبل سفرى إلى اليابان، ويبدو لى أنها نص مبكر للكاتب، لم تتجل فيها عناصر نبوغه وتفوقه وتقدمه. وقبل حضورى إلى اليابان، تصورت أن ميشيما هو كاتبها الأول، وإن كان كاوباتا هو الكاتب الأقرب إلى نفسى، ولكن ما اكتشفته بعد حضورى إلى هذه البلاد أنها لا تعرف أفعل تفضيل، هذا الذى ابتلينا به ونعانى من آثاره المدمرة فى كل مناحى الحياة. إن اليابان هى البلاد التى أعانتنى على أن أهتدى إلى كوارث أفعل تفضيل؛ لأنها البلد الوحيد ـ فى حدود معلوماتى ـ التى طردته خارجها.

وأصل إلى الركن الخاص بكاوباتا، لقد جئت إلى هنا بحثا عنه، وربما كنت سعيدا بالرحلة كلها لهذا السبب؛ فهو من أهم الكتاب الذين قرأت لهم عن هذه البلاد قبل حضورى إليها. فى أول الركن صورة له مع ممثلة مثلت فيلما عن روايته: «راقصة أيزو»، نسخة من الرواية بخط يده، صوره له وهو يتابع عملية تصوير فيلم راقصة أيزو. عندما طلبوا منه أن يرشح عملا من أعماله الأدبية لكى تتحول إلى السينما، كتب بخط يده أنه يرشح رواية راقصة أيزو، والخط ملىء بالشطب.

نسخ من أعمال كاوباتا، وهاهى المنضدة التى كان يستخدمها فى الكتابة، وخريطة للمكان الذى تدور فيه أحداث راقصة أيزو، والقطار الذى سنركبه للعودة إلى طوكيو اسمه: راقصة أيزو. كل سنة كان يحضر كاوباتا إلى هنا لكى يقضى بعض الوقت، صورة له مع بعض الأدباء اليابانيين، الحجرة التى كتب فيها راقصه أيزو نقل أثاثها إلى هنا، ومفروشة على شكل حجرة عابرة فى فندق. عندما ذهب لكى يتسلم جائزة نوبل، ذهب مرتديا الزى اليابانى التقليدى، الجائزة والشهادة الخاصة بها فى إطارات، صورة له وهو يلعب لعبة مثل الشطرنج، ولكنها لعبة يابانية.

انتحر سنة ١٩٧٢ لأسباب شخصية وليس من أجل فكرة سياسية معينة مثل ميشيما، وصورة لألفريد نوبل، وصورة لكاوباتا مع ميشيما يجلسان فى أحد الحانات. رسائل من كاوباتا إلى كتاب معاصرين له، مجلات عن كاوباتا، مؤلفاته، مجلة عن حياته، ومجلة أخرى أصدرت عددا خاصا عن وفاته. عندما نظرت إلى قائمة مؤلفاته أدركت أنها أكثر بكثير مما ترجم له إلى العربية.

تشغلنى حتى قبل سفرى إلى اليابان، فكرة انتحار الكتاب فى هذه البلاد. أسأل مدير

المتحف عن هذه القضية؛ يقول لى إن الانتحار يكون نتيجة التفكير العميق فى الحياة، ومن كثرة التفكير مع عدم الوصول إلى إجابات محددة، يقول إنه إنسان تافه؛ لأنه لم يتمكن من الوصول إلى أى نتيجة مع أنه أكل ما تنتجه الأرض، ولم يتعب مثل الآخرين، وبهذا فهو ينهى حياته، والذى ينهى حياته بهذه الطريقة يعتبر إنسانا أنانيا. الأديان كلها تحرم الانتحار، ولعدم وجود أديان سماوية فى اليابان فإن الإقبال على الانتحار يبدو ضخما.

خرجت من المتحف وأنا أسأل نفسى: هل يتمكن أدب أمة من تقديم تضاريس روحها؟ بتحديد أكثر: هل استطاع الأدب اليابانى أن يعكس روح حضارة هذه الأمة؟ إن الأمر يتطلب قدرا من التحديد: أى أدب؟ وفى أى فترة زمنية تمت كتابته؟!

سأحاول الإجابة على هذا السؤال بصورة محددة، فلن أخرج عن النتاج الروائى اليابانى، وبذلك لن أتطرق إلى المسرح والتراث الفكرى والقصة القصيرة فضلا عن الشعر، وفى النتاج الروائى اليابانى سأتوقف أمام: ياسانارى كاوباتا بصورة أساسية ويوكيو ميشيما بشكل هامشى، وطبعا فإن التوقف سيتم أمام النصوص المترجمة إلى العربية فقط.

وبعد عودتى من اليابان، فإن التصور لن يخرج فقط من رحم القراءة، ولكن أيضا من منطقة المشاهدة والمعايشة. قبل السفر كنت قد قرأت ما ترجم لكاوباتا وبعض ما ترجم لميشيما، ومن الطبيعى أننى لم أذهب إلى اليابان فى محاولة للبحث عن صورة اليابان التى بدت فى هذه الرواية أو تلك فى أرض الواقع، لأننى أدرك بعد المسافة بين الواقع كما هو، والواقع كما يتبدى لنا فى هذا النص الأدبى أو ذاك.

الروايات التى قرأتها كانت شديدة البعاد عن النهضة الصناعية الكبرى، لم ألمح أى أثر لها على الإطلاق، مع أن الرواية هى فن التفاصيل قبل أى اعتبار آخر، بل إن ميشيما يمكن للإنسان أن يلمح فى نتاجه ومواقفه حالة من العداء موجهة ضد هذا التقدم.

أما كاوباتا فقد حاول أن يواجه هذا التقدم بالجمال، على أنه قيمة يمكن أن تنقذ الإنسان من الضياع، لكن المؤكد أن زمن الآلة لا وجود له فى هذه النصوص، التى أعرف أنها مكتوبة قبل هذا الزمان بفترة كافية، ولكنى أعتقد أن هذا الزمان لم يخرج إلى الوجود فجأة، وكانت له مقدماته التى تعود إلى أزمنة مضت، خاصة وأننا عاصرنا انتحار الكاتبين ميشيما وكاوباتا.

بعد غياب الآلة نجد فى هذه الروايات مدنًا وأنهاراً وبحيرات وجبالا وغابات وموانئ وبحاراً ليس لها شاطئ آخر، وكل هذه المفردات هى عبارة عن المكان الذى يتكون منه اليابان فعلا. ولكن هذا المكان نفسه أضيفت له أبعاد أخرى، مثل الامتداد الرأسى إلى أعلى وإلى أسفل، والامتداد الأفقى لتحويل البحار المحيطة باليابان إلى يابسة.

الإنسان الذى قابلته فى هذه الروايات يعشق وحدته، من الصعب أن تجد فى أى نص يابانى جموعًا أو جماهير أو حشوداً ولكن أفراداً يجدون فى فرديتهم حالة من السعادة العذبة. وفى الواقع وجدت نفس الشىء، فاليابانى يتحرك فى خطوط مستقيمة بين نقطة بدء ونقطة ختام، ليس فى سيره أى متعرجات. والخطأ فى عمله أمر غير وارد. قالت فتاة يابانية إن الرجال فى بلادها لهم وجوه، ولكن الوجه يخلو من العينين، وأنا أقول: إن الفضول الطبيعى لا وجود له لدى هذه الشخصية.

حتى المقاهى فى اليابان؛ عبارة عن أماكن صغيرة، والمقاعد تصمم فى مواجهة الحوائط أو الزجاج ليس من أجل النظر إلى الشوارع، ولكن من يجلس يكون وجهه فى الحائط وظهره للشارع ولكن عادة الجلوس على المقاهى والثرثرة بلا نهاية لا وجود لها، فمن يذهب إلى مقهى أو مشرب يحصل على ما يريد وينصرف فورا.

فكرة الإقبال على الحياة وحالة الشبق بمباهجها، فكرة غائبة عن البطل اليابانى فى النصوص الروائية التى قرأتها، وخلال تجولى فى ربوع اليابان ووقوفى مطولا أمام بوذا، وما أعرفه قبل السفر عن الشنتو وكونفشيوس، جعلنى أتفهم بعض هموم اليابان، فالجيل الجديد مضرب عن الزواج سواء كانوا رجالا أو نساء، وبالتالى فإن معدل المواليد فى اليابان فى انخفاض مستمر، واليابانيون الذين تعدوا المائة من العمر يزحفون؛ لا لكى يشكلوا أغلبية ولكنهم سيصبحون ربع السكان فى نهاية هذا القرن.

تراجيديا الفرد والمجموع تبدو شديدة الوضوح بين النص الروائى والواقع المعاش، فى البيت حالة من تقديس الأسرة والعائلة، ولن أضيف جديدا عند الحديث عن طقوس الأدب الاجتماعى اليابانى غير العادية.

فى العمل هناك انتماء حقيقى للشركة التى يعمل الإنسان فيها، لدرجة أن اسمها يسبق اسمه. وبالنسبة للوظيفة وسلسلة الرؤساء، فهناك خضوع وليس إذعان واحترام وليس فرض من الكبير على الصغير، هذا وضع وجدته فى كل مكان ذهبت إليه، وقرأته فى كل صفحة وقعت عليها عيناى. كنت أنظر إلى الانحناءات التى تجعل الجبهة تقترب من

الأرض فى بعض الأحيان، وأحاول النفاذ إلى ما وراء هذه المظاهر، فأجد حيرة حقيقية؛ لأن الإنجاز الضخم لم يستطع أن يدفئ روح الإنسان اليابانى.

فى أداب العصور الوسطى، وفى الكتابات الباقية عن اليابان فى القرون القليلة السابقة، نجد أن البيت اليابانى يحتل المشهد كله، الاهتمام به يسبق أى اهتمام آخر وطقوسه اليومية لها قداسة من نوع خاص. ولكن فى العصر الحديث، سبق المصنع البيت، مجد اليابان الآن تصنعه شركات، أما البيت فالحديث عنه حكاية أخرى لا ترى الإنسان اليابانى سوى فى الشارع أو المصنع، وأعتقد أن الاهتمام بالقطار فى اليابان يفوق الاهتمام بالبيت. وبالمناسبة رغم أن اليابان لا تعدّ من البلدان المترامية الأطراف، إلا أن القطار له مكان شديد الأهمية فى حياة الناس.

كل إنسان يعتبر أن البيت هو قلعته الحصينة، آخر حصون حياته؛ ولذلك من النادر أن يدعوك لزيارة البيت؛ يعتبرونه مسألة شديدة الخصوصية، ويبدو أن البيوت ضاقت على ساكنيها؛ لأن الفنادق هناك جزء من كل قرية أو مدينة صغيرة كانت أو كبيرة. فى متحف كاوباتا حجرات فى فنادق كثيرة، أقام فيها وكتب عنها وخلدها فى أعماله الأدبية الرائعة. ولكن لا يوجد فى المتحف جزء من بيت كان يسكنه فى حياته.

المأساة جزء جوهرى من حياة اليابانى، هكذا قالت لى الروايات، وبعد سفرى إلى اليابان وخلاله كنت أحدّق فى الوجوه، أشم رائحة الدفء الإنسانى فى كل ما أطل عليه، وكنت أقول لنفسى إن الذين تحدثوا عن المآسى لم يعاصروا زمن النهضة الصناعية الكبرى، إنهم من مخلفات الماضى الذى مضى ولن يعود أبدا.

ولكن حتى فى زمان النهضة التى صبغت حياة الإنسان اليابانى بقدر كبير من الآلية والبرمجة، جعلت العادة استثناء نادرا فى حياة هذا اليابانى المحاط من كل جانب بإنجازات نادرة.

من سيقرأ هذا الكلام سيقول إننى تأثرت بالبلاد التى سافرت إليها، وإن قراءة الروايات اليابانية الكئيبة لحست مخى، وإننى عندما لم أجد فى الورد عيبا صحت قائلا: يا أحمر الخدين يا يابان. من الجائز أن من يقول هذا الكلام عنده بعض الحق والصواب، ومن الجائز أيضا أن أكون على خطأ؛ لأننى أتصور أن المأساة جزء من نسيج التجربة الإنسانية فى كل زمان ومكان. فى اليوم الأخير قبل عودتى من اليابان، عرفت أنه ليس الأدباء وحدهم الذين ينتحرون، ثمة نسبة انتحار عالية فى المجتمع اليابانى كله.

وبعض الفلاسفة قالوا: إن كان استمرار الحياة رفض دائم فإن الانتحار رفض عابر.

ـ سبعة وعشرون ـ

زيارة جريدة توزع ٢٠ مليون نسخة

اليوم الثالث عشر:

الاثنين ٢٢ من نوفمبر ١٩٩٣

كان اللقاء مع كريمة فى الحادية عشرة صباحًا فى الفندق، كان هذا يومى قبل الأخير فى اليابان. وهذا يعنى أنه سيعد أطول يوم لى فى اليابان. كان البرنامج المعد لليوم عبارة عن برنامجين، أولهما للنهار والثانى لليل، وفى كل لحظة كانت ثمة إضافات. وأمور لابد من القيام بها، وهكذا فإننى عرفت فقط بداية هذا اليوم، أما ختامه فقد كان حكاية أخرى.

أول ما كان علىّ القيام به فى هذا الصباح، كان زيارة صحيفة أساهى اليابانية، وهى الجريدة الأولى فى اليابان كلها، والأمر الثانى كان لقاء مع روائى يابانى، واللقاء جرى فى مؤسسة اليابان. ويبدو أنه من المستحيل أن أقابله فى بيته أو أن يحضر هو إلىّ فى الفندق. أما الذهاب إلى مكان عام فلم يفكر فيه أحد.

أساهى فى مكان قريب من الفندق، ومع هذا تحركنا قبل الموعد بحوالى ربع ساعة؛ لأن هناك بعض الإصلاحات التى تتم فى الشارع المواجه لأساهى؛ ولذلك فإن المرور مرتبك إلى حد ما فى المنطقة كلها. سألت كريمة: وكيف عرفت ما يجرى فى الشوارع حول أساهى؟ هل مرت من هناك مثلا لكى تستطلع الشارع؟ حاولت أن أوهم نفسى أن أهميتى عند اليابانيين يمكن أن تصل إلى هذا الحد.

قالت لى إن التليفزيون اليابانى يعلن عن هذه الأمور بشكل دورى، وهذا الإعلان تقوم به الشركة المنفذة للإصلاحات كجزء جوهرى من العمل الذى تقوم به، والإعلان يساوى فى أهميته الإنجاز، وهذا يتم بالنسبة لجميع الخدمات التى تقدم للناس، ويعلن عنها أكثر من مرة فى اليوم الواحد.

عندما وصلنا إلى مكان العمل فى الشارع، والذى عملنا له ألف حساب، أصابتنى الدهشة التامة، تصورت أن بطن الشارع سيكون مفتوحًا، وكل شىء متوقفا، ولكن ما وجدته على الطبيعة أنه فى مواجهة أساهى كانت هناك كراكة كبيرة، وهكذا عرفت أنهم لا يفتحون الأرض من أجل أى إصلاح. ثمة آلات توضع فوق سطح الأرض، يمكنك أن ترى منها العديد والمكان الذى توجد فيه وتحدده دون الحاجة إلى أى حفر.

سألت عن عمليات الإصلاح، قيل لى إنها تتم أيضا بدون فتح الأرض، وإن كنت قد صدقت إمكانية تحديد الخلل دون فتح باطن الأرض، فحتى الآن ـ وبعد عودتى من اليابان ـ فإن عقلى قد رفض أن يصدق الأمر الثانى؛ أقصد إصلاح العطل دون فتح الأرض. إن هذا التقدم العلمى الذى وصلت إليه اليابان له أضراره، إنه يلغى الإنسان، يشطب على إنسانيته ودوره وإمكانياته، وأعتقد أن هذه الإمكانيات إن لم تستخدم يصبها الضمور ولا يصبح لها دور بعد فترة من الوقت.

عندما حكيت هذه الواقعة لسباك مصرى، جاء يصلح دورة المياه فى بيتى، وكان لابد وأن يكسر كثيراً من البلاط والقيشانى حتى يتوصل إلى معرفة العيب، وقضى ثلاثة أيام فى الهدم والبناء لمجرد معرفة مكان العيب. الغريب أن السباك قال إنه يعرف أن ذلك موجود فى اليابان ولكن طريقتنا القديمة أفضل مما يفعله اليابانيون، ولو كانت عنده الأدوات اليابانية ما استخدمهَا، ويفضل أن يمارس العمل بالطريقة التى يعمل بها منذ أن شرب الصنعة من والده، وحتى ينقل خبرته إلى ابنه.

أساهى هى الجريدة الأولى فى اليابان توزع كل صباح ٢٠ مليون نسخة، وقبل أن تفتح فمك من الدهشة وعدم التصديق، يقولون لك إن هذا الرقم مازال يشكل سدس اليابانيين الذين يصل عددهم إلى ١٢٠ مليون نسمة. هذه المقارنة من حقهم وحدهم، مع ارتفاع نسبة التعليم فى بلادهم وعدم وجود الأمية، ليس فى هذه البلاد أمى واحد، وكذلك المستوى الاقتصادى المرتفع للناس فى هذه البلاد.

تليها مباشرة جريدة «ميومورى»، وهى جريدة شعبية، وقد شعرت بالزهو والسعادة والفخار عندما عرفت أن الأستاذ محمد حسنين هيكل يكتب مقالا فى الصفحة الأولى منها كل ١٥ يوما؛ أى مرتين فى الشهر، وأن نفس هذا المقال ينشر فى نفس اليوم فى جريدة أمريكية.

كنت أعرف قبل سفرى إلى اليابان أن الأستاذ هيكل يكتب مقالا بصورة نصف شهرية

فى جريدة يابانية، وكنت طرفا فى مفاوضات ترجمة المقال ونشره فى إحدى المطبوعات العربية، وقد اشترط الأستاذ هيكل أن تتم الترجمة بمعرفته، وقد جئت إلى أساهى باعتبارها هذه الجريدة، ولو عرفت أن هناك جريدة غيرها، هى «ميوموري» هى التى تنشر مقالات الأستاذ لذهبت إليها بدلا من هذه الجريدة.

مدخل الجريدة يختلف عن مداخل الصحف عندنا، حيث لا يوجد أحد يقف هنا أو هناك، وكذلك لا توجد حراسة أمنية للمكان تحميه من الناس الذين من المفروض أن الصحيفة تصدر من أجلهم. لا يوجد طالبى الحاجات، لا زحام؛ لأن الصحافة فى هذه البلاد ليست مؤسسة خيرية، ولا تقدم خدمات لأحد؛ لأن هذه الخدمات إنما تتم على حساب مصداقية الجريدة، وقدرتها على القيام بدورها، حتى وإن سعت الجريدة من أجل الحصول على الأموال من فاعلى الخير والأغنياء، فإن هذا لابد وأن ينشأ عن موقف فكرى للجريدة يجعلها فى أحضان الأغنياء، حتى لو كان ذلك من أجل الفقراء والمحتاجين.

صحافة مهمتها الأساسية هى الوصول إلى الحقيقة نيابة عن الناس، وأى دور آخر يمنعها من القيام بالدور الأساسى لها لا مبرر له. لا أحب أن أبدو قاسيا، ربما لا توجد فى اليابان تلك الحالات الصارخة من المحتاجين والمساكين والغلابة، وقد يكون هذا هو السبب فى أننى لم أجد فى مدخل الجريدة شخصا واحدًا يقف، لا حارسا ولا طالبًا لمصلحة أو حاجة.

أساهى فى اللغة اليابانية تعنى الشمس المشرقة؛ وقد ذهبت إليها بناء على موعد مسبق، وكان فى انتظارى مسئول العلاقات العامة فى الجريدة، وبمجرد أن صافحنى وتم التعارف بيننا، حتى سلم لنا بعض المطبوعات عن أساهى، ومن ضمنها ملصق جميل دعاية للجريدة. غريب أمر هؤلاء القوم، جريدة توزع ٢٠ مليون نسخة يوميا، ومع هذا تبدو الجريدة مهتمة بعمل دعاية لنفسها من أجل اجتذاب قراء جدد، إن هذا الرقم لو تحقق لأى جريدة عندنا لكان بداية النهاية بالنسبة لها؛ إن حجم الغرور يقضى على أى نجاح فى بلادنا، إن القمة هى اللحظة الأولى نحو المنحدر عندنا.

هل نعرف أن هذا الرقم الذى توزعه جريدة يابانية واحدة يساوى أكثر من كل ما توزعه الصحف والمجلات مجتمعه فى بلادنا؟ مع أن عددنا كعرب يصل إلى أكثر من ٢٥٠ مليون نسمة، وفى مصر وحدها أكثر من ٦٠ مليون نسمة، ولكن يبدو لى أننا الشعب الوحيد الذى ينطبق عليه المثل الذى يقول: العدد فى الليمون.

دخلنا إلى صالة متوسطة، يبدو من شكلها أنها مكان عروض سينمائية، وهذا ما حدث بالفعل، لأننا جلسنا فى الصفوف الأمامية، وتم إظلام المكان لكى نشاهد فيلما سينمائيا عن أساهى، والفيلم لا يشكل دعاية بقدر ما يحاول تقديم مفردات العمل فى الجريدة، ابتداء من الحدث الذى يقع فى أرض الواقع ثم الكتابة عنه، حتى وصول الجريدة إلى القارئ.

يبدأ الفيلم بطائرة عليها شعار الجريدة، وأعرف أن أساهى تملك طائرة خاصة لاتستخدم سوى فى التحرير فقط، عندما يقع حدث كبير فى أى مكان من العالم تتحرك هذه الطائرة من أجل التغطيه الصحفية، وكذلك الأمور المهمة التى تقع فى اليابان نفسها، والطائرة مصممة خصيصا من أجل هذه المهام الصحفية فقط. فى الطائرة مقاعد محدودة من أجل بعثة صحفية، وكل الأدوات والآلات التى تسهل عمل الصحفى عادة، فى الطائرة فاكس وتليفون وكمبيوتر وغرفه تحميض صور.

وكل ما فى الطائرة مربوط أو متصل مباشرة مع سكرتارية التحرير فى قلب الجريدة؛ بمعنى أن المحرر عندما يبدأ فى الكتابة على الكمبيوتر فى الطائرة، فإن ما يكتبه يصل فى نفس الوقت واللحظة إلى رئيس التحرير وسكرتاريته، والمطبعة تصل إليها فى نفس البرهة نسخة من الرسالة الموجهة إلى رئيس التحرير.

نفس الأمر يحدث بالنسبة للصور فهناك غرفة لتحميض الصور، وما أن يتم الانتهاء من تحميضها على الطائرة، حتى ترسل فورا إلى مركز الصور الرئيسى فى الجريدة، والتى نسميها نحن فى صحفنا العربية: «الغرفة المظلمة»، والتعبير نفسه أكبر دليل على التخلف الذى نعانى منه مهنيا وإنسانيا.

سيارات التحرير مصممة كنسخة أخرى من الطائرة، فالسيارة ميكروباص، فيها أماكن لجلوس المحرر والمصور، ولكن الجزء الخلفى من السيارة مقسوم نصفين، نصف للمحرر فيه كمبيوتر مركب على فاكس يصل إلى الجريدة، والنصف الآخر لتحميض الصور، والكل يرسل فورا إلى الجريدة. إن هذا يؤكد أن المعركة الجوهرية للصحافة اليابانية هى مع الوقت، لقد أدركوا أن الإذاعة والتليفزيون يسبقان الجريدة بسبب تعقيدات دورة الطباعة، وهم يحاولون اختصار الفارق فى الوقت بقدر الإمكان.

هذا معناه أنهم فهموا وأدركوا أن الزمن القادم هو زمن القنوات الفضائية والأقمار الصناعية، وهذا سيجعل من الجريدة وسيله شديدة البطء، تتحرك بسرعة السلحفاة،

وهذا قد يحكم عليها بالموت، ستتحول إلى صحافة رأى ومقالات، وهكذا تعود إلى النشأة الأولى، ولكن فى زمن التليفزيون والاتصالات التى هى بسرعة البرق إن لم تكن أسرع. قبل أن يصلوا إلى هذا الزمان، ويعانوا من مشاكله وهمومه، حاولوا القفز والوصول إليه، إن اقتحام المشاكل قبل أن تصل إلينا أفضل ألف مرة من الانتظار.

نحن نتعامل مع الجريدة على أنها الطبخة البايتة، وهم يحاولون أن يجعلوها فى حالة منافسة مع الصحافة المسموعة والمرئية، وكل هذه المنجزات العلمية المهولة تدفعنى الأمانة إلى القول أننى شاهدتها فى الفيلم، ولكننى لم أرها فى أرض الواقع. أتابع مع الفيلم خطوات العمل، من رئيس التحرير إلى سكرتارية التحرير، إلى صالة التحرير، إلى المطبعة، وكل هذا يجرى باستخدام الآلات والأدوات، والبطل فيه هو الكمبيوتر أولا وأخيرا.

ونصل إلى المطبعة وخروج الجريدة، وعندما يتم الانتهاء من الطباعة، يتم توزيع الجريدة حسب خريطة اشتراكاتها، وتخرج بصورة آلية إلى العناوين التى عليها الاشتراكات، وتبدأ على الفور عملية التوزيع التى تقوم بها سيارات ودراجات يقودها شبان صغار هم على الأغلب طلبة يقومون بأعمال إضافية فى أوقات الدراسة، وكان مشهد وصول الجريدة إلى بيوت المشتركين من المشاهد التى بدأ بها الفيلم.

بعدها جاءت مشاهد الطائرة مباشرة، والتركيز على حكاية الاشتراكات مهم، فقد عرفت أن الكمية التى توزع من الجريدة يوميا وقدرها ٢٠ مليون نسخة، منها ١٦ مليون نسخة توزع عن طريق الاشتراكات الثابتة، أى حوالى ٨٠٪ من الكمية، والنسبة الضئيلة الباقية هى التى تباع عن طريق باعة الصحف.

والشاب الذى يصل بالجريدة إلى البيت، لا يرميها فى شرفه البيت؛ لأن كل بيت فى اليابان فيه صندوق مثبت فى الباب خاص بالصحف والمجلات والكتب التى تصل بنظام الاشتراكات، وهذا الصندوق غير صندوق البريد العادى. والجريدة تصل إلى المشترك خلال ساعتين، تبدأ من الثانية بعد منتصف الليل وتنتهى عند الرابعة فجرا، ولا يمكن أن تتأخر عن ذلك أبدا، وهذا يدفع الناس إلى الاشتراك بدلا من الشراء اليومى.

إن دراسة نظام الاشتراكات بهذه الطريقة يمكن أن يحل كثيرا من مشاكل توزيع الصحف المصرية؛ لأن الأزمة الحقيقية للصحف والمطبوعات المصرية، هى أزمة توزيع قبل أى اعتبار آخر، ولكن يبدو لى أن القضية ليست تقدما علميا ولا إمكانيات، بقدر ماهى

قضية نظام عام للعملية كلها. عندنا يبدو الأمر مختلفا؛ لأن كل جريدة تعتبر أن أرقام التوزيع هى من الأسرار العليا التى لا يجب أن تعرف، بل إن أى جريدة تتعامل مع أمر طبع أى عدد والكمية المطبوعة منها باعتباره سرا عسكريا؛ فما بالك بالموزع من العدد؟ إن الرقم لا يعرفه سوى عدد شديد المحدودية من أهل الثقة فى هذه الجريدة أو تلك، وبالتالى من المستحيل أن نعرف نسبة التوزيع عن طريق الاشتراكات ونسبة البيع العادى لأى صحيفة أو مطبوعة.

بعد انتهاء عرض الفيلم الذى استغرق نصف ساعة، وكانت فيه درجة عالية من التألق الفنى، ولم يكن مجرد شريط دعاية من النوع الذى ننفق عليه الأموال الطائلة ولا يشاهده أحد، كانت فى الفيلم حالة تعليمية، مع مراعاة الشروط الإبداعية للفيلم التسجيلى بكل دقة.

بدأنا الجولة فى أرجاء أساهى، كان معنا مدير العلاقات العامة يجيب على تساؤلاتنا، ويشرح لنا حال الجريدة. وأساهى جريدة خاصة، وكل الصحافة فى اليابان يملكها القطاع الخاص. لا يوجد أى جهاز إعلامى تابع للدولة اليابانية، ورئيس التحرير يتم اختياره بالانتخاب الحر المباشر من بين المحررين، ويقضى فى مكانه مدة لا تزيد بأى حال من الأحوال عن ثلاث سنوات.

ورئيس التحرير هو الذى يختار بعد ذلك معاونيه بنفسه وتنتهى مدتهم مع انتهاء عمله كرئيس للتحرير. وصلنا إلى صالة التحرير، والمنظر التقليدى لصالة التحرير فى أى جريدة يعنى وجود مكاتب وكراس وأكوام من الورق ودواليب مفتوحة، تطل منها الدوسيهات والسجلات التى تعلوها الأوراق التى تركها الإهمال ومرور الزمان، والحائط فى صالة التحرير عليه عبارات مكتوبة وصور معلقة ومانشتات يفخر بها بعض المحررين، وأغلفة كانت ناجحة.

عندما نظرت لأول مرة إلى الصالة، فوجئت بآلات كمبيوتر لا حصر لها، كل مكتب عليه جهاز كمبيوتر والأجهزة هى التى تبدو من بعيد، لدرجة أنك لا ترى البشر إلا بصعوبة بالغة، يبدو أن الكمبيوتر أصبح أهم من المحرر الذى يستخدمه، وإجادة استخدامه بصورة دقيقة أهم مسوغات التعيين فى العمل الصحفى. صحفى بدون كمبيوتر يعنى أنه ليس صحفيا حتى إشعار آخر.

والصالة رغم ازدحامها الشديد تبدو رحبه ومتسعه، ومع ذلك فإنه من المستحيل أن

يستقبل المحرر ضيفا هنا، كنت أرغب فى الدخول إلى الصالة والحديث مع المحررين، ولكن حال دون ذلك أنه من المستحيل دخول القاعة لسبب بسيط أنه لامكان من أجل ذلك، أيضا لا تدخل مشروبات أو مأكولات والتدخين ممنوع أيضا فى الصالة.

ومن يريد أن يستقبل ضيفا ثمة مكان مخصص لذلك، ومن يرغب فى تناول الطعام والشراب وخلافه هناك مطعم متقدم فى الجريدة، بل وهناك دعم يقدم لهذا المطعم والكافتيريا حتى يقدم خدمة جيدة وممتازة وبأسعار رخيصة ومعقولة.

سألت نفسى: هل السبب فى هذا الانضباط وجود ضيف مثلى أم أن هذا هو طابع الحياة هنا؟ تذكرت أننى فى اليابان، وبالتالى لا جديد ولا غريب فى الأمر. إن الفرد هنا مستعد أن ينسى فرديته من أجل المجموع، وهذا الأدب اليابانى تعبير عن إنكار الذات أكثر من كونه إعلانا عن خضوع ورضوخ.

سألتهم عن الشئون العربية فى الجريدة، قالوا لى إن لهم مراسلين فى العواصم العربية الرئيسية، وإنهم مشتركون فى كل وكالات الأنباء العربية، والوكالات العالمية الأخرى تغطى شئون العالم العربى كجزء من اهتمامها بما يجرى فى العالم، ولكن أخبار الوطن العربى تنشر فى أضيق نطاق لبعده ولعدم تماسه مع الوجدان اليابانى.

قالوا لى إن المرة الوحيدة فى السنوات الأخيرة التى خصصت فيها أساهى صفحة كاملة عن أمر عربى، كانت عن نجيب محفوظ عندما حصل على نوبل، وهذا الأمر من الحوادث النادرة التكرار، وأيضا كانت هناك نصف صفحة عن رواية كاتبه مصرية جديدة اسمها «أهداف سويف» والرواية عنوانها: «فى عين الشمس».

وبعيدا عن الرحلات والحوادث الكبيرة، فإن نظام العمل يقوم على المفردات التى نجدها عندنا؛ أقسام واجتماعات ومسئوليات موزعة، لكن الجديد فى الأمر هنا أن المحرر لا يسلم موضوعه مكتوبا على أوراق، ولكنه يكتبه على الكمبيوتر، والشبكة توصله فورا إلى المطبعة والمسئول عن التحرير، ويتم التوضيب بواسطة الكمبيوتر، بل إن الاختصار يقوم به الكمبيوتر نفسه.

إنها صحافة الكمبيوتر.

ـ ثمانية وعشرون ـ

لابد من خروج اليابان من هذه الحالة، ولكن إلى أين؟!

يا سوهيرو تاكى وتشى روائى يابانى معاصر، ومؤسسة اليابان هى التى اختارته لى لكى أقابله، كنت قبل سفرى إلى اليابان ـ وأنا فى القاهرة ـ قد طلبت لقاء روائى يابانى شهير ـ من الأحياء ـ وأنا معذور فى هذا؛ فكل الذين قرأت لهم من روائيى اليابان الذين خطفوا وجدانى راحلون عن هذا العالم، أما الأحياء فلا أعرف عنهم أى شىء. ويبدو أنهم اختاروه لى بسبب اهتمامه الخاص بالأدب العربى المعاصر، وكتابته مقدمات لبعض الأعمال العربية المترجمة إلى اليابانية والصادرة فى اليابان.

وإن كنت قد اكتشفت بعد عودتى من اليابان بسنة كاملة أن هناك روائيا مهما حصل على نوبل هو «كنزوبورى أويه»، وعندما عرفت أن له اهتمامات فرنسية قلت لابد وأن الكمبيوتر اليابانى لم يطرح اسمه لروائى عربى مثلى؛ لأن التخصص كفيل بتقبل العديد من المبادرات الفردية فى هذه البلاد العجيبة.

جرى اللقاء فى مؤسسة اليابان، فى صالون صغير، وقد سعدت بالذهاب إلى المؤسسة لكى أرد مظلة حصلت عليها سلفة فى يوم حضورى الأول إلى هنا؛ لأن الدنيا كانت تمطر يومها. قلت فلأرد العهدة، ربما كانوا قد أثبتوها علىّ فى أوراقهم الرسمية، أو الكمبيوتر، من يدرى؟!

ويا سوهيرو له اهتمام خاص بأدب العالم الثالث، وقد قرأ رواية الأرض لعبد الرحمن الشرقاوى بعد ترجمتها إلى اليابانية، وقد خلقت عنده حالة من الاهتمام بالأدب العربى من يومها، قال لى على سبيل المجاملة، إنه سيقرأ أعمالى الروائية، سواء المترجمة إلى

اليـابانيـة أو الإنجليـزية لأنـهـا عن الريف ، قـال لى : عـندك رواية عن الحـرب؟ أى حـرب كانت ؛ الثالثة؟ الرابعة؟ كانت فى عهد من؟ عبدالناصر أم السادات؟!

وبدأت أسأله :

ـ هل يمكن أن تقدم نفسك للمثقف العربى والقارئ العربى؟!

ـ أنا كـاتب روائى . أكتب الروايات الطويلة ، ومن المهتـمين بالعـالم الثـالث ، والأدب العربى بشكل خاص ، وقد قدمت هذا الأدب إلى القراء اليابانيين ، وعملت فى هذا المجال منذ ٣٠ سنة مضت . أنا من المؤمنين بضرورة تقوية الاتصال بين الأدبين العربى والياباني بصورة مستمرة وبشكل مباشر . من خلال الأدب العربى عرفت أن العرب هم الذين أوصلوا الإنجيل إلى العالم الغربى والمسيحية إلى أوروبا ، لابد وأن لدى العرب فخر بذلك .

والآن أريد أن يعرف القراء العرب الأدب اليابانى ، المشكلة أنهم فى العالم العربى لا يعرفون سوى ميشيما وكاوباتا والأدب اليابانى ليس هذين الكاتبين فقط ، هناك غيرهم كثيرون ، ولابد من إجراء اتصال مباشر بين الأدبين .

منذ سنوات كتبت مقالة عن عبدالرحمن الشرقاوى ، وأعدت قراءة روايته الأرض أمس ليلا ، ويمكننى القول إننى تأثرت بالأدب العربى وإنه ساهم فى تكوينى .

سألنى :

ـ لابد وأنك تعرف الأستاذ نوتاهارا؟!

أجبته :

ـ نعم أعرفه منذ عشرين سنة مضت .

قال :

ـ نوتاهارا صديقى منذ سنة ١٩٦٦ ، كان هناك مؤتمر لأدباء وكتاب آسيا وإفريقيا ، وذهبت إلى الوطن العربى ، من أجل الإعداد لهذا المؤتمر ، وقد عرفت يومها أن الأدب العربى غير مترجم إلى اليابانية . من يومها كونت لجنة لترجمة الأدب العربى ، وكان نوتاهارا من الذين ساهموا فى هذه اللجنة منذ لحظاتها الأولى ، وقد سافر إلى قرية عبدالرحمن الشرقاوى من أجل ترجمة روايته الأرض إلى اليابانية .

ـ هذه اللجنة ماذا أنجزت؟!

ـ بالرغم من أن أعضاء هذه اللجنة يبدون مشغولين الآن، إلا أن الاتصالات مستمرة فيما بينهم. نوتاهارا أكثر الذين استمروا فى إخلاصهم للأدب العربى، وقد ترجم توفيق الحكيم بعد الشرقاوى، وقد ذهبت معه إلى بغداد لحضور مهرجان المربد الشعرى، وكانت فرصة من أجل متابعة الأدب العربى هناك.

ـ ما الأعمال الأدبية التى ترجمتها اللجنة؟!

ـ معى قائمة بالأعمال المترجمة من العربية إلى اليابانية، وقد كانت هذه المحاولة هى الأولى فى اليابان، وقد بدأت منذ ١٥ سنة مضت، ترجمنا شجرة البؤس لطه حسين، وعصفور من الشرق لتوفيق الحكيم، والأرض لعبدالرحمن الشرقاوى، وبين القصرين لنجيب محفوظ، وعودة الطائر إلى البحر لحليم بركات، ورجال فى الشمس لغسان كنفانى، وموسم الهجرة إلى الشمال للطيب صالح، وصيف إفريقى، والعصا والأفيون لمحمد ديب، والحرام ليوسف إدريس، وقد جاء إلى اليابان مع صدور الترجمة، وترجمنا لإدوار الخراط قصه قصيرة عن شخص يصطاد حماما فى الكنيسة.

ـ هل هذه الترجمات جيدة؟!

ـ بعض الترجمات تمت بمعرفة الشباب؛ لأنه كانت لدينا مشكلة أن اللغات الأجنبية التى كانت تدرس فى جامعاتنا كانت الإنجليزية والفرنسية، لم يكن عندنا من يدرس أو يجيد العربية، وكانت مشكلة. نوتاهارا كان هو الأول الذى ترجم الأدب العربى إلى اليابانية من العربية مباشرة وليس عبر لغة ثالثة. وقد أحدث الأدب العربى المترجم إلى اليابانية عندى وعند الذين قرءوه انطباعا قويا وإيجابيا. أنا أديب يابانى أكتب روايات طويلة. لا أجيد العربية، وقد شاركت زملائى المترجمين نقل الأدب العربى إلى اليابانية.

ـ كيف قوبل الأدب العربى عندكم تحديدا؟!

ـ الانطباع القوى الذى أحدثه الأدب العربى عندنا أن فيه عناصر ليست موجودة فى الأدب الأوروبى، كذلك فإن الأدب العربى ينظر إلى حياة الإنسان من زاوية الحياة والموت، وهذا غير موجود فى أوروبا.

هناك عنصر آخر أن الأدب العربى يتضمن وعيا اجتماعيا بالمجتمعات العربية، وبالرغم من أن هذا التكوين موجود فى اليابان، إلا أن التطور الصناعى فى بلادنا يقابل

التطور الزراعى وحياة البدو عندكم ، وهذا خلق قناة اتصال بين أدبنا وأدبكم . إن هذا النظام الاجتماعى المتشابه بيننا وبينكم سهل علينا قراءة أدبكم .

ـ كيف ترى اليابان الجديد؟!

ـ اليابان المتواجد حاليا . أم الذى يجب أن يكون عليه؟!

ـ اليابان الحلم؟!

ـ نحن فى عصر ما بعد التحديث ، وبالرغم من أن اليابان دولة آسيوية ، إلا أن التصنيع خلق عندنا مجتمعا استهلاكيا ، وهذا خلق فراغا سياسيا فى حياة الإنسان ، ومحاولة غزوه ثقافيا من الخارج ، تتواكب معها فى نفس الوقت محاولة هدم البيئة الصناعية . لابد من خروج اليابان من هذه الحالة ، حتى توجد قيم مهمة مثل التى نجدها فى الأدب المصرى ، هذا مع العلم أنه على الرغم من التقدم التكنولوجى غير العادى ، فإن التفرقة مازالت قائمة بين الرجال والنساء .

ـ وهموم اليابانى الآن؟!

ـ بالنسبة للمشكلات العامة هناك مشاكل قصيرة المدى مثل الكساد الذى يعد من أول هموم اليابانيين ، وكذلك زيادة أعداد المتقدمين فى السن ، وهذا يجعل اليابانيين يشعرون بالخوف من الشيخوخة ، كذلك فإن العدوان على البيئة الطبيعية يشكل أحدى الهموم . وذلك بالرغم من وجود قانون يمنع الاقتراب من الحدائق والنباتات والغابات ، وهناك أيضا قانون يساوى بين الرجال والنساء فى العمل ، ولكن المرأة تواجه العديد من المشاكل عندما تحاول الاستقلال بحياتها .

بالنسبة لمكانة اليابان الدولية بعد الحرب الباردة ، هناك صعوبة فى عثور اليابان على مكانة لنفسها أو الطريق إلى هذه المكانة ، إن السؤال الآن : هل تعود اليابان إلى دولة لها دور كبير فى عالم اليوم ، أم ينصب الاهتمام على الداخل اليابانى بصورة تامة؟

ـ ودور الكاتب اليابانى الآن؟!

ـ فى اليابان قيما إنسانية رفيعة لابد من التمسك بها . المشكلة أنها تضمحل وتتراجع وعلى الكاتب اليابانى أن يقدم هذه القيم واضحة ومحددة أمام القراء .

لقد دخلت الثقافة الغربية فى عقر دارنا . وأجهزتها هى التى تمسك بعقول الناس ، إنها

أجهزة إعلام تجارية، والبلد كلها تدخل على الثقافة الترفيهية، وأنا لا أقول إنها خطأ أو حرام، ولكن الكتاب الذين يقدمونها لقرائهم من اليابانيين عليهم فى نفس الوقت التمسك بالقيم اليابانية التى توشك أن تضيع منا.

ـ لقد سمعت هنا فى اليابان أكثر من شهادة عن ميشيما وانتحاره. ما شهادتك؟!

ـ القيم اليابانية التى أقصدها، وأتحدث مطولا عن ضرورة التمسك بها، هى عكس القيم التى انتحر ميشيما من أجلها. إن موته ولا أقول انتحاره يعتبر عملا سلبيا؛ لأنه لم يجد طريقة لكى يحرر نفسه بها من اليابان القديمة سوى أن يموت. عندما بحث عن القيم لم يجدها سوى فى اليابان القديم، وعندما بحث عن هذه اليابان ولم يجدها، بل وجد نفسه محاصراً بكل ما هو ضد القيم التى يبحث عنها، انتحر أقصد مات.

هذه القيم التى بحث عنها ميشيما ليست هى التى أقصدها بالتحديد، كان يبحث عن مجد العسكرية اليابانية والهيمنة اليابانية القديمة. ولكن ما أتحدث عنه أنا هو القيم الإنسانية النبيلة، وهى قيم إيجابية ولابد وأن نجدها فى العالم الجديد. موت ميشيما سلبى، وهو على الرغم من كونه يعد يمينيا متطرفا، إلا أننى أعترف أنه راح ضحية النظام الإمبراطورى.

ـ ما دمنا نتكلم عن انتحار الأدباء، كيف تقرأ انتحار كاوباتا؟!

ـ كاوباتا كان أكثر حساسية وفنا من ميشيما، وهو من الأدباء الذين قاوموا الفكر العسكرى بشكل أدبى غير صريح؛ لأنه لو قاومه بشكل صريح ومباشر كان سيقتل. كاوباتا من الأدباء القلائل فى اليابان الذين قاوموا الحرب بالجمال.

ـ ولكن تبقى قضية انتحاره، لماذا انتحر هذا الكاتب الجميل؟ لماذا واجه قبح الحياة بفعل قبيح آخر؟ ذلك هو السؤال.

ـ أعتقد أنه عندما بدأ التحديث فى اليابان كان كاوباتا يشعر بخوف تجاهه. والخطورة تكمن عندما أدرك أن اليابان ليس أمامه طريق سوى التحديث، وفى مواجهه هذه الحتمية كان من المستحيل عليه أن يستمر كمبدع، هل تعرفون فى الوطن العربى أن كاوباتا كان يخشى سماع صوت الطائرة؟ وأن المرض كان يصيبه أحيانا بسبب هذا الصوت؟

إن التحديث أصابه وأوصله لحالة من العقدة النفسية. يضاف إلى هذا القوى الفاشية فى المجتمع التى تحارب الخيال والإبداع، لقد حاول أن يقاوم هذه الفاشية من

خلال الأدب، وإن لم يكن صريحا فى مقاومته، وكان ذلك ابتداء من سنة ١٩٢٠ وحتى سنة ١٩٤٥ .

لقد كانت هناك قيود صارمة عسكرية على الخيال الإنسانى والإبداع، وهذه الأسباب المتداخلة مع بعضها يعود إليها السبب فى انتحاره، وانتحار بعض الأدباء اليابانيين الآخرين. فى حالة كاوباتا لا أستطيع أن أفتى فى سبب انتحاره، لقد كان انتحاره مفاجئا واستخدم فيه الغاز، إن الضجة التى حدثت حوله بعد حصوله على نوبل - كان أول يابانى يحصل عليها وثانى آسيوى يمنح شرف لقب حامل نوبل - والخوف من الشيخوخة الذى صاحب هذه الضجة وصعوبة إبداع نصوص أدبية جيدة.

لقد حققت طويلا فى هذا الأمر وحقق غيرى، وهو تحقيق أدبى وإنسانى لا علاقة له بتحقيقات البوليس، وإن كنت أقول بعد هذه السنوات إننى لم أصل إلى أى يقين خاص حول هذه القضية الصعبة والمعقدة.

- هل تستخدم كمبيوتر فى الكتابة؟!

- ٨٠٪ مما أكتبه بالقلم، فى العامين الأخيرين بدأت استخدم الكمبيوتر ولكن بنسبة قليلة.

- باعتبارك تستخدم القلم والكمبيوتر. أيهما أفضل فى العملية الإبداعية؟!

- بالنسبة لجيلى أنا، عندما يتولد الأدب فى الذهن، فإنه يبدأ الكتابة مستخدما عضلات يده. لابد من مرور العمل من الذهن إلى اليد. أما بالنسبة للأجيال الجديدة، الذين بدءوا مع الكمبيوتر، فإن تعاملهم معه سهل، ولكن إن تمت الكتابة الأولى بالكمبيوتر تصبح هى الكتابة الأخيرة.

- وتجربة الكتاب المسموع؟!

- بالنسبة للكتابة على أسطوانة الكمبيوتر، لقد تم هذا فعلا. لقد ترجمت مع زميل قصيدة من جنوب إفريقيا وصدرت على أسطوانة، بل إن بعض الكتاب يرسلون كتبهم إلى دور النشر على ديسكات، تجد الألف صفحة على ديسك صغير، واختفى الورق الذى كنا نجمعه بلا حدود، والذى كان يرتبط فى الذهن بالعملية الإبداعية، من أولها وحتى آخرها.

إن كنت تقصد بسؤالك أن الكتاب التقليدى قد يختفى بسبب ظهور الأسطوانة

والكمبيوتر أو الديسك، الذى من الممكن أن يحصل عليه الإنسان من المكتبة ويطبع منه ما يرغب فى قراءته لنفسه بعد ذلك حسب احتياجاته، كل هذا جائز وممكن، ولكن ماذا عن حقوق المؤلفين، كيف نتصرف فى المبلغ المتصل بحقوق الطبع؟! فى تصورى أنه بالنسبة للأعمال الكلاسيكية المشهورة يمكن أن تصور على شكل أسطوانات يسمعها الإنسان وهو يفعل أى شىء آخر، لكن هذا لم يحدث حتى الآن مع عمل أدبى جديد لم يصدر بعد.

ـ هل الكتابة الأدبية مجزية؟!

ـ بعد الحرب العالمية الثانية بـ ٣٠ سنة كان الكاتب عندما يقال عنه كاتب، يمكن أن يترك عمله ويعيش من الكتابة، الكتاب الآن فى حالة صعبة؛ لأن الأغلبية من الكتاب تكتب كتبا ترفيهية أو كتب ألغاز، ولكن الكتاب الجادين حياتهم شديدة الصعوبة، وهذا من الناحية المالية البحتة.

ـ ماذا تقصد بالكتابة الترفيهية؟!

ـ مثلا كتب التسلية والكتب البوليسية والألغاز التى تباع هنا بالملايين والروايات التاريخية.

ـ أى الكتب فى بلادكم أكثر انتشارا؟!

ـ القراء عندنا يركزون على الكتب التسجيلية التى تقدم نوعا من المعلومات أو تحقيق حول قضية معينة أو تتناول حدثا، إن مثل هذه الكتب تباع بأرقام فلكية. وإن كانت أقل من الألغاز والكتب البوليسية.

وهنا أخرج الكاتب اليابانى صحيفة أساهى التى كانت معه وفتحها على صفحة إعلانات الكتب. إى والله صفحة مخصصة لإعلانات الكتب الجديدة، وكانت الإعلانات المنشورة كلها حول كتب الترفيه والتسلية والكتب التسجيلية. قال لى إن الإعلان الصغير عن الكتاب يكلف ٢٠ ألف دولار؛ ولذلك فإن الإعلان لا يتم إلا عن الكتب التى توزع كثيرا جدا. أكد لى أنه من قبل كان يتابع إعلانات كتب الكتاب الذين كان يعرفهم، أما الكتاب الذين تنشر إعلاناتهم الآن فهم غير معروفين، ومع هذا فإن كتبهم توزع بصورة مهولة.

إن جريدة أساهى، من كبريات الصحف فى اليابان من عشرين سنة؛ كان يقرؤها لكى

يعرف ماذا يجرى فى العالم الأدبى اليابانى، ما أخبار كاوباتا وآخر أخبار ميشيما. وكان ذلك يتم من مجرد النظر إلى الجريدة. ولكن تعال نقرأ نفس الجريدة اليوم، إنها لا تقول أى شىء عن كبار الكتاب؛ من يريد أن ينشر عليه أن يعلن والإعلان نار.

ـ كم يطبع من الكتاب فى اليابان؟!

ـ منذ عشر سنوات كانت عندنا جائزة للأدباء، اسمها: اكتاجاوا. وعندما يحصل الأديب على هذه الجائزة، كان يمكنه أن يوزع من كتابه من ٥٠ إلى ١٠٠ ألف نسخة. ولكن حاليا الكتاب الذى يوزع عشرة آلاف نسخة يصبح جيدا جدا، ومن الممكن أن تهبط القيمة إلى خمسة آلاف نسخة فقط، وأنا أقصد خمسة آلاف نسخة من الطبعة الأولى فقط، فهذه أرقام متدنية جدا، إنها تدفع إلى الإحساس بالبؤس.

ـ ما دور اتحاد الكتاب فى بلادكم؟!

ـ عندنا اتحاد للكتاب فى اليابان. إنه مثل نقابة تعمل على حفظ حقوق الكتاب، ولكن الجمعية الخاصة بالأدب العربى هى التى تمثل أدباء اليابان فى اتحاد كتاب آسيا وإفريقيا. إن اتحاد الكتاب اليابانى ليس عضوا فى الاتحاد الآسيوى. فى بلادنا بعض الجمعيات الأخرى، التى ترعى الحركات الأدبية مثل جمعية الأدب اليابانى الحديث للكتاب التقدميين.

ـ تقدمى بأى معنى فى بلادكم؟!

ـ ممكن القول إنها يسارية مع أنها تضم عناصر ديموقراطية، أيضا لقد شكلت هذه الحركة سنة ١٩٤٥ من خلال الأدباء الذين كانوا يقاومون الحرب، وكانوا قد تورطوا فى الصراعات الداخلية للحزب الشيوعى اليابانى، ولكنها أصبحت بعد ذلك حركة أدبية أساسية.

ـ هل أنت عضو فى أى حزب؟!

ـ لا.

ـ هل لأن ذلك عدوان على حرية الكاتب؟!

ـ لا أقول إن الأمرين يتعارضان بالضرورة، ولا أقول إن الأدباء ليس من حقهم الاشتراك فى أعمال حزبية، ولى أصدقاء كثيرون من الكتاب أعضاء فى الأحزاب.

البعض منهم استمر فى العضوية وفى إبداعه الأدبى بدون أى مشكلة، والبعض الآخر شعر أن الحزبية هى عدوان على حريته، فترك الحزب، أو أن الحزب طردهم من عضويته؛ لأنهم خرجوا على الالتزام الصارم.

ـ والآن ما مشروعاتك الجديدة؟!

ـ لدى مشروع كتابة كتاب عن تاريخ عصر شوا، عصر الإمبراطور السابق، لقد ولدت سنة ١٩٣٠ وعشت حتى الآن وأحب أن أكتب عن نفسى وعن العصر الذى عشته، كتاب عنى وعن عصرى، فيه ترجمة ذاتية وأخرى موضوعية.

ـ كتاب عنك أم عن اليابان؟!

ـ عن العصر الذى عشته، من خلال خبرتى مع الحقائق التى توصلت إليها.

ـ والإنسان اليابانى الذى سنقابله فى كتابك القادم هل سيكون إنسانا كئيبا، مثل كل اليابانيين الذين قابلتهم؟!

ـ لا يمكنك القول إن كتاباتنا لم تكن دقيقة، إن هذه العناصر موجودة فى الشخصية اليابانية، ولكن هناك إمكانيات للتفاؤل، إن محاولة ربط هذه الشخصية بالتطور الذى حدث أمر مهم.

إن اليابانى انطوائى أو كئيب مثل شخصيات كاوباتا ولكن هناك أيضا عناصر التفاؤل الموجودة فى شخصية اليابانى عموما.

ـ تسعة وعشرون ـ

مصر التى تمشى وراء اليابان

جرى اللقاء معه فى أكثر من مكان؛ لأن المحلات التى كنا نجلس فيها، كنا نفاجأ بمواعيد إغلاق أبوابها، وهى مواعيد نابعة من قرارات خاصة بالمحلات، أى أنه لا توجد مواعيد نهائية لإغلاق الأبواب صادرة من أى جهة رسمية أو شعبية، ولكن كل محل يغلق أبوابه حسب ظروفه الخاصة.

مقاه وكافيتريات وبارات، أماكن تصعد إليها أو تنزل تحت الأرض، ومعظمها ما أن تدخله وتجلس وتطلب ما تشربه ونبدأ فى الحوار حتى نشاهد علامات الإغلاق، مثل إطفاء الأنوار فنبدأ فى الانصراف. فى هذه البلاد لا يطلب أحد منك المغادرة، لا يصفق بيديه ويقول للزبائن: «الباب يفوِّت جمل»، ولكن العلامات هى التى تؤكد ذلك.

يتكلم اليابانيون كثيرا، ولكن من خلال الصمت، بالإشارة بالإيحاء، ولكنهم فى حالات متعددة لا يلجئون للكلمات مثلما نفعل نحن فى بلادنا، حيث إن كل تفاهم لابد وأن يسبقه طحن الكلمات الذى بلا نهاية.

نوبو آكى توتاهارا. كان عبدالفتاح الجمل - يرحمه الله - يحاول الخروج بدلالة له ما من الاسم - يقول: إن نوتاهارا تعنى لا طهارة ثم يضحك طويلا، والرجل صاحب الاسم يستغرق بعض الوقت حتى يدرك دلالة الكلمة.

ونوتاهارا هو أستاذ الأدب العربى فى جامعة طوكيو للدراسات الأجنبية، وطوال إقامتى فى اليابان لم أسمع من يناديه سابقا اسمه بالدال نقطة، التى تصبح فى بلادنا أهم من الاسم أصلى.

أعرفه منذ منتصف السبعينيات، ومن يومها لم أره أبدا؛ ولهذا كان من الطبيعى عندما تأهبت للسفر إلى اليابان أن يكون لقائى مع نوتاهارا من أهم محطات الرحلة. فى الأيام

الأخيرة من رحلتي اليابانية قابلت نوتاهارا أكثر من مرة، حتى هذا اللقاء الأخير الذى جرى فى أكثر من مكان واحد.

ونوتاهارا علاوة على تدريس الأدب العربى لتلاميذه فى الجامعة، فقد ترجم الكثير من الأعمال الأدبية من العربية إلى اليابانية، أقدمها أولا على اعتبار أن ذلك الدور يمكن أن يكون أوراق تعارف بينه وبين القارئ العربى. ترجم: الأرض، الحرام، تلك الرائحة، العسكرى الأسود، زنوج وبدو وفلاحين، الخبز الحافى، بيت من لحم، ستة أيام، عائد إلى حيفا، خميس يموت أولا، للكاتب الفلسطينى زين العابدين الحسينى.

على أن كل هذه الترجمات كانت فى مرحلة مضت من عمره، لقد اهتم نوتاهارا فى البداية بالرواية والقصة القصيرة المكتوبة عن المدن العربية، ثم انتقل إلى روايات وقصص الريف، وها هو يطل الآن على مرحلة جديدة، يمكن القول إنها المرحلة الثالثة من اهتماماته.

يقول عن هذه المرحلة:

ـ عندى اهتمام بالروايات التى تصف حياة البداوة والصحراء، بالتحديد أبحث عن حياة البدو، إنها بيئة جديدة بالنسبة لنا، نحن ليست عندنا أى معرفة بحياة الصحارى، عندنا فى اليابان حياة المدينة وواقع الريف ولكن المشكلة فى الصحارى القاحلة. وهكذا بدأت رحلة البحث عن روايات تغطى هذه التجربة الإنسانية الجديدة، فوجدت خماسية مدن الملح لعبدالرحمن منيف، وبعض إنتاج عبدالسلام العجيلى، وكصديق قديم أعرف عنه اهتماماته، ولأننا نلتقى بعد فترة طويلة من البعاد، قلت له:

ـ والكاتب الليبى إبراهيم الكونى؟!

قال لى باندفاع:

ـ لقد عثرت عليه مؤخرا، أقرأ فى هذه الأيام حوالى خمس روايات له مرة واحدة، وأحاول خلال القراءة أن أقيم مقارنة بين تجربة حياة الفلاحين والبدو، أقصد الفارق بين البيئة الريفية التى تعتمد على الزراعة والبيئة البدوية التى تقوم على الرعى. أتحدث عن الاختلاف فى ظروف الحياة، ومفرداتها وتفاصيلها اليومية.

ـ وماذا عن اهتماماتك الأخرى؟!

ـ لدى ـ أو لكى أكون دقيقا أقول لدينا ـ فى اليابان موضوع آخر نهتم به فى إطار

اهتمامنا بالشرق الأوسط، وهو القمع، من هذه الجهة بحثت عن أدب السجون، وأحاول أن أعيش مع عدة روايات، شرق المتوسط لعبد الرحمن منيف، السجن لنبيل سليمان، الكرنك لنجيب محفوظ، تلك الرائحة لصنع الله إبراهيم، وقد ترجمتها ونشرت فى مجلة ولم تصدر فى كتاب، رسائل السجن لعبد اللطيف اللعبى، إن موضوع القمع أعتبره من أهم المواضيع فى الوطن العربى.

وعبداللطيف اللعبى تجربة خاصة جدا وسط كل الذين ذكرتهم، إنهم يكتبون عن سجن كان فى الماضى، ولكنه يتحدث عن سجن الحاضر، إنه أهم حالة فيهم جميعا، عنده تجربة فريدة فى السجون، فعلى الرغم من أنه موجود حاليا فى السجن، إلا أنه تحلل من سجنه واستخدم إنتاجه الأدبى من أجل الخروج من السجن، الخروج المعنوى أو الخروج الروحى، وليس الخروج المادى طبعا، إن وجوده فى السجن لا يحول دون نتاجه الأدبى. لقد قابلته فى الصيف الماضى فى باريس بعد خروجه من السجن، وجلست معه وتحدثت إليه، وكتبت مقالا عنه.

ـ من غيرك يهتم بالأدب العربى فى جامعة طوكيو؟!

ـ نحن عندنا فى جامعة طوكيو أساتذة آخرون غيرى يهتمون بالأدب العربى الحديث، عندنا الأستاذ تاكانو وهو الذى ترجم السراب لنجيب محفوظ، والآنسة أكة وعندها اهتمام من نوع خاص بأدب يوسف إدريس، لدرجة أنها تقدم نفسها للآخرين بهذه الصفة، مهتمة بأدب يوسف إدريس.

أما عن نفسى فلى اهتمام بالحياة فى الريف المصرى وشخصية مصر التى تتحدد فى الريف وليس فى المدينة، رغم أن المدينة هى التى تحكم البلاد، لقد كتبت مقالة اعتمدت فيها على كتاب شخصية مصر لجمال حمدان، وقد سمعت مؤخرا أنه مات ميته محزنة ومفاجئة ومأساوية «حكيت له تفاصيل موت جمال حمدان، وكنت أتساءل بينى وبين نفسى وأنا أحكى: أليس الموت فى حد ذاته مأساويا بصرف النظر عن التفاصيل الصغيرة؟»

يكمل نوبو آكى نوتاهارا:

ـ كذلك اعتمدت على روايات لك، قدمت من خلالها خريطة لاستخدامات القوة فى الريف المصرى. لقد قمت بأكثر من زيارة لمصر، حيث جمعت نتاجات الأدباء الجديدة، وقرأت العديد من الأعمال التى أحضرتها من هناك، لدرجة أننى بدأت القراءة خلال

وجودى فى مصر نفسها وقبل العودة إلى اليابان. وإن كنت فى السنوات الأخيرة، لم أتمكن من السفر إلى مصر مرة أخرى؛ وهذا يعود إلى ظروفى فى العمل قبل أى اعتبار آخر.

إن مصير مصر هو مصير الفلاحين فيها، وهو مصيرنا نحن أيضا فى اليابان، باختصار أقول لك: إن الفلاحين عندهم قدرة مالية هائلة؛ ولذلك فإنهم يتوجهون إلى التكنولوجيا خاصة التى ترتبط بعمليات إنتاجية ولها عائد من الربح - قد تجاوزت كل المراحل - وهذا فى نظرى يؤدى إلى إنهيار للقيم ونظام الحياة اليومى السابق، من المستحيل علينا هنا فى اليابان العودة إلى ما كنا عليه من قبل. ولذلك أنا متشائم من تطورالحياة والأمور فى اليابان، ونفس التشاؤم أشعر به وربما أكثر عند النظر إلى التطور إلى الحياة عندكم فى مصر، إن التشابهات كثيرة فيما بيننا.

- وهل هذا هو سبب الاتجاه إلى حياة البدو: باعتبارها تجربة جديدة تماما؟!

- ربما كان هذا هو السبب، إننى بعد معرفة تامة بالحياة الروحية للفلاحين، أحاول أن أقوم بنفس التجربة بالنسبة لحياة البدو الذين عاشوا حوالى سبعة آلاف سنة من التطور التاريخى، إنها نفس السنوات التى عاشها الفلاحون.

- هل حاولت أن تتابع حياة البدو على الطبيعة مثلما فعلت مع الفلاحين، عندما ذهبت إلى قرية الشرقاوى، أو قريتى مثلا؟!

من الصعب القول إنها نفس التجربة، لابد وأن هناك اختلافا ما، أيضا لم أتمكن من القيام بنفس ما قمت به فى ريف مصر، المسألة اختلفت باختلاف طبيعة حياة الفلاحين عن البدو، ويكفى استقرار الفلاح والتنقل الدائم للبدو، كأنه جزء من أقدارهم اليومية. ومع هذا فقد عشت فى سوريا حوالى شهرين مع البدو هناك، إنها فترة غير كافية، ولكنى حاولت خلالها أن أتمثل الحياة معهم، أريد معرفة بعضًا من أسرار حياتهم التى تبدو قريبة من حياة الفلاحين المصريين، لقد جمعت عددا من الكتب والدراسات عنهم كتبها رحالة أوروبيون وأمريكان.

فى المستقبل القريب سأحاول الحياة فى الصحراء فى الجزائر، أعتقد أنه ليس من السهل الذهاب إلى هناك ومحاولة الحياة المستمرة لفترة من الوقت فى الصحراء ولكنى سأحاول.

أخيرا وجدت إبراهيم الكونى، إنه واحد من أبناء الطوارق، وهو ظاهرة رائعة بما يكتبه عن حياة البدو، وأنا أحدد الآن الفروق بين البدو والفلاحين، لقد تعلمت هذه الفروق من

جمال حمدان وقبله من مقدمة ابن خلدون. لقد اكتشفت أن كثيرا من المثقفين العرب يستخدمون هذه المقدمة دون الإشارة لها فى بعض الأحيان وربما فى كثير من الأحيان. إن تجربتى الشخصية تبدو لى الآن مهمة، أنا الذى تابعت وانتقلت من الفلاحين إلى البدو والطريق بذلك يبدو لى صحيحا.

ـ لماذا أنت متشائم؟!

ـ المشكلة أن مصر تمشى وراء اليابان دون أن تحاول معرفة إلى أين وصلنا، أنتم فى الطريق وراءنا، لدىّ رغبة فى رؤية أصدقائى الذين فى مصر، وإن كنت لا أرغب فى الذهاب إليها، أنا الآن أكثر حماسة فى الجرى وراء حياة البدو.

ـ ومشروعات الترجمة القادمة؟!

ـ لدى مشروع لا أعرف متى أقوم به، لترجمه رواية هانى الراهب «الوباء». لقد أعجبتنى هذه الرواية، وربما ترجمتها فى المستقبل، وأفكر أيضا ـ فى الوقت نفسه ـ فى ترجمة «دماء وطين» ليحيى حقى.

ـ أنتقل بك إلى موضوع يابانى صرف، ألا وهو انتحار ميشيما؟!

ـ توجد آراء كثيرة فى هذا الموضوع، وإن كانت لا توجد إجابة واحدة واضحة، إن الموضوع مثير جدا، إن كنت تريد أن تعرف سر انتحار ميشيما فلابد من إعادة قراءة نتاجه الأدبى بحثا عن هذا السر. أعتقد أن ميشيما نفسه لم يكن يعرف سر انتحاره، أو السر الذى دفعه إلى الانتحار، وإن كنت أتصور أن أدبه يتحدث عن هذا الانتحار.

ـ وانتحار كاوباتا؟!

ـ أعتقد أن هذا الانتحار لم تكن له نفس الإثارة والأسرار مثل ميشيما. كاوباتا كان قد وصل إلى نهاية حياته، القضية مختلفة، أعتقد أنه لا يوجد معنى عميق؛ ولذلك لابد من التفرقة بين هذا وذاك.

ـ ثــلاثــون ـ

العشاء الأخير فى طوكيو

ليل اليوم الثالث عشر:

الاثنين ٢٢ من نوفمبر ١٩٩٣

فى هذا اليوم كان موعدنا مع العشاء الأخير مع نائب رئيس مؤسسة اليابان، وفى هذا العشاء كان هناك شاب مسئول من سفارة مصر فى طوكيو، ونوتاهارا وكريمة، وشاب من مؤسسة اليابان، أعتقد كما فهمت أنه مسئول عن دعوات الكتاب أو الصلات مع مصر. وإن كان نائب المدير قد بدا رسميا فى اللقاء الذى جرى معه فى مكتبه، فهو الآن شخص بسيط ومرح، لقد بدا لى كبيرا فى السن فى مكتبه، وهو الآن أقرب إلى الشباب. المطعم ضخم، وهو فوق فندق من أضخم وأكبر فنادق العاصمة، وقد عرفت فيما بعد أن هذا المطعم مشهور فى اليابان كلها بنوع من اللحم لا يقدم سوى فى هذا المطعم فقط.

هذه ليلتى قبل الأخيرة فى اليابان، ولكنها المرة الأولى التى أدخل فيها مطعما يابانيا قديما. كان مجرد الدخول إليه بمثابة نقلة فى الزمان من أيامنا إلى العصور الوسطى. صحيح أننى صعدت إليه فى مصعد، خفت من طول الوقت الذى استغرقه الصعود، لدرجة أننى خفت أن نصل إلى السماء. وقد حمدت الله أننا لم نكن فى شرفة أو على السطوح لأن الأماكن العالية تسبب لى حالة من الرعب الشديد والاطمئنان لا يعرف طريقه إلى قلبى، إلا كلما اقتربت من الأرض.

قبل الدخول إلى المطعم لابد من خلع الحذاء وتركه عند الباب، وهذا لم يحدث فى اليابان من قبل سوى عند الدخول إلى المعابد القديمة، والمطعم ليس على شكل صالة واسعة مثل مطاعمنا، أو المطاعم اليابانية الحديثة المبنية على الطريقة الأوروبية.

المطعم عبارة عن غرف صغيرة، وكل غرفة مغلقة ولها باب يخصها، وأعتقد أن هذا

كان النظام السائد فى مقهى الفيشاوى فى حى سيدنا الحسين قبل العدوان عليه باسم تطوير حى الأزهر سنة ١٩٦٨ . دخلنا إلى الغرفة المحجوزة لنا، والغرفة صغيرة لا تتسع لأكثر من ثلاث مصاطب، تحيط بمنضدة طعام مربعة الشكل وليست دائرية، وهذه المقارنة استدعاها إلى الذهن أن المنضدة قريبة من الأرض، لدرجة أنها ذكرتنى بالطبلية التى كنا نأكل عليها فى قرتينا الضهرية .

المصاطب الثلاثة عليها حصر ثلاث صفراء، وإن كانت ناعمة ومريحة وقد تحسستها أكثر من مرة، ولم أعرف المكون الذى صنعت منه أبدا، وعندما تجلس على المصطبة لابد وأن تمتد قدماك تحت المنضدة. حتى فى المسافة التى بين المصطبة «واسم المصطبة من عندى» والمصطبة الأخرى، هم يقولون عنها كراسى مريحة. مع أن الكرسى الواحد يتسع لأكثر من شخص يجلسون بجوار بعضهم البعض.

كنت أجلس وبجوارى من اليمين مسئول السفارة المصرية ومن اليسار كريمة، وفى مواجهتى نائب رئيس مؤسسة اليابان وبجواره المسئول الذى حضر معه، وعلى جانبه الآخر نوتاهارا. كان نائب رئيس المؤسسة هو المتحدث الرئيسى، وقد فضلت الاستماع إليه على أن أفتح فمى ولو بكلمة واحدة قد تحرمنى من الاستماع إلى أناس سأتركهم غدا، ولا يعلم سوى الله هل من المحتمل أن نتلاقى بعد ذلك أم لا؟

قال لى إن مؤسسة اليابان فى سبيلها إلى فتح مكتب لها فى الشرق الأوسط، وإن كان القرار لم يصدر بعد. إن الأمر قد يستغرق سنوات، لابد من تدبير الميزانية واختيار العاصمة التى يكون فيها المكتب، وهناك الآن مفاضله بين القاهرة وعمان وبيروت . سألته عن موقفه، فقال إنه ليس له موقف محدد فى هذه القضية فالاعتبارات العامة هى التى ستحسم القرار، «جرى بعد هذا حسم الأمر، واختيرت القاهرة مقرا لهذا المكتب».

اللاتى كن يقدمن الطعام نسوة يابانيات، يرتدين الكيمونو اليابانى، ضئيلات لحد التلاشى، ومما زاد من ضآلتهن أنهن كن يقمن بالعمل وهن يزحفن فوق الأرض، مع أنهن لم يكن يحدثن أى صوت سوى حفيف بسيط لا تكاد تسمعه، ثمة واحدة منهن تبدو كبيرة فى السن، مقارنة بالأخريات، فى طريقة لبسها ما يفيد أنها رئيسة الفريق الذى يقدم الطعام.

ورغم الزحف على الأرض، إلا أنهن كن يقمن بالعمل بدربة ومهارة يحسدن عليها، وبدون أى خطأ، وإن كنت قد اكتشفت بعد أن أضيء نور الغرفة بكامله، أن فوق

وجوههن مسحة من الحزن والكآبة الدفينة التى لا يمكن أن تمحوها كل ألوان الدنيا وأصباغها، دهشت، ولكنى اكتشفت أن أعلى نسبة طلاق فى العالم إنما تقع فى اليابان.

سألنى المدير - وسأصفه من الآن بذلك؛ حتى لا أقول نائب المدير فى كل مرة، وهو يقوم بدور المدير فعلا - أقول سألنى المدير إن كنت قد شربت الساكى خلال وجودى فى اليابان فقلت لا، نظر إلى كريمة نظرة تأنيب، وقال لى من خلالها: إن من يحضر إلى اليابان ولا يشرب الساكى، يكون كمن لم يحضر إلى بلادنا. والساكى نوع من الويسكى أبيض اللون، يصنع من الأرز بعد تخميره، وهو المشروب الوطنى فى هذه البلاد ولا يشرب إلا دافئا، وشربه يكون فى قصعة من الفخار «وكلمة قصعه هذه من عندى وليست من عندهم».

شربت الساكى بحذر؛ خفت أن يذهب بعقلى فى هذه الجلسة المهمة التى سيتولد من خلالها الانطباع الأخير عنى فى هذه البلاد، خاصة أن نوتاهارا همس لى أن الكثير من الساكى يلطش الدماغ بسرعة مفاجئة. وقد أحضرت معى فى طريق العودة إلى مصر من مطار طوكيو زجاجه من خمر الساكى، وإن كنت قد فشلت هنا فى مصر فى إعداده بالطريقة التى يُعد بها فى اليابان، رغم أننى سألت الإخوة اليابانيين فى السفارة اليابانية فى القاهرة، وهم شرحوا لى ذلك بكل استفاضة ممكنة، ولكن يبدو أن السر من الصعب إتقانه بهذه السرعة.

كان الطبق الرئيسى فى هذه الوجبة عبارة عن لحم جرى إعداده بطريقة خاصة، وعندما سمعت كلمة الإعداد الخاص تصورت أن ذلك يعنى الطهى أو الطبخ، ولم أتصور أن الإعداد يصل إلى التربية الخاصة للحيوان الذى يؤخذ منه هذا اللحم. قالوا لى إن الحيوان يربى من أجل ذبحه، وكل الحيوانات فى اليابان تربى من أجل الذبح؛ لأن الحيوان الذى يعمل فى الزراعة قد انقرض من بلادهم، ومنذ سنوات طويلة.

أما الإعداد الذى أشاروا إليه فيتمثل فى أن هذا الحيوان يشرب البيرة كثيرا، ويتم عمل تدليك له باستمرار، وهذان الأمران - البيره والتدليك - يجعلان لحمه يخلو من الدهون. وعندما أكلت هذا اللحم أدركت سرا آخر، فهو يذوب فى الفم حتى بدون عمليات المضغ الكثيرة التى يتعب الفك منها فى بعض الأحيان، وبعد تناول الطعام، لم أكن فى حاجة إلى خلة لكى أخرج بها نساير اللحم من بين أسنانى، وأنا - خاصة بعد إصابتى بمرض السكر - أحتاج إلى هذه الخلة، أكثر من احتياجى للطعام نفسه، فمتاعبى مع الأسنان أصبحت بدون حدود.

سألت نوتاهارا على جنب عن هذا اللحم، فقال لى إنه أغلى لحم فى العالم؛ لأنهم يتدخلون فى إعداده بهذه الطريقة، وعندما سألته عن ثمن الكيلو، اعتذر بأنه لا يعرف لسبب بسيط أنه لا يتناوله فى أى مطعم على حسابه، إن أكله لابد وأن يكون مدعوا، فضلا عن أنه لا يقدم فى عموم المطاعم، ولكن هناك مطاعم معينة فقط هى التى تقدمه.

كانت وجبة الطعام مكونة من أصناف كثيرة، ولابد من أنواع الشوربة الغربية والتى لا يعرف الإنسان حتى اسمها، وأحاول معرفة مكوناتها من التذوق فقط. كان من الصعب علىَّ، حتى هذه اللحظة استخدام الملاعق الخشب فى تناول الأرز، وأنا لا أتناول الأرز منذ مرض السكر، ومع هذا حاولت - مجرد محاولة - أن أعرف طريقة تناول الأرز بالطريقة اليابانية.

أشهد أننى فشلت فى هذه المحاولات التى قمت بها ولم تنجح، يبدو أن فى المسألة بعدًا عصبيا، أو ربما كانت مثل الموقف من تعلم القراءة والكتابة فى سن متقدم من العمر، ألم يقولوا لنا إن التعلم فى الكبر مثل النقش على الحجر؟! يبدو لى أنه من المستحيل أكل الأرز بهذا الخشب فى سن متقدم، وهذا ما جرى لى، وعموما فهى ليست مشكلة لأنى لست من هواة أكل الأرز، ويبدو أن الذى يحافظ على مثل هذه العادات - أى وجود الملاعق الخشب - هى المطاعم الكبرى القديمة. وإن كانت معظم المطاعم التى دخلتها، كانت حديثة ولم أجد فيها هذه الملاعق الخشبية القديمة، هل فى الأمر قدر من الفولكور؟ ربما. هل هى المحافظة على التقاليد القديمة؟! جائز.

عندما اقتربت نهاية اللقاء، قال لى المدير إنه يتمنى إن كتبت عن اليابان أن تأتى كتابتى إيجابية، وقد تحفزت وسألت على الفور ما المقصود بكلمة إيجابية هذه؟ قال لى عبر المترجمة: أى أن الكتابات تنطلق من حب اليابان وليس من الكراهية. الحب عاطفة إيجابية والكراهية من العواطف السلبية، وهذا هو مفهوم كلمة الإيجابية وكلمة السلبية عندهم فى اليابان.

قلت من باب التأكيد - من خلال كريمة - إن الحديث عن بعض السلبيات فى اليابان لا يمكن أن يعد كتابة سلبية، لسبب بسيط أن الصحافة اليابانية يروج توزيعها على حساب مثل هذه الكتابات، والبرلمان اليابانى هو أول من ينشر مثل هذه الأمور، وأنا بطبعى عندى حساسية تجاه من يتكلمون عن الكتابة قبل أن تتم، وبعض الدول التى وجهت لى الدعوات لم أكتب عنها حرفا واحدًا بعد العودة؛ لهذا السبب وحده.

أذكر عندما كنت فى كوريا الشمالية، وكانت فى ذلك الوقت من أبعد الرحلات التى قمت بها فى حياتى، أن مترجمى الخاص كان يبدأ يومه معى بالحديث عما سأكتبه عن بلادهم بعد العودة إلى مصر، وينهى اليوم معى بالحديث المعاد عما سأكتبه.

وعندما كنا نذهب إلى أى مكان، كان يتحدث معى عن دور القائد العظيم والملهم كيم ايل سونج، ولاينسى أن يذكرنى بذلك وألا أنساه عندما أكتب. وصل الإلحاح بى إلى درجة أن اتخذت قراراً بعدم الكتابة بعد عودتى من هذه البلاد مهما كانت الظروف.

وبعد عودتى إلى القاهرة جاءتنى مراسيل من السفارة الكورية الشمالية فى القاهرة؛ من أجل السؤال عن الكتابة عن الرحلة، متى ستكون وفى أى الصحف حتى يترجموا ما سأكتبه ويرسلونه إلى بلادهم بعد النشر، وكل الذين حملوا إلىّ هذه الرسائل كانت ردودى عليهم حاسمة، بأننى لن أكتب، مع أن الرحلة كانت تستحق الكتابة عنها، ولكنه خطأ الطلب والإلحاح.

وأنا سافرت إلى اليابان من خلال موقف واضح ومحدد أنه لا علاقة بين الدعوة والكتابة، ولا علاقة بين الدعوة والكتابة الإيجابية عن الرحلة، وكل هذا يدفعنى إلى تمنى لو أن الإنسان جاء إلى هذا العالم غنيا حتى يسافر على حسابه الخاص، أو أن الصحف التى نعمل فيها كانت تعفينا من حساسية وحسابات السفر على حساب الآخرين، وهو من أكبر هموم وعيوب الصحافة المصرية الآن.

وأعتقد أن هذا الوضع سيظل قائما حتى إشعار آخر.

ـ واحد وثلاثون ـ

أطول يوم فى الرحلة

اليوم الرابع عشر:

الثلاثاء ٢٣ من نوفمبر ١٩٩٣

اليوم السابق على الرحيل، الآن فهمت معنى الحل والترحال. كلمتان فقط، فيهما تجربة إنسانية شديدة الغنى. تسبب لى حالة من الارتباك والفوضى. من قبل تصورت أن هذا اليوم من المفروض أن يكون خاليا من أى برنامج، وكنت أخشى هذا الوضع، ولكنى عندما عرفت أن هناك برنامجا مكثفا فى هذا اليوم، حمدت الله كثيرا، وشكرت دقة اليابانيين التامة؛ لأن تركى للفراغ فى مثل هذا اليوم يمكن أن يكون كارثة نفسية بكل المقاييس.

مررنا على الأسواق صباحًا، كان مدير مؤسسة اليابان قد سألنى بالأمس عن أخبارى مع أسواق اليابان، التى ربما تصور القادم إلى اليابان أن هذه البلاد ما هى إلا سوق كبير. وهذا التصور يضايق اليابانيين المعنيين بالبعد الحضارى لبلادهم.

قلت للمدير إننى مررت بصورة عابرة على الأسواق، وإن كنت أود المرور على بعض المكتبات؛ حيث أسواق الكتب لأننى لم أشاهد فى حى جنزا حيث أقيم أى مكتبات، والمكتبات التى شاهدتها كان ما يباع فيها إما شرائط كاسيت، والتى يبدو أنها أحيلت إلى المعاش أو أسطوانات الليزر حيث الجديد الذى يحل مكان القديم بكل قوة.

صحبتنى كريمة فى الصباح إلى مكتبة عامة، وفى الحقيقة لم تكن مكتبة عامة بقدر ما كانت عمارة فخمة وضخمة لبيع الكتب، وبعض الأدوار كانت مخصصة لبيع الأقلام والورق وأجهزة الكمبيوتر، أى كل ما يستخدمه الكاتب من أجل الكتابة. وإن كانت كلمة

كتاب عندنا تقال عادة عن الكتاب الثقافى فقط، فإن الأمر يبدو شديد الاختلاف فى اليابان، وهذه العمارة كانت أكبر دليل على هذا.

كنت أرغب من وراء فكرة الذهاب إلى المكتبة، إلى مشاهدة جماهير الثقافة فى هذا المجتمع المثقل بكل ما هو جديد ومادى، ومن المفترض أنه لم يبق لديه وقت من أجل القراءة.

كانت العمارة كلها بأدوارها الستة عشرة عبارة عن مكتبة كبيرة، ولكن كل دور فيه نوع من الكتب، غير تلك الموجودة فى الأدوار الأخرى. كنت أريد كتابا فيه صور عن اليابان، وهكذا اكتشفت أن الكتب المصورة لها دور خاص بها، وكنت أرغب فى الحصول على كتاب كاريكاتير طلبه منى الصديق عمرو عبدالسميع قبل سفرى إلى اليابان، وقد قيل لى إن كتب الكاريكاتير لها دور خاص، أما كتب الأطفال فلها أدوار كاملة، لا تبيع سوى كتب الأطفال فقط.

عالم من الكتب فقط ابتداء من لحظة دخول العمارة وحتى الخروج منها. الغريب أنهم قالوا إن كل حى فيه مثل هذه العمارة، وإن لم تكن العمارات متشابهة؛ لأنه لا يوجد فى هذه البلاد قطاع عام. أسوء لحظة مرت على فى هذه العمارة. عندما وقفنا فى طابور لكى ندفع ثمن كتاب الصور، وطابور آخر لكى ندفع ثمن كتاب الكاريكاتير، كان هناك طابوران، وليس فى ذلك أدنى مبالغة منى، فضلا عن الزحام غير العادى، فى مكان لا يبيع سوى الكتب فقط. وقد تأكدت أكثر من مرة أن جميع أدوار هذه العمارة لا تبيع سوى الكتب والأدوات الكتابية وهم يتعاملون مع الكمبيوتر باعتباره من الأدوات الكتابية.

نزلنا، اتجهنا إلى سوق الأدوات الكهربائية؛ كنت أبحث عن كمبيوتر صغير خاص بأرقام التليفونات شاهدت أنواعا منه مع أصدقاء مصريين، جهاز صغير يحمل كل أرقام التليفونات، ويعفى الإنسان من حمل الأجندات الكبيرة التى يدون بها أرقام التليفونات. والمشكلة أن الأجندة ما أن تصل إلى مرحلة الاكتمال حتى تصبح غير صالحة للاستعمال من «البهدلة والهربدة».

كانت هناك بالقرب من العمارة أكشاك تبيع مثل هذه الأدوات الكهربائية الصغيرة، ورغم أننى تعبت حتى اهتديت إلى كمبيوتر متوسط القيمة، وقيمة الكمبيوتر تتحدد هنا بعدد الأسماء التى يمكن أن يحملها، وقد اخترت جهازا يمكن أن يستوعب ثلاثة آلاف

اسم، رغم صغر حجمه، وكان سعره رخيصًا لأنه موضة قديمة، الأجهزة التى جاءت بعده تبدو فى رفع ورقه السيجارة، ومع هذا يحمل أضعاف ما يحمله هذا الجهاز من الأسماء، ولكنه من الموديلات الحديثة ولا توجد سوى فى المحلات الكبرى.

وعلى الرغم من الوقت الذى أنفقته فى حكاية الكمبيوتر، إلا أننى بعد العودة إلى مصر، وبدأت عملية التدريبات على استخدامه بمعرفة ابنى أحمد وابنتى رباب، اكتشفت أن الأمر شديد الصعوبة، وأنا من ناحيتى أضيق ذرعًا بفكرة التعامل مع هذه الأجهزة الصعبة والمعقدة، وكذلك أعطيت هذا الجهاز الصغير لأحمد ابنى الذى ينتمى لجيل جاء بعدنا يجيد التعامل مع الأجهزة الصعبة والمعقدة، وهذه القدرة تشكل أحد الفوارق بين الجيل الذى أنتمى إليه، والجيل الذى جاء بعدنا إلى مصر.

وأنا عموما من أقل الناس الذين جاءوا إلى اليابان وقضوا فيه مدة وعادوا بدون أدوات وأجهزة كهربائية كثيرة؛ لأن بعض الذين يحضرون إلى اليابان يكون هدفهم الأساسى هو شراء الأجهزة والأدوات قبل أى اعتبار آخر.

بعد الأسواق اتجهنا إلى متحف الأدب اليابانى الحديث فى طوكيو، ولكنه كان مغلقا لأن اليوم كان يوافق عيد تقديم الشكر إلى العمال، وهذا اليوم شبه عطلة رسمية فى هذه البلاد. سألت: هل هذا هو عيد العمال الذى نحتفل به فى بلادنا؟ قالت لى كريمة: جائز، وإن كان هناك اختلاف جوهرى بين عيد يأتى فى اليوم الأول من مايو، ويوم آخر يجىء فى اليابان فى شهر نوفمبر من كل عام.

توقفت أمام أكثر من معنى؛ ذلك أن مؤسسة اليابان التى وضعت لنا هذا البرنامج لم تدرك أن هذا اليوم يصادف عطلة؛ إذن الفوضى جزء من طبيعة البشر، هذا هو الكمبيوتر اليابانى يخطئ رغم أنها البلاد التى يضرب بها المثل فى الانتظام الشديد والفريد.

ذهبنا بعد ذلك إلى متحف خاص بكاوباتا، كان مغلقا لنفس السبب؛ عيد تقديم الشكر إلى العمال، والمتحف الوحيد فى طوكيو الذى كان مفتوحًا فى هذا اليوم، كان متحفًا خاصًا بالأنهار التى تمر فى المدينة، وفى المتحف كان هناك كل ما كتب عن النهر فى الأدب اليابانى.

أذكر أننا تعبنا كثيراً ونحن نحاول العثور على هذا المتحف مع أنه لم يكن فى البرنامج، ولكن يبدو لى أن كريمة بسبب أن المتحفين اللذين ذهبنا إليهما كانا مغلقين، فقد قررت من نفسها الحضور إلى هذا المتحف كنوع من البديل.

ورغم أن المتحف موجود فى قلب طوكيو، وكان يقع فى منطقة سكنية، إلا أن المتحف كان يقع فى وسط حديقه بالغة الاتساع وفيها أشجار معمرة، والمكان يبدو قريبا من شكل الغابة، وكانت هناك أسر وعائلات يابانية أحضرت أطفالها من أجل قضاء اليوم فى هذا المتحف، وكان المتحف فى وسط هذه الحديقة التى لا يتصور وجودها أحد، وكان المتحف مبنى من الخشب الخالص، والمكان كله يبدو قديما وموغلا فى الزمان.

النهر الذى أقيم هذا المتحف لما كتب عنه، ليست له شهرة النيل، بل ربما لا يعرفه أحد. أنا عن نفسى لم أر فى طوكيو طوال وجودى فيها أى أنهار، ومع هذا كان هذا المتحف وطوال تجولى فيه كنت أسمع صوت موسيقى من أعمال فنية تدور حول هذا النهر، إنه عيد كامل من أجل نهر لا يعرفه أحد.

كنت أمشى فى المتحف وبداخلى بكاء على نهر النيل، هل فكرنا أن نفعل له ما قام به اليابانيون من أجل نهر لا يعرفه أحد؟ كم يبدو النيل العظيم مهملا بجوار ما أشاهده الآن، مع أن النيل متحف فى حد ذاته، كم من الأعمال الفنية والأدبية كان بطلها النيل؟ وكم من الأعمال كان النيل مكانا لها؟ وكم من الأسماك والنباتات تعيش فيه؟ وكم من الحيوانات تحيا بالقرب منه؟ أليس غريبا أن كل من عرفوا مصر والنيل منذ فجر التاريخ قالوا إن النيل هو واهب الحياة للمصريين، ومع هذا فإن مصر لم تحاول أن ترد له أى شىء مما قدمه لها.

فى برنامجى لهذا اليوم دعوة لمسرح الكابوكى، وهو المسرح التقليدى اليابانى، والذى يعد جزءا من حضارة هذه المنطقة من العالم، كان ثمن التذكرة التى حجزتها لى مؤسسة اليابان ١٤ ألف ين. أى حوالى مائة وأربعين دولارًا، وقد جاء الحجز فى هذا اليوم الأخير؛ لسبب عدم التمكن من العثور على حجز من أى يوم سابق على هذا اليوم.

هذا أول موعد كان ممكنا الحجز فيه، كان الموعد هو الخامسة مساء، وقد ذهبنا إلى مكان المسرح فى الرابعة والنصف مساء، أى قبل العرض بحوالى نصف ساعة، تناولنا طعام الغداء فى كافتيريا قريبة من المسرح، والمسرح فى حى جنزا الذى أقيم فيه، وفى مكان قريب جدا من الفندق الذى أنزل فيه.

الكافتيريا كانت عبارة عن مقهى أيضا، وكان فيها مكان للألعاب التى يلعبها الصبية، من النوع الذى انتشر مؤخرا فى أحياء القاهرة، كان ثمن السندوتشات قريبا من ثمن وجبة

غداء عادية، من الصعب التحايل على ارتفاع الأسعار المخيف فى هذه البلدان، إما أن يكون لك بيت أو أن تتحمل ارتفاع الأسعار الجنونى هنا.

لاحظت وجود عدد كبير من النساء العجائز يجلسن فى الكافتيريا، ويبدو من منظرهن أنهن يجلسن هنا منذ سنوات مضت، تراب الانتظار يغطى رموش أعنيهن. إن هذه البلاد فيها كمية من البؤس الإنسانى من الصعب وصفها. ويبدو أن كاوباتا وميشيما كانا على حق فى الانتحار وإنهاء الحياة بكل هذه القسوة، ما دام فى هذه البلاد كل هذا الحزن المخيف.

المسرح فى اليابان قطاع خاص. وكلمة الكابوكى مكونة من ثلاثة مقاطع، وهى تعنى الرقص والتمثيل والغناء. والعرض الذى دخلت المسرح لكى أشاهده من المفروض أن يستمر خمس ساعات، وهو العرض الثانى فى هذا اليوم، وإن كان لابد من الاعتراف أننى مكثت حوالى ساعة واحدة فقط من هذه الساعات الخمس، أولا لصعوبة معرفة الكلام الذى يقال، والعرض كان أقرب إلى الحوارية منه إلى العرض الفنى، كان الكلام فيه كثيرا، وكان من المستحيل أن تقوم كريمة بالترجمة لى؛ بسبب من يجلسون بجوارها.

الذهاب إلى المسرح فى هذه البلاد يبدو مثل الذهاب إلى حفل اجتماعى، نوع من البهرجة فى الملابس، والاحتفاء يبدو واضحًا فى كل مفردات ما يحمله الذاهب إلى المسرح، لم يكن هناك مقعد واحد خال من البشر، وطبعا لا توجد دعوات مجانية أو بونات، كما أن الممثل لا يملك أن يدخل أى عدد من أقاربه وأصدقائه مجانا كما يحدث فى بلادنا.

ومنذ دخولك إلى القاعة كل ما تحتاجه لابد وأن تدفع ثمنه، حتى برنامج العرض يباع، وصور العرض تباع والكلمات المطبوعة عن العرض تباع، ادفع تحصل على ما تريد، أما المطبوعات المجانية التى تكون مركونة فى كل مكان فى المسرح فلا وجود لها.

رغم تجاوب الحاضرين مع العرض، والضحكات والتصفيق فى بعض المشاهد، إلا أن العرض كان مملا بالنسبة لى؛ أولا لأننى لم أعرف كلمة واحدة مما يقال، والحوار كان كثيرا جدا، وثانيا لأن العرض كما بدا لى من الحركات والسكنات كان أقرب إلى العروض البدائية التى كنا نشاهدها فى الريف المصرى فى الخمسينيات، حيث ميلودرامات الدم والدموع. وبعيدا عن الكلمات، ثمة معركة بين امرأتين على رجل وتدخل الخادمة على الخط وجرى وهرج ومرج.

والأحداث تدور فى ريف اليابان وفى مرحلة زمنية مضت، وهى مثل كوميديات الأفراح فى الريف المصرى، وها هو الخادم القوى الذى لا نعرف مصدر قوته إنه «زعرب» الفقير المعدوم الذى يخدم الأغنياء ويكشفهم ويعريهم ويضحكنا عليهم كل الوقت، ولأن مثل هذه المسرحيات عندنا بدون نص مكتوب، فإن كل ليلة تشهد إبداعات مختلفة عن اليوم السابق.

خرجت فى الخامسة غير آسف، سوى على المبلغ الكبير الذى دفعته مؤسسة اليابان، ثمن تذكرتين، واحدة لى والأخرى لكريمة، ولكن عذرى أننى قلت لهم من قبل إننى لن أكمل العرض لآخره لاستحالة الترجمة، وحتى كريمة التى تعرف اليابانية لم تشأ البقاء حتى النهاية.

كان لدى موعد مع الشاعر السورى على كنعان، الذى يعيش فى اليابان ويعمل فى قسم اللغة العربية بجامعة طوكيو للدراسات الأجنبية، قبل حضورى إلى اليابان، لم أكن أعرفه سوى بالاسم، ولكنى عندما ذهبت إلى نوتاهارا تعرفت عليه فى مكتبه، وهو إنسان بسيط يدخل القلب مباشرة وبدون الحاجة إلى تعقيدات أيا كانت.

كان موعدى معه فى الخامسة والنصف. أمام المسرح مباشرة. حضر إلى ومعه زوجته وابنته رباب التى تعتبر فنانة معروفة فى سوريا، بل وفى بلاد الشام كلها. وقد سعدت بها لأن ابنتى أيضا اسمها رباب. وهى مثل رباب ابنة على كنعان تحب الفن وتريد أن تصبح فنانة أيضا.

صدفة ليست الأولى من نوعها مع السوريين، أحب الأشقاء العرب إلى القلب. فقد كنت صديقا لوزير الإعلام السورى الأسبق أحمد إسكندر - رحمه الله أوسع رحمة - وقد بدأت الصداقة واستمرت إلى أن مات دون أن أقابله. وقد عرفت بعد رحيله أنه أنجب ابنا وبنتا، أما الابن فقد كان اسمه أحمد وهو نفس اسم ابنى، والابنة كان اسمها رباب وهو نفس اسم ابنتى رباب، ربما كان فى نفس العمر تقريبا. فعلا الأرواح جنود مجندة فعلا وقولا.

كان من المفروض أن نتعشى معا، بدعوة من على كنعان، ولكنى اعتذرت بصدق؛ لأن الأسعار كانت رهيبة فى هذا الجزء من طوكيو - حى جنزا - حيث كنت أقيم وبيته بعيد فى ضواحى المدينة، يحتاج إلى سفر من أجل الوصول إليه، والرجل جاء إلى هنا مغتربا فى أبعد مكان عن دفء بيته وحياته وأهله ووطنه وناسه.

لابد وأن لديه أسبابه الخاصة وراء هذه الهجرة. وقانى الله شرها. ولكن لابد وأن البعد المالى وارد أيضا. بحثنا عن كافتيريا لا أقول رخيصة فلا شىء رخيص فى هذه البلدان. ولكن كافتيريا يمكن أن نشرب فيها شيئا ثم يمضى كل منا لحال سبيله.

الكافتيريا كان فيها شاى كامل، أى لابد من الجاتوه معه، وأنا لا أقترب من الجاتوه منذ مرض السكر، ولكنه إجبارى بمعنى أن تدفع ثمنه ولا تأكله. جلسنا نتكلم وتواعدنا على التراسل بعد هذا، ولكنه لم يحدث، ويبدو أن نصف كلام المثقفين العرب - وأنا واحد منهم - لا يصفى على شىء.

تركته وأسرته فى السابعة مساء. توجهت إلى الفندق. كان من المفروض أن أذهب إلى السفارة المصرية فى طوكيو. وهذه ثالث زيارة لى لها منذ أن جئت إلى هنا، مرة زرت السفيرة ميرفت التلاوى فى مكتبها، والثانية كانت على حفل عشاء حضره السفراء العرب فى طوكيو، وهذه ثالث مرة.

إن سفارة مصر فى طوكيو فى عهد ميرفت التلاوى. قد أصبحت فعلا وقولا بيت المصريين - كل المصريين - فى اليابان. عندما وصلت إلى الفندق وجدت سيارة من السفارة فى انتظارى، كان السائق يابانيا. هل من المعقول أن يحضروا سائقا من مصر إلى هنا؟

كان السائق اليابانى يتكلم العربية قليلا، كلمة من هنا وأخرى من هناك. تكلم معى عن جو مصر، نصف حديثه كلام، والنصف الآخر إشارات. وتحدث عن الأهرامات و«أبو الهول» والنيل والشمس المشرقة، فكرت أليست بلاده هى بلاد الشمس المشرقة؟! سألته متى كانت آخر زيارة له إلى مصر: فقال لى إنه لم يسافر إلى مصر أبدا. ولكن كل ما قاله لى وصله من خلال ما يسمعه من الناس فى السفارة من ناحية، ومن متابعته للملصقات السياحية التى يشاهدها فى السفارة المصرية وفى أى مكان مصرى فى طوكيو.

مررنا على فندق «نيواوتانى» وهو من أفخم وأضخم فنادق اليابان، فخم لدرجة مروعة، وضخم بصورة مهولة ومخيفة. كان ينزل فى هذا الفندق اللواء أحمد القاضى مساعد وزير الداخلية فى مصر، وكان من المفروض أن يذهب معنا إلى السفارة المصرية.

كانت معه زوجته، وكانا مدعوين إلى نفس العشاء. وجاءت إلينا هناك آمال عبدالحكيم عامر زوجة حسين عبدالناصر وقد ذهبت إليها نفس السيارة التى حضرنا بها، بعد أن أوصلتنا نحن إلى السفارة. وقد شعرت أنها تتصرف وكأن نصفها أو أكثر لم يكن موجودا معها. كان زوجها قد سافر إلى القاهرة فجأة؛ من أجل حضور مؤتمر مصر

للطيران، ربما لم أجد زوجا وزوجة بينهما هذا الارتباط الروحى الذى يصل إلى حد الذوبان والتلاشى فى الآخر.

كان لقاء مصريا صرفًا ودائعيا، ففى اليوم التالى سيسافر اللواء القاضى وزوجته إلى بانجكوك، وأنا إلى القاهرة مباشرة. وحوالى منتصف الليل كنت فى الفندق بعد أن أوصلت آمال عامر إلى منزلها ولأنها ليلة السفر فقد أمضيت الوقت حتى الفجر ساهرًا. فى طوكيو من الصعب أن تشاهد خيوط الفجر الزرقاء تتلاقى مع ظلام الليل الدامس. الليل لا ظلام له فى طوكيو. إنه ليل مصنوع من الأضواء ومعجون بالصخب والضجيج.

كانت أمامى المهمة الصعبة؛ إعداد الحقائب من أجل السفر، وأنا لا أحب ترك هذه الأمور معلقة حتى اللحظة الأخيرة، خوفا من النسيان أو ضياع شىء فى بلاد قد لا أعود إليها بعد ذلك أبدا. لم تكن معى مشتروات كثيرة، كانت أقل من القليل. كان معى ملابسى وأشيائى. ولهذا لم يغمض لى جفن حتى كنت قد أعددت حقائبى للسفر وفتشت الغرفة تماما ـ وهذه عادة ثابتة عندى ـ ربما يكون قد تاه منى شىء فى الزوايا والأركان.

وعندما حاولت اصطياد لحظات نوم أغمض فيها عينى أكثر من كونى أنام، جاءنى مسرح الكابوكى، وما جرى فيه. لم تأت جلستى فى الصفوف الأمامية، ولكن فى المنتصف، ومعنى هذا أن هناك تذاكر ثمنها أغلى من تذكرتى التى اعتبرت ثمنها باهظا.

ومن تقاليد مسرح الكابوكى أن كل الفنانين لابد وأن يكونوا رجالا حتى الأدوار النسائية يقوم بها رجال. بعد أن يكون قد تم صباغة أوجههم بأصباغ ثقيلة وقاسية. والرواية التى شاهدت جزءا منها تقدم ثلاث مرات فى نفس العرض، مرة بالتمثيل فى البداية ثم مرة ثانية بالرقص وأخيرا بالغناء.

والقصة نفسها تبدو قريبة من هذه الأجواء، فالرواية تعود إلى العصور الوسطى فى اليابان، وتتكلم عن أمير هارب فى وسط الشعب حتى يسترد حكمه، ويهرب لدى صاحب مصنع لصناعة الملابس من الحرير اليابانى الطبيعى، ويندس فى وسط النساء العاملات، ولكن ابنة صاحب المصنع تكتشف أنه ولد، وتعرف فيما بعد أنه الأمير وتقع فى غرامه.

وعندما تشى إحدى العاملات بالأمير خلال فترة اختبائه ويجرى تفتيش دقيق. وقبل أن يصل رجال الشرطة إلى الأمير حيث إن مصيره كان هو الموت المؤكد. إذا بابنة صاحب العمل تتقدم من الشرطة، وتقول إنها هى الأمير الهارب، وبذلك يلغى التفتيش وتعدم

الفتاة باعتبار أنها الأمير المطلوب، وتنتهى المسرحية بعد خمس ساعات من العرض الذى لم أحضره حتى النهاية.

وفى الطريق إلى المسرح شاهدت مسرحا آخر أمامه طابور طويل فى انتظار أن تبدأ عاملة بيع التذاكر عملها. لفت نظرى أن الطابور كله من البنات أو السيدات باختصار طابور نسائى مائة فى المائة.

وعندما سألت عن هذه الظاهرة؛ عرفت أن هذا مسرح من نوع جديد اسمه مسرح البنات وكل العاملات فيه من البنات، من التأليف إلى الإخراج إلى الديكورات. وأغلبية اللاتى يدخلن هذا المسرح - إن لم تكن كلهن - من البنات أيضا.

سألت نفسى: هل هذا المسرح هو رد الفعل العصرى على مسرح الكابوكى القديم؟! ربما.

ـ اثنان وثلاثون ـ

طوكيو : وداع مؤلم وحزين
القاهرة : اشتياق يوجع القلب
نوبة رجوع إلى أحضان مصر

اليوم الأخير ..

الأربعاء ٢٤ من نوفمبر ١٩٩٣

هذا يومى الأخير فى اليابان. أسافر من طوكيو اليوم الأربعاء فأصل إلى القاهرة غداً الخميس، أليس ما أقوم به عبور من ناحية من العالم إلى الناحية الأخرى من الكرة الأرضية؟!

استيقظت فى هذا اليوم مبكرا جدا. هذا إن كنت قد نمت أصلاً فى الليلة السابقة. تناولت إفطارى فى الغرفة، مع كميات كبيرة من الشاى. منذ الأمس بدأت أعراض مرض السفر على. ماذا أفعل لنفسى مهما سافرت، لن أكون رحالة فى أى يوم من الأيام. البعاد عن الوطن مشكلة، والعودة إليه مشكلة أخرى. العلاقة بينى وبين المكان هى الأصل والأساس.

إن الاستعداد للذهاب إلى المطار، حتى إن كان من أجل السفر إلى الوطن ـ أو العودة إليه إن شئت الدقة ـ حيث العودة إلى دفء أحضان الأهل والأحباب والصحاب، يولد فى النفس حالة من الشجن وعدم الاستقرار، ربما يكون السبب فى هذا هو طول الرحلة غير العادية. إنه ليس سفراً.

خرجت من الفندق فى التاسعة صباحًا، تجولت فى الشوارع المحيطة بالفندق، كل نظرة ألقيها أدرك أنها النظرة الأخيرة لى على هذا المشهد، وكل خطوة أدوس فيها بقدمى أعرف أنها الخطوة الأخيرة فوق هذه الأرض.

كنت أتحرك على مهلى، أشرب المرئيات وأتذوق ما أسمعه ببطء شديد، توقفت أمام الفترينات، بدا لى وكأننى أرى ما أراه لأول مرة فى حياتى، كان علىَّ العودة إلى الفندق قبل الحادية عشرة والنصف صباحًا؛ حتى أحاسب قبل الثانية عشرة، وإلا سأدفع أجر هذا اليوم فى الفندق أيضًا، وهذا يعنى دفع مائتى دولار بدون جدوى؛ لأننى لن أبيت فى الغرفة.

طبعًا الناس هنا لا يعنيها كونى سأسافر اليوم من عدمه، حتى لو عرضت عليهم تذكرة السفر، والذى يؤكد موعد سفرى باليوم والساعة. كل أمر منفصل عن الأمر الآخر. كل ما يعنى إدارة الفندق، أن أترك الغرفة فى الحادية عشرة والنصف والباقى لا علاقة لهم به.

أمامى الآن ساعتان. من المفروض العودة إلى الفندق فى الحادية عشرة، وإنزال حقائبى من الغرفة، وأحاسب فى نصف الساعة تلك، ويبقى أمامى نصف ساعة أخرى قبل حضور كريمة إلى الفندق فى موعدها فى الثانية عشرة، حيث تبدأ إجراءات الرحيل إلى المطار، وفى الطريق من الفندق إلى المطار يكون إلقاء النظرة الأخيرة فعلا، إن البروجى يعزف الآن نوبة رجوع؛ حيث تبدأ مراسم العودة إلى الوطن.

جاءت كريمة فى الثانية عشرة تمامًا. كنت أعيش حالة من الغليان العاطفى والإنسانى؛ بسبب السفر، أما هى فقد بدت لى كما لو كانت تمارس عملاً من الأعمال اليومية؛ بدون لحظة انفعال واحدة. أنزلت الحقائب من الغرفة إلى الاستقبال، فى هذه البلاد نظام صارم، يمكننى أن أطلب من إدارة الفندق أن تنزل هذه الحقائب. وهناك من يقوم بهذا العمل بدون دفع بقشيش. «بدأت أتذكره فأنا الآن فى الطريق إلى مصر» ولكن لا أحب الاعتماد على الآخرين فى أى أمر من الأمور، خاصة وأننى فى لحظاتى الأخيرة فى هذه البلاد، وغير مسموح بأى خطأ.

وقفت أمام الخزينة لكى أسدد الحساب الأخير، وفى لمح البصر كنت قد سددت الحساب لأن الكمبيوتر هو سيد هذه البلاد. دخل فى كل المجالات وعشش فيها، لا أتصور مصير استخدامات الذهن البشرى بالنسبة لهؤلاء الناس، لا أحد يعتمد على ذهنه فى هذه البلاد.

بعد فترة من الوقت سيكون الكمبيوتر هو المتحكم الوحيد فى مصير هذه الجزر التى اسمها اليابان، وطوال إقامتى هنا لم أقابل من يصر على رفض الكمبيوتر تمسكا بالأصالة القديمة، ربما كان هناك هذا النوع من البشر اليابانيين ولكن كريمة ليست عندها تعليمات أن تجعلنى أقابلهم.

وأنا بطبعى أنفر من هذه الأجهزة والمعدات، وكلما زاد اعتمادى على إنسانيتى كان ذلك أفضل لى ألف مرة، أما هنا فالآلة هى التى ترصد كل شىء وتقوم بالمطلوب كله.

حاسبت، لم أدفع بقشيشا كما يحدث فى كل فنادق الدنيا، وأعطتنى الموظفة ورقة ألصقها على الحقائب حتى يتم إخراجها من الفندق. كان على الورقة رسم صغير قلت لابد وأن هذا الرسم معناه (خالص) أو أن الزبون دفع ما عليه بدون مشاكل.

ووسط نهر من الانحناءات اليابانية التى تكاد أن تفلق الحجر. هاأنذا أقف أمام الفندق، نفس المكان الذى وقفت فيه لحظة وصولى كانت هناك سيارة سوداء، مثل سيارات الوزراء فى بلادى. هذه السيارة ـ أقصد النوع واللون والفخامة ـ رأيتها مرتين، الأولى عندماحضرت من المطار، إلى الفندق وتعاملت معها باعتبارها من الأمور العادية، ولكن بعد رحلتى مع التاكسى فى طول اليابان وعرضه أستطيع أن أميز أى سيارة هنا من نوع خاص.

لم أسأل كريمة؛ لأننى أصبحت أفهم آليات التفكير اليابانى بدقة، إن الهدف هو الاحتفاء بى ولكن على الطريقة اليابانية التى تعمل وفق طريقة معينة تصل إلى حدود الرمز. وضعنا الحقائب فى شنطة السيارة الخلفية، وكانت كبيرة، وركبت من ناحية اليسار، وركبت كريمة من ناحية اليمين، وتم رفع الحاجز أمام السيارة وهى المرة الأولى التى اكتشف فيها وجود مثل هذا الحاجز.

نفس الرحلة ولكن بالعكس، من حسن حظى أن الرحلتين سواء فى الحضور أو العودة قد تمتا فى وضح النهار. المرة السابقة كنت أدوس بقدمى على أرض اليابان لأول مرة فى حياتى، كانت نظراتى تصافح الأشياء والناس والمرئيات. أما هذه المرة فإن نفس النظرات تلوح تلويحة الوداع لكل ما هو أمامى، كنت أقول فى خاطرى: الوداع لكل ما مثلته هذه البلاد لى من فرح وألم وحسرات.

الفرح إزاء هذه التجربة النادرة فى قرننا العشرين، تجربة نهوض كانت كل العوامل تقف ضدها، الطبيعة والبيئة عدم توافر المواد الخام المستخدمة فى الصناعة وبعد الأسواق عنها، ابتعادها عن مراكز الإنتاج والاستهلاك، الجرح الغائر والنهضة الكبرى فى قرن واحد، المصانع الهائلة ومتحف هيروشيما فى قرن وحيد، من كان يصدق؟!

والألم بسبب كل هذا البؤس الذى يعانى منه الإنسان فى هذه البلاد. إن هدير المصانع، وصوت عد النقود فى البنوك، والرنين العالمى للين اليابانى والتناطح رأسا برأس

مع أمريكا على الجلوس وحيداً فوق سقف الكون. ومع كل هذا كم يبدو الإنسان فى هذه البلاد تعيسًا، حزينا، متعبا.

أما الحسرات فهى ناتجة عن المقارنة الدائمة بين حالنا وحالتهم، نحن تعساء وحزانى ومتألمون ولكن بدون إنتاج، يجفف لنا الدموع، لا إنجاز لدينا. نحن جيل لم ير قضية واحدة من قضايا عمره تحسم وتصل إلى حلها النهائى؛ لدرجة أننى بعد هذة الرحلة لم أعد أتصور كيف تسير الأمور فى العالم العربى ومصر جزء منه، هل بالدفع الذاتى أم بماذا؟!

مما يدفع الأمر إلى شكل حد السكين أننا فى مصر بدأنا مع اليابان، التى انطلقت بسرعة الصاروخ بينما تعثرنا نحن. الدقة تدفعنى إلى القول إن مشروع النهضة المصرى بدأ فى النصف الأول من القرن التاسع عشر فى حين أن مشروع النهضة اليابانى بدأ فى النصف الثانى من نفس القرن؛ فَلِمَ اختلفت النتائج؟ لم تقدموا هم وتخلفنا نحن؟ أو على الأقل؛ لم اندفعوا إلى الأمام وظَلَلنا نحن (محلك سر)؟

وصلت إلى مطار ناريتا الدولى. فى طوكيو كان الطريق مزدحما بعض الشيء، وهكذا بدلا من الوصول من الفندق إلى المطار فى نصف ساعة، كان الوصول فى ساعة إلا ربع، وتذكرة الطائرة مكتوب عليها أننى من المفروض أن أنزل من السيارة أمام الباب رقم كذا.

كان زحام الطريق من الفندق إلى المطار عاديا فى مثل هذا الوقت من نهار عمل عادى، وقد أعطانى الزحام فرصة نادرة لتهدئة الجيشان الداخلى الذى كنت أشعر به، وإن كنا لم نتوقف فى الطريق فهذا لا ينتج سوى عن الحوادث فقط، ولكن كان السير بطيئا.

دخلنا المطار، وتوجهنا إلى «كاونتر» مصر للطيران وكان رقم الباب المكتوب فى التذكرة يوصل إليه مباشرة، وكنت قد أكدت حجز العودة إلى مصر. عندما زرت الطيار حسين عبدالناصر، مدير مكتب مصر للطيران فى اليابان والشرق الأقصى.

كانت المفاجأة الأولى أننى لم يكن ثمة حجز لى. ذهب بالى فوراً إلى أن الشركة مصرية، قلت لنفسى وأنا أعيش حالة من القلق المصرى، والإعجاب باليابان ها هى مصر تصل إلى قبل أن أصل إليها، بتحديد أكثر أقصد المصريين المعاصرين لى، فما ذنب مصر حتى أوجه إليها التهم الناتجة عن تصرفات أبنائها؟

أصابتنى حالة من الرعب، وكان هلع كريمة أكثر منى ألف مرة. بدأت أتصور بعين

الخيال، أننى سأعود مرة أخرى إلى طوكيو، وستكون هناك مشاكل بحجم جبل فوجى، الذى يصل ما بين الأرض والسماء، وإن حل هذه المشاكل قد يستغرق أسبوعًا على الأقل. رحت أتذكر موعد الطائرة القادم إنه الأحد، أى بعد أربعة أيام من الآن، والمشاكل يمكن أن تحل بسهولة من خلال جبر الخواطر والوساطة وربما الرشوة، وهذه الأمور لم أجدها هنا حتى وإن كانت موجودة فإننى ـ وفى حدود تجربتى ـ لم أجد نفسى معه وجها لوجه.

اشتبكت كريمة فى حوار مع مسئول «الكاونتر». وقفت أتابع المناقشة من خلال ملامح وجهها وما يطرأ عليه من مشاعر وأحاسيس، وعندما بدأ الانفراج سعدت. مع أن فكرة العودة إلى طوكيو كانت وعدا بمشاهدات أخرى جديدة لبلاد لم أشبع منها بعد، ولكنها كانت ستؤجل اللقيا مع الوطن أربعة أيام أخرى.

عرفت المشكلة، لقد حضرت من القاهرة لليابان بتذكرة من درجة رجال الأعمال. أما العودة فهى بتذكرة درجة أولى، وحيث إن موظف الكاونتر قد بحث عن اسمى فى رجال الأعمال ولم يجده، فاتجه إلى قائمة ركاب الدرجة السياحية، ولم يجده أيضا، وهكذا قال إننى ليس لى حجز، ولكنه فى اللحظة الأخيرة. قرر أن يبحث فى الدرجة الأولى، وكان اسمى هو الوحيد فيها وباقى المقاعد كانت خالية.

اعترضت كريمة، قالت إن تذكرتى من درجة رجال الأعمال، وإن مؤسسة اليابان هى وحدها صاحبة الحق فى تغيير درجة التذكرة، وإن المؤسسة لم تطلب هذا، وبالتالى فإن اليابان لن تدفع فارق الدرجة الأولى، ولن يجرؤ أحد على طلب هذا الفارق لأن اللائحة لا تنص عليه، ويعتبر استثناء لها، وأى استثناء هنا مرفوض.

كان مدير محطة مصر للطيران فى المطار قد وصل. ربما أتت به إلينا هذه الخناقة المفاجئة فى مكان شديد الهدوء. ما إن اقترب منا حتى تذكرت أننى رأيته فى مكتب حسين عبدالناصر خلال زيارتى له، وأن حسين قال له أمرًا ما وأشار إلى وأننى يومها تصورت أنها توصية علىّ عند السفر من اليابان.

قال الرجل بهدوء إن تغيير التذكرة هو قرار من مصر للطيران، وإنهم لن يطلبوا من مؤسسة اليابان مليمًا واحداً مقابل ذلك. نظرت لى كريمة بغيظ حقيقى، قالت لى إن تذكرتى أصبحت درجة أولى، وإننى الضيف الوحيد الذى حضر بدرجة رجال الأعمال، وعاد بالدرجة الأولى؛ والسبب فى ذلك أننى مصرى، وأن هذا التصرف لا يمكن أن يتم سوى فى مصر.

كان فى وجهها تعبير عن القرف، والرفض لما تم لم أفهم سببه وقد أنهت الإجراءات بسرعة، وسلمتنى خطابا أقدمه للمراحل التالية والتى مازالت متبقية فى المطار يفيد أننى ضيف مؤسسة اليابان، لأن التعليمات عندها تقول إننى ضيف مؤسسة اليابان، كان أهم ما قمت به هو التأكد من رقم البوابة التى سأخرج منها إلى الطائرة حتى لا أتوه فى أضخم مطار دخلته حتى الآن فى حياتى كلها.

لم يكن للمطار أول ولا آخر، مبنى تتوه فيه النظرات، ولكنها لا تستطيع أن تصل إلى منتهاه، لم أدخل مبنى بهذه الضخامة من قبل، ولكن أشهد أن العمل بداخله كان يتم بأكبر قدر من النظام ثمة قوة ما تدير العمل وتحرص على أن تبعده عن الفوضى. مع أن ضخامة المبنى لا تولد سوى الانطباع بفوضى قاتلة.

السوق الحرة مجموعة من الأسواق بجوار بعضها وفوق بعضها. سوق حرة من أدوار. إنه سوق يعكس مجتمع الوفرة. كل ما هو معروض توجد فيه كميات مهولة، أهرامات - والتعبير مصرى طبعا - من السلع والأجهزة المعروضة للبيع. فى السوق الحرة تعرفت على إنسان مصرى لا أقول إن اللغة كانت هى الوطن فى المنفى، أو وسيلة التعارف ولكن الشكل الخارجى هو الذى قاد كل منا إلى الآخر.

ورفيق الرحلة القادم، رفيق نوبة الرجوع إلى أحضان الوطن، هذا الرفيق تاجر من بورسعيد، يأتى إلى اليابان مرة كل شهرين. كان يتعامل مع الأشياء والناس والمكان بألفة من يعيش هنا، وهو يحضر إلى اليابان - هكذا قال لى - من أجل شراء «لوطات» - هكذا نطق الكلمة وأدونها كما قالها من باب إثبات جو كلامه. إنه يشترى الموتورات المستعملة سواء كانت مواتير سيارات ملاكى أو نقل أو موتورات ماكينات من أى نوع؛ رفع مياه، توليد كهرباء، ويبيعها فى مصر. قال لى إن الموتور الذى يعد نصف عمر أو جرى استعماله استعمالا خفيفا فى هذه البلاد، يعد موتورا جديدا وربما «زيرو» فى مصر.

بعد الشراء يشحن ما اشتراه على البواخر ويسافر هو بالطائرة؛ لأن شحن ما يشتريه بالطائرة غير اقتصادى، وكنت أنا الذى سألت عن نقلها بالطائرة؛ لأن الطائرة إن كانت تقطع المسافة فى كل هذه الساعات التى تساوى يوما وليلة، وربما تزيد على ذلك إن حسبنا فارق التوقيت بين القاهرة وطوكيو؛ فما بالك بالوقت الذى يمكن أن تستغرقه الرحلة بالباخرة؟

قال لى التاجر البورسعيدى: إنه من محاسن الصدف أن هذه البلاد فيها قوانين

صارمة، تحدد سنوات استخدام مثل هذه الأجهزة وبالتالى لا تظل تعمل حتى ينتهى عمرها الافتراضى، وتصبح كهنة لا تصلح لأى شىء.

سألته إن كان هناك تجار غيره يقومون بنفس هذه الرحلة. قال لى إن هناك كثيرين غيره، وإن كانوا لا يعملون على نفس الخط. هناك من يسافر إلى بلاد أخرى غير اليابان. أما هو فقد اختار اليابان بحثا عن المواتير؛ لأن اليابان تشكل مستقبل الصناعة فى العالم.

كان الرجل متأكداً وعنده يقين تام، وهو يقول لى إن كل شىء يتحرك فى عالم اليوم، بعد عشر سنوات من الآن لن يكون سوى يابانى. حسدته على هذا اليقين فى زمن لم يعد فيه يقين فى أى شىء. كان رفيق الرحلة الآخر مسئول فى مصر للطيران انتهى عمله فى طوكيو. وهو يعود الآن إلى القاهرة من أجل البدء من جديد. قال لى إن مصر للطيران تملك طائرتين من هذا الحجم الضخم القادر على القيام برحلات طويلة، واحدة تذهب إلى أمريكا والثانية تذهب إلى اليابان.

قال لى إن هذه الطائرة هى الوحيدة التى تقوم بالرحلة مباشرة، دون أن يغير الراكب الطائرة فى أى محطة من محطات الطريق. والطائرة تقوم بالرحلة مرتين أسبوعيا، مرة تبدأ من القاهرة يوم الثلاثاء وتعود فجر الخميس، وأخرى تبدأ السبت وتعود فجر الاثنين.

تصورت وأنا أستمع إليه أن فى الأمر قدراً من المغامرة، كيف تقوم طائرة واحدة بهذه الرحلة غير العادية مرتين فى الأسبوع؟ وأين الراحة والصيانة واسترداد العافية؟ إن الإنسان الذى يقضى هذا الوقت راكبًا لابد وأن يستريح بعد ذلك فترة لا تقل عن الأسبوع، قال لى إن الطائرة التى تسافر إلى أمريكا مرتين فى الأسبوع يحدث لها نفس الشىء.

التاجر البورسعيدى كانت تذكرته فى قسم رجال الأعمال، أما مسئول مصر للطيران العائد فقد كان معى فى الدرجة الأولى. ولم يكن فيها سوانا ـ أنا وهو ـ وإن كان هو معروفا للجميع فى الطائرة. أقسى ما فى السفر هو رحلات العودة. عند العودة يتجمع التعب، ويصل حتى إلى العظام، إلى النخاع فى قلب العظام. عندما يكون الإنسان مسافرا، يكون ممتلئا بحالة من الاندهاش والرغبة فى التعرف على كل ما هو جديد. ثمة غموض يدفع الإنسان إلى كل خطوة جديدة.

ولكن فى العودة لا جديد فى الأمر. لم يبق سوى التعب والإحساس بالتعب يتفوق على التعب نفسه أحيانا، وقد يبدو هذا التعب أمره هينًا لو كان السفر ساعة أو ساعات، أما يوم وليلة فذلك أمر قاس وصعب.

رحت أستعيد مشاعرى فى رحلة السفر. وأقارنها بما أشعر به الآن. كان الأمر مختلفًا. الآن لم يبق بداخلى سوى الشوق للوطن والتساؤل عما جرى فيه خلال غيابى. ربما كانت هذه الفترة من أطول الفترات التى غبتها عن مصر. ولكن كل الأمور تبدأ وتنتهى عند الإحساس العنيف والحاد بالتعب.

قالى لى مسئول مصر للطيران. إن هذا الخط يخسر كثيرا، ولكن لابد من استمراره فى العمل. هنا يتداخل الدور المصرى مع حسابات الربح والخسارة. ورغم أن الشركة من المفروض أن تكسب فى النهاية، مهما كانت الظروف. ولكن أدوار البلاد ـ خاصة عندما يكون البلد بلد دور مثل مصر ـ لها حسابات أخرى.

الحقيقة الجديدة التى لم أكن أعرفها أن عمل الطائرة بمكسب قليل أفضل من بقائها على الأرض؛ لأن تكاليف البقاء على الأرض ضخمة، ثم إن صيانتها بدون عمل مثل تكاليف الصيانة فى حالة العمل.

نفس الطريق ولكن بالعكس، طوكيو مانيلا، ومن مانيلا إلى بانجكوك، ومنها إلى القاهرة. فى مانيلا لم يكن مسموحا لنا بالنزول من الطائرة بقينا فيها الوقت كله. صعد إلينا الركاب الجدد. وكان هناك عمال نظافة من الفلبين صعدوا من أجل تنظيف الطائرة، عمال من العالم الثالث الذى ننتمى إليه، كل عامل نظافة وراءه رجل أمن، تناهت إلى ذهنى حكايات تبدأ من سرقة بعض الأشياء الثمينة وتصل فى النهاية إلى قصص خطف الطائرات. يلتقطون كل ما بين المقاعد وأسفلها بخفة ومهارة ودربة. يبدو أنهم يقومون بهذا العمل أكثر من مرة واحدة فى اليوم الواحد.

رحت أنظر إلى مانيلا من نوافذ الطائرة على البعد. كان الليل قد حل والقدرة على الرؤيا تبقى محدودة مهما كانت قوة النظر. لقد تحركت من طوكيو فى الثانية بعد الظهر، وها هو الليل ونحن على مشارف العاصمة الأولى.

أنا الآن فى حالة انعدام وقت وليس انعدام وزن. حتى هذه اللحظة لم أفهم بدقة فارق التوقيت بين مكان وآخر وهذا يحدث لى لثانى مرة فى العمر كله.

كانت المرة الأولى عندما سافرت من القاهرة إلى بيونج يانج عاصمة كوريا الشمالية والمرة الثانية فى رحلتى اليابانية. وقد تعبت فى المرتين بدون حدود من أجل الوصول إلى يقين بخصوص حركة الزمان، إن الفارق الزمنى بين طوكيو ومانيلا معروف، ولكن النهار

انطوى والليل جاء، وهكذا كتب عليّ أن أرى هذه المدينة مرتين ولكن فى الليل فقط. وهذا ما جرى بالنسبة لبانجكوك أيضا.

خلف هذا المطار توجد حياة تجرى الآن. حياة كاملة لا أعرف عنها سوى ما قرأته فى الكتب والصحف، وما رأيته فى الشرائط التى تعرض علينا. حيث الفقر الذى بدون حدود والغنى المخيف: مزارع الأرز ورجال أمريكا والانقلابات العسكرية، واغتيال رموز المعارضة علنا وتحت الشمس وحصار المسلمين اليومى.

من يرى بلوى غيره، هانت عليه بلواه. هكذا يقول المثل الشعبى الذى لابد من استيعابه. وأنا أشاهد على البعد هذا البلد الذى لم نر منه سوى الخادمات فى بيوت الأغنياء، الخادمات اللاتى يحصلن على أجرهن بالدولار. وعلينا أن نتوقع النتائج المترتبة على وجود مثل هذه الخادمات فى بيوتنا بعد سنوات. هذه الآثار المدمرة ستعلن عن نفسها من خلال سلوكيات الأطفال فى الزمن القادم. لابد وأن الأغنياء عندما يقرءون هذا الكلام ـ إن كانوا يقرءون أصلا ـ سيقولون (قصر ذيل يا أزعر). وأنا لا أكتب ما أكتبه من باب أى حقد طبقى ولكن من أجل صالح بلادنا أولا وأخيرا. وهذا يحدث فى بلدان الوطن العربى كله، حتى الفقيرة منها؛ لأن هذه الفقيرة فيها أغنياء يفعلونه.

لم يصعد أحد فى الدرجة الأولى. وطاقم الطائرة من المفروض أن يتم تبديله فى العاصمة القادمة حيث يظلون هناك فى فندق خمس نجوم لحين وصول الطائرة القادمة من القاهرة، بعد أربعة أيام بلياليها. إن مجرد أن تكسب شركة طيران، يُعد معجزة من المعجزات فى هذا الزمان، ولكن ما دام الطيران، يعنى فى النهاية أن قطعة من الحديد تحلق فى سماء الله العالية، يوما بليلة؛ لابد من توفير كل سبل الأمان لها.

هناك فارق بين آلة متحركة على الأرض، وأخرى تطير فى الجو، وثالثة تعوم على الماء. الخطر واحد فى جميع الأحوال ولكن درجة التعرض له تختلف من وسيلة لأخرى، وفى حالة الطيران ـ لا قدر الله ولا كان ـ عندما يقع حادث؛ فإن القتلى يعدون دائما بالمئات. ربما كان هذا هو السبب فى كل هذه الإجراءات الطويلة والمعقدة من أجل سلامة الطائرة.

المقارنة الدائمة والمستمرة هى بين الوقت الذى أنا فيه، ووقت القاهرة الآن وماذا يجرى فيها فى اللحظة نفسها. والنزول فى العواصم له ميزة أنه يقطع ملل الرحلة ولكنه فى نفس الوقت يضيف وقتا إضافيا لها. عندما كنا نركب القطار من قبل، كنا نقول عن القطار

الذى يتوقف فى أكثر من محطة فى الطريق إنه القطار القشاش. ولكن من الصعب القول عن الطائرة الأيرباص، أنها الطائرة القشاشة.

فى بانجكوك ودّعنا طاقم الطائرة والمضيفات ونزلنا - أنا والتاجر البورسعيدى ومسئول مصر للطيران - إلى المطار. كان الوقت قد أوغل فى الليل. كان الليل يخر عن آخره، ومع هذا كان المطار فى أحسن حالاته، ناس وبشر. من الوهم أن نصف الليل بأنه وقت السكون والنهار على أنه الزمن الذى تتحرك فيه الحياة، هنا ليل ومع هذا فهو هى أقصى درجة من الحياة والحركة، ولكن أكثر من هذا أن النهار يفرض نفسه الآن فى النصف الآخر من العالم.

شربنا شايا فى المطار. كل الأمور سهلة وبسيطة. فتيات يقفن فى كل مكان من المطار. يبدو أن البنات أكثر من الحاجة إليهن فى هذه البلاد، ولذلك لا تكتفى الدولة بتصديرهن إلى بلادنا بل يعملن فى كل الأعمال.

ومكان الترانزيت فى مطار بانجكوك واسع ومترامى الأطراف، ليس غرفة صغيرة ومحدودة مثل مطارات أخرى. ولكن هنا كافتيريا ومطعم وسوق حرة وتليفون دولى تتصل منه بكل بساطة بأى مكان فى العالم. أنت الذى تطلب الرقم وتتحدث ثم تذهب إلى شاب صغير تعطيه حساب المكالمة بأى عملة معك، ويبدو عليهم فى التعامل أنهم يثقون بك ولا يوجد من يتابع ما تقوم به، وهكذا اتصلت بالقاهرة أكثر من مرة مع أنه لم يكن هناك ما يبرر هذا الاتصال، ولكن سهولة الأشياء هى التى دفعتنى إلى هذا، ثم دفعت الحساب بالدولار، ولم يكن الحساب غاليا.

وقبل الموعد المحدد كنا فى الطريق إلى الطائرة من جديد. آخر مكان ينزل فيه الإنسان فى الغربة. والقادم بعد ذلك مباشرة تراب مصر أم الدنيا. القاهرة التى لم تعد قادرة على أن تقهر أحدًا، عموما غمة وتزول.

كان عدد الركاب الذين صعدوا إلى الطائرة ضخما، ربما أكثر من العدد الذى استقلها من طوكيو، ولكن الذى حدث أن موعد تحرك الطائرة جاء ولم تتحرك، سألنا هل هناك عطل قالوا لا وعلى الطريقة المصرية، كلمة من هنا وأخرى من هناك، وعرفنا أن الطائرة فى انتظار شخصية مهمة، ولن تتحرك إلا عندما تصل هذه الشخصية إلى الطائرة مهما كانت الظروف. وهكذا تطاردنا مصر حتى ونحن فى هذا المكان البعيد عن مصر، تصرف

مصرى مائة فى المائة، المسئولون الوحيدون الذين يؤخرون مواعيد الطائرات هم المسئولون العرب، ربما كان المصريون أقلهم ولكن هذا يجرى فى مصر أحيانا.

فجأة، هجمت تجريدة على الطائرة سبقتها بضائع احتلت كل مكان فى الدرجة الأولى رغم المسافات الفارغة فيها. كرتون ممتلئ عن آخره. حتى الورد الصناعى لم يغفل أمره أحد، وعلى طريقة مسرحيات القطاع الخاص الهزلية، كان آخر الواصلين رجل فى نهاية العقد الخامس من عمره. لم أعرفه ساعتها وحاولت أن أكتم فضولى بقدر الإمكان.

كانت مع الرجل الكبير - هكذا كانوا يصفونه - فتاة صغيرة فى السن، تصلح لأن تكون ابنة ولكن ربما كانت على طريقة هذا الأيام زوجته. زوجة صغيرة تبدد ملل أيام الشيخوخة القاسية. كان معه عدد كبير من الناس، ملئوا المقاعد الخالية فى الدرجة الأولى كلها.

يبدو أنهم جميعا من مدمنى ركوب الدرجة الأولى فى الطائرات، وقبل أن تتحرك الطائرة من فوق الأرض. كان كل واحد منهم قد خلع البالطو أو الجاكت وعلقه فى مكان لم أعرفه من نفسى، وكان لابد من إرشاد المضيفة لى حتى أعرف مكان هذا الدولاب الذى تعلق فيه البلاطى والجاكتات.

انطبعت صورة الرجل الكبير فى الذاكرة وقد تتبعت ملامح الرجل - التى لا تنشر أبدا - حتى عرفت صاحبها والموقع الحساس الذى يحتله فى سلم الوظائف العليا فى مصر. سألت نفسى إن كانت جماعة الرجل يحملون فى أيديهم كل هذه الأشياء التى زحمت المكان الذى نجلس فيه، فما بالك بالبضائع والحقائب التى لابد وأنها موجودة الآن فى مكان العفش فى بطن الطائرة؟!

وصلنا وقت الفجر إلى مطار القاهرة الدولى، كانت هناك سيارة مرسيدس سوداء تقف تحت سلم الطائرة. وكان الضباب يحتل الأركان، تجده فى أى مكان تنظر إليه، ركب الرجل الكبير السيارة وركبت معه الفتاة الصغيرة التى لم تفارقه لحظة واحدة منذ وصولهما إلى الطائرة. أما باقى قبيلة الرجل الكبير فقد كانوا معنا فى الأتوبيس الذى ينقل الركاب إلى حيث صالة الوصول. كان الكل متعبا لحد الموت؛ فلم يلاحظ أحد ذلك سواى.

قرأت الآية الكريمة: ﴿ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين﴾ دخلت بسرعة، هذه من المرات النادرة التى يصلنى معنى هذه الآية بكل ما يحمله من دلالات رغم التعب والضنى

والإرهاق، تمثلت كل حرف فى الكلمة. دخلت المطار بسرعة. هذه بقايا ليلة توشك أن تنتهى، والنهار الذى لم يطلع بعد لم يأت بزبائنه حتى هذه الساعة المنسية، الساعة التى تقع على مشارف ليل ونهار.

وصلت إلى الجمارك. الكل يحاول طرد النوم من عينيه. يفركون السهاد والسهر. فى مدخل صالة الجمارك كانت عدة عربات محملة بالبضائع التى لا أول لها ولا آخر، قال واحد: لو كانت أقمشة فإن نيران الدنيا لن تكفى لحرقها، هكذا يفكر المحرومون ومعهم الحق فى الذين معهم ما يزيد على أى احتياج لهم. بل يزيد على ما يريدونه من الدنيا.

قال آخر: إن من يشترى هذه الأشياء لابد وأن ينزل السوق لحظة بكرة الشمس، ويظل فيه حتى رحيلها، ويكرر هذا أسبوعا كاملا، لا يتعب ولا يكل ولا يهمد. كان هناك صف من المسئولين حول طابور العربات المحملة بالبضائع، وكانوا جميعا يرتدون نوعا واحدا من الملابس - زى موحد ربما - وهمس الذى يقف على رأس الطابور؛ لابد وأنه أهمهم جميعا بكلمة واحدة. قال فيها اسم الجهاز الذى يرأسه الراكب الذى انتظرته الطائرة فى مطار بانجكوك وقتا طويلا.

وهكذا مر طابور العربات. يدفعها قول من الموظفين، والحسرات تطل من أعين الناس العاديين، عرفت اسم الجهاز ومضيت فى صمت، فكرت فى الكلام مع موظف الجمارك ولكنه كان موظفا صغيرا، يجلس الآن فى اللحظات الأخيرة من ورديته، ينتظر أن يسلم ويعود إلى بيته، فما ذنبه أن أحمله مسئولية أمر أكبر منه ولا علاقة له به من قريب أو بعيد؟

لقد دخلت القاهرة هذه المرة، وأنا أشعر بالخجل من أننى مصرى. حاولت أن أبحث عن لحظات الفخر بمصريتى ولكنها تاهت منى، لم أنجح فى العثور ولا على لحظة وحيدة.

كل ما تمكنت من تذكره قصة سمعتها فى اليابان حتى لو كانت من الأساطير اليابانية فإن مجرد إعادة ذكرها - مرة أخرى - يعكس الرغبة فى التعلق بشكل طاهر وغير فاسد للحياة.

سمعتهم يقولون إن شقيق الإمبراطور جاءته رسالة من القاهرة. هدية من صديق مصرى له. والهدية كانت عبارة عن قفص من البرتقال (أبو صرة) التى ترد الروح ولأن القوانين فى هذه البلاد تمنع دخول أى مواد غذائية من الخارج؛ فقد تسلمت إدارة الحجر الصحى فى المطار الرسالة وشكرت مرسلها وأعلمته بوصولها إليها.

ولكن الرسالة لم تصل إلى شقيق الإمبراطور، الذى لابد وأن يضرب المثل بنفسه فى احترام قوانين البلاد، بل لابد وأن يطبق القانون عليه أكثر من المواطن العادى. أعرف أن اليابان فيها قدر كبير من الفساد، ولكن مجرد شيوع هذه القصة فى اليابان يعكس الرغبة فى البحث عن شكل أنظف للحياة اليومية.

أعود إلى إحساسى تجاه مصريتى. وأول مفردات هذا الخجل سببها أن الآية الكريمة التى تطلب منا دخول مصر آمنين تعطى الإحساس بالسكينة والهدوء. ولكن تعالوا نرصد ما نلاقيه تحت هذه اللافتة أو بعدها.

فى كل مرة أصل إلى ضابط الجوازات؛ ينظر إلى من العلبة الزجاجية التى يجلس بداخلها، يتفحصنى تفحص الحاكم للمحكوم، نظراته تقول لى: كل إنسان متهم حتى وإن ثبتت براءته. ينظر إلىّ من عل، وآسف لأن الجملة تعود إلى بلاغة الزمان القديم ولكنها الأقدر على وصف الحال الذّى أنا فيه الآن.

ينظر الضابط إلىّ، يحدق فى وجهى، ويقارن بين هذا الواقف أمامه والصورة الملصقة فى الجواز. ويرمى الجواز بدون رحمة أو احترام، أو حتى رغبة فى التعاطف معه، يرميه للموظفة الجالسة وراءه والتى تفحص بياناتى على جهاز الكمبيوتر. هذا الجهاز أسرع من الطريقة القديمة حيث كانوا يأخذون الجوازات، ويذهبون إلى مكتب فى الداخل لا نعرف عنه أى شىء، ثم يعودون أو لا يعودون.

الموظفة تكشف عن الاسم. ورغم طول الرحلة والتعب والشوق للوطن فإن الكلمة التى طبعت باللون الأحمر كانت «مطلوب فورا». إنها المرة الأولى التى أعرف فيها أن هناك كمبيوتر بالألوان الطبيعية، وهذا يعنى عرض الجواز على مكتب الأمن، لابد من العودة إلى المكاتب مرة أخرى وكأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا. وهكذا أصبح حتما علىّ الانتظار.

انتظار لحين الانتهاء من عرض الجواز على مكاتب الأمن فى المطار، بالتحديد مكتب أمن الدولة، رحت أتذكر الآية القرآنية الكريمة التى هى أول ما تشاهده لحظة الدخول إلى الوطن، الآية تقول مرحبا، تطلب منى دخول مصر آمنا، ولكن التصرف كان له منطوق آخر؛ يطلب من الإنسان العودة مرة أخرى من حيث جاء.

الساعة تقترب من الخامسة صباحا، لا يوجد فى المطار الآن إلا من هو نوبتجى فقط. أما الذين نعرفهم، فهم فى أسرتهم الآن، يغطون فى نوم عميق.

أعترف أن هذا جرى لى من قبل أكثر من مرة، وفى كل مرة وبعد الكشف، كانوا يحضرون لى الجواز ويعتذرون عن هذا الخطأ غير المقصود، ويقولون بكل بساطة: إن الأمر لا يخرج عن كونه تشابه أسماء، خاصة وأن اسمى الأول محمد، وهو من أكثر الأسماء تداولاً فى مصر، والاسم الثانى: يوسف، وهو اسم متداول أيضا، وإن كان أقل من الأول.

عندما وقفت فى انتظار الجواز أعد نفسى للمفاجأت التى يمكن أن يسفر عنها الموقف، تذكرت أن مكاتب هيئة الاستعلامات ووكالة أنباء الشرق الأوسط وجميع الصحف والمجلات مغلقة بالضبة والمفتاح.

صديقى اللواء محمد تعلب ـ مدير أمن المطار ـ والرجل الذى أعرفه منذ سنوات، واعتبره أحد الاستثناءات فى عالم ضباط الشرطة فى مصر، لا يمكن أن يكون موجودا فى مكتبه، هل يتصور أحد أن اللواء تعلب يجلس هنا، فى أعلى مكتب فى المطار يستمع إلى موسيقى بيتهوفن وتشايكوفسكى؟ أين هو حتى يخرجنى من هذه الورطة؟ وإحساسى بالتورط ناتج من قدر وحجم ونوعية التعب الذى أعانى منه بعد هذه الرحلة الطويلة.

وهكذا جاء الاستهلال الأول للحظة العودة إلى الوطن. إن المصرى يقضى نصف عمره فى البحث عن الحصول على حقوق ثابتة ومؤكده له، إنه يلجأ إلى الاستثناء بحثا عن الحق، مع أن الواسطة من المفروض أن تتم من أجل الحصول على كل ما هو ليس حقا من حقوق الإنسان، ولكن مصر لها ظروفها الأخرى المختلفة عن أى بلد آخر.

كان من المفروض أن أكون خارج المطار، وأنا أهتف «والله زمان يا مصر»، كان من المفروض أن أرتمى فى أحضان الوطن، ولكن بدلا من كل هذا هاأنذا أتوقف فى منتصف المسافة، بين الوطن ومدخله وأبوابه، باحثا عن براءتى من تهم لا أعرف عنها حتى أسمائها.

جواز سفرى لونه أخضر غامق، ولكنى أضعه فى إطار أسود، من باب أن يتميز عن الجوازات الأخرى فأعرف حركته فى مثل هذه المواقف الصعبة، أراه وهو داخل إلى حيث يذهبون به وألمحه فى لحظة خروجه. ويصل إلىّ الجواز أو أصل أنا إليه. وإن كان الضابط مهذبا فإنه يعتذر لى عن هذا الإجراء هذه المرة لم يكن مهذبا ولذلك فهو يرمى لى الجواز وكأنه، يتصدق علىّ بإعادته لى بعد الوقت المفروض بدقائق «لم تكن دقائق أبدا».

يتساءل الضابط: وماذا فى الأمر؟ كم من الساعات تضيع منا؟ ويكمل فى صلف: قدر أنك ربما كنت تقف الآن فى إشارة مرور فى الطريق من المطار إلى بيتك؟ وأرد ولكن فى نفسى: وحتى هذه الإشارة تكون ـ فى العادة ـ من صنعكم.

وما أن يخرج الإنسان من قلب المطار حتى ينسى كل ما جرى له بداخله. يقول: والله زمان يا أم الدنيا. كان المكان هو الصباح الباكر والبكر. والزمان هو: أول أرض من مصر أدوس عليها.

كنت أرغب فى أن أقبلها بدلا من أن أدوس عليها. فتلك أول وآخر الأرض بالنسبة لى مهما سافرت وعدت. مهما رأيت وعاشرت تبقى مصر، هى المكان والزمان قبل أن تكون الأهل والسكن.

يـوم العـــودة ..

الخميس ٢٥/ ١١/ ١٩٩٣

محمد حسنين هيكل

أكتوبر السلاح والسياسة .

مبارك وحسين يبحثان دفع جهود السلام وتنقية الأجواء العربية والعلاقات الثنائية .

مبارك يناقش القانون الجديد للثانوية العامة على مدى ساعتين . القانون يتوسع فى المواد الاجتماعية .

رسالة لمبارك من عرفات حول التطورات الراهنة .

الرئيس الفلسطينى يطالب بالانسحاب الكامل من غزة وأريحا .

وزير المالية : الضريبة الموحدة تخفف الأعباء الضريبية عن العاملين .

سوزان مبارك : القراءة ممارسة يومية لجيل جديد يواجه عالمه برؤية واضحة وأفكار واعية .

كوبرى على القناة لخدمة التنمية فى سيناء .

مجلة فرنسية : تقلص الحلم الأمريكى والتناقضات الداخلية تمنعان أمريكا من زعامة العالم .

سينما :

مرسيدس : يسرا فى أجمل أدوارها .

ومن إخراج يسرى نصر الله .

رئيس بالصدفة .

فتاة صناعة أمريكية .

بوابة إبليس : مديحة كامل ، محمود حميدة .

فاتن حمامة : أرض الأحلام .

حديقة الرعب : الديناصورات .

فى التليفزيون : ظهراً : ليلة الحنة .

شادية - كمال الشناوى - وإخراج أنور وجدى .

بعد الظهر : الأونطجية .

سهير البابلى - عفاف شعيب - سعيد صالح - صابرين - أحمد مرعى .

إخراج : سيد طنطاوى .

السهرة :

شاويش نص الليل

فريد شوقى - آثار الحكيم - إخراج حسين عمارة .

سهرات الخميس : ليلة الجمعة

رمسيس الهرم - تكييف مركزى .

أركان فؤاد - والراقصة نشوى .

البلفدير يقدم : لوسى بعد عودتها من الخارج .

قرينة الرئيس تفتتح معرض القاهرة الدولى العاشر لكتب الأطفال والحفل الختامى لمهرجان القراءة للجميع .

ويصدر من مجلة علاء الدين عدد خاص .

يكتب نجيب محفوظ فى زاويته الأسبوعية فى الأهرام عن موقف الغرب من الإسلام .

ومسرحيتى :

على بلاطة .

وطبيخ الملائكة .

برنامج أوسكار تقديم سناء منصور يعرض فيلم شجاعة .

بطولة: صوفيا لورين ـ وبيرى دى وليامز

وإخراج: جيرمى كافان

الزعيم ما يزال زعيما

شارع الهرم. ومن أجل الذين ينامون مبكرين. قرر عادل إمام تقديم حفل ماتينيه ٣ مرات أسبوعيا.

حب فى التخشيبة

جورج سيدهم ـ دلال عبدالعزيز ـ هشام عبدالحميد

يوسف معاطى ـ سمير سيف.

تتجوزينى يا عسل

ويبدو أنها لم تتزوجه حتى الآن.

د. يونان لبيب رزق يكتب:

يوم حريق الأهرام.

الحوادث العجيبة فى الأزمنة الغريبة:

القبض على لصين والبحث عن ثالث حاولوا السرقة بالإكراه.

إحالة الشكاوى المتبادلة بين وزير البترول السابق وصحيفة الشعب لنيابة أمن الدولة.

إصابة ٥ من رجال الشرطة و١٤ سجينا فى مصادمات سجن الحضرة فى الإسكندرية.

طالبته زوجته بإحضار الإفطار فقذفها بموقد كيروسين وماتت محترقة.

يزور شهادة ميلاد ابنته القاصر لتزويجها من فلسطينى يعيش فى القاهرة.

سقوط الضبع الأسود بالشرقية، فرض سطوته على أهالى المنطقة وحول أرضه إلى مزرعة بانجو.

بسبب الشبورة:

مصرع ٤ وإصابة ٢٤ فى ٦ حوادث بثلاث محافظات، رجل وامرأة شكلوا عصابة وسرقوا ٢٠ شقة بالقليوبية.

مفقودون :

تغيبت الحاجة نوال محمد عبدالمجيد ٦٣ سنة . وهى مصابة بفقد الذاكرة . من يجدها يتصل بـ تليفون ٣٤٦٧٢٦٥ أو بالعنوان التالى :

٩ شارع ١ عمارة ٢ عمارات الأوقاف . خلف نادى الزمالك أمام المخبز الآلى .

ذكرى الأربعين للمرحوم : عازر توفيق غريال التاجر بأبو تيج .

شريك حياتى . لطيبة القلب عشت . وبمحبة الجميع تمتعت . وبإرادة الله انتقلت . فهنيئا بالفردوس .

زوجتك .

حرب الفراولة والجراج يمثلان مصر فى مسابقة مهرجان القاهرة السينمائى الدولى .

رئيس مجلس الشورى د . مصطفى كمال حلمى ـ وصفوت الشريف وزير الإعلام .

حضرا حفل زفاف يسرا أبوالعز صغرى حفيدات فضيلة المرحوم أحمد حسن الباقورى . أشهر وزير أوقاف مصرى .

كما حضره أيضا أمين بسيونى رئيس مجلس أمناء اتحاد الإذاعة والتليفزيون .

أحمد فتحى سرور وفاروق حسنى .

وحسين كامل بهاء الدين وحسين مهران .

يفتتحون قصر ثقافة سوزان مبارك فى زينهم .

نجاة عاطف صدقى من محاولة آثمة إرهابية لاغتياله قرب منزله بمصر الجديدة .

الإرهابيون وضعوا عبوة ناسفة أسفل سيارة تقف فى مكان بين مدرستين للأطفال .

استشهاد تلميذة وإصابة ١٨ مواطن بينهم ٤ تلاميذ من مدرسة المقريزى .

رئيس الوزراء : سنواجه الإرهاب بكل الحسم والقوة ولن تجدى المحاولات اليائسة لهز الاستقرار فى مصر .

مجموعات الإرهاب المنفذة تقف وراءها مجموعات للتنظيم والحكومة لن تتهاون فى ردعها .

الدولة ستقدم التعويض لأسرة الفتاة الشهيدة وكل أنواع علاج المصابين .

جهود أمنية مكثفة لضبط الجناة .

مبارك يتصل بصدقى مرتين .

أول اتصال لصدقى من سيارته بوزير الداخلية اللواء حسن الألفى وإبلاغه فورا بما حدث .

النائب العام يعاين سيارة رئيس الوزراء .

الرئيس يأمر بعلاج الطفلة ندا فى الخارج .

الرئيس يطمئن على صحة المصابين .

التلميذة الشهيدة شيماء محمد عبدالحليم . كانت تؤدى امتحان اللغة العربية .

رئيس الوزراء يروى تفاصيل الحادث .

التقرير المبدئى لخبراء الأدلة الجنائية :

العبوة تزن ١٠ كليو جرامات تم تفجيرها عن بعد .

تنظيم الجهاد يعلن مسئوليته عن الحادث .

الحظ : بهجة ومتعة وسعادة فى رحلة أو زيارة .

وفى مثل هذا اليوم ولد محمد طلعت حرب سنة ١٨٦٧ .

وتوفى وزير التعليم الأسبق على عبدالرازق . سنة ١٩٨٢ .

وتوفى سنة ١٩٨٣ آخر مندوب سامى بريطانى فى فلسطين وهو الجنرال السير : إيڤلين باركر عن ٨٣ عاما من العمر .

المحتــــوى

الإهــــــداء ٥
المصافـحة الأولى ٧
واحد : ستة شهور من الاستعداد للزحف الطويل ٢١
اثنان : يوم وليلة فى سماء الله العالية ٣٥
ثلاثة: لابد من طوكيو وإن طال السفر ٥١
أربعة: طوكيو لأول مرة.. زحام منظم ووفرة ٦٠
خمسة: إن كنت فى اليابان فـتصرف كأهل اليابان ٦٩
ســــتة: وهكذا أصبحت نصف مليونير فى غمضة عين ٧٩
عرب هنا.. وعـرب هناك ٨٠
سبعـة: اليابان يمكن أن تقول لا ٨٣
رسالة من أوشين.................... ٩١
ثمانية: أســرع قطار فى العالم ٩٤
عبدالمنعم تليمة ١٠٣
كارت لكل مواطن ١٠٤
جامعـة بدون أبواب ولا أسوار ١٠٦
تسعة: ظهور شـهرزاد فى اليابان ١١١
نهاية الفصحى ١١٦

طه حسين ونجيب محفوظ وصلاح أبوسيف وشادى عبدالسلام وآخرين ١١٩
السندباد لم يصل إلى أوزاكا ١٢٣
عشرة: ذاكرة لا تقبل العزاء ١٣٠
حمامة بيضاء وشجرة خضراء وامرأة ١٣٧
الجرح الذى أصبح متحفا ١٤٠
حادى عشر: إنها الحياة ١٤٣
الزواج على الطريقة اليابانية ١٤٤
ميــــلاد ١٤٦
الموت ووهم الخلود ١٤٧
ثانى عشر: عاصمة الروح ١٤٩
آثار لا .. ثروة وطنية نعم ١٥٣
ثالث عشر: كل إنسان يمكنه أن يكون بوذا ١٥٩
رابع عشر: لا مصر إلا مصر ١٦٥
خامس عشر: بلاد الشمس الغاربة ١٧٣
سادس عشر: تساؤلات يابانية .. تفاحة آدم فى فمى ١٨٠
سابع عشر: وأحزان مصرية ١٨٩
ثامن عشر: فساد.. وشركات.. وحكومة ١٩٨
تاسع عشر: جحيم اسمه الأسواق ٢٠٢
عشرون: لقاء مع عبدالناصر فى طوكيو ٢١١
واحد وعشرون: خريطة الأديان فى اليابان ٢١٨
اثنان وعشرون: اليابانيون يدخلون قريتى ٢٢٦
ثلاثة وعشرون: عندما قابلت أبى فى جامعة طوكيو ٢٣٥
أربعة وعشرون: هنا عاش صديقى كاوباتا ٢٣٩
خمسة وعشرون: عندما مشيت وسط السحاب ٢٤٩

ستة وعشرون: راقصة أيزو ٢٥٣
سبعة وعشرون: زيارة جريدة توزع ٢٠ مليون نسخة ٢٥٩
ثمانية وعشـرون: لابد من خروج اليابان من هذه الحالة، ولكن إلى أين؟!....... ٢٦٦
تسعة وعشـرون: مصر التى تمشى وراء اليابان ٢٧٥
ثـلاثـون: العشاء الأخـير فى طوكيو ٢٨٠
واحـد وثلاثون: أطول يوم فى الرحلة ٢٨٥
اثنان وثلاثون: طوكيو: وداع مؤلم وحزين ٢٩٤
يـوم العـــودة.. .... ٣٠٩

رقم الإيداع ٢٠٠٠/١٧٥٥٠
الترقيم الدولى 9 - 0671 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة ٨٠ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧٠ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ـ هاتف . ٣١٥٨٥٩ـ ٨١٧٢١٣ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

مفاكهة الخلاّن في رحلة اليابان

إن الإحساس بالصدمة هو القاسم المشترك بين الرحيل إلى بلاد السوفييت في ساعة اشتراكيتها الخامسة والعشرين، ورحلتى إلى اليابان، وهكذا كان كتابى الأحمر عن البلاد التى أعطت اللون الأحمر بعدا سياسيا وصدرته إلى الدنيا كلها، وعندما وقف على أبواب القبول في أماكن كثيرة من عالم اليوم، بدأ السوفييت يزيلون هذا اللون من حياتهم. ومن نبع الصدمة الحادة خرج هذا الكتاب، من السؤال الحارق الذى لم يترك لى سوى الأرق والقلق والإحساس باللاجدوى فى كل لحظة قضيتها فى اليابان، وبدلا من العثور على الإجابة، عدت بيقين أن مشاكلهم ناتجة عن التقدم المذهل واللامحدود، وأن همومنا هى ابنة التخلف الذى من كثرة تعايشنا معه، وتآلفنا مع مفرداته لم نعد ننظر إليه على أنه تخلف. ويبدو لى أن الإنسان كائن آفة عمره الأساسية هى القدرة على التكيف والتعود والتآلف حتى مع التخلف.

وهكذا كان هذا الكتاب الخارج من رحم الصدمة، وأملى الوحيد أن يحدث للقارئ هذه الصدمة نفسها، وفى هذه الحالة فقط، أكون قد حققت بعض ما أهدف إليه.

يوسف القعيد

دار الشروق
القاهرة: ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص.ب: ٣٣ البانوراما - تليفون: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس: ٨١٧٧٦٥ (٩٦١)